

اقرأ

الدكتور أحمد حماد الحسينى

هجرة الحيوان

هجرة الحيوان

الدكتور
أحمد حماد الحسيني

هجرة الحيوان

اقرأ ١٨١

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٨١ – يناير سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

مقدمة

ما أعظم ما تفعله الحياة بالكائن الذى تسكن فيه ، إنها تدفع به دفعاً ، ولا بد له أن يستجيب ، فإن لم يستجب فما أسرع ما تهجره الحياة ليتحول إلى جماد فتتلقفه الطبيعة لتدفع به إلى الموج يتقاذفه أو تلقى به فى فجّ عميق لتذروه الرياح إلى مصير مجهول . فمظهر الحياة الأول هو الحركة ، لا غنى للحيوان عنها ولا يوصف إلا بها وبقليل من المظاهر غيرها . وهى فيه منذ الأزل خلقت معه فانطبع بها . وهى تنقله على هذه الأرض أذرعاً حيناً وفراسخ أحايين أخرى على قدر ما يحتاج إلى هذه الحركة .

فمن الإنسان ما لا يستكن أبداً ، ألا تراه كلما سمت نفسه ودفع به الطموح اندفع من مكامنه ، من دوره الآمنة يوماً ، يضرب فى الأرض بعصاه لعله واجداً مستقراً أرحم به ينفسح الرزق له فيه ، أو ربما يكون هذا السعى من أجل إشباع نفسه لا من القوت ، وإنما من أجل المعرفة بالمجهول . فهذا يستهوى من البشر أشجعهم وأعلاهم نفساً . فذلكم ماركو پولو وماجيلان وابن بطوطة وخريستوف كولمبس وأمندسن وسكوت ، لكل منهم

جولات عظيمة كشفت للبشر كثيراً مما خفى عليهم ، وإن كان بعض هؤلاء قد دفع حياته ثمناً لمخاطراته العديدة فى بقاع لم تطأها قدماه من قبل وسط قبائل محبة للحرب ووحوش لاعهد له بها ، وميكروبات تهد من كيانه ، بل وأجواء تعصف به عصفاً .

ثم ألا ترى إلى النمل يسعى ويكد سحابة يومه ليهدأ حيناً فى مساكنه ، أو إلى العصافير تقضى نهارها متنقلة من فنن إلى فنن مفتشة عن الحب أو متطلعة ببصرها إلى السماء والأرض خشية من عدو يتربص بها ، ثم إذا هى بعد نهارها تنزوى فى أعشاشها إلى صباح مشرق جديد .

ذلكم هو التجوال اليومى ، لازم للحيوان لا غنى له عنه ، ولا تقعده عنه إلا علة قد تقضى عليه ، ولكن للحركة فى الحيوان مظاهر أخرى ، فانظر إلى حيوانات السهول والبرارى من خيل وظباء ، وما أشبه ، إنها تتجمع كل حين قطعاناً لا يحصى العد أفرادها ، تهجر مساكنها وأوطانها إلى مساكن أخرى ، ثم ترجع الكرة إلى مساكنها الأولى بعد حين .

ومن قبائل بنى الإنسان ما يسلك سبيل الحيوان فى الترحال . وقصة قريش على ما وردت فى القرآن الكريم تذكرنا برحلة الشتاء والصيف إلى اليمن والشام كلما أقبل عليهم البرد القارس أو الحر اللافح ليتاجروا بين البلدين ، وهكذا أطعمهم الله من جوع

وآمنهم من خوف .

ولكن انظر إلى تلك الأسراب من الطيور فى الربيع والخريف خاصة ، إنها تحلق فى الفضاء ، وقد انتظمت فى صفوف بديعة . تلك الأسراب هى لطيور تسعى ، إما فى رحلة الشتاء أو فى رحلة الصيف ، رحلة قد تمتد عشرات الأميال ، وأحياناً مئات بل ألوف الأميال ؛ تنتقل فيها من أصقاع نائية فى الشمال إلى غيرها عند أقصى الجنوب ، أو العكس ، أى من الجنوب إلى الشمال . إن بعض هذه الطيور ينتقل فى رحلة الشتاء من شمال أوروبا إلى جنوب إفريقيا فيخترق قارتين كبيرتين ... رحلة طويلة ، بل هى شاقة مضنية . . . وما ينقضى فصل الشتاء فى الشمال حتى تعاود تلك الطيور الكرة فى رحلة الصيف ، من جنوب إفريقيا إلى شمال أوروبا فتسلك نفس الطريق الذى سلكته من قبل ، فلم يرهبها هذا الطريق ، بل هى تقبل عليه تواقة إلى الشمال لترجع إليه فى تاريخ ثابت .

هاتان الرحلتان اللتان تقوم بهما تلك الطيور مظهر من مظاهر الحركة ، ولكنها حركة جد مختلفة عن الحركة التى قدمنا لك عنها فى التجوال اليومى . إنها الهجرة . ومظهر الهجرة فى تلك الطيور هو فى الرحلتين بين الشمال والجنوب ورجوعاً ، لا تظنن أنهما هينتان أو أنهما نزهتان كما نقوم نحن بالرحلات فى حدود

بلد أو بين بلدين . فكم من الطيور القائمة بها تقضى فى رحلة أو أخرى ، وكم منها ما يضل الطريق فلا يصل أبداً ، إذن ما الذى حدا بتلك الطيور إلى ركوب الصعب فى رحلتين شاقتين بين شمال الأرض وجنوبها ؟

وليس الطير فى سمائه أو الوحش فى سهوله وبراريه يتجول أو يهاجر من صقع إلى آخر لسبب أو آخر ، سنفصله فيما بعد ، ولكن الأسماك أيضاً فى مياهها لا ترضى بمسكن واحد فى نهر أو بحر أو حتى فى طبقة معينة من طبقات الماء ، بل إنها تتركه إلى غيره ، ثم يستبد بها الحنين إليه مرة أخرى ، فترجع إليه ، وهكذا تروح وتجىء ، وهى دائماً أبداً لا تستقر إلا حيث تدعوها الحاجة ، كما أنها تستجيب إلى الحركة فتنقلها إلى غير مساكنها ، وكل ذلك فى سبيل هدف ، تتحمل فى سبيله العناء كل العناء .

ولأنتقل بك إلى إحدى مراتب الحيوان الدنيا ، وهى الحشرات ، ألم تسمع بأسراب الجراد التى تغزو الأرض بين الحين والحين ؟ ألم تر سرباً منها ؟ لو أنك فعلت فلا بد أنه قد ترك فى نفسك أثراً لا يمحى ! فهو ماحق ساحق يخشاه الإنسان خشيته من الوباء ، بل إنه وباء وأدهى سبيلا ... إنه إذا تجمع وعلا فى الجو يحجب الشمس بملايينه ، بل ببلايينه ، كأنه

لايلوى على شىء ، ولكنه‌ما يكاد يحط على مساحة منكوبة من الأرض ، ضاقت أو اتسعت ، إلا تركها قاعاً صفصفاً بلقعاً لا نبت فيها ولا زرع . إن هذا السرب قد دفعت به الهجرة أيضاً كما دفعت بغيره من صنوف الحيوان الأخرى .

نخرج من هذا كله بأن الحركة مظهر من أهم مظاهر الحياة ، وأن هذه الحركة تتخذ أشكالاً عدة ، فمنها الضرب فى الأرض ، ومنها التجوال اليومى ، كما أن منها التجوال الرتيب فى فصول السنة ، ومنها الهجرة المنتظمة بين شمال الأرض وجنوبها . ويعالج هذا الكتاب « هجرة الحيوان » حركات الحيوان والطير والأسماك والهوام لتعرف كيف تحدث ، وما الذى يدفع بكل منها إلى الهجرة .

وقبل أن أتقدم فى فصول الكتاب ، أود أن أتساءل معك ، هل الهجرة معروفة فى غير الحيوان من الأحياء ، وما غيره سوى النبات ؟ فلننظر إلى تلك الأشجار والنباتات التى تثبتت فى الأرض بجذورها تضرب بها فى أعماقها ، هل هى حقاً لا تنتقل من مكانها بل ثابتة فيه؟ سؤال يبدو لأول وهلة غريباً شاذاً : ولكن هلا شاهدنا أبداً من بين ما تذروه الرياح بذوراً تحملها مظلات من زغب خفيف منفوش تطفو بها فى الهواء ، فيدفع هذا بها بعيداً عن النبات الذى أنتجها ، فينتشر النبات فى أوسع

مساحة من الأرض ؛ ووسائل النباتات فى انتشار بذورها كثيرة ، وكلها تهدف إلى توسيع مدى انتشارها على هذه الأرض ، فكأن النباتات المثبتة فى الأرض الضاربة بجذورها فيها قد احتالت فتجولت وانتشرت كأنها الحيوان الحر الطليق .

وفضل هذه الوسيلة فى الانتشار سهل الأدراك ، فلو أن النباتات ازدحمت فى رقعة ضيقة من الأرض لما وجدت حاجتها من الغذاء ؛ بل قد تختنق وتموت . فالخير كل الخير ما فعلته تلك النباتات لنفسها لكى تحفظ أنواعها من الفناء .

وكذلك الحال بالنسبة للحيوانات ، إنها تضرب فى الأرض تنتشر فيها وتتجول بفضل ما اكتسبت من حرية فى الحركة ومقدرة على السعى حتى لا يزاحم بعضها بعضاً ، وهى تتكاثر على مر السنين فتزداد ذراريها عدداً ، لو أنها ازدحمت فى رقعة ضيقة حيث كانت أسلافها لدخلت مع هؤلاء فى معركة القوت فتقضى على نفسها بنفسها . وتلعب الطبيعة دوراً هاماً فى هذه التحركات ، فلا برد مقيم ولا حر مستديم ، وإنما هى فصول تتتابع ، ومنها ما يقسو على النبات ، جامع الطاقة وصانع الغذاء فعلى الحيوان أن يختار بين طريقين ، إما أن يهجر المكان إلى حيث النبات الأخضر أو أن يقضى الفصل كله فى خمول وكمون حتى تحيا الأرض بنباتها ، وليس لأكثرية الحيوانات

القدرة على هذا الحمول فترة تطول من الزمن ، بل إن بضعة أيام من جوع تقضى عليها وتقتلها .

وتغيرات الطبيعة هذه رتيبة لا مفاجأة فيها ، بل إن تغيرات الجو وما تصحبها من فصول تأتى تدريجية فى أغلب الأحوال ، ولكن عنصر المفاجأة فى الطبيعة لا يغيب دائماً ، بل العكس هو الصحيح ، فكثيراً ما تزلزل الأرض زلزالها فتغمر الأرض المياه ، أو تنفجر عن براكين تلقى بالحمم تأكل الأخضر واليابس ، أو تقسو فى تغيرات الجو حتى يتغير معنى الفصول فمن صقيع يتراكم ولا يذوب أو حر تجف معه الحلوق ، بل الغدران والعيون ، إلى أرض تميد وجبال تدك دكًّا ، أو أرض تصاعد فتشمخ عالياً لتصبح جبالاً رواسياً ؛ وعندئذ على الحيوان أن « يتشكل ويوائم الجديد » أو يهجر مساكنه إلى أخرى . وتاريخ الأرض ملىء بمثل هذه التغيرات المتتابعة مما كان له أكبر الأثر فى تطور الحياة ، فظهرت منها أشكال تلو أشكال ، باد منها الكثير ، ولا يزال الباقى يدب ويعيش ، هو ما نتعرف عليه فى الغابات والسهول والصحارى والوديان ، ومياه البحر والنهر ، وتحت الثرى وبين شقوق الصخور . ولو رجعنا القهقرى مائة مليون من السنين ، ولا أقول ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً من تلك المئين من الملايين لكان هذا العالم الذى نعمره الآن غريباً علينا ، فى تضاريس أرضه ،

بحوره وأنهاره ، نباته وحيوانه ، ولحسبنا أن الكوكب غير الأرض كوكبنا ؛ فالحيوان إذن خاضع لكل تلك المؤثرات والمفاجآت ، والطبيعة لا ترحم إلا بالقدر الذى يستجيب به الحيوان لتلك المؤثرات والمفاجآت ، فإن واءمها أبقت عليه وإن تخلف عنها قضت عليه ، وكم من أنواع انقرضت واندثرت ولم تبق منها سوى آثارها تدل عليها ، فأفسحت الطريق لغيرها الذى استجاب . وهجرة الحيوان ظاهرة عجيبه لجأ إليها كثير من الحيوان فيما يلجأ فى مواءمته للبيئة بما فيها من عسر الحياة حتى يمكن لنفسه فى البقاء فى معركة لا رحمة فيها ولا هوادة .

وسوف نعالج موضوع الهجرة فى أربعة فصول ، يعالج كل فصل رتبة من رتب الحيوان التى تعرف فيها ظاهرة الهجرة ، وهى الثدييات والأسماك والحشرات والطيور . وقد قصدت أن أختتم الكتاب بالطيور لأهميتها من هذه الناحية ، فقد وصلت الهجرة فيها إلى مرتبة عالية من الكمال .

الفصل الأول

الهجرة فى الثدييات

الثدييات اسم لجماعة كبيرة من جماعات الحيوان ، تكون رتبة هى أعلى رتبه على الإطلاق ، وقد اشتقت اسمها من « الثدى » فهى ترضع صغارها اللبن منه ، وهذه صفة لا تشاركها فيها رتبة أخرى من رتب الحيوان ، وهى كذلك تتصف بصفات أخرى كثيرة لا مجال لذكرها هنا ، وإن كان يجمل بنا أن نشير إلى الشعر الذى لا يعرف إلا فيها ، وقد يختفى هذا الشعر من بعضها ، وإن كان هذا يعتبر بين الثدييات شذوذاً . أضف إلى ذلك أن الثدييات تضم أشكالاً وضروباً شتى من الحيوان ، وصلت فى سلم الرقى أعلى مرتبة ، فأجسامها دافئة ، لا تشاركها فى هذه الصفة سوى الطيور ، ولكنها تمتاز عن هذه بأن المخ قد وصل فيها إلى أعلى صوره ، وبخاصة مراكز التعقل والتبصر وحسن التدبير والحيلة التى تصل إلى منتهاها فى الإنسان الذى يعتبر من الناحية العلمية أحدها وأرقاها قاطبة .

ومعظم الثدييات يعيش على الأرض يتجول عليها ويقتات

منها ، ولكثير من هذه الثدييات البرية القدرة على خوض الأنهار وعبورها فمنها السباحون المهرة ، ومنها أيضاً ما استقر فى الماء وتكيف للمعيشة فيه ، تلك هى الثدييات البحرية ، القياطس وعرائس البحر وسباع البحر والفقم ، ومن بين هذه وتلك ما يهاجر فى فصلين ، وعلى ذلك سوف نتحدث عن كل منها منفصلة .

١ — الثدييات البرية

يجدر بنا قبل أن نتعرض للثدييات البرية ، الخيل والأبل والأيائل والرنة والبقر الوحشى والجرذان وأشباهها من اللمنج وغير ذلك مما سوف نورد ذكره فى هذا الفصل أن نتحدث عن الأنسان فى هذا المجال ، فقد كان للأنسان تأثير مباشر على كثير من هذه الثدييات فى تجوالها وترحالها ، فهو ، بفضل ما أوتى من قوة الحيلة وسعة الفكر والتعقل والتبصر قد أذل أعناق كثير من ضروب الوحش ، فاستأنسه وغير من طباعه وصرفه عن كثير من عاداته ، وقد برهن الإنسان منذ الزمن الغابر السحيق ، الذى يقدر بنصف مليون من السنين أو يزيد ، منذ أن فتت

الحجر ليتخذ منه أداة وفأساً إلى العصر الذى يعيش فيه الآن حيث فتت الذرة فأطلق الطاقة الكامنة فيها من عقالها ، استطاع أن يعمر اليابسة كلها إلا القليل من أطرافها ، فهو يقطن بالوديان الخصبة والسهول والبرارى وبالجبال والصحارى ، فانتشر على سطحها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، من مشرقها إلى مغربها ، لم يقعده البرد القارس عن أن يعمر مناطق يتخذ فيها من الثلوج بيوتاً ولا الحر اللافح عن أن يتخذ من جلود الحيوان خياماً يضربها ليرعى قطعاناً من حيوانات كانت تجوب هذه الأصقاع حرة طليقة ، فبرهن بذلك على أنه أجدر هذه الحيوانات جميعها بالبقاء ، فغزل الصوف وبنى البيوت واستأنس الحيوانات وخطط الحقول ونقش بيده حروفاً كتبها ومن ثم قرأها ؛ ثم قايض بسلعه مع أفراد جنسه سلعاً أخرى ، وهو لا يزال منذ أقام بأور ومصر وبابل وأثينا وروما وبغداد مدنية تلو أخرى يصارع الطبيعة فسيخرها بكافة الوسائل ، ولا يزال يلهث صاعداً على سلم المجد والخلود على مر السنين وكر العصور بما يتوصل إليه من كشف وفتح وتصوير للمثل العليا التى تسمو به عن مراتب الحيوان .

وتدفع فصول السنة ، وما يتبعها من تغير كبير فى درجة الحرارة ، ومن ثم فى نمو النباتات الذى يخضع لهذه الحرارة ، من

استقامة ووفرة غلة مع اعتدالها ، إلى كمون وسكون أشبه بالموت مع انخفاضها الشديد أو ارتفاعها الشديد ، نقول تدفع هذه الفصول كثيراً من قبائل بنى الأنسان إلى الرحيل إلى حيث يطيب المرعى الذى تعتمد عليه ماشيتها فى معاشها لأن تلك القبائل إنما تستمد من هذه الماشية كيانها ، صوفها وجلودها ولحمها ولبنها ؛ ولا شك أن إمكانيات المدنية الحديثة توفر لبنى البشر الذين كانوا يسلكون مسلك الحيوان فى التجوال والترحال ما يغنيهم عنه ، ولكن على الرغم من وجود هذه الإمكانيات إلا أنها ليست متوفرة لكثير من بنى الإنسان ، فمن هؤلاء من لا يزال يعيش على فطرته التى جُبل عليها وما يصحب هذه من بدائية العصور الأولى ، فتضطر تلك القبائل إلى النزوح من الشمال إلى الجنوب تارة ومن الجنوب إلى الشمال تارة أخرى ، أو أن تنزل من أعالى الجبال إلى سفوحها ثم ترقى إليها مرة أخرى ، ذلك أن درجة الحرارة تنخفض فى الشتاء فى أعالى الجبال حتى تكسوها الثلوج ، وتذوب تلك الثلوج مع مقدم الربيع فتعود إلى الجبال حياتها ورخاؤها ، ويفعل القيظ الشديد فعلته فى الصحراء المنبسطة كما يفعل البرد القارس على الجبل العالى ، فيذب من الأرض سكانها إلى عود عند ما يطيب الجو وتطيقه الحياة البشرية .

ولن نستطرد مع الإنسان إلى أبعد من ذلك ، فهو على كل

حال يستطيع أن يدبر من شئون نفسه بما أوتى من حرية الفكر بيديه والتفكير بعقله فيستقر ويبنى الدور ويقيم الحصون ويختزن القوت لنفسه وماشيته ودواجنه ، فيمر بالأشهر العجاف صابراً حتى حتى تغيثه السماء ، وحسبنا ما نعرف عن قبائل الأسكيمو التى تقطن بالمناطق القطبية ، وقبائل التبت التى تعيش على تلك الهضاب العالية فى أواسط آسيا ، وما تقوم به كل منها من ترحال وتجوال مع تقلب الجو فى الشتاء فينقلب زمهريراً عاتياً ينفذ إلى العظام ، وكل هذه الأمثلة تضم قبائل من البشر اتخذوا لهم من الرعى حرفة ، فيعرفون بالرعاة ، ويتسمون بالبساطة وتحمل المكاره وشظف العيش لما يصيب مناطقهم من عجف فى فصل من فصول السنة أو فى فصول متوالية قد تمتد سنيناً .

وقد كان لهؤلاء الرعاة أثر كبير فى القضاء على كثير من الحيوانات العواشب من ذات الحافر ، فهذه أنفع ضروب الحيوان لهم ، كالخيل والحمير والبغال والإبل والبقر والجاموس والغنم والماعز وغيرها ، ومن أشهر الأمثلة التى تضرب فيما فعله أمثال هؤلاء الرعاة ، هو ما فعله الرعاة الأمريكيون بالبيسون* ، وهو البقر الأمريكى الذى كان يعيش فى قطعان كثيرة العدد ، كان يقدر القطيع الواحد منها بأربعة ملايين أو يزيد ، ويمتاز هذا

* Bison



البيسون أو البقر الأمريكى

البقر بضخامة رأسه وقصر عنقه الذى يبرز بين الكتفين المرتفعتين ولحيته الطويلة وذيله القصير مع رشاقة فى الأطراف والقرون التى لا تنمو إلا بمقدار ، ولونه البنى الداكن .

كانت قطعان هذا البيسون الهائلة العدد ترحل مع الفصول فى البوارى التى لم يكن ينازعها فيها إلا القليل من ضروب الوحش فكانت ترحل إلى الشمال تارة وإلى الجنوب تارة أخرى طلباً للكلأ والماء ، حتى دخل أمريكا الشمالية الرجل الأبيض ، فهالته من تلك القطعان جموعها التى لا تعد ، فنظم فرقاً ، عرفت فيما بعد برعاة البقر ، أخذت تقتل منها كل ما تصادفه من هذا البقر سعياً وراء لحمه ، فلما زادت كمية اللحم عن حاجة أولئك ،

عمدوا إلى قتلها وراء ألسنتها ، فكان الثور يجندل بالرصاص ثم ينتزع منه لسانه وتترك جثته فى العراء للنسور حتى أوشك هذا الحيوان البائس أن يبيد كلية ، وعندئذ تنبهت الحكومة إلى مصيره التعس ، فسنت قانوناً حرمت به صيده ، ولكن بعد أن كاد يبيد كلية ، ثم خصصت له منطقة محدودة من مناطقه التى لم يكن ينازعه فيها أحد فأمن فيها من بنادق الرعاة وجبروتهم .

وكذلك تدخل الإنسان فى حياة تلك العواشب الحافرية التى تستهلك من النبات كثيراً ، فقد تتبعها وحاربها لأنه احتاج فى نهاية الأمر مع كثرة ذراريه إلى الأرض ، أى إلى معاشب تلك الحوافر ، فأخذ يسويها ويفلحها ويخرج منها غذاءه الذى يريد من فومها وعدسها وبصلها وقثائها ، فذب عن حقوله التى كانت فى الأصل مرعى خصباً لكثير من تلك الدواب هذه عنها ، ثم أقام مع الحقول القرى وشيد المدائن وأخذ يجوب بين هذه وتلك مسالماً تارة ، ومتجبراً تارة أخرى حتى انزوى كثير من تلك العواشب الحافرية فى مساحات قليلة نسبياً ، أى بالنسبة لما كانت تتمتع به تلك الدواب فى الزمن القديم ، قبل وجود الإنسان ، من حرية فى التحركات ، فلا نجد فى عصرنا الحاضر من المساحات الملائمة لتحركات هذه الدواب إلا فى بعض البرارى كتلك الكائنة فى جنوب إفريقيا حول صحراء كلاهارى ،

وعلى هضبة التبت أو على سفوح الجبال الشاهقة كجبال الأنديز فى أمريكا الجنوبية وجبال روكى فى أمريكا الشمالية ، أو فى تلك البقاع الفسيحة التى تقع حوالى القطبين الشمالى والجنوبى وما يحيق بها من ظروف جوية قاسية . تلك هى آخر المعاقل لتلك العواشب الحافرية تجد فيها بعضاً من الراحة والدعة دون أن يعكر عليها الإنسان صفوها إلا قليلا .

ولو رجعنا إلى الوراء مائة سنة لوجدنا قارة إفريقيا ، وفى الجنوب على وجه الخصوص ، تزخر بجموع من العواشب الحافرية تعيش فى قطعان كثيرة العدد ، من ظباء وغزلان وتياتل من جميع الأنواع ، ومن زراف وحمر وحش وجاموس ، ولكن هذه القطعان قد تناقصت على مر تلك السنين المائة ، ولم يعد منها فى عصرنا الحاضر إلا جماعات صغيرة يتركها الإنسان حفظاً عليها من الفناء ، فلم تعد تتمتع بحرية الحركة كما كانت تفعل فى القديم ، فهى فى ترحالها تصطدم بالإنسان فى قراه وحقوله ، فيدفعها عنها ، فانزوت فى بقاع ضيقة محدودة ؛ ونجد نفس الشىء فى آسيا حيث كانت جموع الخيل تهاجر فى مناطق واسعة بين الشمال والجنوب ، والغنم تهبط إلى سفوح الجبال أو ترجع الكرة صاعدة إلى قممها حيث يطيب الهواء ويكثر العشب عندها فى الصيف ، وتنزل إلى سفوحها فى الشتاء

عند ما تكسو قممها الثلوج البيضاء .

وتعيش فى أمريكا الجنوبية أنواع من الجمال تسمى اللاما[١] ، أصغر من الإبل حجماً وأغزر وبراً وأقصر أرجلا وعنقاً . ويتخذ أهل بوليفيا وبيرو من بعضها دواب للحمل والجر ، كما تستخدم الأبل فى الدنيا القديمة ، ومنها ما يعيش متوحشاً كالهوانكو[٢] ، ولا يزال هذا على فطرته الأولى يتجمع فى قطعان كبيرة ، فيقطع طلباً لمناطق الرعى الغنية بالكلأ .

وتمتاز المناطق الباردة الشمالية ، كتلك التى تقع فى شمال كندا وسيبيريا ، بشتاء طويل حيث تكسو الأرض الثلوج المتراكمة شهوراً عدة ، فتسقط عن النبات أوراقه وتعم الظلمة المنطقة كلها ، وتتجمد غابات الصنوبر وتتساقط أوراق الاسفندان والحور والبلوط ، وتتحول المنطقة كلها إلى مكان موحش مقبض لا تطاق الحياة فيه ، أما فى الصيف مع عودة الدفء ، فتذوب الثلوج وتتحرر الغابات منها فتورق الأشجار وتنبت الحشائش والأعشاب ، وما تلبث أن تتفتح ورودها وأزهارها فتنقلب إلى مناطق جميلة ، هى الفردوس بعينه بالنسبة لبعض العواشب

---

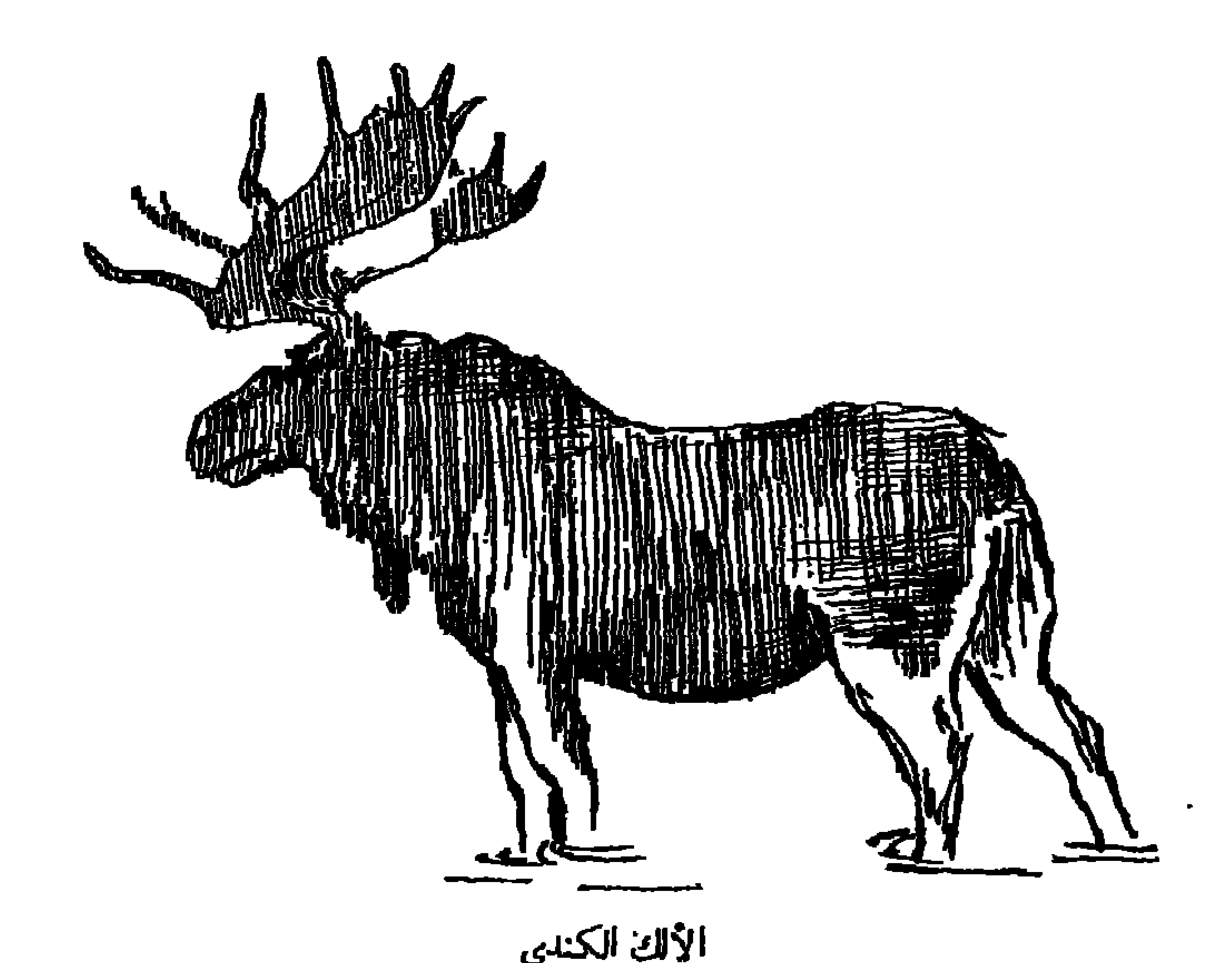
(١) Llama (٢) Huanco

الحافرية كالألك (١) والكاريبو (٢) والأيل (٣) والرنة (٤)، وتغير قطعان الذئاب على هذه الدواب تصطادها بطريقتها ، كما نجد جموع البيدستر (٥) تقطع الأخشاب لتبنى بها بيوتاً عظيمة.

أما الأيائل فإنها تتشبث بالغابات فتقضى الشتاء فى أطرافها الجنوبية ، بينما فى الربيع مع شهر مايو نجدها ترحل فى صفوف طويلة إلى الشمال فتقطع رحلة طويلة شاقة بطول تلك الغابات التى تمتد أميالا عديدة ، فإذا ما وصلت إلى الأطراف الشمالية لتلك الغابات تفرقت الأناث لتضع كل ذات حمل حملها بينما تتجمع الذكور فتتعهد قرونها النامية،فهذه تظهر فى الذكر دون الأنثى ، وتغير الذكور قرونها مرة فى كل عام ، وهى تزداد مع الأعوام بهاء وحسن منظر ، فإذا ما حل الخريف مع شهر سبتمبر بدأت هذه الذكور تتشاحن وتشتبك فى عراك دام فتصرخ وتتصارع فى سبيل الإناث ، وكثيراً ما تتمخض المعركة بين إيلين عن ضحية أو ضحيتين ، أما القول بضحية فأمر لا غرابة فيه فأحدهما هو الأقوى يقضى على الضعيف بقرنيه يوخزه بهما فيبقر بطنه ، أما أن يهوى الاثنان فى حلبة

---

(١) Elk
(٢) Caribau
(٣) Wapiti
(٤) Reindeer
(٥) Beaver



الألك الكندى

المصارعة فأمر مدهش حقاً ، ولكن ذلك يحدث كثيراً ، ذلك أن الأيلين يشتبكان بقرونهما ، وهذه كثيرة التفرع ، وقد يحدث أن يخترق قرن أحدهما عين الآخر فينفذ إلى جمجمته ، فيقضى هذا فى الحال ، ثم يحاول الحي منهما أن يخلص نفسه منه ، ولكن قرنه يكون قد تثبت كالوتد فى أرض صلبة لا فكاك له منها فيظل كذلك صريعاً لا يملص منه حتى يقضى عليه الجوع والضنى . وقد وصلت هذه القرون المتفرعة فى أسلاف لتلك



أنثى الأيل ، تنزوى لتضع حملها

الأيائل درجات معقدة غاية التعقيد ، فكانت تعوق أصحابها عن الحركة فى الغابات بين الأشجار لأنها كانت تتشابك مع أغصان تلك الأشجار ، فلا تستطيع التملص منها مما كان يؤدى إلى هلاكها فبادت تلك الأسلاف ولم تبق منها إلا ضروب قصيرة القرون قليلة التفرع نسبياً ، لأن الأنواع الحية على كثرة ما تصل إليه قرونها من التفرع والتعقيد لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لقرون تلك الأسلاف البائدة .

وما ينتهى الصراع بين ذكور الأيائل من أجل الإناث حتى تتزاوج ثم تكر راجعة مولية شطر الجنوب إذا ما أقفرت الغابات من أشجارها المورقة ونباتاتها المزهرة التى كانت تضفى على تلك الغابات بهجة الحياة ، وهى إذ تفعل ذلك تتخذ طريقها فوق الأراضى العالية من تلال أو جبال ، وإبان تلك الرحلة تشاهد جموع الكاريبو تسير الهوينا متهادية على حواف البحيرات والوديان ، وهى تولى شطر الشمال ، ونحن ندهش لأول مرة أن نسمع بحيوانات تولى شطر الشمال فى الشتاء، ولكن هذا الكاريبو يفعل ذلك فهو لا يغادر الغابات أبداً ، وقد يلتقى بنوع آخر من بنى جنسه ، ذلكم هو كاريبو التندورا الذى يقوم برحلة الصيف متوغلاً فى الدائرة القطبية ثم يقفل راجعاً إلى حدود تلك الغابات جنوبى التندورا .

وثمة أيائل آسيوية تعيش فى أطراف سيبيريا الشمالية بالقرب من المناطق القطبية وتستأنسها القبائل التى تعيش فى تلك الأصقاع حيث تنتشر قرونها فتصدرها إلى الصين حيث تطحن وتتحول إلى عقار يقال إنه عجيب المفعول فى علاج بعض الأمراض .

وظباء الرنة التى تعيش فى التندورا استأنستها قبائل الأسكيمو فتتخذ منها لحماً ولبناً وجلداً ، كما تحمل الأثقال وتجر الزحافات التى اشتهرت بها هذه القبائل . ولكن ما زال يعيش من أنواعها

متوحشاً ، فلم ير شجرة حيث لا تنمو فى تلك الأصقاع الأشجار كتلك التى تنمو فى مناطق الغابات التى توجد جنوبى التندورا . وترعى هذه الظباء فى الوديان صيفاً عند ما تذوب الثلوج بينما تنحدر إلى البحر لتقتات من أعشابه فى الربيع والخريف ، أما فى الشتاء فإنها تتجول بين الجبال الموحشة سعياً وراء الأشنة * المتجمدة تنتزعها بقواطعها من الأرض ، ثم تعاود الكرة إلى الوديان وهى مكتنزة باللحم والشحم ! فمن عجيب أمر هذه الظباء أنها لا تستريح فى جو تعلو درجته فوق الصفر كثيراً .

وهنا نقف قليلا ، لكى نتأمل فى مدى نجاح الثدييات فى انتشارها بين خط الاستواء والقطبين ، إذ أنها وزعت نفسها بين أطراف الدنيا ، ولم تتجمع فى منطقة واحدة أيامها سجسج ، أى لا حر فيها ولا برد ، لأنها لو كانت فعلت ذلك لتكاثرت ذراريها وتزاحمت تزاحماً شديداً ، فتتدافع بالمناكب لينتزع كل فرد حاجته من القوت المحدود فيها ، ومعين هذا لا مناص من نفاده فيعز عليها طلبه فتقضى فى النهاية على نفسها بنفسها ، وإنما نجدها قد تفرقت وضربت بعصاها فى الأرض لتجد عشائرها العديدة مدداً لا ينقطع من الرزق ، بشكل أو آخر ،

(*) Mcss ، وهى نباتات دنيئة لا تتكون لها أزهار أو بذور أو جذور حقيقية .

حتى تلك الظباء التى تقطن بتلك الأصقاع المقفرة التى يبلغ فيها الزمهرير أشده تنتزع قوتها من بين خفايا الجليد فتكتنز أبدانها منه شحماً ولحماً .

ومن الصفات التى تميز العواشب الحافرية ، التى ربما اكتسبتها من عادة التجوال وقلة الاستقرار ، قدرة صغارها على اللحاق بالقطيع بعد ولادته بوقت قصير لا يعدو ساعات فى بعض الأحوال ، ذلك أن القطيع إذا ما ألم به أذى من قر أو حر أو وحش كاسر آكل لحم ، تجمع وولى الأدبار طلباً للنجاة ، وعلى الصغار أن تعدو مع بقية القطيع وإلا تأخرت عن الركب وكان فى ذلك هلاكها ، وذلك بخلاف آكلات اللحوم من القطط والكلاب وما أشبه التى تضع صغارها ضعيفة عاجزة عمياء لا حول لها ، ولذلك فإن هذه قلما تهاجر ، كما أن أعداءها قلة إلا من أنفسها ، فتنال الصغار من عناية أبويها الكثير ولفترة طويلة فيحنوان عليها ويطعمانها ويلهوان معها ويدربانها على القنص وكيف تعامل الفريسة فلا تدعها تفلت من بين مخالبها وأنيابها ، فإذا ما اشتد عودها وأصبحت قادرة على خوض غمار الحياة وحدها تركتها وشأنها .

وثمة مثل آخر لحيوان ثديى برى تجدر الإشارة إليه بصدد

المجرة ، ذلك هو اللمنج * ، وهو حيوان يتبع فصيلة القوارض أى الثدييات التى تقرض بقواطعها ، وهى الأسنان الأمامية ، فهذه حادة عريضة الحافة تشبه الواحدة منها طرف إزميل النجار ، وليس لها أنياب ، ومن أمثلتها الأرانب واليرابيع وخنازير غينا والفأر وغيرها .

واللمنج حيوان صغير فى حجم الفأرة يغطى جسمه فراء بنى يضرب إلى الصفرة به خطوط ، والأرجل قصيرة بالنسبة للجسم الطويل ، كما أن الذنب قصير ، وهو يصر صريراً ، ويقطن النوع الذى نحن بصدده ببلاد النرويج ، وينقب فى الأرض ليبنى فيها أفاحيص يكتهف فيها ، وهو يقتات من الأعشاب وكل شىء أخضر . ومن أعجب ما يميز هذا اللمنج القارض ، بل ومن أعجب الظواهر بين الحيوانات إطلاقاً ، أنه ، تحت الظروف الملائمة له ، والتى لا ندرى متى تكون ، يتكاثر كثيراً ، فلا تحمل الأنثى مرة أو مرتين فى العام كما هى الحال فى معظم الثدييات ، وإنما هى تحمل ثلاث مرات أو أربعاً فى العام ، كما أنها لا تضع وليداً أو اثنين ، وإنما تسعة أو عشرة من الصغار ، وتمتد هذه الفترة ، أى فترة التزاوج عاماً أو عامين ، وقد تتعداهما إلى ثلاثة أعوام ، وعندئذ تبلغ جموع اللمنج بعد هذا

(*) Lemming



اللمنج

الفصل التزاوجى ملايين عديدة ، فقد تضاعف عشرات الألوف من المرات فى هذا الفصل . ويقال إن فيتامين هـ متوفر فى أعشاب تلك المناطق التى يعيش فيها فتزداد خصوبة اللمنج فى النسل لأن المعروف عن هذا الفيتامين أن نقصانه من طعام بعض الثدييات يؤدى إلى عقمها ، والعكس صحيح ، فيصل نسل اللمنج إلى تلك الأعداد المخيفة التى تغطى مناطق بأكملها . وفى هذا الفصل تحس باللمنج وما وصل إليه من تعداد وفير جوارح الطير من صقور وعقبان وبوم ، وكذلك الثعالب القطبية والغربان وغيرها من الحيوانات والطيور الكواسر فتنقض عليها وتأكل منها ، فهذا الفصل بالنسبة لتلك الكواسر عيد أيما عيد ، تشبع فيه من لحم اللمنج الشهى ، ولكنها مهما اقتنصت منه فإنها لن تؤثر على تعداد اللمنج فهو إلى زيادة مع الشهور ، زيادة كبيرة مذهلة ، ولكن ما يخشاه اللمنج ليس هؤلاء الأعداء الطبيعيين ، وإنما هو القوت ، فإن أفواه تلك الملايين تنادى به وتطلبه ، فتقرض كل عود أخضر ويابس ، حتى الأشجار تقرض قلفها فتعريها إلى الحد الذى تصل إليه تلك الحيوانات الصغيرة ، وعندئذ تلتقى مع العدو اللدود وهو المجاعة ، وعليها أن أن تقرر ، إما البقاء حتى الموت أو الرحيل ، وهى دائماً أبداً تختار الرحيل ، فتتجمع ملايينها العديدة وتهاجر ، وهى فى

هجرتها لا تلوى على شىء . وكثيراً ما تختار الطبيعة لتلك الجموع وباء يتفشى فيها لتقضى على كثير منها حتى تستطيع أن تعولها ، ولكن الوباء لن يقضى عليها كلها ، فهى إذن تسير وتسير متجهة إلى الجنوب فتخترق الغابات والحقول والحدائق ، وهى تقرض وتتزاوج فى طريقها ، وتبنى الأفاحيص فى الأرض لصغارها ، وقد يعترضها نهر فى طريقها فتخترقه ، فيغرق الكثير منها ، أما ما استطاع التعلق بجسم طاف فإنه يصل إلى الشاطئ الآخر من النهر ، فاللمنج منذ قرر الهجرة يسير ويسير ، وقد يمتد سيره سنة أو اثنتين حتى يصل إلى شاطئ البحر ، فقد كان هذا هو هدفه ، فيسير إلى البحر نفسه ويلقى بنفسه فى الماء فيحتويه اليم ويلقى به فى قاعه ، وهكذا تنتهى هجرة اللمنج بانتهاء تلك الملايين العديدة من هذا الحيوان القارض الصغير العجيب ، مأساة عجيبة لا يزال سلوك اللمنج إليها محيراً للعلماء ، فمن قائل إنها غريزة ضارة تسيطر على ذلك الحيوان وتدفع به إلى الهجرة وإن كان فيها هلاكه ، ومن قائل إن تلك الجموع عند ما تلتقى بالبحر تظنه نهراً دانى الشاطىء ، ومن قائل إن اللمنج قد اكتسب هذه الهجرة من قديم وأنه كان يسلك طريقاً معيناً لا يحيد عنه ، وأن طريقه القديم كان خلواً من البحر قبل أن تتكون الخلجان الضيقة المعروفة بالفيوردات

التى ظهرت على ساحل بلاد النرويج فى العصر الحديث ، وظل على طبيعته ، أى غريزته التى تولدت معه مع الأجيال ، فيسير فى طريق كان برياً فى القديم فأصبح يعترضه البحر فى الحديث ، ولكنه عند ما يسير على الدرب الذى كانت تسلكه أسلافه منذ الزمان الغابر القديم ظل محافظاً عليه تسلكه الأحفاد من بعد الأسلاف دون أن تتنبه إلى أن الأرض قد تغيرت فأصبحت غير الأرض التى كان يسلكها أولئك وإن كان فيها هلاكها . ولكن الرأى عندنا هو أن خيراً تفعل تلك الحيوانات بتلك الهجرة الانتحارية ما دامت تصل كل بضع سنوات إلى تعداد لا حصر له ، فإنها إذ تغرق نفسها بعد هذا التكاثر العجيب تضع حداً لمشاكلها على أن تعود إلى ما كانت عليه بعد حين ؛ فقد عوضتها الطبيعة عن عجزها بخصوبة تناسلية عالية ، كما أن الطبيعة فى نفس الوقت تحد من هذه الخصوبة بدفع الحيوان إلى الهجرة لإغراق نفسه ، وعلى ذلك يحدث التوازن المرجو للطبيعة . ونحن إذا ما قلنا بأن الحيوان يغرق نفسه لا ندعى أنه على دراية بما يفعل وإنما استخدمنا التعبير مجازاً لأن النهاية هى مأساة يفقد بها الحيوان حياته .

ومن الأمثلة التى تضرب بخصوص توازن الطبيعة ما تفعله هذه بالفأر الأسود ، وذلك أن هذا الفأر قد اكتسح البلاد

الأوروبية فى القرن الثامن عشر ، وفد إليها من الشرق الأقصى ، حتى أصبح وباء ضج منه الناس وبرموا به ، فأخذوا يكافحونه كفاحاً مريراً بالمصائد تارة وبالسموم تارة أخرى ، ولكنه كان فى زيادة كل عام فيستفحل أمره ويستشرى خطره على مخازنهم ودورهم ، فأشار بعض العارفين من العلماء إلى أن خير علاج لهذا الفأر أن يترك وشأنه ، وما كادوا يفعلون حتى أتى عام لم يظهر فيه الفأر اللعين ؛ ذلك أنه تكاثر بشدة فتفشت فيه الأوبئة ونقلتها الأفراد إلى غيرها بحكم اختلاطها ففتكت به فتكاً ذريعاً . فللطبيعة إذن ميزان تبقى به على جموع الحيوان تعداداً معيناً فتحد من الكثير بأعداء كثيرين وتحفظ القليل وتحميه بوسائل عديدة .

ومثل الفأر الأسود حيوان قارض آخر يتبع نفس الفصيلة ذلك هو فأر الغيط * الذى يعيش فى مناطق كثيرة من أوروبا ، فإن هذا الفأر يتكاثر تكاثراً دورياً تكاثراً عظيما فيزداد تعداده تزايداً كبيراً يوصف بالوباء لأنه يأتى على جذور النبات فيقرضها بقواطعه الحادة ثم يأتى على الأخضر واليابس ويجرد الأشجار من قلفها ويفتك بالمحاصيل ، حتى إذا ما حل الربيع بعد شتاء كان يظهر فيه هذا الفأر لم تخضر الأرض كعادتها ولم تورق الأشجار

(*) Field-vole

لأنه قد أتلف جذورها ، فلا يعود إلى المنطقة كلها بهاؤها ورواؤها اللذين تشتهر بهما فى الربيع . وكما هى الحال مع اللمنج فإن لهذا الفأر أعداء طبيعيين ، منهم البوم قصير الأذنين ، فإن هذه الطيور الجوارح التى تنشط بالليل عادة تتجمع أثناء النهار لتتصيد هذا الفأر إبان كثرته ، فتحد منه ، ثم يعمل نقص الغذاء وصيد البوم له على الحد من جموعه وينقضى الوباء إلى سنين ، ثم يعاود ظهوره من جديد وهكذا دواليك بين كثرة وقلة هما من أهم مظاهر توازن الطبيعة .

وقبل أن ننتقل إلى الثدييات البحرية يجمل بنا أن نلخص بعض ما أوردناه عن الهجرة بين الثدييات البرية ، فهى تقل مع الزمن لتدخل الإنسان ، إما باستئناسها أو بحصرها فى مناطق ضيقة لأنه احتل مراعيها ومناطق نفوذها بإصلاحها لنفسه وتعميرها بالقرى والمدن وتخطيط الحقول ، فحصرها بين السياج وسخرها بكافة الطرق والوسائل يتصرف فيها كما يحلو له ، وإن كان فى كثير من الأحيان نراه خادمها يتبعها أينما طلبت السعى ، كما هى الحال مع الرعاة الذين يجوبون الأرض خلف ماشيتهم وأنعامهم ، ينطلقون وراءها كلما جدت السعى طلباً للمرعى الخصب بما فيه من كلأ وماء . وعلى الرغم مما وصل إليه الإنسان من مدنية أدنت له القاصى والدانى فإن هناك مناطق لا تزال على

طبيعتها الأولى فتسلك الثدييات الرحالة فيها كما كانت تفعل منذ وجدت على الأرض .

أما قصة اللمنج ، ذلك القارض الصغير ، فإن هجرته ، وإن لم يستطع أحد بعد أن يفسرها تفسيراً لا يقبل الجدل ، قد تكون ضرباً من التوازن الذى تلجأ إليه الطبيعة لتحفظ به ذلك العدد اللانهائى من الأفواه الجائعة .

٢ — الثدييات البحرية

لمعظم الثدييات القدرة على العوم فى الماء والخوض فيه ، فالبيدستر المتقدم ذكره يقطع الأخشاب ويسبح بها مع النهر ويبنى بها فيه بيوتاً عظيمة ، كما أن الخيل والكلاب من أشهر الثدييات قدرة على العوم ، ولكن هذه الحيوانات تلجأ إلى السباحة فى أغلب الأحوال مضطرة إليها ، بينما تقضى أفراس النهر (المعروفة بسيد قشطة) والجاموس فترة طويلة من وقتها فى الماء ، ولكن هناك ثدييات أخرى غير هذه وتلك قد لاءمت أجسامها الحياة فى الماء فلا قبل لها على تركه كأنها السمك أو أشد تمسكاً به ، تلك هى الثدييات البحرية ، القياطس بأنواعها المختلفة من حيتان وهراقيل ودواب العنبر ودلافين وغيرها ، ثم

عرائس البحر وأخيراً سباع البحر والفقم . وتنتمى كل من هذه إلى فصيلة خاصة من فصائل الثدييات * . وأغلب هذه الثدييات متجول فى البحار متجون فيها ، وإن كان القليل منها لا يبرح منطقته إلا قليلا .

والقياطس هى أضخم دواب البحر جثة ، وليس ثابتاً بين علماء الحيوان من أى فصائل الثدييات انحدرت هذه الدواب ولا كيف أوت إلى البحر ووصلت فيه إلى هذه الضخامة غير العادية ، وقد قيل بصدد ضخامتها إن وجودها فى ماء المحيط معتمدة عليه أدى إلى اضمحلال العضلات التى كان يعتمد عليها الحيوان فى اليابسة حافظاً بها ثقل بدنه عليها مما أدى بعد ذلك إلى نمو غير عادى لبقية أنسجة الجسم كلها فوصلت إلى الضخامة التى هى عليها الآن — ولكن هذه الضخامة التى جعلت منها سادة البحار السبعة كثيراً ما تكون سبباً فى هلاكها ، إذ أنها لو حصرت فى خليج ضيق أو جنحت إلى الماء الضحل ثم دفعها الموج إلى الشاطئ ولامست بصدرها اليابسة تعذرت عليها الحركة فيضغط جسمها بثقله العظيم على صدرها فينوء تحت حمله فيتثاقل التنفس ثم تختنق وتموت ، أى أنها قد لاءمت الحياة فى الماء ملاءمة تامة ، فلا قبل لها على الخروج منه ، وقد

(*) انظر كتاب الثدييات البحرية للمؤلف .

يخطئ كثيرون في وصف هذه الدواب بالأسماك ، فهى أبعد ما تكون عنها لا تجمعها وإياها إلا معيشة كل منهما فى الماء ، فالأسماك تتنفس الهواء الذائب فى الماء بواسطة الخياشيم ، أما القياطس فإنها تتنفس الهواء الجوى مباشرة برئتين فتصعد إلى سطح الماء لتستنشقه من فتحة أنف واحدة أو فتحتين توجدان فى أعلى الرأس ، ويخرج هواء الزفير بقوة بالغة ، وهو هواء ساخن محمل بكثير من بخار الماء يتكاثف فى الهواء الجوى وبخاصة فى المناطق الباردة التى يعيش فيها الكثير من القياطس فيبدو كالنافورة الشديدة شبهها القدماء بالمنارة . وقد يندفع قليل من ماء البحر مع هذا الزفير إذا زفر الحوت قبل أن يبلغ سطح الماء ، ويميز الصيادون القياطس بهذه النافورة إن كانت واحدة من فتحة واحدة أو اثنتين من فتحتين .

ويتحور الطرفان الأماميان فى القياطس إلى مجدافين بينما اختفى الطرفان الخلفيان أو صارا أثريين ، وينتهى الذيل بزعنفة أفقية عريضة ذات فصين يسميان الوشيعتين ، تميزان القياطس من الأسماك فى الحال ، إذ أن الزعنفة الذيلية فى الأسماك رأسية لا أفقية . وتوجد فى كثير من الأنواع زعنفة دهنية على الظهر تظهر فوق سطح الماء فتشقه شقاً ، وقد شبهها القدماء لضخامتها بالشراع .

وجلد القياطس لامع أملس لا يكسوه الشعر فقد اختفى هذا إلا القليل منه يقع حول الفم ، قد يظهر فى الجنين ثم يختفى أو يظل باقياً فى القيطس اليافع . وقد جاء اختفاء الشعر نتيجة ملاءمة الحيوان للحركة السريعة فى الماء وإلا كان احتكاك الشعر به عائقاً لسرعة العوم . وتستعيض القياطس عن الشعر فى تدفئة الجسم بطبقة غليظة جداً من الشحم تقع تحت الجلد مباشرة ، وتصاد القياطس من أجل هذا الشحم الذى يستعمل فى شتى الصناعات الزيتية .

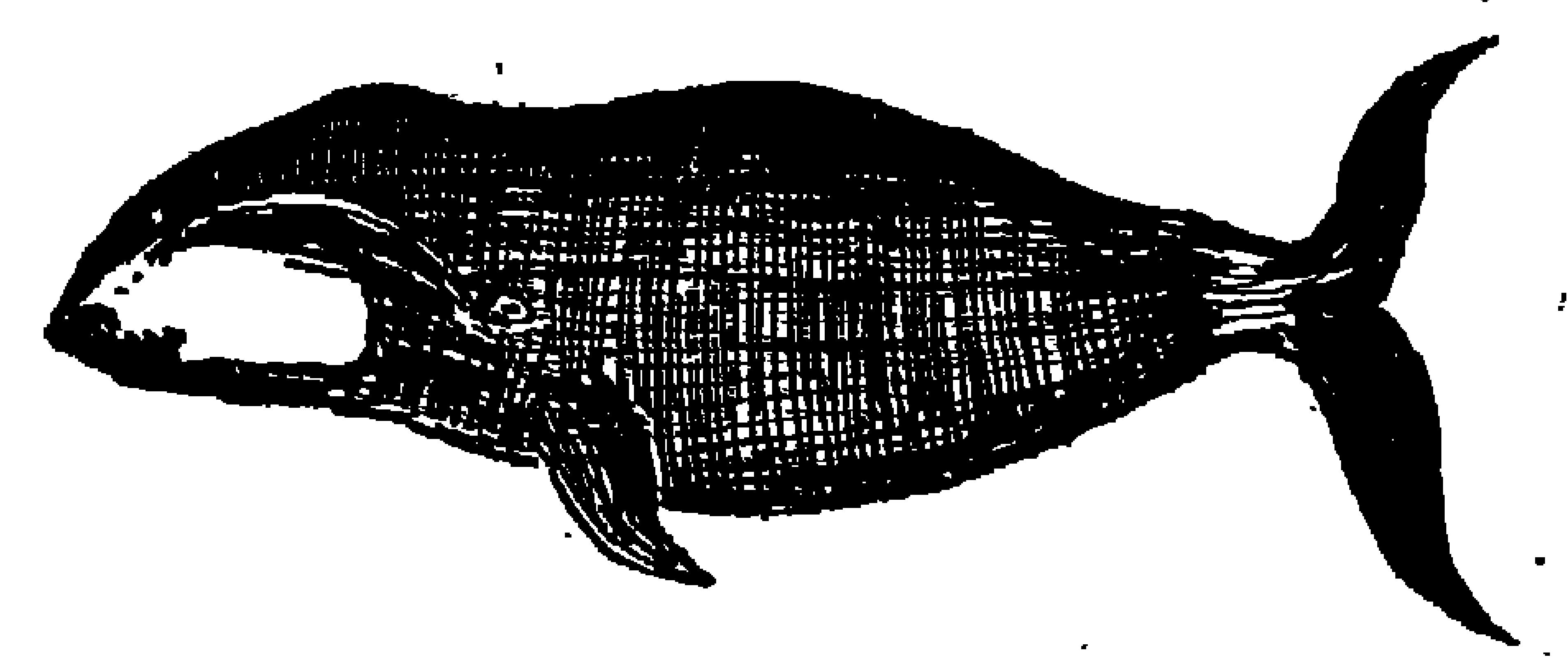
وعظام القياطس على وجه العموم إسفنجية تمتلىء تجاويفها بمادة زيتية ، ولذلك جاءت خفيفة فى وزنها نسبياً . والقلب مضخة كبيرة تقذف فى كل ضربة من ضرباته فى دابة العنبر مثلاً من عشرة جالونات إلى خمسة عشر جالوناً من الدم ، والأورطى (الوتين أو الأبهر أى الشريان الرئيسى للجسم) أسطوانة ضخمة يبلغ قطرها قدماً أو يزيد . وتعترض كثيراً من الشرايين شباك من الأوعية الدموية الدقيقة تساعد الحيوان على اختزان كمية كبيرة من الدم المحمل بالأكسجين فتساعده على المكث تحت الماء فترات طويلة قد تصل فى بعض الأنواع إلى اثنتى عشرة ساعة .

والقياطس حيوانات اجتماعية تعيش فى جماعات كبيرة

يسميها الصيادون القطعان أو المدارس فى حد تعبيرهم . وتتغذى القياطس من اللحوم ، تحصل عليها من الأسماك والقشريات (كالجمبرى وأبى جلنبو) والرخويات (كالحبار والأخطبوط) وقناديل البحر والكائنات الدقيقة العالقة بالماء (والتى يطلق عليها معاً البلانكتون) . ويوجد جنس واحد يسمى بالقيطس القاتل يتغذى من الفقم ومن القياطس الأخرى ، الصغيرة منها والكبيرة ، فهو بحق وحش البحر الضارى الذى لا يرحم أبداً .

وتبعاً لنوع الغذاء تقسم القياطس إلى جماعتين كبيرتين ، ذوات الأسنان ، وعديمة الأسنان .

أما القياطس ذوات الأسنان فإنها تستعين بأسنانها على الإمساك بالفريسة التى قد تكبر أو تصغر لدرجة معقولة بالنسبة لأحجامها . أما القياطس عديمة الأسنان فإنها تستعيض عن الأسنان بعضو خاص يتدلى من سقف الحلق يسمى عظم الحوت أو البالين ، مركب من صفائح قرنية بها خيوط غليظة تحاكى الشعر الصلب فيزدحم بها تجويف الفم ، وقد يصل طول عظم الحوت هذا فى بعض القياطس إلى أربعة أمتار ، وطريقة الإطعام به هى أن يفتح القيطس فمه الكهفى فيتدفق الماء إليه محملاً بكثير من الحيوانات كالأسماك الصغيرة والقشريات والحيوانات الدقيقة العالقة بالماء التى أشرنا إليها من قبل ، فإذا ما



بال جرينلند (وهو بال أصيل)

أطبق القيطس فمه حجزت هذه الحيوانات فى خيوط البالين ، ثم يتقلص اللسان العضلى الكبير فيزقها إلى البلعوم .

وتعيش عدة أنواع من القياطس عديمة الأسنان فى المناطق الباردة ، ومن أشهرها بال جرينلند ، فيسبح هذا البال فى المناطق القطبية صعوداً وانحداراً مع ذوبان الثلوج وتراكمها ، وهو أسود اللون إلا من رقعة بيضاء تحت فكه الأسفل ، وتجويف فمه أكبر من تجويف الجسم كله ، ولذلك يكبر البالين فيه كبراً عظيماً ، كما أن صنفه جيد غاية الجودة ، ولذلك يطلق عليه اسم البال الأصيل* ، ويعتبر الحصول على واحد منه ثروة عظيمة بالنسبة للصيادين ، وبخاصة أن شحمه وفير ومن نوع ممتاز . وعند ما تذوب الثلوج التى تكسو البحار الشمالية فى مايو تكثر

(*) Right Whale

الكائنات الدقيقة في مياهها من دياتوميا وقشريات صغيرة فتتوغل قطعان هذا البال الأصيل في تلك المياه وتنتزع من الماء كائناته بواسطة مصافيها . ويعرف الصيادون عن هذا البال ذلك التجمع فتخرج أساطيل الصيد بهربوناتها تصطاد منه ، وقد أسرفوا خلال القرون الثلاثة الماضية فى اصطياده حتى إنه يخشى على هذا البال من الانقراض .

ومن القياطس عديمة الأسنان الهراكلة [1] (أو الهراكيل وواحدها هركول) . ويختلف الهركول عن البال فى ثلاث صفات خارجية مهمة ، أولها أن الرأس صغير نسبياً عنه فى البال ، ووجود الزعنفة الظهرية ، كما أنه توجد بالهركول على منطقة العنق والصدر أخاديد طويلة منتظمة فى صفوف ، فيسهل التمييز بين البال والهركول من الخارج بسهولة .

والهراكلة أضخم الحيوانات على الإطلاق ، فمنها الهركول الأزرق ، وهو أضخم حيوانات الدنيا فيصل طوله إلى ثلاثين متراً ونيف . وهو يقضى عامه متجوناً فى البحار ثم يتجمع فى شهرى أبريل ومايو ليغشى مياه الخلجان الضيقة (الفيوردات) الموجودة على طول ساحل النرويج حيث يكثر هناك فى هذين

---

(١) Rorquals

الشهرين حيوان قشرى صغير فيتغذى آكبر الحيوانات طرا من واحد من أصغرها .

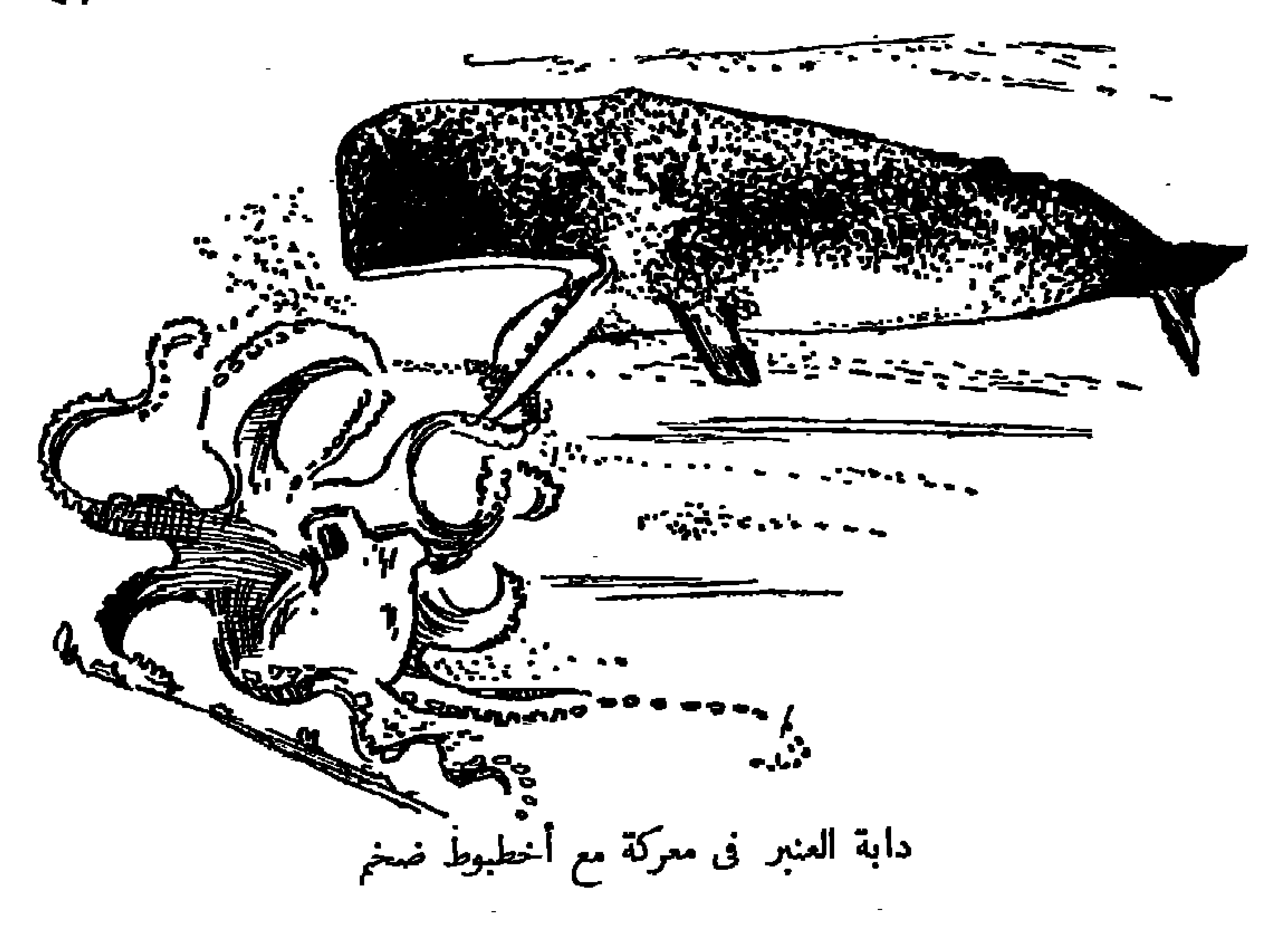
والهركول العادى أكثر الهراكلة انتشاراً ، فينطلق فى بحار الدنيا وقد يصل إلى البحر الأبيض ويقذف الموج بأحدها إلى شاطئنا المصرى كما حدث فى عدة مناسبات ، وهو يفتك بسمك الرنكة ، ولذلك يعتبر خطراً على المصائد . والهجرة فيه غير معروفة .

أما إذا انتقلنا إلى القياطس ذوات الأسنان ، وجدنا منها كثيراً من الأمثلة كدابة العنبر وكركدن البحر والقاتل والدلفين وغيرها .

ودابة العنبر [1] من أكبر القياطس حجماً ومن أقواها بدناً فهو يستطيع أن يقفز بجسمه كله فوق الماء . ويظن أن السفن الصغيرة التى تنقطع أخبارها لغير سبب ظاهر كثيراً ما يكون هذا العنبر سبب هلاكها . وهو يمتاز أيضاً بكبر رأسه لوجود وسادة ضخمة من الشحم أمام محفظة المخ ، وتفرز هذا الشحم خلايا كبيرة تقع على طول الممر الأنفى ، وهو يصاد من أجل هذا الشحم ، وقد ظنه بعض الناس مخ الحيوان حتى اكتشف علماء الحيوان حقيقته ، كما يصاد من أجل مادة العنبر . وهى مادة دهنية ذات لون معتم اكتسبت شهرة عظيمة بين أصناف العطور .

---

(١) Sperm-Whale



دابة العنبر في معركة مع أخطبوط ضخم

غير أنها فى الشرق خاصة كانت ولا تزال تستعمل دواء وعطراً .
وهو يتولد فى أمعاء دابة العنبر — ذلك أن هذا الحوت الجبار يفضل الحبار والأخطبوطات الضخمة يسعى إليها فى الأعماق البعيدة ثم يفترسها بعد معركة عنيفة ، ولما كان لهذه الحيوانات الرخوة مماصات غليظة قوية ومناقير قرنية حول فتحة الفم فإن هذه المناقير عند ما تصل إلى الأمعاء تهيجها تهييجاً شديداً فتفرز عليها الأمعاء مادة ، وجد من تحليلها الكيماوى أنها أشبه ما تكون ببعض أملاح الصفراء المسماة كولسترين والتى كثيراً ما تسبب

حصى فى مرارة الإنسان أو مجاريه الصفراوية نتيجة لالتهابها ، فترسب هذه المادة حول المناقير فتتكون منها كتل مختلفة الأحجام أضخمها ما أشار إليه أحد البحاث ، قطعة استخرجت من دابة عنبر زنتها سبعمائة وخمسون رطلاً .

ولقد عرف العرب الصلة بين العنبر ودابة العنبر ، غير أن كثيراً منهم ذهب مذاهب شتى فى أصله ومنبعه ، فتارة هو من أصل شجرة وتارة هو من قاع البحر إلى غير ذلك ، وأغلب الظن أن مرجع ذلك إلى أن دابة العنبر كثيراً ما تلفظ هذه المادة أو أن تموت فتتحلل جثتها وتتبقى مادة العنبر فتطفو فوق سطح الماء فتعثر عليها السفن أو أن يدفع بها الموج إلى الشاطىء فيجمعها سكان السواحل .

وتفضل دابة العنبر البحار الدافئة فتصل إلى خط الاستواء وإن كانت لا تبقى عنده إلا قليلاً ، وهى إذ تصل إليه تتجمع ويكون ذلك شتاء ثم تجلو عنه فى الصيف . وتؤخذ مثل هذه التجمعات والتحركات على أنها تجول أكثر منها هجرة .

أما كركدن البحر (١) فيعيش فى البحار المتجمدة الشمالية ويسلك مسلك البال الأصيل من نوع بال جرينلند الذى أشرنا إليه من قبل ، أى أنه يهاجر شتاء إلى الجنوب وصيفاً إلى الشمال

(١) Narwhal

وقد سمى باسمه لأن للذكر ناباً طويلاً مستقيماً يحاكى الرمح ، يظن بعض العلماء أنه صفة جنسية ثانوية ، فهو غير موجود فى الأنثى ، ويظن البعض الآخر أنه عضو هجوم ودفاع يبقر به بطن فريسته ويدافع به عن نفسه ويحطم الجليد به إذا تكثف هذا من حوله . ويصل طول الناب إلى سبع أو ثمانى أقدام، وعاجه جيد غالى الثمن ولا عيب فيه سوى أن الناب مجوف فتقل قيمته فى صناعة الأدوات الصغيرة ، وقد شاهد بعض الرحالة ذكور كركدن البحر تمرح وتتحاطب بأنيابها . ويظن الصيادون خطأ بأن كركدن البحر يخرق السفينة بنابه ، ولكنه فى الواقع حوت مسالم ، وما يفعل ذلك سوى السمك السياف [1] .

والقاتل [2] حوت ضخم يصل إلى عشرة أمتار فى الطول وإن كانت هذه الضخامة لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة للهراكلة التى تقدم ذكرها . ويعيش القاتل جماعات تجوب بحار الدنيا وتتجول فيها بين الشمال والجنوب سعياً وراء الغذاء . ولون هذا القاتل بين أسود وأبيض وأصفر ؛ وهو من أشد القياطس ، بل من أشد الحيوانات ، فتكاً ، وجد فى معدة واحد منه ثلاثة عشر من خنازير البحر وأربعة عشر فقماً ، ووجدت فى معدة آخر أربعة وعشرون فقماً ، فهو ينقض على هذه كلها بل وعلى

---

(١) Swordfish   (٢) Killer Whale

الأسماك والقياطس ، الكبير منها والصغير . وقد قيل بأن القاتل إذا تعقب قيطساً ذعر منه ذعراً شديداً فيغمغم كما يغمغم الثور ويخور خواراً عالياً .

ويصيد قطيع القتلة القياطس الضخمة كما تصيد الذئاب الثيران والوعول على اليابسة ، فعند ما يشاهد القطيع هركولاً مثلا ، الذى يصل حجمه إلى أضعاف حجم القاتل ، دبر له أفراد القطيع خطة محكمة للقضاء عليه كما تفعل الذئاب ، فيسرع اثنان من القطيع إلى الأمام ويقبضان على فك الهركول الأسفل بقوة شديدة ، واحد من كل ناحية ، فالهركول عديم الأسنان كما تقدم القول ؛ ثم يقفز الآخرون فوق الماء ويضربون الهركول بأذنابهم ومجاديفهم ضرباً شديداً موجعاً ، ولا يزالون به على هذه الحال حتى تخور قوى الهركول فيسقط فكه الأسفل الضخم ، وهنا يلج أحد القتلة إلى فمه فينهش لسانه فلا يملك الهركول بعدها حولاً ولا قوة ويصبح فريسة هينة للقتلة فيقطعونه إرباً .

وتستطيع هذه القتلة الغوص تحت طبقات الجليد ثم تعلو بظهورها فتهشمها فيسقط ما عليها من حيوان إلى الماء ليجد طريقه إلى أفواه تلك القتلة ، ولهذا كانت جموع الطائر الأكتع (أو البطريق أو البنجوين) الذى يعيش فى المناطق المتجمدة

الجنوبية فريسة سهلة لها .

أما الدلفين ، واسمه بالعامية الدرفيل ، فلا يبلغ من ضخامة الجثة ما تبلغه القياطس المتقدم ذكرها بل يبلغ متراً إلى ثلاثة فى الطول فقط ، وهو منتشر فى كثير من البحار ، ونجده فى بحرينا الأبيض والأحمر على السواء . وليس معروفاً عن الدلفين أنه يهاجر ، ولكنه نظراً لصغره يستطيع أن يتوغل فى الأنهار من مصباتها ، وقد ذكر الدميرى أن الدلفين يوجد فى بحر النيل .

ونحن إذا ما انتقلنا إلى الفصيلة الثانية من فصائل الثدييات البحرية ، ونعنى بها عرائس البحر ، وجدناها تضم عدداً قليلاً جداً من الأنواع التى تعيش فى البحار الدافئة دون الباردة اللهم إلا نوعاً واحداً كان يقطن ببحر بهرنج ، الواقع بين ألاسكا وسيبيريا وتحده من الجنوب جزر ألوشيان التى ذاع صيتها إبان الحرب اليابانية الأمريكية الأخيرة ، إلى أواخر القرن الثامن عشر حيث باد آنئذ من كثرة ما صيد منه .

ولا تتجول عرائس البحر إلا قليلاً ، فمن أنواعها خروف البحر [1] الذى يعيش عند سواحل أمريكا وسواحل أفريقيا فلا يتعدى خط عرض ٢٠ جنوباً و ١٦ شمالاً وقد يدخل أحد الأنهار الشمالية ، فإذا ما أقبل عليه الشتاء وهو فى هذا النهر ولم

(١) Manatee

يتمكن من مغادرته مات دنقا .

أما سباع البحر والفقم[١] فتتبع فصيلة أخرى هى فصيلة اللواحم ، أى آكلة اللحوم كالسباع والكلاب والدببة وغيرها ، فتتفق مع هذه فى وجود أنياب حادة وأضراس ذات أسطح مدببة ، بينما الثنايا ، أى القواطع ، صغيرة . وبالمخ تلافيف كثيرة عميقة الأخاديد تشير إلى ما تتمتع به تلك الحيوانات من ذكاء ، ولكنها تختلف عن آكلات اللحوم الأصيلة فى أنها تكيفت للمعيشة فى الماء ، وإن كانت تختلف عن القياطس وعرائس البحر فى أن لها القدرة على الصعود إلى اليابسة والحركة عليها ، وإن كانت حركة بطيئة متعثرة مضحكة ، وهى تصعد إلى اليابسة كى تضع صغارها عليها وترضعها ثم تعلمها السباحة لتعيش فى الماء ، ولذلك انضمت أصابعها على هيئة زعنفة أو مجداف تجدف بها فى الماء . ويستطيع الحيوان أن يحرك أجزاء الطرف الخلفى ، وهو باق هنا لم يختف كما هى الحال فى القياطس وعرائس البحر ، ذلك أن هذه الأجزاء تتصل مع بعضها فى مفاصل ظاهرة ، فيحركها الفقم فى سهولة ويسر حتى أن بطن القدم يتجه فى الماء إلى أعلى أثناء السباحة بينما هو على اليابسة يتجه إلى أسفل فى الوضع الطبيعى له فيعتمد الحيوان عليه

---

(١) Seals

أثناء المشى . ويستطيع الفقم أن ينتصب واقفاً على الأرض باسطاً يديه فى الهواء يصفق بهما أو يضرب ، فهما عضواً دفاع يشتركان مع الفم فى العراك العنيف الذى ينشب بين أفراد النوع .

ومن أشهر أنواع جماعة الفقم ، فقم الشمال ذو الفراء أو دب البحر * نظراً لنوع فرائه الجيد ، وقد دار حوله فى وقت ما



فقم الشمال ذو الفراء أو دب البحر

خلاف كبير بين أمم الشمال التى تتخذ من صيد دواب البحر حرفة وتجارة . ويمتاز هذا الفقم مع بقية أفراد جنسه ، بل عائلته ، فهو وحيد فيها ، بأنه أقل الأجناس ملاءمة للبيئة ، فقدماه طليقتان وله صيوان قصير للأذن وعنق ظاهر غير قصير وأنف يقف عند نهاية الوجه من الأمام كما هى الحال فى معظم

(*) Northern fur-seal or Sea-bear

الثدييات البرية . ويتغذى هذا الفقم من الأسماك والأخطبوطات والحبار ، ويصل طول اليافع منه حوالى المترين .

وتقف هجرة هذا الفقم بين الشمال والجنوب بين الظواهر البيولوجية الفريدة ، فهى فى هذا الفقم هجرة حقيقية لا غنى للحيوان عنها ، فإنه يموت دونها ، فلولاها لما اجتمعت الذكور والإناث لأنها لا تعيش كلها فى منطقة واحدة ، وإنما تشتى الإناث والأجراء (جمع جرو وهو الصغير) والذكور الصغيرة السن عند سواحل كاليفورنيا ، بينما تقضى الذكور الكبيرة ، أى الفحول ، الشتاء جنوبى جزر ألوشيان أو فى خليج ألاسكا . فإذا ما أقبل فصل التزاوج مع بداية شهر مايو تقبل معه الفحول إلى مواطن تزاوجها عند جزر بريبيلوف الصغيرة التى تبعد عن ألاسكا بمائتى ميل إلى الغرب ، وهذه الجزر هى عند الفقم الفردوس بعينه .

عند ما تصل الفحول إلى جزر بريبيلوف ، وهى تفعل ذلك فى شهر مايو ، تقضى شهرها الأول كله فى عراك شديد ، نسميه عراك المنازل ، فكل يريد لنفسه منزلاً ، هو قطعة من الأرض مساحتها مائة من الأقدام المربعة تغطيها السماء وتحدها الجهات الأربع ، وكلما كان المكان قريباً من الشاطئ كانت المعركة من أجله أشد ، فينشب بين الفحول عراك قتال بأنيابهم

الحادة وأيديهم القوية يثخنون بعضهم بالجراح ، ويتصافعون بالأيدى صفعاً موجعاً حتى يستقل كل فحل بمسكنه .

وفى هذه الأثناء تكون الإناث قد بدأن رحلتهن من الجنوب إلى الشمال وهن حوامل ، فيقطعن ثلاثة آلاف من الأميال فى رحلة قاسية شديدة يشققن طريقهن من كاليفورنيا فى الجنوب فى بحر عاصف شديد النوء حتى يصلن إلى جزر بريبيلوف الصغيرة فى الشمال ، فيتلقاهن الفحول ، وكل غايتهن أن تضع كل ذات حمل حملها ، ويحدث ذلك عادة بعد أن يصلن بيوم أو بعض يوم .

وعند وصول الإناث يتخاطفهن الفحول فتبدأ الحلبة الثانية من صراع الفحول ، وفى هذه المرة يكون العراك عراك الإناث ، أى من أجل الإناث ، ولذلك يكون هذا صراعاً شديد الهول ، وكلما كان الفحل بالغ القوة والبأس حصل على عدد أكبر من الإناث ، وهؤلاء فى شغل عنهم ، فهن من نصيب المصارع القوى ، فلا يكلفن أنفسهن عناء . وقد يحوز الفحل على أربعين زوجة أو أكثر لا يلهيه عنهن لاه ولا يشغله شاغل فيصوم عن الطعام ، إذ أنه قد اكتنز من مواده الغذائية فى أنسجة جسمه قدراً كبيراً قبل أن يصل إلى الجزر ، فهو يصل إليها مكتنزاً لحماً وشحماً فيبدو فى عنفوانه ، أما الذكور الصغيرة فلا طاقة

لها على الصراع فتجتمع فى مكان منزو وتتخذ منه نادياً للعزاب تمرح فيه وتلعب شأنها فى ذلك شأن الصغار ، فإذا ما وضعت الإناث أحمالهن يبدأ دور التلقيح فيحملن من جديد ، غير أنهن لا يتركن الأجراء ، فتتولى كل أم جروها ترضعه على اليابسة فتتردد عليه مرة كل يومين تحصل أثناء ذلك على قوتها ، والفحل أو رب العائلة من حولها ساهر عليها جميعها ، يرد عنها كل اعتداء ويذود عن حوضه كأشرف الرجال .

وتعلم الأم جروها العوم حتى يتقنه كما نعلم نحن الطفل المشى على الأرض فتبدو الجزر كأنها فردوس حقيقى يموج بمئات الألوف من هذه الثدييات العجيبة ، لا يعكر عليها صفوها ويقطع مرحها سوى الإنسان ، إذ هو على علم بمواطنها فتفد أساطيل الصيد إليها لتقتل منها أى عدد تشاء ثم تترك الباقى إبقاء على النوع من الفناء ، وغاية الصيادين فراء الفقم الجميل غالى الثمن الذى تقدره النساء أيما تقدير .

ومما يجدر ذكره أن الفحول تصوم عن الطعام منذ وصولها إلى الجزر لأنها لو سعت إليه لا تأمن أن تغتصب منازلها فحول أخرى ، فتمسك عنه ثلاثة أشهر كاملة ، أما الإناث فقد شغلتها رحلتها عن الطعام فلا يقربنه حتى تضع كل ذات حمل حملها . فإذا ما حل شهر أغسطس ولت الذكور الصغيرة

والإناث مع أجرائها شطر الجنوب إلى سواحل كاليفورنيا مرة أخرى حيث تقضي هناك فصل الشتاء ، وترجع الفحول إلى أوطانها جنوبى جزر ألوشيان بعد أن تكون قد قضت ثلاثة أشهر جائعة ساهرة قد أدماها القتال وعضها الجوع وأضناها السهر فتعفو آثار ذلك الفردوس ويقفر إلا من صخور يخر عليها الماء وتصفر من فوقها الريح ، لن يعمره إلا ذلك الفقم ذو الفراء ، أو دب البحر كما يسميه بعض الناس ، فى عامه المقبل .

ويعرف الأسكيمو مواطن هذا الفقم عند جزر بريبيلوف فيفدون إليها من قديم ليجمعوا منها حاجتهم من اللحم ، فهو عندهم طعام رئيسى إلى جانب الأسماك يختزنونه فى الثلج ليستعينوا به فى فصل الشتاء الموحش الطويل . ولكن أثر هؤلاء الأسكيمو على هذا الفقم ليس كبيراً ، كما كان الهنود الحمر على البيسون ، أو البقر الأمريكى الذى سبق ذكره ، فلم يؤثر أى منهم على حياة أى من الحيوانين ، ولكنه الرجل الأبيض هو الذى هدد حياتهما تهديداً خطيراً حتى أوشك البيسون أن يبيد ، كما أن هذا الفقم مهدد أيضاً بالإبادة لولا ما فطنت إليه الحكومات الشمالية من الخطر على حياة هذا الفقم بالصيد والتقتيل دون نظام ، فاتفقت فيما بينها على تنظيم صيد الفقم فلا تقتل جماعة بأسرها أبداً بل يترك بعض الأفراد للإبقاء على النوع

من الفناء . وقد كان البيسون يصاد من أجل لسانه الشهى ، أما الفقم فمن أجل فرائه الناعم الوثير !



حصان البحر

وهناك نوع آخر من الفقم هو حصان البحر * ، وهو فقم كبير ضخم ، يصل طوله إلى إحدى عشرة قدماً ، عريض المنكبين فيغلظ جسمه عندهما ثم ينساب إلى الخلف حيث ينتهى بذنب قصير جداً ، وجسم حصان البحر مغطى بشعر قصير

(*) Sea-horse or Warlus

بنى يضرب إلى الصفرة ينقلب كستنائياً عند البطن والزعانف ، ويتساقط الشعر فى الحصان الهرم فيبدو جلده متغضناً كثير الجراح . ولحصان البحر شارب قوى غليظ تصل ثخانة الشعرة الواحدة منه قلم ريشة الغراب ، يقال إن وظيفته اتقاء شدة تيار الماء عن خطمه (أى مقدمة وجهه) .

ولحصان البحر نابان طويلان ، هما أنياب حقيقية لا كأنياب الفيل (لأن كلمة أنياب الفيل إنما تطلق مجازاً لبروز تلك الأنياب ، ولكنها فى الواقع قواطع وليست أنياباً) ، غير أن عاجهما أقل قيمة . وهما عضوا دفاع ، ولكن وظيفتهما الحقيقية هى الحفر فى قاع البحر وعند الشواطىء للبحث عن أنواع المحار المختلفة والقشريات التى يتكون منها طعام هذا الحصان ، كما أنه يستعملهما فى التسلق على الصخور وجبال الجليد التى يقضى فيها كثيراً من وقته . وطريقة بحثه عن طعامه طريفة ، فهو يغوص إلى قاع البحر ثم يحرث القاع بنابيه فى سرعة ثم يصعد إلى سطح الماء فيملأ رئتيه بالهواء ثم يعود مسرعاً إلى القاع حيث يجمع ما ظهر من الأصداف المدفونة فيهشمها بأضراسه ويبتلع الأنسجة الرخوة دون المصراعين اللذين يلفظهما بلسانه .

وحصان البحر ، كالفقم ذى الفراء أو دب البحر الذى سبق ذكره ، اجتماعى ، وهو يلازم الشواطىء أو جبال الجليد

العائمة فلا يتركها إلى عرض المحيط ، ولكنه لا يهاجر كهجرة الفقم بل يتجول من مكان إلى آخر حيث يتوفر القوت : فهو يقطن بالمناطق المتجمدة الشمالية ، وشوهد فيها إلى أقصى ما بلغه الإنسان منها ، ثم ينحدر جنوباً حتى خليج سانت لورنس وعند ايسلنده وشواطىء سيبيريا وبحر بهرنج .

وتضع أنثى حصان البحر جرواً أو اثنين على الأكثر فى المدة ما بين إبريل ويونية ، وتحنو عليهما حنواً كبيراً ، كما أن حصان البحر من أكثر الحيوانات حباً لأفراد نوعه ، فإذا ما اعتدى دخيل على واحد منها اجتمعت كلها لتدفع عنه شره ، وأكثر ما يكون الدخيل دباً قطبياً ، وعندئذ ترهبه بخوارها العالى وتهاجمه بأنيابها .

ويصاد حصان البحر من أجل لحمه ، فهو غذاء رئيسى عند الأسكيمو كما هى الحال مع أنواع الفقم الأخرى ، كما تصنع من عاج نابيه الحلى ومن جلده المناطق والنعال والسيور .

وللبحار المتجمدة الجنوبية فقمها الخاص بها ، منها فيل البحر [١] وفهد البحر [٢] وغيرها ، وهى هنا تعيش فى مأمن من الأسكيمو والدبب القطبية الكاسرة، ولكن الإنسان قد عرف مناطقها فتتبعها بسفنه ليصطادها سعياً وراء لحمها وشحمها

(١) Elephant-seal

(٢) Leopard-seal

وجلدها ، فإذا ما استثنينا العدو المشترك بين الشمال والجنوب ، وهو الإنسان، لا نجد لها عدواً مشتركاً آخر سوى الحوت القاتل، فهو بحق سفاح البحار السبعة .

وقبل أن ننتهى من الحديث عن الثدييات البحرية يجدر بنا أن نجمل أسباب الهجرة بينها ، فهى دائماً أبداً تتعلق بالجو ، وما يتبع من تقلب هذا من وفرة فى الغذاء أو قلته ، فاذا ما اشتد البرد تكاثف الجليد ونضب معه معين القوت إلا قليلاً ، فتولى هذه الثدييات إلى الجنوب إن كانت تقطن بالبحار الشمالية أو إلى الشمال إن كانت تقطن بالبحار الجنوبية ، فإذا ما أقبل الصيف وعاد الدفء رجع كل منها إلى مواطنها .

وهنا يجدر بنا أن نقف متأملين متساءلين ، ما الذى يدفع بتلك الثدييات فى الصيف إلى النزوح تجاه أحد القطبين ؟ فلم تبخل عليها البحار التى كانت تجوبها فى الشتاء بالقوت ! والرد على ذلك مرة أخرى هو حسن التوزيع الذى يضمن للجميع قوتاً ورزقاً ، إذ أنها لو بقيت فى أمكنتها لاكتظت مع حيوانات تلك البحار الأصلية ودخلت معها فى معركة الغذاء بينما هى سوف تجد كفايتها بالقرب من القطبين ، فتهيأت أجسامها للمعيشة فى تلك المناطق بأن كست جسمها بالشحم الغزير الوفير أو الفراء الكث لتقى نفسها أثر البرد الشديد .

أما هجرة الفقم ذى الفراء أو دب البحر فتفسيرها قد يبدو سهلاً لو أن الفحول كانت تقضى مع الإناث فصل الشتاء فى موطن واحد، أما أن تفترق عنها لتذهب إلى جنوبى جزر ألو شيان وخليج ألاسكا بينما تتجه الإناث إلى سواحل كاليفورنيا فهذا أمر عجيب حقاً حير العلماء ، ولا يزال هذا السلوك من هذا الحيوان لغزاً بعيداً عن الحل .

وما دمنا بصدد الثدييات البحرية ، حيث جبنا معها البحار الشمالية والجنوبية فيجدر بنا أن نبقى مع الماء قليلاً لنتعرف على أحيائه المهاجرة الأخرى . تلك هى الأسماك — حديثنا فى الفصل التالى .

الفصل الثانى

هجرة الأسماك

تتمتع الأسماك بحرية الحركة فى الماء ، ولكن الظروف الطبيعية لهذا الماء تختلف من منطقة إلى أخرى ، كما تتغير من فصل إلى آخر ، ولذلك كثيراً ما تخضع تحركات الأسماك لتلك الظروف الطبيعية ، وإن كنا كثيراً ما نجد الأسماك تقدم على الانتقال من منطقة إلى أخرى غير آبهة بالظروف الطبيعية للمنطقة الجديدة ، كما هى الحال مع بعض الأسماك التى تعيش فى المياه العذبة فتهجرها إلى البحر فى فصل التزاوج ، أو العكس تعيش فى البحر ثم تهجره إلى الأنهار لتضع فيها بيضها وشتان ما بين ماء البحر وماء النهر ، ولكن فى تلك الحالتين تتحمل الأسماك المهاجرة هذا التغير فى فصل تزاوجها دون أن يكون فى هذا خطر على حياتها ، بينما نجد أسماكاً أخرى لو نقلت من ماء البحر إلى ماء النهر أو العكس لانتفخت أو انكمشت مما يودى بحياتها .

وتنتقل الأسماك أيضاً من طبقة معينة من الماء إلى أخرى

صعوداً أو هبوطاً بحثاً عن الغذاء أو لوضع البيض ، كما يتحرك الكثير منها من المحيط المتسع إلى المياه الضحلة بالقرب من الشواطيء لوضع البيض أيضاً . والبيض فى أغلب الأحوال كثير العدد ويفقس عن صغار ضعاف دقاق لا قبل لها على مقاومة الموج الشديد فى البحر الفسيح ، فيحرص آباؤها على أن تتنحى بها مكاناً أكثر أمناً ، وقد يجرف الصغار المد دون أن تستطيع هذه أن ترد عن نفسها شدة سحبه ، وكثيراً ما يكون فى ذلك هلاك الكثير منها ، وهذا يفسر لنا لماذا تضع معظم الأسماك أعداداً كبيرة من البيض ، تقدر بالملايين للأنثى الواحدة فى بعض الأحيان .

ويعتمد كثير من مصائد الأسماك على هجرة الأسماك لوضع البيض فتتبعها سفن الصيادين إلى حيث يعرف أصحابها مواطن الهجرة . ومن أشهر الأسماك قياماً بالهجرة السمك المعروف بالتنة * الذى ورد ذكره كثيراً فى الكتب القديمة منذ أيام أرسطو .

وقد كان السلف قديماً يرقبون التنة من تل عال على الشاطيء فتظهر تجمعاتها قادمة من البحر نحو الشاطئ ، وعندئذ يخرج إليها الصيادون بشباكهم ، ولا تزال بعض أمم البحر الأبيض المتوسط تستخدم نفس الوسيلة مع قليل من التحريف ، ذلك أن

(*) أو التونة Tunny

المراقب يصعد فوق سلم عال يثبت إلى الشاطئ . وقد كان يظن قديماً ، كما ردد ذلك أرسطو وغيره من الكتاب القدماء ، أن التنة تهاجر من المحيط الأطلسى إلى البحر الأبيض المتوسط متتبعة تيار البحر على طول الشاطئ الشمالى لأفريقيا إلى مصر وفلسطين ومنهما إلى البحر الأسود ، وقد كانوا يظنون أن التنة تضع بيضها فى بحر أزوف المتصل بشمال ذلك البحر ، ولكن الأبحاث الحديثة قد أثبتت أن هذه الهجرة كما صورها القدماء لا تتم على تلك الصورة ، ذلك أنه توجد بالبحر الأبيض أطوار كثيرة من هذا السمك ، اليافع منه والصغير ، اليافع الذى قد يصل فى بعض الأحيان إلى مترين فى الطول ؛ وكل ذلك فى فصل واحد هو الصيف ، وقد عرف الآن أن التنة تقضى غير هذا الفصل فى المياه العميقة بعيدة عن الشواطئ ، وعند ما يقترب فصل وضع البيض تصعد من الطبقات العميقة إلى سطح الماء ، ومن ثم تتجمع وتسبح أفقياً تجاه الشاطئ ، وهذه التحركات الأفقية ، التى تحدث فى جماعات هذا السمك هى التى كانت تدفع بالصيادين إلى مراقبها للخروج إلى صيدها .

وليس البحر الأبيض المتوسط هو وحده بحر التنة المفضل ، وإنما أعظم مصائدها هى خليج قادس الواقع فى المحيط الأطلسى

إلى الشمال الغربى من جبل طارق ، وتهاجر جموع التنة إلى شواطئ هذا الخليج لوضع البيض . وتتوغل التنة أيضاً فى البحار الشمالية حتى مياه ايسلنده ، ولكن هذه الجموع لا تضع البيض وإنما تتبع جموع الأسماك الأخرى كالسردين والرنكة .

ولعائلة الرنكة ، ومن أمثلتها الرنكة[1] نفسها والبلم [2] أى الأنشوجة ، القدرة على الهجرة من طبقات الماء العميقة إلى السطح فتكثر تجمعاتها فى فصل التزاوج كثرة عظيمة ، وإن كانت الرنكة فى الواقع تضع البيض على مدار السنة كلها ، فتمتاز من بين الأسماك كلها بهذه القدرة ، بالإضافة إلى أنها تعيش تحت ظروف متقلبة من الجو وطبيعة الماء كتغير الملوحة فيه ، بل إنها تستطيع دخول الأنهار وتعيش فيها .

ونجد فى مياهنا المصرية أسماكاً من هذا القبيل ، ومن أظهرها السمك المسمى القشقوش [3] ، فهو يتجمع بالقرب من شواطئ البحر الأحمر ، وتجمعاته مشهورة عند الصيادين ، وكثيراً ما كنا نشاهدها من معامل معهد علوم البحار بالغردقة

---

(١) Herring وهى التى نسميها الرنجة .

(٢) Anchovy

(٣) ويسميه بحارة البحر الأحمر القشقوشة Atherina

على ساحل البحر الأحمر ، وهى تسبح بالقرب من الشاطىء ، وأغلب الظن أنها وفدت إليه لوضع البيض .

ويتجمع السردين كذلك فيكثر فى مياهنا الشمالية كثرة زائدة ، وبخاصة عند رشيد ، وتصل هذه التجمعات إلى أشدها بعد فيضان النيل ، ذلك أن هذا النهر العظيم يلقى بطميه الفائض فى البحر ، وهذا الطمى بما فيه من أملاح معدنية سماد عظيم للدياتوميا وما أشبهها من نباتات مجهرية ، هى طعام السردين المفضل ، يستخلصها من الماء بمصفاة تتصل بخياشيمه فيزيد حجم السردين ويكتنز كثيراً من الدهن مع نهاية هذا الفصل ، أى فى شهرى أكتوبر ونوفمبر .

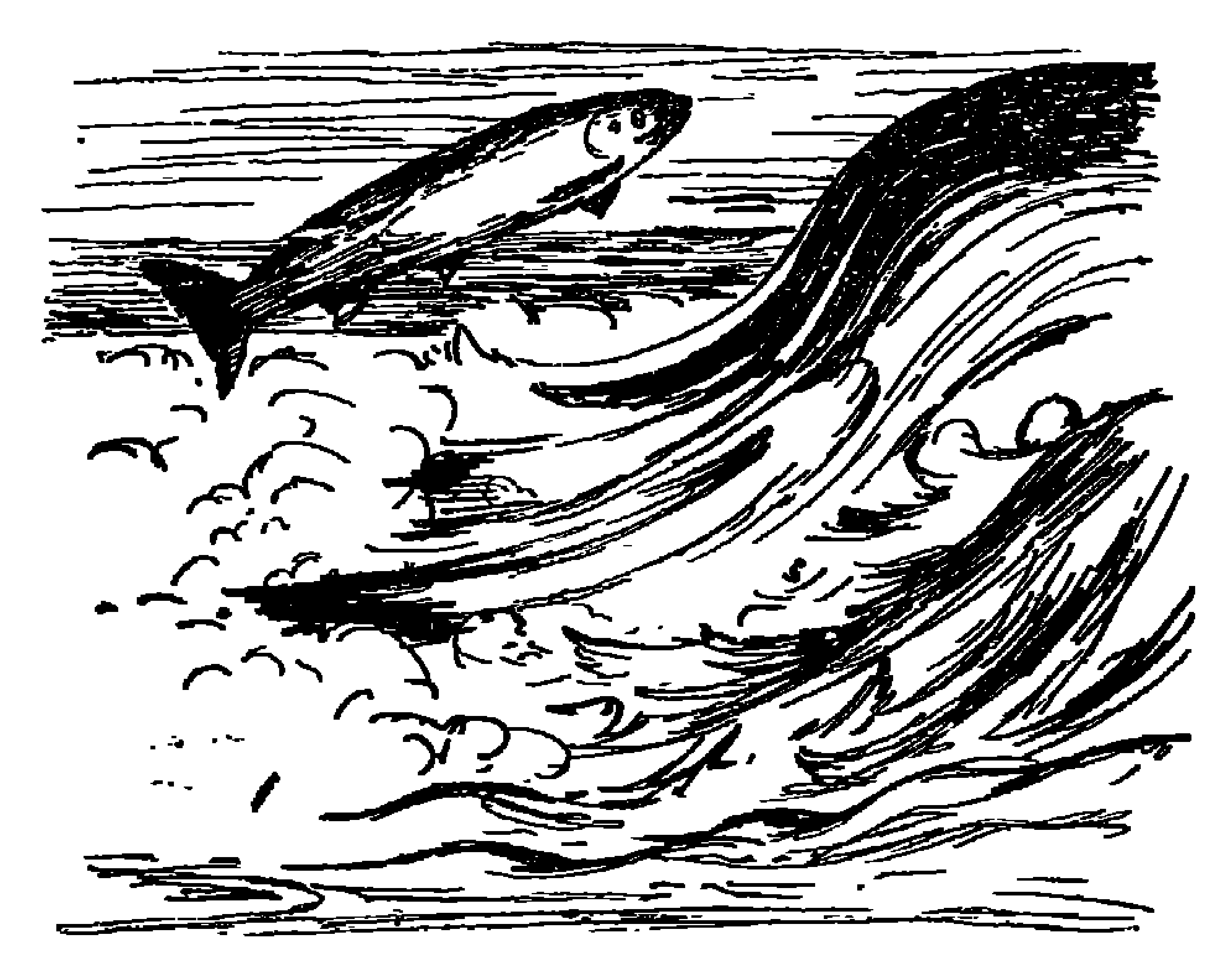
ومن الأسماك المهاجرة المشهورة سمك سليمان أو السلمون* الذى ترد إلى بلادنا منه كميات ضخمة معبأة فى علب صغيرة ، ويكثر المصريون من أكله حتى يكاد يكون طعاماً شعبياً فى المدن المصرية .. وسمك سليمان لا يعيش فى مياهنا ، فهو غير معروف فيها ، وإنما مواطنه البحار الشمالية ، البلطيق والأطلسى وفى أقصى الغرب فى المحيط الهادى . ويدخل سمك سليمان الأنهار

(*) Salmon

من البحر من مصباتها ، ويصل إلى منابعها حيث تضع إناثه البيض هناك . ويقال إن سمك سلمان لا يتغذى وهو فى النهر ، وتؤيد ذلك شواهد كثيرة من مختلف البلاد التى يصل سمك سلمان إلى أنهارها . ومما يعزز هذا الرأى أن القناة الهضمية تضمر إلى حد فى سمك سلمان أثناء وجوده بالأنهار ، بينما هو فى البحر يتجمع ويجد طلباً للغذاء . والواقع أن هذه المسألة ، أى صيام سمك سلمان فى الأنهار ، مدار جدل بين العلماء ؛ ذلك أن كثيراً ما يصاد سمك سلمان فى النهر بالسنارة ، فإذا كان يصوم حقيقة عن طعامه وهو فى النهر فلماذا إذن قد سعى لالتهام الطعم من ذبابة أو غيرها ، بل إنه قد صيد فى بعض الأحيان ووجدت بمعدته فريسة قد تكون سمكة ! ومع ذلك يظن أن هذا لا يحدث إلا عندما يصل سمك سلمان إلى النهر بقليل ، أما إذا توغل فيه حتى يصل إلى منبعه ، وهذا هو مقصده فى النهر ، فعبثاً يصاد بالسنارة .

أما كيف يعيش سمك سلمان فى النهر دون غذاء يجمعه لنفسه من الماء ، فالرد على ذلك أنه يعتمد فى هذه المرحلة من حياته على المواد التى اختزنها فى أنسجة جسمه إبان مكثه فى البحر ، أى قبل أن يصل إلى النهر ؛ وقد تمتد هذه الفترة التى يقضيها فى النهر إلى عام ، ومع ذلك فإنه يقضى هذا العام كله

دون غذاء . ويبدو أن سمك سلمان وهو فى النهر يريد أن يتغذى ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، فصيامه هذا رغماً منه ، وهو بالنسبة إليه مأساة ، ولكن الحقيقة هى أن جسم سمك سلمان عند ما يدخل النهر يكون مخزناً عظيماً للطاقة وذا قوة كبيرة فائقة ،



سمك سلمان وهو يقفز فوق سد فى نهر يبغى الوصول إلى منبعه

فهو حيث يصعد فى النهر من مصبه إلى منبعه ضد تيار الماء ومنحدرات النهر كثيراً ما تعترضه سدود من شلالات وغيرها ، فيقفز فوقها بقوة عظيمة ، حتى أنه ليبدو من بعيد كأنه سمك

طيار ، وهو ليس كذلك ، وإنما هو يعتمد فى قفزه على قوة عضلاته .

وإذا كان سمك سليمان ذكراً فعليه أن يحارب الذكور الأخرى ، كما أن عليه أن يدفع عن الإناث الأعداء من الأسماك التى تهاجمها ، ثم إنه إذا ما وصل إلى منبع النهر فعليه أن يعد مكاناً أميناً للأنثى كى تضع فيه البيض ، وبعد أن تضعه هذه يفرغ عليه سائله المنوى ، وعليه أن يرعى البيض مع الأنثى حتى يفقس عن الصغار .

وبعد أن ينتهى سمك سليمان الذكر من مهمته الشاقة المتعددة الواجبات يكون التعب بل الإرهاق قد أخذ منه كل مأخذ ، وبخاصة أنه كان طيلة هذه المدة صائماً عن الطعام ، فيترك نفسه منهكاً لتيار الماء فيجرفه هذا منحدراً به إلى مصب النهر : متقدماً بذيله متأخراً برأسه ، ويقذف به الماء إلى البحر ، وفى أغلب الأحوال لا يصل إلى البحر سالماً ، وإنما تنتهى الرحلة بموته ، وإن كانت بعض ذكور من سمك سليمان قد شوهدت تقوم بالرحلة بين البحر والنهر مرتين أو ثلاث مرات ، وقد يدهش القارىء لهذا التحديد ، إذ كيف يتأتى لنا أن نعرف عدد هذه المرات ؟ والواقع أن أمر هذا ميسور من فحص القشور التى تغطى جسم السمك ، فعلى كل قشرة توجد خطوط دائرية تسمى بخطوط

النمو كأنها الحلقات السنوية الموجودة فى خشب الأشجار المعمرة فهى تتكون مع تقدم عمر السمكة ، ذلك أن المواد الجديدة تضاف إلى القشرة حول الحافة فتبدو كالحلقة وتزداد الحلقات قدماً مع الزمن ، ويمكن من عد هذه الحلقات تقدير عمر السمكة .

والغالب أن سمك سليمان يموت بعد رحلته الأولى إلى النهر فلا يعود إلى البحر ، وبخاصة إذا كان النهر الذى يدخل إليه من البحر طويلاً ، كما هى الحال مع أنهار أمريكا الشمالية التى يصل طول بعضها إلى ألف ميل يقطعها سمك سليمان ويقفز فوق حواجزها الكثيرة حتى يصل إلى منابعها .

ويبدو أن الرجوع إلى الموطن فى سمك سليمان غريزة كامنة فيه ، ونقصد بالموطن هنا المكان الذى فقس وتربى فيه ، فهو ينزل إلى البحر ثم يعود إلى هذا المكان بعد أن يشتد ويصل إلى نضجه الجنسى ، ويذهب بعض العلماء إلى أن هذه الغريزة تساعدها حاسة الشم التى تصل إلى درجة عالية من التكوين فى سمك سليمان ، فقد شوهد سمك سليمان وهو يحاول دخول نهر التيمز الذى فسدت مياهه من قديم بما يلقى فيه من المخلفات البشرية ؛ ولكن فى أمريكا ، حيث تتجمع ملايين هذا السمك يحاول كل منها أن يدخل نهراً أو غديراً فينتخب كل نوع من

أنواع سمك سليمان نهراً بذاته ، فمثلا لا يدخل السلمون الأحمر إلا النهر أو الغدير الذى لا يبدأ فى بحيرة ، بينما تفضل كلاب السلمون* الغدران الصغيرة ، حتى إن هذه الكلاب إذا ما دخلت نهراً كبيراً نجدها تعرج مع أول رافد يصادفها من روافده الصغيرة التى تصب فيه .

وتشير الأمثلة التى ضربناها حتى الآن إلى أهمية وضع البيض فى مكان أمين هادىء ، فتهاجر الأسماك من المياه العميقة إلى المياه الضحلة ، ويغالى سمك سليمان فى هذا فيصل إلى منابع الأنهار حيث الهدوء المطلق ، للبعد بصغاره عن هياج البحر وثورته ضماناً لها من الهلاك فى المحيط المتسع الفسيح ، ولكن توجد أسماك تضع بيضها أينما كانت ، وهذه تتغلب على خطورة المكان بوضع كميات هائلة جداً من البيض الصغير الحجم . غير أن لدينا من الأسماك ما يسلك مسلكاً آخر جد مختلف هو على النقيض مما سمعنا به ، هذه الأسماك تنتقل من النهر الآمن الوادع نسبياً إلى عرض المحيط المتلاطم الأمواج لتضع بيضها فيه ، أو بالأحرى لتلقى بيضها فيه إلقاء وتتركه لرحمة تلك الأمواج تفعل به ما تشاء ؛ ومن أشهر الأمثلة لهذا النوع من الهجرة ، أى من النهر إلى البحر ثعبان السمك .

(*) Dog Salmon

ثعبان السمك ، وهو من أسماك النيل المشهورة ويكون طعاماً شعبياً يشتهيه كثير من الناس ، سمك شاذ له تاريخ حياة عجيبة حيرت العلماء سنين طويلة امتدت إلى قرون ، فهو يصل إلى نضجه الجنسى فى فترة تتراوح بين عشر سنين إلى أربع عشرة سنة (فى النهر ، مضافاً إليها ثلاث سنوات أخرى فى البحر) بينما لا يقتضى هذا النضج التناسلى من كثير من الأسماك سوى عام أو ثلاثة أعوام على الأكثر .

وثمة أنواع عدة من ثعابين السمك ، فمنها الكنجر [١] والمورينا [٢] إلى جانب الأنكليس [٣] الذى نحن بصدده . والمورينا هو ثعبان السمك الذى اشتهر قدماء الرومان بتربيته فى أحواض كبيرة ، وكان يصل إلى أحجام هائلة قدرت بثلاثة أو أربعة أمتار فى الطول أو أكثر . وهو مثل الكنجر يعيش فى البحر فلا يدخل أى منهما الأنهار وإنما يسلكان مسلكاً يشذ عن بقية الأسماك التى ذكرناها من قبل ، فهما يضعان البيض فى عرض البحر لا بالقرب من شواطئه حيث يعيش هذان النوعان متجولين بين صخور تلك الشواطىء .

أما ثعبان السمك من نوع الأنكليس ، فقد ظل تاريخ

---

(١) Conger

(٢) Muraena

(٣) Anguilla

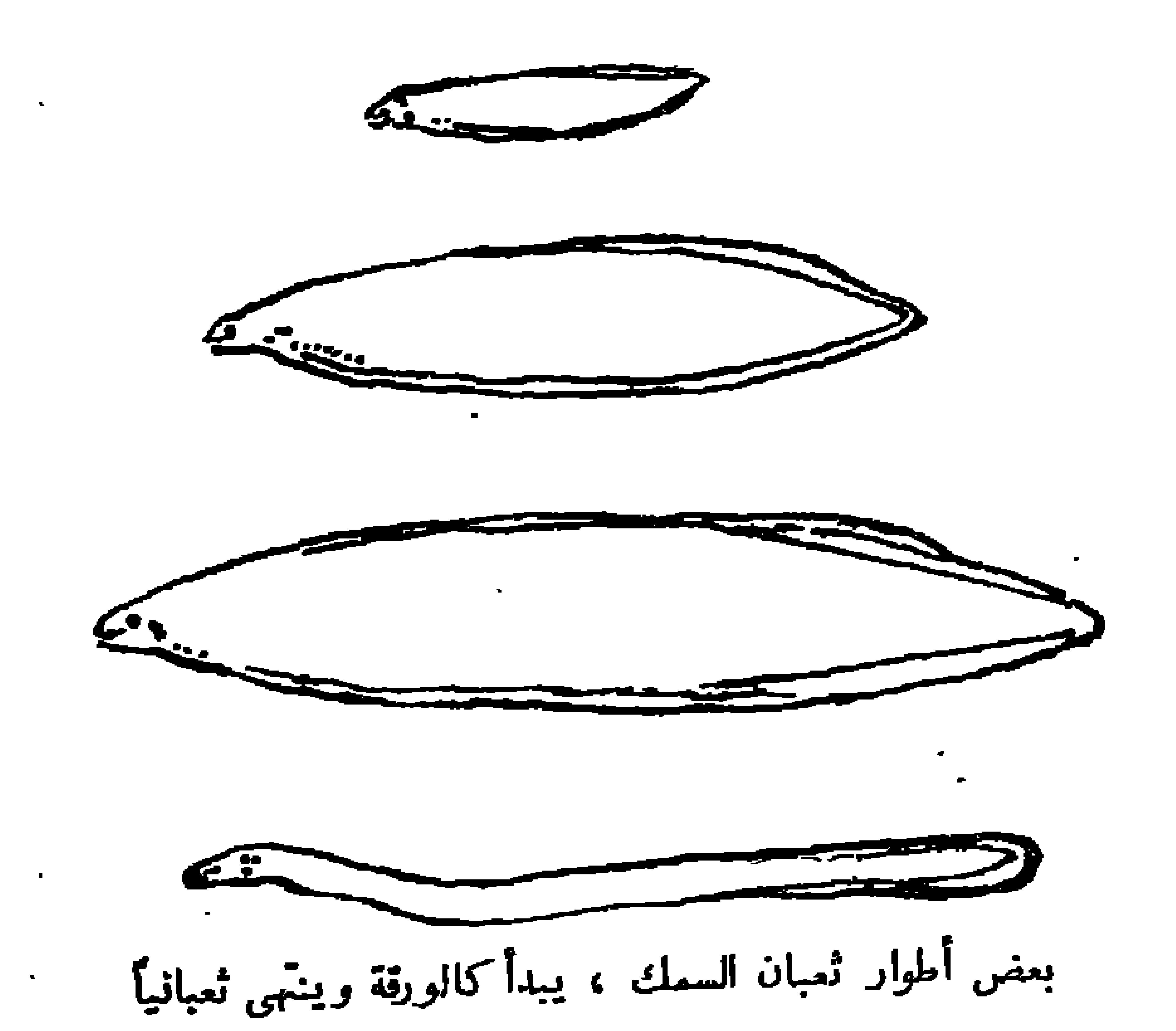
حياته محيراً للألباب طيلة قرون عدة حتى اكتشف فى بداية القرن الحاضر ، ويذهب بولنجيه [١] ، حجة الأسماك الأول فى القرن الحاضر ، إلى أن كشف تاريخ حياة ثعبان السمك يجب أن يضاف إلى سجل الشرف الذى يحق للقرن العشرين أن يزهو به بما توصل الإنسان إليه فيه من كشف وفتح ، ذلك أن ثعبان السمك كثيراً ما يظهر بكثرة ثم يختفى فجأة ، كما أن ظهوره فى رقع من المياه معزولة ، بعيدة عن البحر أو الأنهار ، قد حير ألمع العلماء وأفطنهم سنين عدداً ، ومع أن العلماء قد توصلوا إلى التعرف على تاريخ حياة ثعبان السمك إلا أن أحداً منهم لم يشاهد بعد البيض عند وضعه أبداً ، وكذلك لم يعثر أحد بعد على إناث ناضجة نضجاً تناسلياً ، أى تحتوى مبايضها على بيض تام النضج

والذى كان يعرفه القدماء ، أى قبل هذا القرن ، هو أن لثعبان السمك ألواناً عدة ، كما أن ثعبان السمك كثيراً ما كان يظهر فى بعض الحقول أثناء حرثها ، وكثيراً ما كان يظهر فى مياه منعزلة كما سبق القول ، كما أن الملايين العديدة من صغار ثعبان السمك كانت تجمع من السواحل المطلة على البحر فتحول إلى فطائر شهية المذاق . وقد عرفت فى نهاية القرن الثامن عشر كائنات بحرية صغيرة كان يطلق عليها اسم لبتوسفالس [٢] ،

---

(١) Boulenger

(٢) Leptocephalus



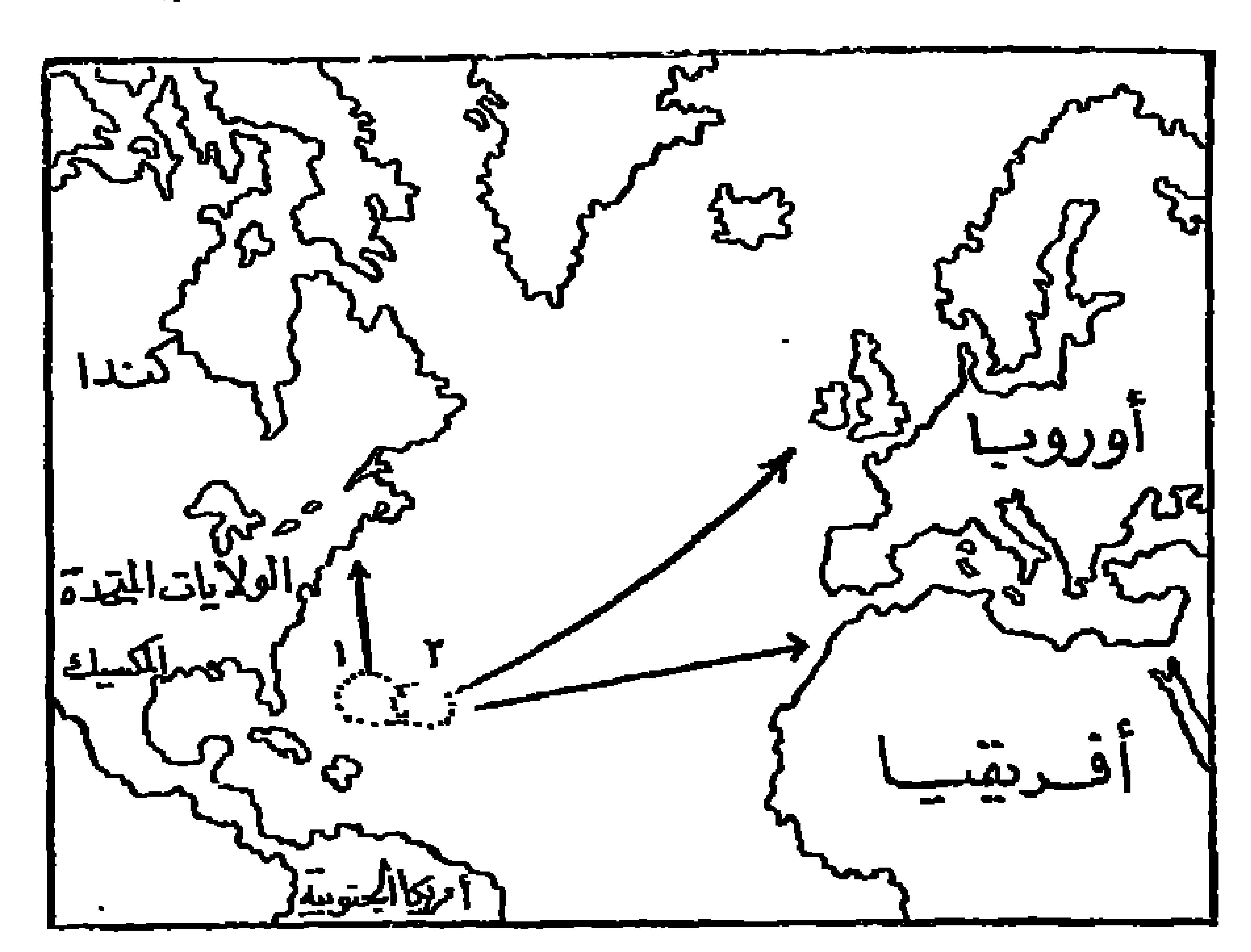
بعض أطوار ثعبان السمك ، يبدأ كالورقة وينتهي ثعبانياً

ولاسمها رنانية لاتينية علمية ، ذلك أنهم ظنوا أن هذه الكائنات مستقلة بذاتها تكون نوعاً كأية أنواع أخرى من ضروب الحيوان ، فلما حفظوا منها بعضها إذا بها بعد حين تتحول إلى ثعابين صغيرة ، ذلك أن اللبتوسفالس يشبه الورقة ، مضغوط الجانبين ذا أسنان حادة وعينين كبيرتين ، فإذا به يتحول إلى شكل ثعباني أي أسطواني وتتساقط أسنانه وتصغر عيناه ، وبذلك تم أول كشف في تاريخ الحياة بالتعرف على العلاقة بين اللبتوسفالس والأنكليس

اليافع ، ولكن السـؤال بدأ يتردد : من أين أتى اللبتوسفالس ؟

فى عام ١٨٩٣ عثر اثنان من علماء الأسماك الأيطاليين على عدد كبير من اللبتوسفالس فى خليج مسينا ، ولكن لم يعثر أحد حتى ذلك العام على أى منها خارج البحر الأبيض المتوسط ، وفى عام ١٩٠٤ تمكن الدكتور يوهانس شميدت من العثور على لبتوسفالس عند شواطىء جزر فارو الواقعة بين ايسلندة وأسكتلندة ، وكان طوله سبعة سنتيمترات ونصفاً ، وكان يعرف لدى المشتغلين فى المعامل العلمية بأنه يرقة ثعبان السمك . ومنذ ذلك العام بدأ البحث الجدى عن هذه اليرقة . فطلب من السفن التجارية وغيرها المعاونة فى هذا البحث ، فكانت كل سفينة تشد إليها شبكة خاصة تجمع بها من الماء صغار الحيوانات ، ذلك أن لهذه الشبكة شكلاً خاصاً ، فهى مخروطية الشكل ضيقة العيون وتنتهى بعلبة جدرانها من القماش ، وكانت تجمع العينات من كل مكان فى المحيط ومن أعماق مختلفة . وقد دلت المشاهدات الأولى ، أى من فحص العينات التى جمعتها السفن التجارية ، على أن عينات اللبتوسفالس كانت تتناقص فى الحجم كلما اتجهت السفن غرباً ، ولكنها كانت تزيد فى العدد كلما كان اتجاه السفن عكس ذلك ، أى شرقاً . وعلى

ذلك توغلت السفن فى بحثها ناحية الغرب حتى وصلت إلى جزر برمودا ، وقد دلت العينات التى جمعت من تلك المنطقة على وجود عينتين اثنتين من اللبتوسفالس ، عينة من يرقات ثعبان السمك الأوروبى ، وعينة أخرى من يرقات ثعبان السمك الأمريكى ، ولكن النوعين لا يجتمعان أبداً ، ذلك أن يرقات ثعبان السمك الأمريكى كانت توجد فى المنطقة الواقعة بين الأرض الرئيسية (أى أمريكا) وجزر الهند الغربية لا شرقها أبداً .



(١) تبين منطقة وضع البيض عند ثعبان السمك الأمريكى .
(٢) منطقة وضع البيض عند ثعبان السمك الأوروبى .
وتبين الأسهم خط سير اللبتوسفالس (أى اليرقات) فى كل حالة من الثعبانين .

وبمقدم الربيع ، تتجمع ثعابين السمك الأوروبية والأمريكية اليافعة فى أعداد لا حصر لها ، ويستمر هذا التجمع حتى نهاية الصيف ، فى المياه العميقة للمحيط الأطلسى ، ويغلب على الظن أن كل هذه الجموع العديدة من الثعابين تهلك فى تلك المياه ، ولكن بعد أن تكون قد حات مكانها الملايين التى لا حصر لها من اليرقات (اللبتوسفالس) .

أما اليرقات الأمريكية فتتجه غرباً إلى أمريكا فتصل إليها فى حوالى عام ، ولكن اليرقات الأوروبية تتجه شرقاً ، وهى تسبح فى البداية قريباً من قاع المحيط ، ثم تصعد تدريجياً إلى أعلى مع تقدم الشهور ، وبالطبع تموت منها نسبة كبيرة ، خلال ثلاث سنوات طويلة تصل فى نهايتها إلى شواطئ أوروبا والبحر الأبيض المتوسط . وهى تتغذى فى بداية الأمر من الكائنات الدقيقة فتهاجمها من كل اتجاه ، كما أنها هى بدورها تكون هدفاً لأعداء كثيرين ، منها الأسماك ومنها الطيور البحرية الكثيرة التى تكون على دراية بتجمعاتها .

وسرعان ما يتغير شكل اليرقة الورقى إلى الشكل الأسطوانى ، ويتغير الجسم المستشف إلى جسم زيتونى أخضر اللون ، وتزداد شهيتها للأكل فتهاجم كل ما يصغرها فى الحجم ، وما أن تصل هذه إلى الأنهار حتى تدخلها فلا ينجو منها نهر واحد .

وما أن يحل بها أول صيف منذ وصولها إلى النهر (أى بعد ثلاث سنوات) حتى تكون قد تحولت إلى ثعابين كبيرة ، تهاجم وتأكل وتحطم كل ما يصادفها من حيوان ، فقد استطالت أجسامها وتحولت ذيولها إلى أعضاء سباحة ، بل وإلى أعضاء تثبيت ، تثبت بها نفسها فى الطمى لتتقى شدة تيار النهر ، كما أنها تتحرك فى الماء بتموجات عضلاتها ، أى حركة ثعبانية ، وتستطيع أن تكمن بين الصخور وتطل برؤوسها فقط منها لتتلقف أى حيوان تقدر عليه يمر من أمامها .

وكلما نمت ثعابين السمك زادت قدرتها على الحركة ، لا فى الماء فحسب بل وعلى اليابسة أيضاً ، إذ يستخدم ثعبان السمك زعانفه فى المشى على اليابسة ! فلثعبان السمك القدرة على التجول على الأرض بفضل ما يختزنه من ماء حول خياشيمه ، وكذلك لأن جلده عار إلا من قشور صغيرة غائرة فى أدمة الجلد ، فهو ، أى الجلد ، يعين على التنفس كما يذهب فى ذلك كثير من العلماء . وهو بالطبع يفضل التجول على الأرض الرطبة التى تكسوها الحشائش المنداة بالماء ، لا على الأرض الصلبة الجافة . وتجول ثعبان السمك على الأرض يفسر وجوده فى بعض بحيرات سويسرة التى تعلو عن الأرض ببضعة آلاف من الأقدام .

وتعيش الذكور منفصلة عن الإناث فى الأنهار ؛ والأناث

أضخم من الذكور وكثيراً ما تهاجم الإناث الذكور فتلتهمها ، أو العكس على حسب حجم المهاجم ، ولكن ثعابين السمك تتواءم وتتحاب عند ما تصل إلى نضجها الجنسى ، ويتم ذلك فى سبع سنين أو أكثر أو أقل ، فذلك من المسائل التى لم تعرف بعد على وجه التحديد ، وما أن يتم لها نضجها الجنسى حتى تتدافع ناحية البحر ، من كل مكان كانت فيه ، فى نهر أوروبى أو إفريقى ، أو بحيرة سويسرية أو غيرها ، وهى عندئذ تكون قد بلغت عنفوانها قوة وبدناً واكتنازاً بالشحم ، ويتغير لونها من الزيتونى الأخضر إلى الفضى فتعرف عندئذ بالثعابين الفضية ، والناس على دراية بهجرتها فيتلقفونها بكل الوسائل ، بالشباك والسنارة وما أشبه ، وما تنطلق ثعابين السمك إلى البحر حتى تتنبه إليها ذئاب البحر الكبيرة كالقروش والقوابع وغيرها ، فهذه لم تعرها التفاتاً إبان طفولتها ، أى عند ما كانت يرقات صغيرة قادمة من الغرب إلى الشرق ، أما وهى يافعة يانعة فكلها إغراء .

وبالرغم من تلك الأعداء مجتمعة ، الإنسان ووحوش السمك فإن ثعابين السمك لم تقل أبداً عن ذى قبل ، بل هى باقية تكون مدداً من الطعام للإنسان منذ أن عرفها ، وذلك بفضل ما تتمتع به من ملاءمتها للطبيعة وقدرتها على التكاثر ، فهى تعيش فى البحر

وتتعرض لشروره وملوحته فى طفولتها وتعيش فى النهر وتتجول على الأرض وتصعد فوق الجبال وتتحمل الجفاف بأن تدفن نفسها فى الطين ، فى أطوارها اليافعة ، كما أنها تضع ملايين البيض ، وهذا كله يفسر سر عظمة ثعبان السمك .

ومن الأسماك المعروفة بالهجرة فى مياهنا المصرية البورى والطوبار ، وهما يسلكان نفس السبيل كما يشبه كل منهما الآخر شبهاً وثيقاً ، ويصعب على سكان المدن الداخلية التمييز بينهما ، وإن كان هذا ميسوراً لدى سكان المدن الساحلية ولدى الصيادين بطبيعة الحال .

ويعيش البورى والطوبار فى البحر الأبيض المتوسط ، ويعتبران من أكثر الأسماك عدداً فى المصائد المصرية بعد البلطى ، والبورى أكبر حجماً من الطوبار ويدخل كل منهما البحيرات ، المنزلة والبرلس وإدكو ومريوط ، ويعمل رجال المصائد على نقل صغارهما إلى تلك البحيرات ، وإلى بحيرة قارون بكافة الوسائل ، ذلك أن البورى والطوبار يضعان البيض فى البحر فى فصل يمتد من شهر مايو حتى نوفمبر ، وبعد أن يفقس البيض عن صغار تتجه هذه إلى البحيرات ومصبى النيل . ويكون الصيادون على دراية بخروج الكبار إلى البحر فيتلقفونها بشباكهم ، كما أنهم على دراية برجوع الصغار (أو الذريعة) إلى البحيرات والنيل ،

فيصيدونها بشباك ضيقة العيون لبيعها بالمكيال طعاماً للدجاج ، وهذا من أسوأ ما يفعله الصيادون بثروة أسماكهم ؛ ولذلك عمدت الحكومة إلى سن القوانين المختلفة لمنع صيد مثل هذه الصغار خاصة ، ويراقب رجال المصائد الصيادين فى تلك المناطق لمنع هذا الصيد المبنى على الجهل والسفه ، وبالطبع يحاول رجال المصائد إكثار البورى بتخصيص أحواض كبيرة لتربية الصغار فيها ثم نقلها إلى البحيرات المصرية المختلفة إبقاء على هذا السمك الشهى بكثرة فى المياه المصرية .

والبورى والطوبار من الأسماك الاجتماعية ، فيظهران فى مجموعات كبيرة تقدر أحياناً بعدة مئات لكل مجموعة ، وهى تفضل الأماكن العميقة فى البركة ، وكثيراً ما تشاهد وهى تقفز فوق الماء إلى علو متر أو يزيد وتحط على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار ، وتتكرر هذه العملية عدة مرات ثم ينتهى قفزها بعد أن تكون قد غيرت أمكنتها من قاع البحيرة . وتتغذى هذه الأسماك من النباتات ، ولذلك نجد لها قانصة عضلية قوية تشبه قانصة الطيور، تطحن بها جدران الخلايا النباتية وجدران النباتات الدقيقة المعروفة بالدياتوميا .

ولو أن هذه الأسماك تفضل المعيشة فى البحيرات إلا أنها تستطيع أن تتوغل فى نهر النيل إلى مسافات بعيدة قد تصل بها

إلى أسوان ، وإن كان هذا نادراً ، وتشتهر مدن كثيرة من مدن الوجه البحرى كالمنصورة بصيد البورى وتمليحه لعمل « الفسيخ »

ويعرف نوع آخر من هذه الأسماك ، اسمه القرن[١] ، يعيش فى البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الشاطىء ، ولكنه لا يدخل البحيرات إلا نادراً ، وهو إن فعل فلا بد أن يتركها إلى البحر لوضع البيض ، تماماً كنوعى جنسه البورى والطوبار . وأكثر هذه الأنواع الثلاثة انتشاراً هو البورى الذى يعرف فى كثير من أنحاء الدنيا ، من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسى والهادى ، ويدخل كثيراً من الأنهار الأفريقية والأوروبية والأمريكية .

من هذا كله يمكننا أن نميز نوعين من الهجرة فى الأسماك : هجرة صاعدة [٢] تتحرك فيها الأسماك إلى مواطن التزاوج فى المياه الضحلة أو تجاهها أو فى المياه العذبة أو رؤوس الأنهار ، ومن أمثلتها التنة وسمك سليمان ، وهجرة هابطة [٣] حيث تتجه الأسماك المهاجرة إلى مواطن تزاوجها فى المياه العميقة أو تجاهها ، وتلك عادة تكون فى البحر ، ومن أمثلتها ثعبان السمك والبورى والطوبار .

---

(١) Mugil anratus

(٢) Anadromous

(٣) Catadromous

ومجمل القول بخصوص الهجرة فى الأسماك أنه ينبغى التفرقة بين دافع التجول بحثاً عن الغذاء وبين دافع الهجرة ، فالهدف من الأول الحصول على شيء (هو الغذاء) بينما هدف الثانى التخلص من شيء (هو البيض) والثانى أشد دفعاً للسمك من الأول ، حتى أن بعض العلماء يصفونه بأنه مَرَضى ، فهو يؤثر على كل جزء من الجسم ويصل من القوة درجة أن السمكة تتجاهل كل ما يحيق بها من متاعب ومصاعب ولو كان فى ذلك هلاكها ، فسمك سليمان عند ما يقفز فوق حواجز النهر ، وهو فى طريقه إلى منبع ذلك النهر ، كثيراً ما يسقط فوق الصخور فيتهشم رأسه ، أو ثعابين السمك ، عند ما تصل إلى أحجامها العظيمة فى النهر ، حيث تكون فيها سادة ، تخرج إلى البحر مخاطرة وسط أعداء أشداء أقوياء من قروش وقوابع وغيرها . وفى كلتا الحالتين يمتثل السمك ويستجيب لنداء التزاوج . ويصحب هذا النداء ، وهو تعبير دارج لا تحديد له من الناحية العلمية ، تغير داخلى فى الدم ، وربما فى « ضغط الدم » ، فكلما زاد « ضغط الدم » كلما زادت الحاجة إلى وسط خارجى مرتفع الضغط ، وهو الماء المالح ، أى ماء البحر ، وعلى ذلك عند ما يحل فصل التزاوج يرتفع « ضغط الدم » فى ثعبان السمك فيندفع إلى البحر اندفاعاً شديداً ، وبالعكس بالنسبة للأسماك التى

تدخل النهر من البحر كسمك سليمان فإن « ضغط الدم » فيها يقل فتتدفع إلى النهر من البحر .

ولنترك الماء الآن لنتحدث عن الهجرة فى الهواء ، وإن كنا سوف نعود إليه عوداً قليلاً فيما بعد .

الفصل الثالث

هجرة الحشرات

ليس للحشرات فى التعبير الدارج تحديد فى الأذهان ، فكلمة حشرة تطلق فى هذا التعبير على كل حيوان تافه صغير قد يكون ضاراً أو قد لا يكون ، فالعقارب والعناكب والفاش والقراد والديدان وصفت إنها حشرات ، حتى الثعابين أطلق عليها بعض الأدباء الحشرات ، ولكن الحشرات فى التحديد العلمى مفصليات ذات ست أرجل ، أى أن أرجلها ست فى العدد لاتنقص ولا تزيد ، كما أن هذه الأرجل تتركب كل منها من قطع تتصل مع بعضها اتصالا مفصلياً ، وعلى أساس هذا التعريف الواضح تخرج كل الحيوانات التى عددناها فى هذه الفقرة من رتبة الحشرات ، فلها فى رتب أخرى مقاعد تتربع عليها.

وتكون الحشرات رتبة كبيرة ، هى أكبر رتب المملكة الحيوانية قاطبة من حيث عدد أنواعها ، فهى تفوق من حيث هذا العدد جميع أنواع الحيوانات الأخرى مجتمعة ، فهى إذن

رتبة ناجحة تمام النجاح ، وهى تمتاز بأن جسمها مغطى بطبقة قرنية صلبة ، كما أن لها أعضاء تنفسية خاصة عبارة عن شبكة من الأنابيب تسمى بالقصبات الهوائية تتصل بالخارج بواسطة فتحات خاصة ثم تتفرع فى جسم الحشرة تفرعات عديدة فتتخلل جميع أنسجة الجسم مما يسهل عملية تبادل الغازات بينها وبين الهواء ، وتظل القصبات مفتوحة بفضل تغلظات لولبية فى جدرانها ، ويدخل الهواء فيها ويخرج منها عن طريق تحركات عضلاتها أثناء السير أو الطيران . وللحشرات زوجان من الأجنحة كما هى الحال فى الفراش والجراد والصراصير ، أو زوج واحد فقط كما هى الحال فى الذباب والبعوض ، أو قد تنعدم الأجنحة كلية كما هى الحال فى السمك الفضى * ، وهو حشرة فضية اللون لامعته نراها خلف إطارات الصور وبين الكتب فى المنازل والدور ، ومن أمثلة الأخيرة أيضاً معظم الحشرات المتطفلة على الإنسان كالبق والقمل والبراغيث ، وإن كانت هذه قد فقدت الأجنحة فقداناً ثانوياً .

وللحشرات تطور أو تحور فى تاريخ الحياة ، فقد يكون هذا التاريخ خلواً من هذا التطور فتفقس البيضة عن حشرة صغيرة تشبه أبويها تمام الشبه فلا تتحور وإنما تنمو فقط ، ومن

(*) Silver-fish

أمثلتها السمك الفضى الذى أشرنا إليه ؛ أو قد يكون التطور ناقصاً أو غير كامل ، إذ تفقس البيضة عن حورية تشبه أبويها كثيراً ولكنها تختلف عنها فى غياب الأجنحة وعدم نضج الأعضاء التناسلية ثم تكتمل الحورية تطورها إلى الحشرة اليافعة ، ومن أمثلة هذا النوع الصراصير والجراد والبق وغيرها ، وأخيراً قد يكون التطور كاملاً تفقس فيه البيضة عن يرقة تختلف عن أبويها فى الشكل كثيراً ثم تتحور هذه إلى عذراء عادة ما تقضى حياتها داخل شرنقة فى سكون فلا تتغذى ، ثم تتطور فى النهاية إلى الحشرة اليافعة ، ومن أمثلة هذا النوع الفراش والنمل والنحل والخنافس والذباب والبعوض وغيرها .

وكثيراً ما نجد بين الحشرات ارتحالاً وتجوالاً كما شاهدناه فى الثدييات ، ومن أمثلة ذلك النمل المتجول(١) الذى يعيش فى أمريكا الجنوبية والوسطى . فهذا النمل لا يبنى مساكن دائمة كالنمل الذى نعرفه فى بيوتنا ، وإنما هو يتجول من مكان إلى آخر وراء الغذاء ، وإن كان يبنى أعشاشاً مؤقتة ليضع فيها البيض الذى يفقس عن اليرقات ، وتتحور هذه إلى عذارى تكتمل تحورها إلى نمل يافع . وفى بعض الأحيان يغزو هذا النمل مساكن البشر فى جموع عظيمة كأنها الجيوش الغازية ثم

---

(١) Wandcring arts (*Eciton*)

يختفى منها ، وتفسير ذلك بسيط ، فلا تغير يذكر فى حرارة الجو فى المناطق التى يعيش فيها إبان غزوه هذا وجلائه ، ولكنه القوت قد نضب من البقعة التى يغزوها ، فيتركها إلى بقعة أخرى قريبة ، وعلى الرغم من قرب المكانين تعد تحركات هذا النمل تجوالاً .

ويعرف عن أنواع أخرى من النمل ، وكذلك عن النمل الأبيض وهو نمل جد مختلف ، وكذلك يعرف عن النحل ، تجول وارتحال يصحبه فى بعض الأحيان طيران التزاوج ، أى تطير الملكة ومن خلفها الذكور كل يسعى للحاق بها لتلقيحها .

ومن أشهر الحشرات المهاجرة أنواع عدة من الفراش وأبى دقيق ،فهذه الحشرات تتجمع وتهاجر هجرة حقيقية، فهى لا تترك نفسها للرياح تدفع بها كما تحلو لها إلا قسراً عنها ، وإنما هى تطير طيراناً حقيقياً ولمسافات طويلة ، فى نفس الاتجاه ، سنة بعد أخرى دون الالتفات إلى الريح أو الشمس أو أى عامل آخر ، فهذه لا تقف حائلاً دونها إذا ما قررت الهجرة . ومن أشهر الأنواع قدرة على الهجرة المنتظمة النوع المعروف بأبى دقيق السلطانى [١] ، وهو نوع ضخم يبلغ عرضه عند بسط جناحيه الأماميين حوالى عشرة سنتيمترات ، أجنحته بنية برتقالية ذات

---

(١) Monarch Butterfly

عروق سوداء ، وهو يعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية .

يقضى أبو دقيق السلطانى هذا شتاءه فى الولايات الجنوبية خاملاً ، ثم يصحو مع الربيع ليبدأ رحلته إلى الشمال ، وهو يطير بسرعة ، وتقف الإناث هنا وهنالك لتضع البيض ثم تنضم إلى السرب ، ويطير السرب أثناء الليل ، وكذلك أثناء النهار فوق مساحة كبيرة من الأرض ، يقدر عرضها بآلاف الأميال ، وتتكون أسراب عديدة ، فلا يخلو الجو منها فى هذا الفصل . وقد تصادفها أجواء سيئة فتهبط إلى الأرض إذا ما اشتدت عليها الريح ، لأنها تعرف أن تأثير الريح فوق سطح الأرض أقل منه فوقه ، أو قد تعلو إلى طبقة عالية من الجو حتى تختفى عن الأنظار ، وهى بين هذه وتلك تقع تحت تأثير الرياح التى قد تقذف بها بعيداً ، تارة تعبر بها المحيط الأطلسى شرقاً وتصل بها فوق الجزر البريطانية ، وإلى أبعد من ذلك أحياناً ، فقد وصل أبو دقيق السلطانى إلى أستراليا وجزر الفلبين ، وإلى جزر الرأس الأخضر ، وبنت فى كل تلك البقاع مستعمرات ، ثم إنها تتجمع من جديد لتهاجر إلى الشمال فتصل إلى الملايو وإلى إفريقيا .

وإذا ما أقبل على جموع أبى دقيق السلطانى الخريف ، تجمعت هى ، أو أبناؤها ، لتترك مصايفها فى الولايات الشمالية وكندا لتتجه إلى الجنوب ، إلى مشاتيها التى تبعد عن مصايفها

بعدة آلاف من الأميال .

ويقدر عدد أنواع أبى دقيق والفراش التى تهاجر بمائتين ، ومنها ما يستطيع عبور البحار طيراناً لا دفعاً بالريح ، فهناك أنواع تعبر البحر الأبيض المتوسط شمالاً وجنوباً ، وقد شوهدت مثل هذه الأنواع تحط على سطح الماء لتستريح عليه كأنها النوارس وجلم الماء وغيرها من طيور الماء التى تتوغل فى البحار والمحيطات .

ومن الحشرات المهاجرة نوع من الرعاش* ، كبير الحجم يصل طوله إلى سبعة سنتيمترات ونصف ، ويضرب لونه إلى الخضرة وإن كانت أجنحته سنجابية . وهو قوى الطيران واسع الانتشار فى مصر ، وكثيراً ما يشاهد متجمعاً فى شهر مارس فى أسراب يظنها بعض الناس جراداً وما هى بالجراد . ويضع الرعاش بيضه فى الماء الذى يفقس عن حوريات لا تختلف كثيراً عن الحشرة اليافعة سوى أنها تعيش فى الماء ثم تقضى فترة تحورها لتتركه طائرة فى الهواء .

ومن الحشرات المهاجرة ، ولعلها أشهرها جميعاً ، الجراد . والجراد وإن كان غنيًّا عن التعريف إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن أنواعه كثيرة ، يعرف منها فى مصر الجراد الصحراوى والجراد

(*) Dragonfly

المستوطن أو الروسى[1] ، وكل هذه كبيرة الحجم . وإلى جانب هذه الأنواع الثلاثة توجد أنواع أخرى من الجراد الصغيرة الحجم ، ويطلق عليها اسم النطاط[2] ، وهذه كثيرة ، منها نطاط الأرز ونطاط البرسيم والنطاط ذو الجناح الأحمر وغيرها ، وكثيراً ما يخلط بين هذه الأنواع من النطاط وبين حوريات الجراد ، ومصدر هذا الخلط أن حوريات الجراد فى أطوارها الأولى تكون صغيرة ، وقد تدانى النطاط فى حجمها ، ولكن الحوريات لا تستطيع الطيران ، ذلك لأن أجنحتها لا تكون قد اكتمل تكوينها ، أما فى النطاط اليافع فإن أجنحته كاملة فعالة .

والجراد الصحراوى[3] هو أخطر أنواع الجراد والنطاط فى مصر ، ذلك أنه هو النوع الذى يهاجر ويظهر فى حالة وبائية فى سنين كثيرة ، وإن كانت غير رتيبة . وللجراد المهاجر مظهران مظهر انفرادى وآخر رحال . ويختلف المظهران فى اللون والشكل العام ، كما أن لكل منهما مسلكاً خاصاً يميزه عن الآخر . والطور (أى المظهر) الرحال هو المهاجر ويمتاز بتجمعه أسراباً ، وهو ينتج عن الطور الآخر أى الانفرادى .

---

(١) انظر كتاب الحشرات الاقتصادية فى مصر للدكتور أحمد سالم حسن .

(٢) Grasshoppers

(٣) Schistocerca gregaria

ويبلغ طول الجرادة اليافعة أربعة سنتيمترات ونصفاً ، قد تزيد واحداً ، وهى صفراء اللون ، تكتسبه بعد نضجها التناسلى ، أما قبله فتكون حمراء ، ولذلك يسهل التمييز بين اليافع وغير اليافع من الجراد الصحراوى باللون .

وتغير أسراب الجراد على مصر كثيراً ، آخرها كان فى شتاء ١٩٥٦ ، فقد مر السرب فوق القاهرة ، وكان غير ناضج تناسلياً ، ذلك لأن لونه كان أحمر . وقد مرت أسراب أخرى كثيرة بدأت عام ١٩٢٧ وانتهت عام ١٩٣٢ ، وبلغت ذروتها فى عامى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ . وبالطبع أغارت على مصر أسراب عديدة قبل هذه السنوات ، فى عام ١٩١٥ ثم ١٩٠٥ ثم ١٨٩١ فيما قبلها على قدر ما يعى التاريخ الحديث ، ولكن لا بد أن تكون مصر قد قاست منه الكثير على مر العصور ، فالجراد كان معروفاً للقدماء المصريين ، فهم قد نقشوا صوره على معابدهم ، أقدمها ترجع إلى عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد على حائط مقبرة مصرية .

ويتزاوج الجراد على مدار السنة ، فهو يضع البيض فى حفرات تحفرها الأنثى بآلة وضع البيض القوية المتصلة بنهاية جسمها من الخلف ، ثم تفرز عليه مادة كالرغوة تتجمد عند تعرضها للهواء لكى تحفظ البيض من العوامل الطبيعية ومن الأعداء . ويفقس البيض بعد فترة تتراوح بين عشرة وسبعين

يوماً على حسب درجتى الحرارة والرطوبة عن حوريات تكون فى البداية ضعيفة صغيرة ، ولكنها سرعان ما تتجمع وتتغذى وتكبر فى الحجم ، ويكون لونها فى البداية أسود به بقع خضراء مصفرة أو العكس ، ثم تنسلخ ، أى تغير جلدها ، فيزيد طولها على سنتيمتر واحد بقليل ، ثم تدخل الحوريات بعد ذلك فى طور جديد ، ذلك أنها تنسلخ مرة أخرى ويزداد طولها إلى حوالى ستة عشر مليمتراً وتنبت الأجنحة وإن كانت هذه لا تكون ظاهرة كثيراً فهى غير فعالة فى هذه المرحلة .

وتتغذى الحوريات بشراهة فتزداد خطورتها ، وفى الطور التالى ، أى الرابع ، تزيد فى الحجم فتصل إلى ستة وعشرين مليمتراً فى الذكر واثنين وثلاثين مليمتراً فى الأنثى . وتظهر الأجنحة فى هذا الطور بشكل ملموس . وتزداد قدرة الحوريات على التجمع والسير إلى مسافات قد تمتد إلى مئات الأمتار ، ثم تنسلخ هذه مرة أخرى .

ومع الانسلاخ الجديد يشتد ضرر الحوريات ، وتزداد شراهتها ، وفى النهاية تصل الحشرة إلى الطور الكامل عند ما تغدو جرادة كبيرة الأجنحة قوية الطيران . وقد تتجمع وتهاجر كما حدث فى شتاء ١٩٥٦ عند ما أغارت على مصر بأسراب

كبيرة العدد ، وإن كان خطرها لم يكن شديداً ، ذلك لأنها لم تستقر فيها ، وإنما اتجهت إلى الشمال الشرقى ناحية فلسطين .

وهجرة الجراد من المشاكل التى لقيت من عناية العلماء ودراساتهم الكثير ، وأسست المراكز لدراستها لمقاومة تلك الحشرة اللعينة ، وكثيراً ما تعقد المؤتمرات العلمية لتدارس أمر هذه الحشرة التى تلحق بالإنسان ومزروعاته أكبر الضرر. ومن أهم ما وصلت إليه الأبحاث ما قام به أوفاروف * الروسى بنظريته المشهورة عن الجراد والمعروفة بنظرية المظهر ، وأثبت بها أن المظهر الانفرادى والمظهر الرحال هما مظهران لحشرة واحدة لا مظهران لنوعين مختلفين من الجراد .

وتمتد مناطق الجراد إلى مساحات واسعة بين شرق إفريقيا وأواسطها وبلاد العرب ، حيث تعيش فى تلك المناطق جموع من الجراد فى المظهر الانفرادى ، ثم إن الجراد بعد ذلك يتحول إلى المظهر الرحال ، ويتجمع تجمعات كبيرة ، فتتكون منها أسراب ، ينتظم السرب ملايين عديدة من الأفراد ، فإذا ما طار السرب حجب الشمس ، ذلك أنه يبلغ فى الطول من ثلاثين إلى ستين ميلاً وفى العمق نصف ميل أو أكثر بعرض يصل إلى عشرين ميلاً ؛ وقد يطير السرب الواحد مسافة طويلة جداً ،

(*) Uvarov

إلى ألف وخمسمائة ميل دون توقف فى بعض الأحيان ، وقد يكون طيرانه قريباً من سطح الأرض ، وقد يرتفع السرب فى طيرانه إلى ارتفاع عظيم ، لا يوقفه شىء ، لا الرياح ولا الحر ، ولو أن الأمطار قد تؤثر عليه إلى حين .

فإذا ما حط السرب فى النهاية فوق أرض منزرعة لم يبق فيها عوداً أخضر أو يابساً إلا أكله ، فهو مخرب إلى أقصى درجات التخريب ولا يترك الأرض إلا قاعاً صفصفاً ، خراباً يباباً .

أما لماذا تجمع الجراد ، ومن ثم تحرك فى تلك الأسراب العجيبة فأمر لا يزال بعيداً عن التفسير ، فهل هو الغذاء ينضب معينه فيسعى الجراد إلى الأرض المنزرعة يسد حاجته من نباتها ؟ الواقع أن ذلك ليس هو السبب الحقيقى ، فكثيراً ما يبدأ الجراد التحرك من مكان يكثر فيه النبات ويرتحل ويحط فى مكان قفر لا نبات فيه ولا زرع !

وهل يدفع بالجراد إلى الهجرة تغير داخلى فسيولوجى ينادى بالطيران ؟ الذى يؤدى إلى أداء وظيفة من وظائف الجسم ، ذلك أننا قد عرفنا أن دخول الهواء فى القصبات الهوائية وخروجه منها إنما يتم بفضل تحركات عضلات الجسم ، وكلما كانت حركة العضلات من انقباض وانبساط كبيرة ، كما يحدث أثناء الطيران ، كلما زاد دخول الهواء وخروجه من الجسم ، وبذلك تتم « تهويته »

ويزداد الأكسجين اللازم لعملية الاحتراق ؛ وهذه بدورها تساعد على نمو أعضاء التناسل فيتم فى النهاية نضجها ، ولذلك يتغير لون الجراد من الأحمر إلى الأصفر عقب هذا الطيران ؛ ولا يزال كثير من العلماء الحشريين يعتنقون هذا المذهب فى تفسير الهجرة ، وإن كان الجزم به ليس من الصواب فى شىء .

وقد توصل كينيدى * ، الذى قام بأبحاث كثيرة عن الجراد على سواحل البحر الأحمر فى السودان ، إلى أن تكون السرب تسبقه ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : هى مرحلة التكاثف ، ذلك أن أعداد الجراد تزيد فى منطقة محدودة ، ويتكون جيلان فى تلك المنطقة تحد من انتشارهما أمطار الشتاء الغزيرة .

المرحلة الثانية : هى مرحلة التجمع ، ذلك أن الحوريات تتجمع على أعواد الذرة العويجة التى كثيراً ما تكون هى النبات المتزرع فى المنطقة ، فتحميها أعواد تلك الذرة من الرياح ، ويكون لدرجة الحرارة تأثير مباشر على الحوريات للانتقال إلى المرحلة الثالثة ، فهى عند ما تنتقل عند ارتفاع درجة الحرارة نحول الظهيرة إلى أماكن أقل حرارة تتجاور الأفراد فى تلك الفترة وإن كانت تتفرق بين أعواد الذرة إذا ما هبطت درجة الحرارة ،

(*) Kennedy

وتتكرر هذه العملية عدة مرات فتصحو فيها الغريزة الكامنة وتنادى بها إلى التجمهر .

المرحلة الثالثة : وهى مرحلة التجمهر ، وهى تبدأ مع عادة الفرار من درجة الحرارة العالية يومياً ، وعندئذ لا تفترق وإنما تبدأ زحفها طائرة كأنها لا تلوى على شيء . والواقع أن هذه الغريزة كما يظن كثير من الحشريين ، هى التى تدفع بالجراد بعد وصوله إلى تلك المرحلة إلى الطيران كى يستفيد منه الفائدة الفسيولوجية التى أشرنا إليها ، أى لنضج الأعضاء التناسلية ومن ثم التكاثر .

ويحق لنا أن نقف متسائلين : ما دام المظهر الانفرادى قادراً على التكاثر ، وهو فعلا يتكاثر دون أن يلجأ إلى الطيران ، فهل حقيقة أن الهدف من الهجرة عند الجراد النضج التناسلى؟ وما دامت المشاهدات الكثيرة قد دلت على أن الجراد كثيراً ما يبدأ هجرته من مكان كثير النبات والشجر ، وكثيراً ما يحط فى مناطق لا زرع فيها ولا نبت ، فما الذى حدا به أن يسلك هذا المسلك العجيب الشاذ ؟

أغلب الظن أن الدافع لهجرة الجراد سر من أسرار الطبيعة التى تحافظ به على التوازن بين الكائنات الحية التى تحتضنها ، ذلك أن تلك الأسراب المهاجرة تتعرض لكل أنواع الهلاك ، فمن طيور تخصصت فى اصطيادها ، إلى حيوانات ثديية

تقضى عليها ، إلى رياح تعصف بها ، حتّى الإنسان يتبعها فيبيد منها الملايين بكافة وسائله القاتلة ، حتّى الطيارات يستخدمها الآن فى مكافحة الجراد . وهل مثل الجراد مثل ذلك الحيوان الثديى « اللمنج » الذى أشرنا إليه من قبل (صفحة ٢٩) الذى يهاجر فى جموع هائلة ينتهى بها المطاف فى النهاية إلى البحر فتموت فيه غرقاً ، أى أن هجرته انتحارية ؟

الفصل الرابع

هجرة الطيور

قد يترامى إلى الذهن من تأجيل الطيور إلى الفصل الأخير من هذا الكتيب قلة أهميتها أو عدم وضوح الهجرة فيها وضوحها فى رتب الحيوان التى سبق التحدث عنها ، ولكن هذا فى الواقع أبعد ما يكون عن الحقيقة ، فالهجرة فى الطيور قد وصلت إلى درجة من الكمال لم تصل إليها فى رتب الحيوان الأخرى ، كما أنها لقيت من عناية العلماء كل ما تستحق حتى أصبح تعليلها المبنى على التجربة يستند إلى حد كبير على أسس علمية متينة *.

والطيور فى التحديد العلمى حيوانات من ذوات الفقار ، جسمها مغطى بالريش ، ويتحور فيها الطرفان الأماميان إلى جناحين يساعدانها على الطيران . وقد ظهر هذا النموذج منذ حوالى مائتى مليون سنة ، واحتفظ بكيانه على مر هذه العصور المديدة ، منذ العصر الجوراسى ، لصلاحيته فى قهر نوع من البيئة ، هو الهواء .

(*) انظر كتاب طيور مصر مع نبذة عن حياة الطيور للمؤلف .

وقد ظهرت عدة محاولات فى الطيران من جانب حيوانات أخرى ، ونجح بعضها ، فالحشرات مفصليات لمعظمها القدرة على الطيران ، ولكنه طيران من نوع آخر ؛ وإن كان ينجح فى كثير من الأحيان نجاحاً كبيراً ، إلا أن الطيور بفضل حجمها وقوتها تفوق تلك الحشرات فى الارتفاعات التى قد تصل إليها ، وفى قدرتها على الطيران فترات طويلة . كما ظهرت قبل الطيور زواحف طيارة كبيرة ، وصلت المسافة ما بين طرفى جناحيها عشرين قدماً أو تزيد ولكنها بادت مع غيرها من الزواحف العملاقة إبان بعض العصور الجليدية التى اكتسحت العالم منذ أكثر من مائة وخمسين مليوناً من السنين ، ولكن الطيور قاومت برد تلك العصور بفضل ما اكتسبته من حرارة جسمها الثابتة ، وهى صفة ، كما سبق القول ، لا تميز غير الطيور والثدييات دون الحيوانات الأخرى كافة ، كما أن لبعض الثدييات القدرة على الطيران ، وهى فصيلة الخفافيش ، وهذه حقاً فصيلة ناجحة، قوية الطيران ، ولكنها كلها ليلية لا قبل لها على تحمل ضوء النهار .

نستخلص من هذا أن الطيور هى أنجح الحيوانات فى ميدان الهواء ، ولها دون شك قصب السبق فيه ، وقد أعانها الريش على ذلك ، فمنه الريش الجناحى الذى يساعد على ضرب الجناحين

رفعاً وخفضاً ، وريش الذيل الذى يعمل كالدفة فى إدارة جسم الطائر كأنه سفينة الهواء . ويتطلب تحريك الجناحين قوة فى العضلات ، وبالفعل تنمو العضلات التى تحركهما ، وهى العضلات الصدرية ، نمواً كبيراً فى الطيور ، ففى بعض أنواع الحمام يصل وزن تلك العضلات إلى خمسة وأربعين فى المائة من وزن الجسم ، أى أنها تصل إلى نصف وزن الجسم كله تقريباً . ولا شك أن حركات هذه العضلات تتطلب طاقة كبيرة تتولد من احتراق الغذاء المختزن ، فلا بد لها من مدد كبير من الأكسجين ، وبالفعل نجد الطائر يأخذ مقادير وافرة من الهواء تتغلغل إلى أنسجة جسمه كلها بفضل وجود أكياس هوائية عديدة تتصل بالرئتين ، وتتغلغل من هذه الأكياس تفرعات كثيرة إلى العظام التى يخلو الكثير منها من نخاعها ، فتساعد على خفة وزن العظام من ناحية تتبعها خفة وزن الجسم عامة ، وعلى سرعة تبادل الغازات من ناحية أخرى ومد الأنسجة بقدر وافر من الأكسجين .

ويصل القلب فى الطيور إلى أقصى حجمه بالنسبة لحجم الجسم كله ، فهو مضخة كبيرة يقع عليه عمل كبير فى دفع الدم مع الأكسجين المطلوب إلى جميع أجزاء الجسم ، كما أنه يدق دقات كثيرة العدد ، فبينما تصل ضرباته فى الإنسان إلى

سبعين أو ثمانين ضربة فى الدقيقة الواحدة نجدها تصل إلى أضعاف ذلك فى الطيور .

ومما يساعد الطائر على الطيران اختزال بعض الأعضاء التى نراها فى الفقاريات الأخرى نامية ، من ذلك المثانة البولية والأسنان وكثير من سلاميات (أو عقل) أصابع اليد وغير ذلك .

وتحتاج الطيور إلى حدة إبصار ، وهى فى الجو ، حتى أنها أصبحت مضرباً للأمثال فى هذا الميدان ، وذلك نجده فى تكوين عضو صغير داخل العين ، يسمى بالمشط ، يظن أن وظيفته هى تركيز أشعة الضوء فتستجيب شبكية العين إلى أضواء خافته لا ترى فيها أعين كثير من الحيوانات ، هذا بالأضافة إلى أن أصوات الطيور عالية تسمع على مسافات بعيدة وذلك لأن الحنجرة التى يحدث فيها الصوت ليست فى مقدمة العنق ، كما هى الحال عندنا ، وإنما تقع فى مؤخرة العنق عند اتصاله بالجذع ولذلك تصدر الأصوات ثم تقوى فى القصبة الهوائية الطويلة .

وما دمنا بصدد بعض الصفات التشريحية للطيور فينبغى لنا أن نشير إلى صفة ظاهرة فى مخ الطيور تميزه عن المخ فى الحيوانات الأخرى ، ذلك أن الجسم المخطط فيه كبير والجوهر القشرى صغير ، بينما نجد العكس فى الثدييات ، فإذا عرفنا أن بالجسم المخطط توجد مراكز الغريزة ، بينما تقع مراكز الإدراك

والذكاء فى الجوهر القشرى، اتضح لنا عظم الفرق بين الرتبتين، الثدييات والطيور ، فالثدييات تعتمد كثيراً فى تصرفاتها على الذكاء بينما تعتمد الطيور أكثر ما تعتمد على الغريزة ، فقد وصلت فيها إلى مرتبة عالية من الكمال . وسوف نرى أن الهجرة فيها غريزة إلى حد كبير تدفع بالطيور دفعاً إلى التحرك فى رحلتين شاقتين ، قد يخيل للكثير أنهما غير جادتين ، ولكن الواقع أن أهمية الرحلتين للطائر عظيمة وتسيطر عليهما غريزة تدفع بالطائر إليهما دفعاً شديداً .

والطيور من أكثر الحيوانات حركة ، وهى تزاول فى بعض الأحيان الطيران رياضة وتصل فى سرعة طيرانها درجة كبيرة ، فالحمام الزاجل مثلاً يطير بسرعة تصل إلى خمسة وخمسين كيلو متراً فى الساعة ، ويطير بعض أصناف البط بسرعة مائة وخمسين كيلو متراً ، ولكن هذه السرعة لا تدوم لوقت طويل ، كما أن الطائر فى حياته العادية لا يقطع مسافات طويلة ، لا تزيد فى الغالب على أربعمائة كيلو متر فى اليوم الواحد ، وهى مسافة على أى الحالات طويلة بالنسبة لما تستطيعه أسرع الحيوانات عدواً .

وتصل الطيور فى علوها عن الأرض إلى ارتفاعات عالية ، حتى قيل « أمنع من عقاب الجو » أى الذى لا يناله أحد .

وبفضل هذه السرعة والقدرة على القطع والارتفاع فى الجو لم تقف أمام الطيور عقبات من بحر أو جبل أو مفازة ، وهى كلها عوائق تقف سدوداً منيعة فى وجوه كثير من الحيوانات الأخرى .

وقد ندهش ، كيف تستطيع كائنات حية مهما بلغت من القوة أن تقطع تلك المسافات الطويلة بسرعة كبيرة . فانظر إلى الحدأة ، وهى تطير عالياً فى السماء لا تهدأ فى نهارها إلا قليلاً ، أو إلى عصافير الجنة وهى تطير تهرول رائحة غادية طول اليوم! فهل هى حقاً تبذل فى طيرانها مجهوداً عضلياً مضنياً يقعدها عند ما يستقر بها المطاف ؟ فنحن لو سرنا بضعة كيلو مترات فى اليوم الواحد لكان هذا بالنسبة لكثير منا مجهوداً مضنياً ، والواقع أن الطيور ، بفضل ملاءمة أجسامها للحركة فى الهواء ملاءمة تصل فى بعض الأحيان إلى مرتبة الكمال ، تقوم بالطيران فى سهولة ويسر دون أن تشعر فيما يبدو ما نشعر به نحن فى المشى ، هذا إلى أن الطيور تعتمد فى تحركاتها فى الهواء على الرياح ومناطق الضغط فى الهواء فتستغلها إلى أقصى درجات الاستغلال ، وسوف ندرك ذلك لو عرفنا أن للطيران ثلاث طرق :

أولاً : الانزلاق : ويتم ببسط الجناحين دون تحريكهما ، وهو مألوف فى طائر اكتسب سرعة خاصة ، فيتوقف عن تحريك

جناحيه ، وبواسطة هذين الجناحين وذيله المنبسط يطفو فى الهواء وهذا يظهر بوضوح فى طيور كأبى قردان والعنز والنورس وغيرها مما يكون لها سطح جناحين كبير ، ويحصل الطائر على السرعة المطلوبة لتلك الحركة بواسطة الهبوط ، فاليمامة مثلاً تطير من شجرة عالية إلى سطح الأرض بواسطة الانزلاق ، فهى تنزلق إلى الأرض من الشجرة العالية ، وهذه الحركة بطبيعتها وقتية .

ثانياً : الدفيف : وهو الطيران بضرب الجناحين خفضاً ورفعاً ضربات قوية متتابعة ، وإنه أيسر للطائر أن يتحرك فى الهواء بطيران نشط إذا كانت له سرعة أولية معينة من أن يبدأ الطيران من مكان مستريح فيه ، أى لا حركة له فيه ، وهذا مما يحدو بالطيور عند ما تريد النهوض إلى توجيه رؤوسها ناحية الريح فترفعها عن الأرض ، فإذا لم تكن هناك ريح كافية سعت لاكتساب سرعة أولية بواسطة الركض أو الوثب أو بكليهما . لهذا السبب لا تستطيع الطيور قصيرة الأرجل طويلة الجناحين إذا ما وضعت فى مكان ضيق النهوض من الأرض ، حتى الحمامة قوية الطيران ، ضعها فى مكان ضيق تجدها تحاول النهوض منه فلا تستطيعه أبداً وترتمى على الأرض فاغرة فاها فى إعياء !

وهناك نوع من الطيران يقع تحت الدفيف ، يسمى التحليق وهو الطيران فى وضع واحد بدون تغيير المكان مدة من الزمن .

وهذا لا تمارسه سوى طيور قليلة جداً، قوية فى نفس الوقت ، مثل الصقر وصياد السمك .

ثالثاً : الصف أو الحوم : وهذا يتم للطائر بجناحين منبسطين فلا يحركهما أبداً ، والطيور التى لها القدرة على الحوم قليلة ، وأغلب ما نشاهده فى جوارح الطير مثل الحدأة والصقر والعقاب والنسر ، وطيور الماء مثل النورس.وطيور أخرى كثيرة. وفى هذه الطيور تكون مساحة الجناحين كبيرة بالنسبة إلى وزن الجسم .

ولكى يحوم الطائر لا بد أن يكون هناك قدر من الريح ، فالحوم لا يشاهد أثناء ركود الهواء ركوداً تامًّا ؛ وقد أجمع ثقات الباحثين على أن الطائر الذى يحوم بواسطة جناحيه المنبسطين يرسم فى طيرانه منحنيات أو دوائر كاملة تساعده على الحركة فوق الريح أو تحتها فى تبادل . وهو فى قيامه بهذه الحركات يصعد إلى النقطة التى بدأ منها أو إلى أعلى منها مع قيامه بمجهود ضئيل يكاد يكون معدوماً .

ومن النظريات التى شرح بها الحوم نظريتان هامتان : الأولى ، نظرية التيارات الهوائية الصاعدة ؛ فهذه التيارات تحدث عند ما تكون هناك ريح تهب على سفح جبل منحدر أو على منزل أو شراع سفينة . وقد شوهد النورس يحوم فوق صخور

الشاطىء العمودية ، فهو يترك نفسه للتيارات الهوائية التى يحدثها هبوب الرياح على هذه الصخور فيظل معلقاً فيها ، ولكن لا تتوفر هذه التيارات لدى الطيور الأخرى التى تحوم تحت ظروف أخرى مخالفة لهذه ، فمثلا شوهدت عقبان تحوم لمسافات طويلة جداً فوق سطح البحر أو الأرض ، وهى فى حومها ترتفع إلى أعلى باستمرار ، فهذه النظرية لا تفسر الحوم فى حالة تلك العقبان .

أما النظرية الثانية ، فهى نظرية اختلاف سرعة الريح عند ارتفاعات مختلفة من الأرض أو البحر — سبب هذا الاختلاف هو أن احتكاك الريح بالأرض يقلل سرعتها فى طبقات الهواء السفلى عن التى تليها فى الارتفاع وهكذا مما يؤدى إلى اختلاف فى سرعة الهواء فى طبقاته المختلفة ، ويستفيد الطائر الحوام من هذه الاختلافات ، فإذا فرضنا أن طائراً قد وصل فى حومه إلى طبقة من الهواء تقع فوق الريح ثم يحاول أن يهبط إلى طبقة أخرى تقع تحت الريح فهو يدور فى نصف دائرة حتى يصل مع مهب الريح ثم يهوى معها فيكتسب منها سرعة أفقية كبيرة ، وعند هذه الطبقة السفلى يدور فى نصف دائرة أخرى حتى يصل إلى نقطة ضد اتجاه الريح فيمر فيها ، ففى هذه الحالة يكون التيار الداخلى للهواء المضاد للريح أشبه بقوة رافعة تدفعه إلى أعلى . ومما

يؤيد هذه النظرية اتباع الطيور الحوامة فى حومها هذه الدوائر فهى لا تقوم بها عبثاً . ولكن بعض هذه الطيور تحوم إلى طبقات عالية جداً من الجولا يظن أن فيها سرعة الهواء تختلف كما هى الحال فى الطبقات القريبة من سطح الأرض .

من كل هذا نستطيع أن نتبين إلى أى مدى تلاؤم الطيور المعيشة فى الهواء، كيف تتحرك فيه وكيف تتجول من منطقة إلى أخرى من مناطق العالم دون أن يعيقها عائق ، ولكن ليست لكل الطيور هذه القدرة ، فالنعام مثلا طيور كبيرة لا تطير ، وثمة أمثلة أخرى كثيرة لطيور لا تطير ، فهناك مثلاً الأكتع أو البطريق الذى يقطن بالمناطق المتجمدة الجنوبية ، له جناحان صغيران لا يعينان الطائر على الطيران أبداً ، وهناك أيضاً الشبم أو الكزوار[١] من غينا الجديدة وأستراليا ،والكيوى [٢] من نيوزيلندة قد ضمر فيهما الجناحان ضموراً كبيراً جداً حتى أصبحا أثريين . وبالمثل كانت تقطن بجزيرة مدغشقر طيور ضخام (إيپيورنس) [٣] لم تكن لها إلا أجنحة ضئيلة غاية الضآلة وقد بادت فى عصرنا الحاضر الذى نعيش فيه ، كما أن هناك طيوراً فقدت القدرة على الطيران كالديكة الرومية والدجاج

---

(١) Cassowary

(٢) Kiwi

(٣) Aepeornis

المنزلى ، وإن كانت لها أجنحة إلا أنها صغيرة بالنسبة لحجم الجسم ووزنه فلا تقوى على حمل هذه الطيور على الأرض إلا قليلاً .

وإن كانت الأغلبية العظمى للطيور تتحرك بحرية فى الهواء إلا أنها وزعت نفسها توزيعاً حسناً ، فمن طيور تعيش على شواطىء البحار وعند جزره وتطلب غذاءها من الماء ، إلى طيور تعيش فى الصحراء ، إلى أخرى تفضل قمم الأشجار ، إلى غير ذلك من البيئات المختلفة ، هذا إلى أنه إلى جوار هذا التوزيع ، يوجد توزيع آخر بين مناطق العالم الجغرافية . فمن طيور تقطن بالمناطق الباردة إلى أخرى تدور حول خط الاستواء ، وبين هذه وتلك نجد أنواعاً عدة منتشرة فى مناطق العالم كله .

ولا شك أن رتبة من الحيوان هذه قدرتها على الحركة ، وهذا توزيعها فى مناطق العالم المختلفة ، لا بد أن تصل الهجرة فيها إلى ذروتها ، وإن كان البعض منها لا يهاجر من مكانه أبداً . وعلى هذا الأساس تقسم الطيور من هذه الناحية إلى قسمين كبيرين طيور أوابد أى لا تهاجر من مكانها ، وطيور مهاجرة أو قواطع وهى التى ترحل من مواطنها ثم ترجع إليها مرة فى كل عام .

وتكثر الطيور الأوابد فى المناطق الاستوائية والمعتدلة ، وعلى ذلك نجد مثل هذه الأوابد متوفرة فى السودان ومصر ، ومن

أمثلتها عصفور النيل والحدأة المصرية ويمام النخل المصرى والغراب أبو برنس والبلبل وغيرها .

أما الطيور القواطع فأكثر عدداً ، ومن أمثلتها السمانى (السمان) واللقلق (العنز) والوروار وكثير من أنواع البط البرى. وأغلب ما تعيش هذه الطيور فى المناطق الشمالية لنصف الكرة الأرضية الشمالى ، وتتزاوج فيها فى الربيع والصيف ، ثم تنحدر من الشمال إلى الجنوب فى فصل الخريف ، وغالباً ما تعبر خط الاستواء إلى الجنوب ، ثم ترجع إلى مواطنها فى نهاية الشتاء ، ومن هنا يفهم القصد من « الموطن » فهل هو الشمال أو الجنوب ؟ والواقع أن الموطن الأصلى للطائر هو المكان الذى فقس فيه ، فهو الشمال وليس الجنوب ، فمثلا يزورنا أبو فصادة أو الفتاح مع بداية الخريف ويقضى الشتاء كله فى مصر ويغادرنا مع مقدم الربيع إلى الشمال ليتزاوج هناك ، فموطن أبى فصادة إذن ليس مصر ، وإن كان من طيورها الشتوية الظاهرة ، وإنما هو شمال أوروبا وآسيا .

وليس حتما أن يعبر الطائر المهاجر خط الاستواء وإنما قد يكتفى بالنزول فى مناطق معتدلة تقع إلى الشمال من هذا الخط : فقد تكتفى بعض الطيور بالنزوح من المناطق القطبية وما تليها إلى الجزر البريطانية ، وقد تمتد الهجرة إلى أبعد من ذلك ، إلى

جنوب أوروبا أو إلى شمال إفريقيا ، أو تعبر الصحراء الكبرى إلى السودان . والواقع أن هذه التحركات فسرت على أن الطيور التى تعيش فى المناطق الشمالية تخضع لعامل خارجى هام ، ألا وهو طول النهار ، فالطيور ، كما عرفنا تحتاج إلى غذاء كثير لتقابل به الطاقة الكبيرة اللازمة لتدفئة الجسم وحركة الطيران ، فهى تفتش عن هذا الغذاء فى النهار ، ومعظم هذا الغذاء ، بالنسبة لطيور كثيرة ، الحشرات.

إذن لا بد أن تكون لدى تلك الطيور آكلة الحشرات فسحة من الوقت تجمع فيها هذه الحشرات ، فكلما قصر النهار فى الشمال مع الخريف انحدرت الطيور إلى الجنوب لتستبدل نهاراً طويلاً بنهارها الآخذ فى القصر ، أما إذا بقيت لا تقطع فإن الشتاء سوف يقبل عليها حيث لا يزيد طول النهار فى الشمال البعيد عن بضع ساعات حتى نصل إلى القطب فيمتد الليل هناك ستة أشهر طوالا ، ولو فرضنا جدلاً أن الحشرات ، غذاء تلك الطيور ، تتحمل الحياة فى تلك الأصقاع الشمالية النائية فإن الطيور لن تراها .

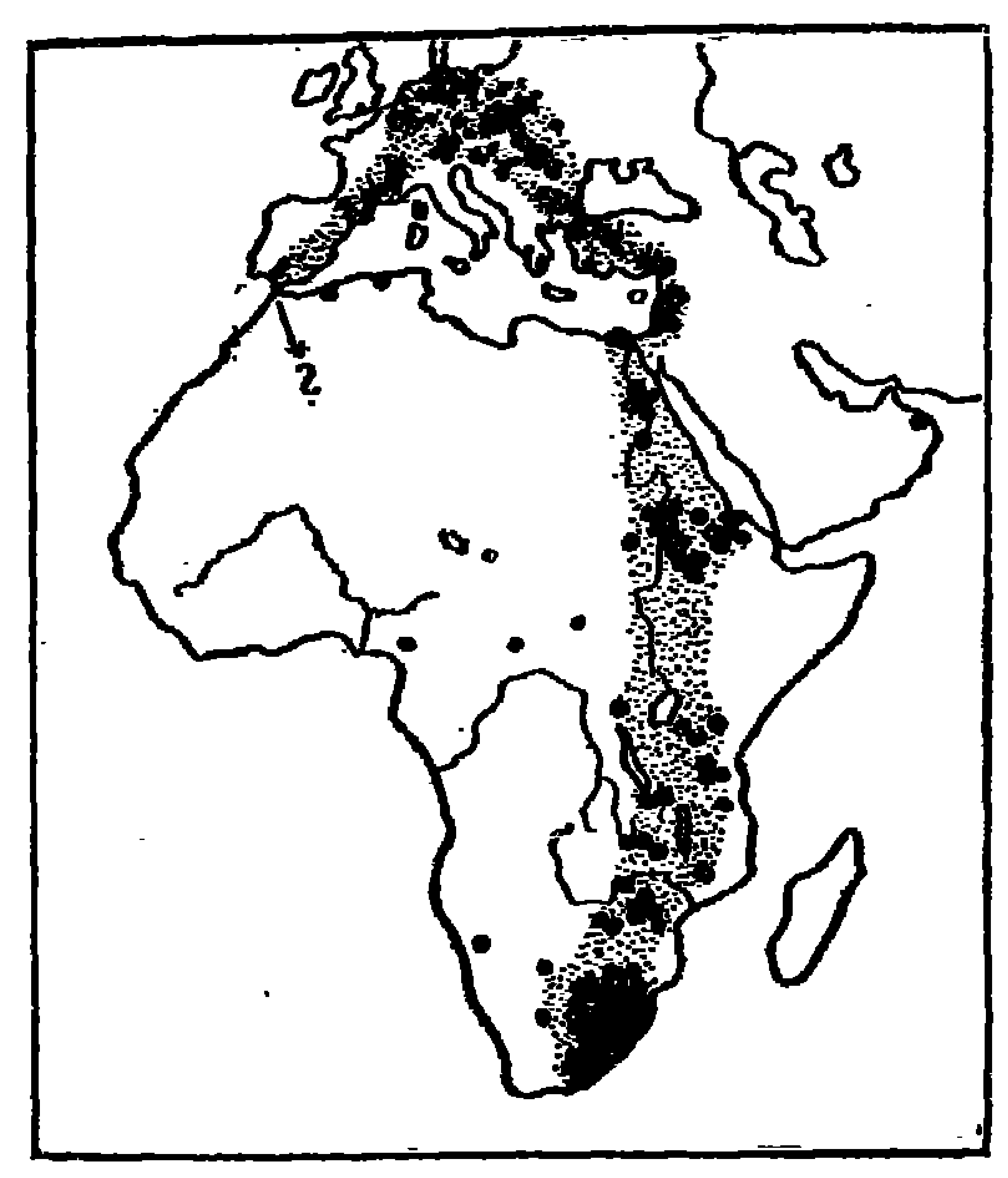
وقد أجرى العالم روان [١] فى هذا الصدد تجارب على طائر الجنكس [٢] ، وهو طائر رحال ، بأن حجز منه عدداً قبل

---

(١) Rowan

(٢) Junccs

ارتحاله إلى الجنوب فعرض بعض أفراده لأشعة كهربائية وقتاً يساوى طول النهار فى الجنوب (نهار صناعى) ثم أخذ يزيد من طول الوقت تدريجياً حسبما يحدث فى تلك البقاع ، ثم أطلقها ، فلما أحست الفارق بين البيئتين لم تطق على المكث صبراً فرحلت



خريطة أوروبا وإفريقيا وغرب آسيا موضحة عليها مواطن اللقلق الأبيض وخطوط هجرته والبقاع التى يشتى فيها

إلى الجنوب ، أما تلك التى لم يعرضها لنهار صناعى فلم تشعر بتغيير ما فى بيئتها التى تعودت عليها فلم ترحل إذ قد فات أوان الرحيل ولو كان فى ذلك هلاكها ، وهذا دليل أخذ على أن اختلاف النهار والليل طولاً وقصراً عامل خارجى مهم يسيطر على هجرة الطيور .

وعند ما تصل الطيور إلى مشتاها فى الجنوب ، يفضل الكثير منها أن يصل إلى حيث يكون هناك ربيع يقبل من بعده صيف ، وهذا يفسر لماذا تعبر هذه الطيور خط الاستواء فكأنها تقضى عامها بين ربيع وصيف فى الشمال وربيع وصيف فى الجنوب ، كأنما تختار لنفسها أطيب أجواء الدنيا .

مثال ذلك اللقلق الأبيض أو العنز ، فهذا الطائر الكبير معروف فى مصر يمر بها فى رحلتيه بين الشمال والجنوب ، طويل الساقين ، لونه فيما بين أبيض وأسود ، ومنقاره و رجلاه حمر قانية اللون ، وهو يعيش فى أوروبا والأناضول صيفاً ثم ينحدر إلى إفريقيا فيصل إلى أقصى الجنوب فيها كما توضح الخريطة .

ولكن ما هو السبب الذى يحدو بتلك الطيور إلى الرجوع من الجنوب إلى الشمال ؟ أو بالأحرى إلى أوطانها ؟ الواقع أن الطيور ، وهى تقوم برحلتها من الجنوب إلى الشمال تكون تواقة إلى الهجرة أكثر مما تاقت إليها من الشمال إلى الجنوب ، ذلك أن

فى رحلة الجنوب إلى الشمال يدفعها عامل فسيولوجى داخلى مهم ، هذا العامل تسببه هرمونات تفرزها الغدد التناسلية ، فالطيور فى فصل التزاوج تنشط داخليًّا نشاطاً كبيراً ، إذ تكبر غددها التناسلية التى تفرز كميات كبيرة من الهرمونات تدفع بها إلى التزاوج وبناء العش ووضع البيض والعناية بالصغار ، وما ينقضى هذا الفصل حتى تضمر الغدد التناسلية ، فتخمل الطيور من هذه الناحية كثيراً ، وقد قيست خصية العصفور المنزلى فى فصل التزاوج فوجد أنها تصل إلى حبة الفول فى الحجم ، بينما فى شهرى ديسمبر ويناير تتضاءل إلى حجم حبة القمح ! فكلما كبرت الغدد التناسلية زادت هرموناتها فى الدم ، فتقلق الطيور فى الجنوب وتندفع مولية شطر الشمال تطلبه بكل قوة أوتيت لكى تصل إليه لتقوم بأعظم عمل فى حياتها ، ألا وهو التزاوج .

معنى هذا أننا لو استأصلنا الغدد التناسلية لطائر ما فى وقت الهجرة لما هاجر لانعدام العامل الداخلى الذى يدفعه إليها ، وقد برهنت التجارب على صحة هذا الاستنتاج ، فقد خُصى الذكر وجُبَّت الأنثى (أى استؤصل منها مبيضها) فلم يوليا مع الجموع بعد أن أذن الربيع بالقدوم ، وقد يحدث هذا فى الطبيعة لمرض يصيب الغدد التناسلية فيعطلها عن إفراز الهرمونات فتعجز الطيور عن الهجرة ، وقد شوهد عدد غير قليل من غربان أمريكا

الشمالية الرحالة ولم تضرب مع عشيرتها عند الرحيل ففحصها المختصون فوجدوا غددها التناسلية معطلة بمرض أصابها .

وعند ما تصل الطيور إلى مواطنها يمتلىء الجو بغنائها وشدوها . والغناء تقوم به ذكور الطيور دون الإناث . وهو من الناحية العلمية الصوت الذى يحدثه الطائر تحت تأثير الحب ، ونحن لا يمكننا — تحت هذا التعريف — أن نضرب فاصلاً بين عجيج الأيمو العميق وعويل الزقزاق المحزن وصفير الصواى الرخيم وصوت الكوكو المتجول وصراخ النسر ونعيق البوم وصوت البلبل المطرب ونعيق الغراب الأجش أو صوت الشنار الطبلى . . إلخ فكل هذه الأصوات نغمات غنائية ناتجة عن أصل واحد ولها غاية واحدة ، وكأن الطيور وقد وصلت إلى أوطانها تمرح فيها وتحتفل بإيابها فتملأ الجو بصياحها .

وقد يراد بالغناء أن يعرف الطائر نفسه إلى طائر آخر من نفس نوعه أو أن يعرفه بحدود منطقته التى يعيش فيها ويسيطر عليها ، وقد يشير به إلى قوة الطائر الذكر وحيويته ، أو أن يكون تحذيراً لذكر آخر من نفس نوعه ليتجنب العراك أو أن يكون المراد منه أن يجتذب إليه أنثى إذا لم يكن قد تزوج بعد ، فالغناء إذن ليس المراد منه أن يشدو الذكر فى وقت فراغه لاهياً كما يمكن أن يتصور البعض ، وإنما هو عمل مضن من ناحيته يؤدى

به غرضاً معيناً ذا قيمة حيوية له ولعائلته وحينئذ لجنسه كله .

وعند ما تصل الطيور إلى أوطانها فى الشمال ، تتجه إلى نفس الوطن أو إلى الأشجار التى تربت بينها ، أو إلى الأغصان التى فقست عليها . فكيف وصلت هذه الطيور إليها بعد أن تركتها شهوراً طوالاً ؟ الواقع أن سلوك هذه الطيور على هذه الصورة يحير الألباب ، ويأخذنا العجب كل العجب عند ما نعرف طيوراً تصل إلى نفس الغصن الذى تعهدها عليه أبواها من قبل ؟

لا بد أن تكون الغريزة ، والغريزة وحدها ، هى التى تدفع تلك الطيور إلى تلك البقعة بالذات ، وإلا كيف نفسر أمر هذا الطائر الذى يصل من حوض نهر الزمبيزى فى جنوب أفريقيا لا إلى مقاطعة فى النرويج أو بلدة منها أو شجرة من أشجار تلك البلدة ، بل إلى نفس غصن الشجرة الذى فقس عليه ! أهو على دراية بطبوغرافية الأرض تمكنه من التعرف على « منزله » فى مناطق تتشابه فيها المنازل كل التشابه ؟ ونحن نعرف من البشر أناساً كثيرين لو نقلتهم إلى بلد جديد وأسكنتهم فيه لما عرفوا دورهم إلا بعد طول تردد عليها والسؤال عنها !

والطيور فى مواطنها فى فصل التزاوج لا تهدأ أبداً ، تبدأ بالغناء والغزل وبناء الأعشاش ثم حضانة البيض وإطعام الفراخ ، وتدريبها على الطيران ، وهى تستنفد فى ذلك مجهوداً كبيراً ، وقد

تكرر العملية مرتين ، وقد تشترك الذكور مع الإناث فى حضانة البيض وفى إطعام الفراخ .

وفى نهاية الفصل تكون الفراخ مكتنزة باللحم والشحم بعكس الطيور الكبار التى يضنيها السعى فى إطعامها والذود عنها ، فتولى عند مقدم الخريف ، كأنما قد برمت بهذه الخدمة المتتالية وضاقت صدورها منها فهى تريد أن تفرغ منها فترحل إلى الجنوب والفراخ فى إثرها . ولو أن هناك من الطيور ما يشذ عن هذه القاعدة وذلك بأن تبدأ الفراخ الهجرة تتبعها الطيور المسنة . وهنا ينبغى لنا أن نقرر بأنها كأنها مدفوعة بالغريزة وحدها ، وإلا كيف نفسر هجرة الفراخ التى لم تبلغ من العمر سوى ستة أسابيع أو ثمانية وترك مواطنها لتقوم برحلة طويلة فوق مناطق لم ترها قط من قبل ؟ رحلة تقطع فيها أرضاً وجبالاً عالية وبحاراً ممتدة وصحارى واسعة ما رأت منها شيئاً من قبل !

وقد قيل بصدد الغريزة إن الطيور قد أجبرت على الهجرة منذ الزمن الغابر البعيد بواسطة عوامل طبيعية ظهرت فى مواطنها إبان العصر الجليدى ثم تعودت الطيور على التروح جنوباً كل عام من الشمال إلى الجنوب ، فأصبحت الهجرة لديها عادة فرسخت فيها حتى أصبحت مقيدة بها لا تستطيع أن تتحرر منها. ونحن نطلق هنا كلمة « الغريزة » على أى فعل يقوم به الحيوان

من تلقاء نفسه وبدون تجربة سابقة ويؤدى إلى نتائج معلومة لا يستطيع الحيوان قبل القيام به أن يتكهن بها .

ومجمل القول عن الطيور أنها تلجأ إلى الهجرة هروباً من الجو القارس فى الشتاء وقصر النهار الذى يصحبه ، فتهاجر إلى مناطق يطيب فيها الجو ويطول النهار كى تستطيع أن تجد الوقت الكافى لإطعام نفسها، حيث إنها تحتاج إلى وفرة من الغذاء نظراً لما يتطلبه مجهودها فى الطيران من طاقة عالية ، وعند ما يحل الربيع تدفع بالطيور إلى النزوح شمالاً إلى مواطنها إفرازات داخلية من الغدد التناسلية كى تتزاوج هنالك . وبطبيعة الحال يأتى حسن التوزيع مساعداً على تفسير لهذه الهجرة ، فلو أن الطيور بقيت فى أماكنها فى الجنوب وحل عليها فصل التزاوج هنالك لشاركت حيوانات تلك المنطقة غذاءها ، بينما هو متوفر لها فى الشمال . ويجمع الثقات على أن هجرة الصغار التى لم ترحل من قبل وكونها تبدأ الرحلة قبل آبائها إنما مبعثها الغريزة وحدها التى تولدت فيها منذ قديم الزمان ، ملايين السنين .

مصر وهجرة الطيور

قبل أن نختتم هذا الفصل عن هجرة الطيور ينبغى لنا أن نشير إلى موقف مصر من الطيور ، فموقع مصر فى العالم القديم جعلها ، كما جعل غيرها من دول الشرق العربى مسلكاً هاماً لطيور الشمال ، فكثير من طيور أوروبا الوسطى والجنوبية وآسيا الصغرى ولبنان وسوريا وإيران وأفغانستان وجنوب سيبيريا تتجه جنوباً غايتها حوض نهر الزمبيزى وإفريقيا الجنوبية الشرقية فتمر بالجزيرة العربية ومصر والسودان والصومال وغيرها . وهى تظهر هنا مرتين فى الخريف والربيع ، وتسمى تلك الطيور المهاجرة بالطيور العابرة (ترانسيت) . وقد لا يستمر بعض هذه الطيور فى رحلته إلى الجنوب فيحط رحاله فى مصر ويقضى بها الشتاء ، وتسمى تلك الطيور بطيور الشتاء الزائرة ، وقد تصل إليها طيور فى بعض السنين لم تتعود أن تصل إليها ، ويعتبر هذا شروداً من تلك الطيور ، كما يعتبر ظهورها فى مصر نادراً .

وهناك أيضاً طيور تصل إلى مصر ، لا من الشمال وإنما من الجنوب ، وهى تفعل ذلك فى فصل الصيف ولذلك تسمى طيور الصيف الزائرة ، فهى تقضى عندنا الصيف ثم تولى فى

الخريف ناحية الجنوب لتقضى به فصل الشتاء ، ففصل الشتاء عندنا بالنسبة لهذه الطيور بارد شديد البرودة فتفضل أن تنزح إلى الجنوب قبل حلوله لتقضى هذا الفصل وسط الدفء الشديد الذى تمتاز به منطقة السودان الجنوبى .

وقد يتبادر إلى الذهن أن معظم الطيور المهاجرة التى تمر بمصر إنما تسلك طريق وادى النيل يجذبها إليه بخضرته ومائه ودفئه ، وهذا صحيح إلى حد كبير ، ولكن كثيراً من الطيور تمر بمصر دون أن ترى من وادى النيل أثراً ، فبعضها يمر فوق سيناء ثم ينحدر جنوباً على طول ساحل البحر الأحمر ، أو قد يعبر الصحراء الغربية بمفازاتها . والواقع أن الصحراء الغربية تعتبر من هذه الناحية مسلكاً ملائماً لهجرة الطيور ، ذلك أن بها كثيراً من الواحات ، كالخارجة والداخلة والبحرية والفرافرة وسيوة وغيرها ، كما أن الحرارة العالية بها أثناء النهار تسبب تيارات فى الجو تستفيد منها الطيور ، فقد لوحظ أن الطيور المحلقة أو الحوامة تدخل فى هذه التيارات لتجرفها ، أو الأصح أن تلك الطيور تترك نفسها للتيارات فتنقلها بسرعة تصل إلى خمسين ميلاً فى الساعة دون أن تبذل الطيور مجهوداً يذكر أو ضئيلاً للغاية ، ومما يدل على صحة هذا الاستنتاج ، أى أن الطيور الحوامة تستفيد من التيارات الهوائية الناتجة من تغير الحرارة ، هو كثرة ظهور الطيور

المهاجرة فى العاشرة صباحاً والرابعة بعد الظهر .

ولقد اهتمت المعاهد العلمية المختصة بدراسة الهجرة فأقامت مراكز كثيرة للمراقبة فى مختلف أنحاء العالم لمراقبة سير الطيور فى مسالكها المختلفة فى فصلى الهجرة ، كما استعانوا على دراسة تلك المسالك بوضع حلقات فى أرجل الطيور الصغيرة تنقش عليها أرقام معينة وأسماء المعاهد التى تطلق منها هذه الطيور ، ويحدث كثيراً أن يقع أحد هذه الطيور المرقومة فى أيدى المهتمين بهذا النوع من الدراسة فيخابر هؤلاء المعاهد بها . وفى صفحة ١٠٩ تبين الخريطة مسلك اللقلق الأبيض التى استطاع المختصون الوصول إلى توضيحها نتيجة دراستهم بتلك الوسيلة .

وحيث أن مصر تهيىء منطقة من أكثر المناطق ملاءمة للطيور المهاجرة تسلكها أو تحط فيها لتقضى بها فصلاً أو آخر فإن دراستها هنا من ألزم ما ينبغى أن يقوم المختصون به ، ولكن مع الأسف لا توجد بها نقط للمراقبة لتساعد فى المساهمة على تقصى خطوط سير الطيور ، كما ينبغى أن تلقى الطيور من العناية والدراسة فى المدارس والمعاهد ما ينبغى من بلد تعيش بين ربوعه أصناف كثيرة من الطيور ، كما تفد إليه أصناف كثيرة أخرى ، وبخاصة أن كثيراً من الطيور يلعب دوراً هاماً فى الزراعة حيث إنها دون الإشارة إلى ما يجنيه الإنسان من زبلها وريشها ولحمها

وبيضها ، تساعد فى القضاء على كثير من الحشرات التى قد تصيب المحاصيل بأبلغ الأضرار .

هذا إلى أن الطيور المهاجرة بنوع خاص تكون جزءاً من الثروة القومية فى مصر ،فهذا هو السمانى (السمان) يفد إلى مصر فى سبتمبر ومارس ويحترف كثير من الناس صيده حياً وتصديره إلى الأسواق الداخلية فى أقفاص صغيرة ، وتلك هى أصناف عديدة من البط البرى ، كالشرشير والبلبول والخضارى والكيش وغيرها وغيرها ، تصاد بعشرات الألوف للاستهلاك المحلى أيضاً . والغر أيضاً ذلك الطائر المائى الأسود يكون غذاء لدى كثير من سكان السواحل ، ولا ننسى أيضاً اليمام الغيطى الذى يتجر فيه الباعة فى المدن كما يفعلون بالسمانى .

ولقد نبهت إلى الاهتمام بأمر الطيور وحمايتها فى مصر ، فى المؤتمر الذى عقد فى بيروت فى يونية ١٩٥٤ لمناقشة حماية الطبيعة * ،وقد قلت «تحتاج حماية الطيور إلى التشريع والثقافة فبالقانون تصادر الطيور التى حرم صيدها وتسحب رخصة السلاح ،مع فرض الغرامة والحبس لمن يخالف القانون . وقد كان أثر القانون فى هذا السبيل ناجحاً فى بعض الحالات ، فأبو قردان والبياضى والهدهد طيور كادت تبيد من مصر فى

(*) انظر : حماية الطيور فى مصر للمؤلف (بالانجليزية) .

العشرة الأولى من هذا القرن لولا أن كفل لها القانون حماية ، كما أن الحكومة تعمل على مراقبة صيد السمان ومجهودها فى هذا السبيل مثمر . ونحن شعب يكره القتل ويفضل أن يرى المحيط به مليئاً بالطيور لا خالياً منها . وهذا يفسر سبب نجاح حماية الطيور فى مصر ، غير أننا نود أن تدخل حماية الطيور فى مصر مرحلة جديدة ، فرجال البوليس والخفر ينبغى أن يعرفوا الطيور التى يراد حمايتها ، كما أن الجمهور ينبغى أن يذكّر بالقانون بين الحين والحين ، وأن يتعرف على الطيور التى تميز البلاد ؛ وذلك بأن نبدأ بالمدارس وبخاصة الثانوية منها وبكليات الزراعة والعلوم فتنظم المحاضرات فى تلك المعاهد ، وأن تعقد مسابقات فى الكتابة عن طيور المناطق المختلفة من الجمهورية ، وأن تشجع المدارس على تكوين جمعيات التاريخ الطبيعى ، وأن يعلم النشء كيف يحب الطبيعة بما فيها من طيور فيسمى الصغار الطيور ويراقبونها ولا يلحقون بها أذى ، كما ينبغى أن تلقى محاضرات عن طريق الإذاعة فى البرنامج العام وركن الريف تبين فيها فائدة الطيور التى يحميها القانون ، كما ينبغى أن تحدد بعض المناطق يحرم الصيد فيها تحريماً تامًّا ، فتترك لتنمو فيها النباتات وترعى الحيوانات على سجيتها وطبيعتها » .

وهذا كشف ببعض الطيور المشهورة التى تظهر بمصر ، مقسمة فيه على حسب الهجرة :

طيور أوابد (أى لا تهاجر) :

الغراب النوحى — الغراب أبو برنس — عصفور النيل — القبرة المتوجة — أبو فصادة أزرق الرأس المصرى — البلبل المصرى — الفصية — الفصية مروحية الذنب — الأبلق الحزين — عصفور الجنة — السمامة المصرية — الخضيرى المصرى — الهدهد المصرى — طير السمك (أو صياد السمك الأبقع) — أم قويق — العوسق المصرى (وهو الصقر المألوف) — الحدأة المصرية — الرخمة المصرية (أحد النسور) — أبو قردان — يمام النخل المصرى — الكروان — الزقزاق البلدى — الأوز المصرى .

طيور مهاجرة عابرة :

الصفير — أبو فصادة أزرق الرأس الأوروبى — الصرد — النهس — الدقناش الشامى — الشورب المخطط — أبو شيقونة المطوق — أبو قلنسوة — الزريقة الفيرانى — النقشارة — أبو بليق — الحميراء — الخطاف — الوروار — السمانى — اللقلق الأبيض — اليمام الغيطى .

طيور مهاجرة زائرة شتوية :

الزرزور — العصفور الظالم — الجشنة حمراوية الزور — الجشنة الصفراء — أبو فصادة أشهب الرأس — أبو فصادة الأبيض (المعروف بالفتاح) — سكسكة الغرب — السمنة المطربة — القليعى المتطوق — الحسينى — أبو الحناء — الدراع — البلشون الرمادى — الشرشير الشتوى — الكيش — الطيطوى الكبير — أبو الرؤوس الصغير — النورس أحمر

القدمين ــ الغر ــ الشهرمان ــ الخضارى ــ السمارى ــ البلبول ــ الصواى ــ الحمراى ــ الزرقاى الأحمر ــ الزرقاى .

طيور مهاجرة زائرة صيفية :

الخنشع الزيتونى ــ البلبل الأحمر ــ خطاف الشواطىء ــ الوروار أزرق الخد ــ الشرشير الصيفى .

المراجع

١ — الثدييات البحرية — للمؤلف . القاهرة ١٩٤٧ .

٢ — طيور مصر مع نبذة عن حياة الطيور (الطبعة الثانية) للمؤلف . القاهرة ١٩٥٤

٣ — حماية الطيور فى مصر — للمؤلف . من نشرة اليونسكو عن مؤتمر حماية الطبيعة فى الشرق الأدنى . يونية ١٩٥٤

٤ — الحشرات الاقتصادية فى مصر — للدكتور أحمد سالم حسن . القاهرة ١٩٥١

٥ — قصة الهجرة — ا . ر . إنيون . لندن ١٩٤٧

٦ — أسماك النيل — ا . ج . بولنچيه . لندن ١٩٠٧

٧ — ثعبان السمك وقصته المثيرة — ا . ج . بولنچيه (من كتاب عجائب حياة الحيوان) . لندن ١٩٣٦

٨ — خيوط من نسيج الحياة — م . ر . طومسون . لندن١٩٢٦

٩ — قصة سمك سليمان — هـ . فيف — (من كتاب عجائب حياة الحيوان) . لندن ١٩٣٦

١٠ — بيولوچيا الأسماك — هـ . م . كايل . لندن ١٩٢٦

١١ — هجرة أبى دقيق — س . ب . وليامز . لندن ١٩٣٠

فهرس

كتب ظهرت حديثاً

- مشكلات الأطفال اليومية

  للدكتور إسحق رمزى

- التربية الفنية فى فترة المراهقة

  للأستاذ سعد الخادم

- الأسلوب الابتكارى

  للدكتور حمدى خميس

- اتجاهات فى التربية الفنية

  للدكتور محمود البسيونى

- تاريخ الصناعات الشعبية فى مصر

  للأستاذ سعد الخادم

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة

اقرأ

ماهر نسيم

لمحات من الأدب الروسي

دار المعارف بمصر

لمحات من الأدب الروسي

ماهر نسيم

لمحات من الأدب الروسي

اقرأ ١٨٢
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٨٢ — فبراير سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

تقديم

ليس هذا الكتاب دراسة وافية فى الأدب الروسى ؛ وإنما هو لمحات فى هذا الأدب الذى طرأت عليه تطورات هادئة حيناً وثورية أحياناً . . فمن أدب شعبى إلى أدب ثورى إلى أدب إقليمى إلى أدب اشتراكى . وظهر فى كل عصر من العصور كُتّابٌ مثّلوا عصرهم أصدق تمثيل . فالكتّاب الشعبيون كانوا يعبّرون عن آمال الشعب ورغباته بطريقة ملتوية فرضتها عليهم ظروفهم .. كذلك كان الكتاب الثوريون يعبّرون عن الثورة التى كانت تتشكل فى عقولهم ونفوسهم ، تعبيراً غامضاً فى حدود الحريات المقيدة التى يستمتعون بها . كما كان الكتاب الإقليميون يعبّرون عن تعلقهم ببلادهم وإيمانهم بها وإيثارهم لها تعبيراً مستمداً من ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . ثم جاء الكتّاب الاشتراكيون فعبّروا عن مبادئهم الاشتراكية تعبيراً لم يستكمل كل أسباب الجرأة والقوة والصمود ، لأنهم كانوا لا يزالون « ضائعين » لا يعرفون ما قد يأتى به الغد . . .

ولقد آثرت أن أختم هذه اللمحات بالكاتب العبقرى « تشيكوف » لأنه كان الخط الفاصل بين جيلين . . . الجيل القديم ، والجيل الجديد ؛ ولأن تشيكوف هو العملاق الذى لم ينجب الأدب الروسى صنواً له حتى الآن . . .

وأخيراً ، آمل أن تكون هذه اللمحات صادقة فى دلالتها عن تطور الأدب الروسى . . . والله ولى التوفيق . . .

ماهر نسيم

الجزء الأول

- الحركة الشعبية
- الحركة الاشتراكية الثورية
- الحركة الاشتراكية الجديدة

الفصل الأول

مولد « الحركة الشعبية »

كان تحرير الفلاحين من رِقّ الإقطاع الزراعى فى عام ١٨٦١ ، وما تلاه من إصلاحات عامة شاملة بداية عصر الحركة الشعبية فى روسيا . . . فالشغف بالعلم ، والإقبال على العمل ، والرغبة فى الارتقاء بالذات ، ومحاولة تقليد الغرب ، والاتجاهات الجديدة التى سادت العلوم والآداب والفنون ، كل هذا كان بداية مولد جيل جديد يتوق إلى البناء والتقدم .

ولكن بقايا العبودية الزراعية لم تكن قد اُجتثت من جذورها ، مما جعل مستوى معيشة الشعب منخفضاً . فقد كان الفلاحون مرهقين بالضرائب وأقساط الأرض — وهو ثمن تحريرهم ، كما كانت الفوارق بين الطبقات لا تزال قائمة ، والسلطات الحكومية لا تزال أوتوقراطية متسلطة .

وعند ما رفض القيصر ووزراؤه تتويج تحرير الفلاحين من رِقّ الإقطاع الزراعى بدستور جديد حر ، انهارت أحلام الطبقة المثقفة التى كانت تعتقد أن الإصلاح السياسى لن يلبث أن

يأتى فى أعقاب الإصلاح الزراعى . وإذ انهارت هذه الأحلام الحلوة ، أصيبت طبقة المثقفين بخيبة أمل قوية جعلتهم يلجأون إلى قوارص الكلام يوجهونه نقداً مريراً إلى السلطات الحاكمة .

وإذ انتشر السخط ونمت المعارضة ، لجأت الحكومة إلى العسف والظلم ، فقبضت على الكتّاب الشعبيين الذين دفعهم تذمرهم الفكرى إلى المناداة بالعنف . وكانت محاولة الطالب « كاراكوزوف » قتل القيصر سبباً فى ارتفاع المد الثورى وزيادة حدة الموقف إثارة وعنفاً . فمحاولة اغتيال القيصر كانت بمثابة ثورة متبلورة على نظام الحكم ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه سبباً فى زيادة عسف الحكومة وجبروتها . وهكذا نشأت قوتان متضادتان ومتعارضتان : الثورة والقمع .

وكانت الآراء الاشتراكية متسلطة على أخيلة طلاب الجامعة وطبقة المفكرين من الفلاحين ورجال الدين والمثقفين من رجال الطبقة الوسطى ، فاعتنقها قادة مثقفون من أمثال « هرزن » و « شرنيشفزكى » و « بيساريف » و « لافروف » و « باكونين » وعدد كبير من الصحفيين . وأتاحت «هجرة» بعض طلاب الجامعة إلى الجامعات الأوربية فرصة جديدة لنمو الوعى الاشتراكى . فى جامعات باريس وجنيف وهيدلبرج وبون التقى هؤلاء الطلاب بالقادة الثوريين الذين كانوا قد هربوا من سيبيريا للإفلات من

قبضة البوليس القيصرى . وسرعات ما أدت الاجتماعات التى كان القادة الثوريون يعقدونها ويؤمها هؤلاء الطلاب إلى تكوين مئات من الندوات والدوائر الثقافية فى شتى أنحاء أوروبا . وشيئاً فشيئاً بدأ هؤلاء الطلاب يطبقون ما سمعوه من هؤلاء القادة الثوريين على الأوضاع التى كانت سائدة فى روسيا ، فأنشأ بعضهم عدداً من المطابع ، كما راح البعض الآخر يهرّب الكتب الثورية إلى روسيا . وكان الواحد منهم إذا عاد إلى بلاده ، أخفى بين أمتعته عدداً من المنشورات الثورية فى مخابئ مستورة فى حقائبه .

* * *

وما أن انتصف العقد السابع ، حتى كان « لافروف » و « باكونين » يتزعمان حركة ثقافية تهدف إلى نشر الوعى الثورى الجديد بين المواطنين الروسيين .

وكان « بيتر لافروف » فى الخامسة والأربعين من عمره عند ما نشر عام ١٨٦٨ سلسلة من المقالات الصحفية بعنوان « الخطابات التاريخية » تحت توقيع مستعار هو « ميرتوف » . وعند ما جمع تلك المقالات فى كتاب نشره فى العام التالى ، لجأ البوليس القيصرى إلى مصادرة الكتاب ، ولكن بعد فوات الأوان فقد نفدت الطبعة كلها ، ولم يستطع رجال البوليس أن يعثروا

فى المكتبات على أية نسخة منه . وكان لا بد أن ينتقم رجال البوليس لكبريائهم الجريحة ، فقبضوا على « لافروف » ونفوه إلى سيبريا ، بيد أنه استطاع بعد فترة وجيزة أن يهرب إلى باريس حيث أقام حتى مات .

وكان نجاح كتاب « الخطابات التاريخية » بشيراً بمولد عهد جديد ، هو الانتقال من «الفوضوية» وآرائها عن العلوم الطبيعية إلى « الشعبية » واهتمامها بالمشاكل الاجتماعية . وكانت « شعبية» لافروف نتيجة « طبيعية » لإيمانه بأن الفضل فى التقدم الثقافى مرجعه إلى الملايين الذين يكدّون ويكدحون ، ويتيحون باستنزاف قواهم فى العمل الشاق المضنى ، للمثقفين فرصة التوفر على الدرس والبحث والإبداع . وكانت له فى ذلك كلمة مشهورة هى « إننا مدينون للشعب بما نتمتع به من ثقافة وفن . فلقد استطعنا نحن السعداء القلائل أن نقطف زهور الفلسفة والأدب والفن ، بفضل الغالبية الشعبية التى تعكف على نحت الصخر من جوف الأرض . . . فهذا العمل الشاق المرير الذى قام به الشعب هو الذى مكّن من تشييد صروح العلم والأدب والفن . ومع ذلك فإن دخول هذه الصروح محرّم على هذا الشعب الذى أتاح لنا الاستمتاع بكل هذه النعم ... إننا مطالبون بأن نرّد الديْن إلى الشعب ، وذلك بالعمل على تربيته وتحريره . . . يجب أن يقوم

عهد جديد يضع حداً للظلم الاجتماعي والاستغلال ، ويجعل الثقافة عامة فى متناول جميع أفراد الشعب » .

وإذا كان « لافروف » يعتقد أن الثورة الاشتراكية التى كان يحلم بها يمكن أن تقوم على أكتاف الطبقات العاملة ، فقد أصر على ضرورة إيقاظ ضمائرهم الهاجعة قبل دفعهم إلى الثورة . وكان ينادى بأن إيقاظ ضمائر الشعب الهاجعة موكول إلى المثقفين ، فوجه إليهم نداءه الشهير « اذهبوا إلى الشعب . . . انشروا الحقيقة بين الفلاحين والعمال » .

ولكن تلاميذه وحوارييه كانوا على عجلة من أمرهم ، فتساءلوا « لماذا نحاول أن نشذب الفروع ، بينما يستطيع معول الثورة أن يجتث الشجرة كلها من جذورها ؟ ليس من المجدى إنفاق الوقت والجهد فى تثقيف الشعب ، فالثورة الاشتراكية تستطيع بعد نجاحها أن تعنى بهذا الأمر» ، ولكن « لافروف » كان يطلب إليهم ألا يقلقوا قائلاً لهم إنهم إذا كانوا اليوم عشرة فسوف يصبحون فى الغد مائة ، ثم ألفاً بعد شهر من الزمان ، وإن الانقلاب الاشتراكى لن يقدر له النجاح إلا بالدعاية له بين الشعب الذى يكتنز فى عقله ميولاً اشتراكية تتمثل فى المجتمعات الريفية ونقابات العمال والمتنورين من رجال الدين .

وهنا تتفق آراء « لافروف» عن الشعبية مع عقيدة « هرزن»

الثورية الدينية ، ولكن « لافروف » كان يجحد فكرة القدر و « النصيب » مؤكداً دور الفرد الإبداعى فى تشكيل معالم التاريخ . ولكنه لم يكن فى الوقت نفسه يقبل تفسير « ماركس » المادى للتاريخ ، فهو يقول فى ذلك « لست أنكر أهمية الصراع الطبقى والاقتصادى ، والصدام بين مصالح أولئك الذين يملكون من جانب وأولئك الذين لا يملكون من جانب آخر . . ولكن يجب أيضاً أن نعتد بعوامل أخرى متعلقة بالحياة البشرية والنفس الإنسانية . . فالاشتراكية يجب أن ترتكز أولاً وقبل كل شىء على أسس أخلاقية تخدم أغراض الحرية والعدالة والإخاء ونمو الفرد المتكامل المنسجم مع غيره من الأفراد لإنها ليست مجرد ضرورة اقتصادية » .

ولكن « لافروف » كان ثورياً فى الوقت ذاته ، إذ كان يقول « . . . بما أن الطبقة الحاكمة لن تتنزل طواعية عن سطوتها فإننا لن نستطيع أن نحقق أغراضنا إلا عن طريق انقلاب ثورى » . . . وكان يؤمن بذلك إيماناً ملك عليه نفسه ، حتى لقد أطلق على نفسه اسم « الاشتراكى الانقلابى » . .

وسرعان ما استولت آراء « لافروف » عن الفردية الأخلاقية على أخيلة تلاميذه وحوارييه الذين كانوا يتعجلون الثورة ، فراحوا يعملون على تنوير الشعب عن طريق التعليم العام .

ونجحت هذه الخطة رغم احتجاج أتباع « باكونين » الذين كانوا يطالبون بأن يبدأ الإصلاح « من فوق » ، أى عن طريق اجتثاث الشجرة الفاسدة كلها من جذورها . . .

* * *

أما « ميشيل باكونين» فهو أحد مؤسسى نظرية « الفوضوية العالمية » . وقد أسهم فى الثورة الأوربية عام ١٨٤٨ وسُجن ثم سلمته الحكومة النمسوية فى النهاية إلى روسيا التى ما كاد يصل إليها حتى أوثِق بالسلاسل فى حائط زنزانة بقلعة القديسين بطرس وبولس . ولكن المعاملة القاسية التى كانت توشك أن تقضى عليه ، لم تلبث أن خُفّفت عند ما رفع إلى الإمبراطور نيقولا الأول وثيقة سجل فيها اعترافه بأخطائه . . ثم نُفى إلى سيبريا فى النهاية ، ولكنه استطاع عام ١٨٦١ أن يهرب إلى أوربا حيث راح لأكثر من خمسة عشر عاماً يحرّض على الاضطرابات ويثير الشغب ويسهم فى شتى ضروب المؤامرات السياسية .

ولكن « باكونين » رغم مبادئه الثورية المتطرفة ، كان خصماً عنيداً ومنافساً لدوداً لكارل ماركس . وزاد نشاطه خطورة ما عمد إليه من تأليف فرق عسكرية للعمال ، وتأسيس جمعيات ثورية فى القارة الأوربية وخاصة فى الممالك اللاتينية والسلافية .

وهكذا كان أول من أقام أساساً عسكرياً للحركة الثورية الاشتراكية ، ونشر وعياً ثورياً عالمي النطاق . . . ذلك أنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً أنه ينبغي أن تقوم فى شتى أنحاء العالم كله وفى وقت واحد ، ثورة عالمية . كذلك كان أول ثورى روسى لعب دوراً رئيسياً فى الحركة العمالية الأوربية ؛ كما كان لا يؤمن بالقيم والمؤسسات الديموقراطية ، ولا يعترف إلا بوجود قوتين متعارضتين لا ثالث لهما ، هما أولا : الدولة بسيطرتها وظلمها وما تعمد إليه من عسف وقهر وزيف ، وثانياً : الثورة بما فيها من حرية ، وتحرر كامل للفرد ، وتنظيم اقتصادى اشتراكى قائم على أساس نقابات عمالية تحكم نفسها بنفسها . . .

وكان « باكونين » يؤمن إيماناً قاطعاً لا يتزعزع بأن « شهوة الهدم شهوة إنشائية » . وحجته فى ذلك ، أن العالم القديم يجب أن يُهدم برمته سعياً وراء غاية نبيلة هى إقامة نظام جديد ! .. وعلى الرغم من أنه — شأنه فى ذلك شأن « لافروف » — طالب أتباعه بأن ينشروا الوعى الاشتراكى بين الجماهير والكتل الشعبية ، فإنه كان يقول لهم « إذهبوا إلى الشعب . . . ولكن لا تثقوا فى طريقة لافروف القائمة على أساس الدعاية البطيئة المنظمة . . . إن الطريقة المثلى هى إيقاظ الرغبة فى الثورة فى نفوس الفلاحين وتحريضهم على الثورة بأسرع الطرق وأقواها أثراً » .

ومهما يكن أمر النزاع بين « باكونين » و « لافروف » ، فإن الاثنين اتفقا على دفع عجلة « الشعبية » إلى الأمام ، والمطالبة بالاتجاه إلى الشعب . وسرعان ما صادفت هذه النزعة هوى فى نفوس المثقفين الروسيين حتى صارت إنجيلا للغالبية منهم وخاصة طلاب الجامعة المراهقين الذين أحلوها محل الدين . وشيئاً فشيئاً ، أصبح شعارُ « اذهبوا إلى الشعب » يحظى باستجابة حماسية انتقلت عدواها من مثقفى الطبقة العاملة إلى الطبقة الوسطى ثم إلى الطبقة الأرستقراطية ، فبدأ بعض الأرستقراطيين يلينون أمام تفشى الاشتراكية ، لا بدافع من الشفقة على الطبقة العاملة الفقيرة فحسب ، ولكن بدافع من الشعور بالإثم الذى كان يأكل قلوبهم ، والذى حدا بهم إلى أن يشعروا بأن الواجب الأخلاقى يحتم عليهم مساعدة الفقراء والمعوزين والمحرومين ، حتى لا يستشعروا خجلا من النعم التى يستمتعون بها على حساب الشعب الفقير المظلوم .

وهكذا بدأ بعض الأرستقراطيين والنبلاء يديرون ظهورهم للطبقة التى كانوا ينتمون إليها . وهذه ظاهرة ملموسة بوضوح فى الاتجاه نحو الشعبية .. فمعظم المصلحين الاجتماعيين ابتداءً من « بستل » حتى « ليوتولستوى » ، وكذا معظم الثوار ابتداءً من « باكونين » حتى « لينين » قد انحدروا من طبقات أرستقراطية ،

ثم لم يلبثوا أن استولت عليهم رغبة جارفة فى « التفكير الاجتماعى» المصحوب برغبة صادقة فى البحث عن « حياة نظيفة » . . .

فرجال الطبقة الأرستقراطية ونساؤها كانوا فى العقد السابع يقدمون على التضحية و « التكفير » بحماس وشغف . كما كان نشاطهم السياسى يتسم بطابع « التكفير » الإنسانى عن طريق الشفقة والحكمة والاعتدال والاستعداد للتضحية .

وسرعان ما أصبحت عبارة « خدمة الشعب » ذات سحر على شفاه النبلاء والأرستقراطيين النادمين . وازداد رنين هذه العبارة تألقاً وواقعية عند ما لاكتها ألسنة المثقفين من رجال الدين. وبعد أن كانت فكرة « الشعبية » مجرد نظرية ذات سحر وبريق على عقول المثقفين وحدهم فى العقدين الثالث والرابع ، أصبحت فى العقد السابع اتجاهاً عاما سيطر على أخيلة غالبية الشعب ومعظم أفراد الطبقة الأرستقراطية . ومن هنا حدث أهم تطور فى التشكيل الطبقى . . ولأول مرة فى تاريخ روسيا ، نشأت علاقة عادلة بين عنصرى الأمة : الطبقة المثقفة من جانب والكثرة العاملة الكادحة من جانب آخر . . . وكان هذا الاتصال بين عنصرى الأمة هو أول تطبيق عملى للحركة الشعبية .

الفصل الثانى

الحركة « الشعبية » تشتغل بالسياسة

أصبحت حرية الشعب وسيادته اللتان من أجلهما كرّس المثاليون المثقفون حياتهم ، الشغلَ الشاغل لرجال الفكر وأفراد الطبقة الوسطى . . . وسرعان ما وصل آلاف من الرجال والنساء فى شتى بقاع روسيا من تلقاء أنفسهم وبغير توجيه منظم إلى نفس القرار : لقد كانوا جميعاً يريدون « الذهاب إلى الشعب » والإسهام معه فى الكدح والتضحية . . . كانوا جميعاً يريدون أن يصلوا إلى الفلاح والعامل لاستثارة النزعات الاشتراكية فى نفوس العمال والفلاحين . . وسرعان ما أتت التصورات النظرية بنتائج عملية ، وسرعان ما بدأت الحركة الشعبية الوليدة — بعد أن ظفرت بنجاح عملى — تصبح « هوساً » سيطر على عقول كثير من ذوى المراكز الهامة فى الدولة كالقضاة وكبار موظفى الحكومة وضباط الجيش والأطباء والمدرسين وأساتذة المعاهد العليا .

وفى صيف عام ١٨٧٣ ، بدأ بعض أفراد الطبقة الأرستقراطية يطبّقون نزعاتهم الشعبيةالجديدة تطبيقاً عمليًّا .

فالأمير « بطرس كروبتكين » الذى كان حقُّ أسرته فى العرش يفوق حق أسرة « رومانوف » ، اشتغل نقاشاً فى ضواحى العاصمة ! . . و « صوفى بريفوسكايا » ابنة الحاكم العسكرى لمدينة « سان بطرسبرج » اشتغلت عاملة فى أحد مصانع الجبن !

و « كاترين برشكوفوسكايا » التى لُقِّبت فيما بعد « جدة الثورة الروسية » و « ليسوجب » المليونير الذى وصف « ليوتولستوى » مصيره المحزن فى كتابه « إلهى وبشرى » ، وآلاف غير هؤلاء وهؤلاء ، ذهبوا ليعيشوا فى القرى المنبوذة ! .

ولكن نتائج هذه التضحيات الجماعية من جانب الشعبيين بدت هزيلة ضعيفة ، لأن الجهود التى بذلها الشعبيون كانت مبعثرة وغير منظمة ، فلم يأبه الناس لها ، بل وقف منها البعض موقف العداء .

وكان من الطبيعى أن يقابل رجالُ البوليس القيصرى نمو الحركة الشعبية بشتى أنواع العسف والاضطهاد ، ومن ثم لم يتسع نطاق هذه الحركة ، حتى لقد أدرك الشعبيون فى عام ١٨٧٥ أن حركتهم لن تثمر إلا إذا سندتها قوة شعبية ثورية . وهكذا وحد قادةُ « الشعبية » قواهم ووضعوا نواة حزب سياسى أطلقوا عليه اسم « الأرض والحرية » . وكان هذا هو شعارهم المفضل باعتباره رمزاً للثورة الاشتراكية ، ولكن الحزب الوليد لم يكن يمثل

الشعبيين كلهم ، لأنه كان أكثر جنوحاً إلى الثورة من الشعبيين الأوائل الذين كانوا يطالبون بنشر الوعى الاشتراكى كمرحلة أولى من مراحل تحقيق الثورة . وبدت الاتجاهات الثورية التى سيطرت على الحزب واضحة جلية ، حينما راح أعضاء الحزب ينشئون المطابع السرية والفرق المسلحة والجمعيات التى لا عمل لها سوى تمكين المعتقلين السياسيين من الهرب من سجونهم فى سيبريا وغيرها من البلدان ، و « التجسس المضاد » . وكان من الطبيعى أن يخضع الحزب لجماعة ثورية محترفة ، فأنشئت لجنة مركزية لإدارة الحزب وتنظيم المظاهرات الجماعية كوسيلة من وسائل لفت الأنظار إلى آلام الشعب .

وفى عام ١٨٧٥ قررت اللجنة التنفيذية القيام بغزو جماعى فتقدم الشعبيون الثائرون صوب القرى والمصانع مرة أخرى . . وكانت هذه هى « الحملة الثانية » .

وعلى الرغم من وسائل التنظيم الحديثة ، وما كانت الحركة الشعبيةتحظى بهمن تأييد أولى تمثل فى تشجيع الرأى العام لها ، فإن « الحملة الثانية » لم تحقق الآمال التى كانت معقودة عليها . فقد أحبطت الحكومة القيصرية خطط الشعبيين الثائرين.وخلال ست سنوات من بدء الحركةالشعبية ، قُبض على أكثر من سبعة عشر ألف شخص كان مصيرهم السجن أو المنفى ! . . .

وإذ أصيبت الحركةُ الشعبية بخيبة الأمل تلك ، بدأ قادة حزب « الأرض والحرية » يشعرون بالحاجة إلى إعادة النظر فى خططهم ، فقامت بينهم مناقشات حامية هددت وحدة صفوفهم. فمثلاً كان « باكونين » يرى الانتقال إلى « العمل المباشر » ، ودبّر بعض أنصاره بالفعل ثورة صغيرة فى أوكرانيا ؛ بينما كان الماركسيون الذين تعاونوا مع هذا الحزب . يصرّون على ضرورة نشر الدعوة الاشتراكية بين عمال المصانع أولاً ؛ على حين كان اليعقوبيون من أمثال « بطرس تاكاشيف » ينادون بأن قيام نظام « أوتوقراطى » بلا أساس اشتراكى خليق بأن يحقق الثورة الاشتراكية ، إذ تستطيع جماعة من أقوياء الثوار القبض على زمام السلطة ثم تقوم فيما بعد بالإصلاحات السياسية والاجتماعية.

وفى كلمات قلائل ، ما إن حل عام ١٨٧٦ حتى كان الدعاة الشعبيون المثاليون قد اختفوا من الميدان وحلّ محلهم قادة آخرون أميل إلى العدوان واستخدام القوة فى محاربة السلطات الحاكمة ، مما حمل الحكومة القيصرية على تأليف محاكم عسكرية لمحاكمة الثائرين ، كما تم إنشاء هيئة « الأوكرانا » الشهيرة (إدارة الأمن العام) ، وهى عبارة عن قوة من البوليس السرى كانت ذات موارد مالية وبشرية غير محدودة ، كما كانت تملك سلطات واسعة النطاق تتيح لها أن تفرض رقابة شديدة

محكمة على البلاد كلها .

ولكن هذه الإجراءات المشوبة بالعسف والظلم التى لجأت إليها السلطات الحاكمة ، زادت نفوس الثوار مرارةً ، وشجعتهم على رد الإساءة بالمثل ، والتوسل بالعنف فى الرد على العنف . وهكذا أرغمت حوادث ١٨٧٥ — ١٨٧٦ الشعبيين ذوى الميول الثورية ، على الاعتراف بأن « الأوتوقراطية » هى عدوهم الأول المباشر ، وأنه لا أمل فى قيام انقلاب اشتراكى على الإطلاق ، ما لم يسقط النظام القيصرى . وعلى هذا ، فالنضال من أجل الحرية السياسية التى كان « لافروف » يميل إلى إهمالها ، والتى كان « باكونين » يرفضها باحتقار ، أصبحت عملاً فرضه تطور الحوادث على الشعبيين ، فأمسوا يتحدثون عن الانقلاب السياسى والحريات الديموقراطية ، كخطوة فى الطريق المؤدى إلى الاشتراكية.

وهكذا توسل الشعبيون — الذين كانوا لا يؤمنون بجدوى الإصلاحات الديموقراطية من قبل — بالديموقراطية ، لا كغاية ولكن فقط كوسيلة تحقق لهم الثورة الاشتراكية التى كانوا ينشدونها . واضطروا فى سبيل ذلك إلى أن يناضلوا من أجل الديموقراطية نضالاً قوياً ، عساهم يستطيعون عن طريق الإصلاح الديموقراطى أن يحققوا هدفهم الأسمى . وعلى حين كان النضال من أجل الديموقراطية فى الممالك الأخرى ، يقوم به ويؤيده

رجال الطبقة البورجوازية والطبقات التالية لهم مباشرة ، اضطر الاشتراكيون فى روسيا إلى التوسل بالديموقراطية — ضد رغباتهم — لكسب المعركة الأساسية . ولكنهم حينما اقتنعوا بأن الضرورة فرضت عليهم أن يقوموا — رغم إرادتهم — بالعمل الذى كان البورجوازيون يقومون به ، لجأوا إلى القوة والوسائل الثورية والعنف.

وفى عام ١٨٧٩ ، نشب صدام بين جناحى الحركة الشعبية. فبينما طالب المتطرفون بالالتجاء إلى الثورة وتجاهل الإصلاحات الديموقراطية ، أصر الشعبيون القدامى على ضرورة التوسل بالإصلاح السياسى . وانتهى هذا الصدام بوقوع انقسام فى صفوفهم ، فألف المتطرفون بزعامة « بلكهانوف» و « زاسوليتش» وبعض الماركسيين جماعة « الفرقة السوداء » التى لم يُقدّر لها أن تعمر طويلا . أما الجناح غير الثورى ، فقد ألّف حزب « إرادة الشعب » بزعامة « أندريه زليابوف » و « إسكندر ميخايلوف» و « نيقولا موروزوف » .

وبينما كانت جماعة « الفرقة السوداء » تنادى بأن المطالبة بحقوق الشعب والحريات السياسية والانتخابات العامة وما إلى ذلك من الوسائل الديموقراطية ، لم تكن أموراً ذات أهمية مباشرة ، وبأن الاشتراكيين الذين يناضلون من أجل الحرية الديموقراطية كانوا أدوات فى أيدى البورجوازية التى تفيد وحدها من قيام

نظام ديموقراطى على حساب الغالبية العاملة . . . بينما كانت « الفرقة السوداء » تنادى بذلك ، كان حزب « إرادة الشعب » يؤكد أن النضال السياسى الديموقراطى تحت قيادة الاشتراكيين خليق بأن يأتى بنتائج واسعة النطاق . فطالما كان الاشتراكيون تظاهرهم الطبقات العاملة ، يخوضون غمار المعركة من أجل الحرية ، فإن سقوط « الأوتوقراطية » يصبح ضربة لازب وبعدها يصبح الطريق ممهداً أمام إصلاحات اشتراكية واسعة النطاق ، أهمها الإصلاح الزراعى الاشتراكى .

وكان الجديد الذى طرأ على الحركة الشعبية ممثلةً فى الجناح المتطرف ، هو الجنوح إلى « النشاط الهدام المخيف » لإنزال الرعب فى قلوب المعارضين ، ومعاقبة الموظفين المتهمين باستخدام القوة والعنف . وكان الغرض من هذا «النشاط الهدام» هو إيقاظ الروح الثورية فى نفوس الشعب ، عن طريق زعزعة إيمانهم فى قوة القصر الإمبراطورى ، وتقديم الدليل تلو الدليل على أن معارضة السلطة الحاكمة أمر ممكن .

وسيطر على أخيلة هؤلاء الشعبيين المتطرفين حماسٌ ثورىٌ مشوبٌ بنزعة كهنوتية . ولم يكن ذلك جديداً عليهم ، فقد درج الروسيون كشعب ، على أن يُدْخِلوا على نضالهم نوعاً من التديين بكل ما فيه من روح متفانية وتكريس مصحوب باستعداد قوى

للتضحية بالنفس ، والإسهام الحماسى فى الجهود المبذولة من أجل تحقيق المبدأ ، والتشبث بالحد الأقصى من العمل ، والتزمت فى الأفكار والطقوس بشكل بيزنطى لا مثيل له فى التقاليد الغربية .

وكانت النزعة الكهنوتية فى الكفاح السياسى تتلاءم مع طبيعة الشعبيين المتطرفين ، فالفدائية لم تكن مجرد ضرورة سياسية بقدر ما كانت ضرورة أدبية جعلتهم يشعرون بأن حقهم فى الاغتيال السياسى مستمدٌ من استعدادهم للموت ، فالفدائية تضحية . ومن ثم كان عليهم أن يقهروا فى نفوسهم شتى عوامل الخوف والشفقة ، وكان عليهم أن ينكروا الروابط العائلية والحب والأمن ، وأن يربطوا إرادتهم وأفكارهم وسلوكهم بهدف واحد ، هو أنهم يجب أن يعيشوا فى ريبة وحذر ، كما لو كانوا حيوانات مُطَارَدَة تهددها قوى عديدة ذات خطر غير محدود .

وهكذا كان حماسهم الاشتراكى ذا صبغة كهنوتية قوية . ومن ثم كان إصرارهم على الكفاح ، وكان استعدادهم للموت فى سبيل انتصار قضيتهم . فهؤلاء الثوريون الذين كرسوا أنفسهم لإنزال الفزع بخصومهم ، كان لديهم إحساس عملى حاد ، فهم رغم مواردهم المحدودة ، والعقبات التى كان عليهم أن يتخطوها ، قد نجحوا فى إقامة نظام سرى معقد واسع النطاق شمل المطابع

ومصانع المفرقعات وأماكن خاصة للاجتماع كانت تتغير وتتبدل بتغير الظروف والمناسبات ، ولغة خاصة للتخاطب ، ونقطاً للمراقبة ، ومراكز وإمدادات لتزوير جوازات السفر ، وما إلى ذلك من ضروب النشاط الثورى .

وآنس هؤلاء المتطرفون فى أنفسهم القدرة على القيام بعمل مباشر ، فقررت جمعيتهم التنفيذية فى شهر أغسطس ١٨٧٩ اغتيال الإمبراطور « ألكسندر الثانى » . ومنذ تلك اللحظة التى حكموا فيها بالإعدام على الإمبراطور ، وجهوا جميع جهودهم نحو هدف واحد ، هو « تصفية القيصرية » والقضاء عليها .

وبين عامى ١٨٧٩ و ١٨٨١ بُذلت عدة محاولات لاغتيال الإمبراطور . فوضعت ألغام متفجرة تحت عجلات القطارات الإمبراطورية ، ونسفت القنابل الموقوتة غرفة الطعام الإمبراطورية فى القصر الشتوى . وفى الوقت ذاته ، قُتِل كثير من موظفى الحكومة . وبالرغم من تعبئة جميع قوى الدولة والبوليس ، وما أسفر عنه ذلك من إلقاء القبض على آلاف الشعبيين ، فإن « الفرقة السوداء » مضت فى نشاطها الثورى ضد النظام الإمبراطورى القيصرى .

أما القيصر « ألكسندر الثانى » الذى كان يشعر أنه أصبح مُطارَداً ، والذى كان يغيّر موقع غرفة نومه كل مساء ، فقد

كانت أعماله تتفاوت بين القمع وتحضير الإصلاحات ! .
فبعد الانفجار الذى حدث فى القصر الشتوى ، منح القيصر سلطات ديكتاتورية للجنرال « لوريس مليكوف » الذى أعدّ مسودة لدستور تُحكم البلاد بمقتضاه حكماً صالحاً ، وإن كان قد ظل يطارد الشعبيين والاشتراكيين بيد من حديد فى الوقت ذاته .

وفى أول مارس عام ١٨٨١ ، أغتيل الإمبراطور فى أحد شوارع بطرسبرج ، فقد ألقى عليه الفدائيون القنابل . . . وكان فى هذا العمل الثورى تدميرهم . فمن بين قادة اللجنة المركزية الستة والثلاثين ، شُنق خمسة كان من بينهم « أندرية زليابوف » و « صوفى بيروفسكايا » (برغم التماس الرحمة لهم الذى قدّمه « ليوتولستوى » و « فلاديمير سولوفيوف » للقيصر الجديد) ؛ كذلك أصيب واحد منهم بالجنون ، ومات إثنا عشر فى السجن بينما حُكم على الآخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة فى سيبريا ، فيما عدا ثلاثة استطاعوا أن يهربوا إلى أوربا . .

الفصل الثالث

هزيمة الشعبيين الثائرين

كان اغتيال الإمبراطور « ألكسندر الثانى » نصراً هزيلاً للثوار ، لأنه لم يحقق آمالهم . فالشعب ظل ساكناً ، فلم يشعل نار الثورة ؛ والنظام القيصرى ظل ثابتاً لم يتغير . أما الإمبراطور الجديد « ألكسندر الثالث » فقد قرر بعد تردد قصير الأمد بين سياستى « لوريس ماليكوف » الذى كان يقترح الجنوح إلى الاعتدال فى معاملة الشعب ، و « قسطنطين بوبيدونوسكزيف » زعيم المحافظين الذى كان يطالب بأخذ الشعب بالشدة والقسوة — أن يستمع إلى نصيحة الأخير ، وعقد العزم على أن يحكم العناصر الشاردة بالحديد والنار . فبعد مرور شهرين على اغتيال أبيه ، أعلن « ألكسندر الثالث » أنه سيحكم البلاد وهو « على يقين من قوته الأوتوقراطية وسلامتها كنظام الحكم » . ثم سار فى البلاد سيرة العسف والجبروت . وجمع مؤيدو الحكم الأوتوقراطى شتات قواهم وأعلنوها حرباً على الاشتراكيين والأحرار . . . وأما قائدهم « قسطنطين بوبيدونوسكزيف » رئيس المجمع المقدس ورئيس

الكنيسة الروسية تبعاً لذلك ، فقد أخفى شغفه بالسلطة تحت قناع من التواضع المسيحى . وإذ كان واسع الثقافة لامع الذكاء فقد أدرك خطر الثقافة والعلم ، فقرر أن يحول بين الشعب والعلم ؛ لأنه كان — مثل ديستويفسكى الأكبر — يعتقد أن الناس فاسدون ثائرون خليقون بعمل كل شر بطبعهم ، وأن الثقافة تزود الثائرين بسلاح فتاك ، كما كان يؤمن إيماناً قاطعاً بأن استخدام القوة هو الوسيلة الوحيدة للإبقاء على النظام الإمبراطورى ، وأن الإرهاب هو السلاح الوحيد للقضاء على خطر الثورة .

وكان « بوبيدونوسكزيف » ذا عقل اختلطت فيه الجزويتية الدينية بالبيزنطية ، فاعتقد أن الروسيين ثوار مشاغبون بطبعهم ، وأن خطر الثوار منهم لا بد بالغ مداه إلى حد الثورة ، ما لم تتحد الكنيسة والدولة باعتبارهما السلطتين الأساسيتين ، فتتحقق لهما بذلك فرصة حكم الروح والجسد . . ولكى يضمن السيطرة على التعليم ، أنشأ شبكة من المدارس الكنسية التبشيرية فى القرى . وأما الكونت « ديمترى تولستوى » — وزير التربية العامة حينذاك ، والذى اشتهر بعداوته للعلم — فقد وضع مناهج دراسية تكفل القضاء على الآراء والمبادئ الهدامة وتخضع لرقابة صارمة . ثم خلفه « دليانوف » الذى اشتهر بالقرار الذى اتخذه عام ١٨٨٧ بعدم قبول المدارس أولاد الحوذية والخدم والبقالين

والطباخين ومن على شاكلتهم ، إلا إذا كانوا ذوى مواهب استثنائية خارقة !

وكانت طبقة النبلاء — الذين كانوا يُمنَحون مخصصات مالية — تشجع سياسة الحكومة . كما كان ضباط البوليس الريفى الخاص الذين اختيروا من طبقة النبلاء ومُنِحوا قوةإدارية واسعة النطاق ، يلهبون ظهور الفلاحين بالسياط ! .

وفى الجانب الآخر ، كان الفلاحون الصغار لا يزالون يتقاضون أجوراً ضئيلة . وكان معظم الفلاحين الأشد فقراً يعملون كرقيق فى الأرض بأجور أكثر ضآلة . واشتدت الأزمة الزراعية بانخفاض سوق القمح الدولية ، مماأدى إلى ثورات اقتصادية تفشت فى أقاليم شاسعة . فى عام ١٨٩١ و ١٨٩٢ انتشرت المجاعة فى مساحة من الأرض يقطنها خمسة وثلاثون مليوناً من السكان ، فهلك مئات الآلاف جوعاً أو بسبب أوبئة التيفوس والكوليرا . واضطر المعدمون فى القرى إلى الهرب إلى المدن حيث تلقفتهم المصانع لتستغلهم أسوأ استغلال فى زيادة الإنتاج الصناعى ، حتى بلغ ذلك الإنتاج ما قيمته مليوناً ونصف مليون روبل ذهباً . كذلك أدى استرقاق الفلاحين فى الإنتاج الصناعى إلى زيادة الطرق الحديدية زيادة كبيرة ، وإلى تقدم صناعة النسيج والصلب والفحم تقدماً هائلا .

وهكذا تدهور الإنتاج الزراعى من جانب ، بينما ازدهر الإنتاج الصناعي من جانب آخر ، وكان من الطبيعي أن يسفر التقدم الصناعى عن تعديل النظريات الاشتراكية والنظريات الحرة تعديلا أثر تأثيراً قوياً فى محبذى النظام الإمبراطورى ، الذين رأوا مصرع الإنتاج الزراعى ومولد التوغل الصناعى ، والذين كانت الدعوة إلى التمسك بأهداب الدين قد أخذت بألبابهم ، فتحول الأمير « فاسيلى مشرسكى » رئيس تحرير جريدة « المواطن » ومؤلف بضع مقالات سياسية كان من أوسعها انتشاراً « حديث محافظ » و « الدليل ضد الأيام » ، إلى داعية من دعاة الدين . وتفوق عليه فى هذا المجال « قسطنطين ليونتيف » أحد أصحاب الأملاك ، فقد ضحى بمستقبل دبلوماسى لامع ، واعتزل فى أحد الأديرة ، حيث دمر حياته بسلسلة من العذاب ، انتهت حينما مات فى الدير ، وهو يحمل اسم « الأب كليمنت »!

وكان « ليونتيف » يكتب قصصاً ومقالات سياسية وأدبية ذات مستوى فنى مرتفع ، ولكنه على الرغم من عقليته الابتكارية لم يستطع أن يستحوذ على حب القراء كمفكر سياسى ودينى ورجل من رجال الأدب ، لأن القراء لم يكونوا قد غفروا له تأييده للأوضاع التى كانت قائمة حينذاك ، وأنه أحب أملاكه الموروثة كما أحب « تولستوى » أملاكه ، وأنه كان يمقت أية

محاولة من شأنها أن تهدم طريقته فى الحياة كإقطاعى ثرى ، سواء أكان هذا التهديد آتياً من ناحية « الفوضويين القذرين » الذين كان يريد أن يلهب ظهورهم بالسياط ، النساء منهم والرجال على السواء ، أم من ناحية « البورجوازية الحقيرة » التى كانت تطالب بالإصلاح الديموقراطى ، فقد كان يعتبر الديموقراطية والحرية نتيجة مباشرة للانحلال العام الذى خلقته الثورة الفرنسية حينما دفعت الطبقة الثالثة إلى الطليعة ! . . . وبلغ من مقته للطبقة الوسطى والبورجوازيين أنه كان يحذر « الأوتوقراطية » من منح أية امتيازات لأفراد هذه الطبقة . كما كان يوحى لعامة الشعب بأن « الخوف رأس الحكمة » ، لكى يحمله على الخضوع والخنوع للحكم الأوتوقراطى . ولقد قال فى إحدى مقالاته الشهيرة « إن القوة الملكية الحازمة الصارمة إلى حد الوحشية ، وسلطة الكنيسة المطلقة ، هما العنصران الوحيدان الخليقان بأن يحافظا على كيان الأمة » . كذلك كان ممعناً فى الإقليمية ، فطالب بأن يسود مبدأ عزلة روسيا بعيداً عن الغرب وكل المبادئ الأخرى . وكان يقول فى ذلك « يجب أن يتجمد المجتمع الروسى أو يتبلور حتى يحتفظ بكيانه . . . ويجب أن نتعلق بتقاليدنا وتراثنا . . . وبدلاً من أن نرقص ، يجب أن نصلى . . . وإذا كان لا بد من أن نرقص ، فلنرقص بطريقتنا الخاصة لا بطريقة الغرب ! » .

وتفوق على « ليونتيف » فى نزعته القومية الانعزالية ، مفكرٌ محافظ آخر هو « نيقولا دانيلفسكى » المؤرخ والعالم الطبيعى الذى كان يعارض بشدة نظرية « دارون» عن النشوء والارتقاء . فقد كان يعتقد أن هناك أنماطاً أولية ثابتة ، وأن كل نمط من هذه الأنماط لعب دوره فى التاريخ . وكان يميز عشرة أنماط ثابتة منها : الهندى والإيرانى والعبرى والإغريقى والعربى والجرمانى واللاتينى والروسى السلافى . ولكنه كان يشك فى أن أمريكا الشمالية أنتجت نمطاً يمكن أن يُضاف إلى هذه الأنماط . وعند ما درس هذه الأنماط دراسةً مستفيضة ، حاول أن يحصر الدور الذى لعبته فى التاريخ فى أربعة حقول : الدين والثقافة (العلم والفن والصناعة) والسياسة والاقتصاد . وعلى الرغم من أنه حاول أن يركز نشاط بعض الأنماط فى حقل واحد ، فإنه ذهب إلى أن النمط الروسى هو النمط الوحيد الجدير بأن يصل إلى أهداف عالية فى الحقول الأربعة للنشاط الإنسانى . ومن ثم كان « دانيلفسكى » يعتقد أن الدور الذى تلعبه روسيا فى تشكيل التاريخ الإنسانى دورٌ على درجة عالية من الكمال .

وإذ كانت سياسة روسيا الرسمية تشجع النزعة القومية ، فقد انتشرت آراء « دانيلفسكى » الانعزالية ، حتى لقد شجعه ذلك على أن يقول « إن فكرة السلافية فكرة عظيمة ينبغى أن

تتبوأ مكاناً أعلى من الثقافة والحرية والعلم » . ونال كتابه « روسيا وأوربا » الذى نُشر عام ١٨٧١ ثم أعيد نشره ثانية وثالثة فى عامى ١٨٨٨ و ١٨٨٩ تقدير الجمهور واستحسانه بعد موت مؤلفه . وتُرجم الكتاب إلى اللغة الألمانية بعد ثورة ١٩١٧ ، وكان له تأثير كبير على « دوروالد شبنجلر » الذى طبق كثيراً من آراء « دانيلفسكى » عن الأنماط الثقافية وخط سير التاريخ .

وشيئاً فشيئاً أصبحت النزعة القومية ذات نفوذ قوى فعال ؛ فتوسلت بها الدولة لكى تقيم حاجزاً قوياً بين روسيا وأوروبا ، يقف فى وجه الأفكار الهدامة المستوردة من الغرب . وقام « ميخائيل كاتكوف » حامى حمى الأتوقراطية ومحرر جريدة « موسكو » ورئيس تحرير « نيو تايمز » جريدة بطرسبرج اليومية بدعاية واسعة النطاق للقومية الروسية ، واتخذ له شعاراً خلاباً هو « روسيا للروسيين » . وكان هذا صدى للتفاخر بالنجاح فى السياسة الدولية ، وخاصة أن روسيا استطاعت فى العقد الثامن أن تتفوق على إنجلترا فى آسيا ، وأن تدعم أقدامها فى البلقان بالرغم من توتر العلاقات بينها وبين النمسا ، وأن تجدد علاقاتها مع فرنسا ، وأن تفتح لها أسواقاً اقتصادية جديدة . ولم يكن تشجيع النزعة الروسية القومية مقصوراً على روسيا نفسها ، وإنما شمل التعصب القومى أقاليم آسيا الوسطى الشاسعة التى كانت

قد أصبحت أقاليم روسية ، كما مُنع استعمال اللغات القومية فى روسيا البيضاء ولتوانيا ، وحاول الجهلة من الحكام القضاء على روح الاستقلال فى بولندا ، وعومل المسيحيون من غير أتباع المذهب الأرثوذكسى معاملة لا تقل سوءاً عن معاملة الدولة لأتباع الأديان غير المسيحية .

وشيئاً فشيئاً أصبحت « القومية » دعامة من دعامات الحكم فصارت هذه الدعائم هى « الأوتوقراطية » ، والأرثوذكسية . . . و « القومية » . ولكن هذا الاتجاه لم يلبث أن شابته عدة شوائب مثل التطرف فى الزهو القومى ، واحتقار أوروبا ، والكبرياء المقرونة بالغطرسة ، والإقليمية الانعزالية ، وهى شوائب ينفسح أمامها المجال كلما انتشرت النزعة القومية انتشاراً واسع النطاق .

ولكن النتائج التى أسفرت عن حرب روسيا — تركيا (١٨٧٧ — ١٨٧٨) وإرغام روسيا على النزول عن بعض امتيازاتها فى الشرق ، جعلت السلافيين الأحرار يتذمرون ، حتى ليمكن أن يقال إن حرب تحرير العناصر السلافية فى البلقان ألقت بالسلافيين مرة أخرى فى صفوف المعارضة ، فقام مثقفون أحرار يتهمون الحكومة القيصرية باستعباد الكنيسة ومعاملة الشعب معاملة وحشية ، كما جعل بعض السلافيين الأحرار من أنفسهم حلقة اتصال بين الحكومة القيصرية والمعارضة المعتدلة ، وحاولوا

ربط اليسار البيروقراطي باليمين الحر . وفى عام ١٩٠٥ انضم عدد كبير منهم إلى جماعة « حزب أكتوبر » ، وإن كانوا قد ظلوا سلبيين فى العقد الثامن . أما الذين كانوا يميلون ناحية الغرب ذى الطابع الحر ، فلم يكونوا أسعد حظاً ، إذ عمدت الحكومة القيصرية فى عام ١٨٨٤ إلى تشتيت شملهم والقضاء على « عصبة الأحرار » التى كانوا قد ألفوها و « اتحاد الزمستوف » الذى كان يدعو إلى ملكية دستورية ، والذى كان من خطبائه « مالكنسكى » و « فراجومانوف » اللذين نشرا خارج روسيا كتاب « العالم الحر » . وعلى الرغم من أن أفراد الطبقة العليا من البورجوازيين (التجار وأصحاب المصارف والصناعات) كانوا يودون الانضمام إلى المثقفين من النبلاء والأشراف وأعضاء « اتحاد الزمستوف » ، إلا أنهم نكصوا على أعقابهم بعد أن ضربت الحكومة القيصرية بشدة على أيدى المطالبين بالإصلاح.

وأما الراديكاليون والاشتراكيون ، فقد كانت تتناولهم يد التغيير والتبديل . فإن غالبية المثقفين الذين أصابتهم هزيمة حزب « إرادة الشعب » بضربة شديدة ، شعروا بالضيق والاشمئزاز والعزلة ، واستولى عليهم يأس قاتل جعلهم يكفون عن كفاحهم . بل لقد استجاب بعضهم إلى تعاليم «تولستوى » ببعث الروح الأخلاقية ما داموا قد فقدوا إيمانهم فى العمل السياسى ، وخاصة

فى تغيير نظام الحكم عن طريق العنف والثورة . وسرعان ما انتشرت فلسفة « عدم مقاومة الشر » واكتسبت أنصاراً كثيرين. وسرعان ما بدأت الدعوة إلى « الإصلاحات الصغيرة » التى كانت تبشر بها صحف الحكومة القيصرية كحركة مضادة للاشتراكية ، تصادف هوى فى نفوس أولئك الذين خاب أملهم فى البطولة والتضحية ، وأولئك الذين أدى بهم الشعور باليأس إلى الاستسلام المطلق وعدم المبالاة .

ومع ذلك ، كانت هناك أقلية قد عقدت العزم على المضى قدماً فى تحقيق الشعبية الثورية . فبالرغم من سجن الكثير من الشعبيين القدامى ، بُذلت جهودٌ عديدة لإحياء حزب « إرادة الشعب » . وكانت الحوادث التى وقعت خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٨٨٢ و ١٨٨٧ ، دليلاً على أن النشاط الثورى كان لايزال على أشده ، ولكن من وراء ستار! . . . فى عام ١٨٨٧ دبر فريقٌ من الثوار تحت إمرة « لوكاشفيش » و « شفيريف » محاولة لاغتيال القيصر ألكسندر الثالث ، ولكن المحاولة لم تنجح ، فألقى القبض على المتآمرين جميعاً ثم أعدموا . ولم يكن القيصر « ألكسندر الثالث » يدرى وهو يوقع وثيقة إعدام « ألكسندر اليانوف » أن « فلاديمير » الشقيق الأصغر لذلك الإرهابى والذى كان يبلغ فى ذلك الحين السابعة عشرة من عمره ،

قد قُدِّر له أن يصبح زعيم روسيا الشيوعية بعد ثلاثين سنة تحت اسم « نيقولا لينين » ! .

وعلى الرغم من أن هزيمة الشعبيين ممثلين فى حزب « إرادة الشعب » قد قضت على ذلك الحزب قضاء مبرماً ، فإن الدوائر الشعبية ظلت تنشر آراءها سراً ، وبحماس أقوى من ذى قبل ، حتى ليمكن أن يقال إن العهد الذى شاهد كبت النشاط الثورى كان فى الوقت ذاته عهد انتشار الآراء الاشتراكية. فبينما كانت الطبقات الحاكمة مبتهجة بالهدوء الظاهرى ، كان المثقفون — شيباً وشباناً — يجتمعون سراً ، ويناقشون مشاكل الثورة ، ويسهمون فى النزاع بين الشعبية التى كانت تؤذن بالاختفاء ، والماركسية التى كانت تزحف رويداً رويداً إلى الأمام !

الفصل الرابع

مولد الاشتراكية الجديدة

كان « جورج بلكهانوف » فى طليعة قادة الشعبيين ، ولكنه بعد أن انقسم حزب « الأرض والحرية » على نفسه ، انضم إلى الجناح الثائر الذى ألّف « الفرقة السوداء » المتطرفة . . . ولكنه بعد هزيمة الشعبية ، سافر إلى أوروبا ليدرس الحركة الاشتراكية فى سويسرا وفرنسا وألمانيا . وفى عام ١٨٨٣ أسس حزب « التحرير والعمال » الذى كان أول منظمة ماركسية . ثم وضع كتابين أولهما « الاشتراكية والنضال السياسى » (١٨٨٣) وثانيهما « انحرافاتنا » (١٨٨٥) ، حلّل فيهما أسباب فشل الحركة الشعبية .

وقد عزا فشل الحركة الشعبية إلى أن روسيا كانت تسير فى طريق الرأسمالية الغربية ، ونأت بجانبها عن الآمال الشعبية فى التطور اللارأسمالى . كذلك هاجم نظرية دور الفرد فى التاريخ وسماها « التغرير المثالى » ، وطالب باعتناق فلسفة « كارل ماركس » القائمة على أساس خضوع تطور الأحداث التاريخية

لأشكال الإنتاج والتوزيع والصراع الطبقى .

ويبدو أن تطور الأحداث السياسية فى روسيا ، قد عزز وجهة نظر « بلكهانوف » بعض الشىء . فالتصنيع الذى نما وازدهر ، خلق طبقة سفلى أصلها من المزارعين ، كان عدد أعضائها ينمو نمواً مستمراً . وصحب نمو هذه الطبقة خوفٌ عارم من جانب البورجوازيين الذين كانوا يخشون أن تحتل الطبقة الحديثة مكانهم ، فدخلوا فى منازعات مع طبقة النبلاء والإقطاعيين التى كانت – رغم الإعانات والمخصصات المالية والامتيازات الخاصة – توشك على الانهيار نتيجة لأزمة زراعية . وصحب هذا كله ازدياد حدة النزاع بين الشعبيين « الأنقياء » الذين كانوا يعتمدون على الفلاحين ، والماركسيين الذين كانوا يعتمدون على الطبقة الجديدة التى زادها التوسع الصناعى نمواً وقوة .

وفى عام ١٨٨٥ ، ازدادت حدةُ النزاع بين الشعبيين والاشتراكيين وخاصةً بعد أن نشر الاشتراكيون الروسيون فى أوروبا « منهج الحزب الاشتراكى الديموقراطى للعمال الروسيين » ذلك المنهج الذى استنكر بشدة آراء الشعبيين عن ضرورة جعل « الإصلاح الزراعى أساس الوعى الاشتراكى » .

وزج « بلكهانوف » بنفسه فى المعركة ، فسخر من آراء

الشعبيين عن ضرورة الإصلاح الزراعى قائلاً إن ما يزعم الشعبيون أنه « ميول اشتراكية » فى برنامجهم ليس سوى بقايا نظام اقتصادى موقوت ، مصيره إلى الانهيار تحت سنابك الرأسمالية ، وإن تركيز امتلاك الأراضى فى أيدى كبار الملاك ورحيل فقراء الفلاحين إلى المدينة سيكون آخر ضربة موجهة إلى الطريقة العتيقة للحياة الروسية ، وإن غالبية المزارعين سوف يُصهرون فى أتون الرأسمالية ، ثم قال« وعلى ذلك ، فالآمال المعقودة على الدور الذى قد يلعبه الفلاحون فى الثورة ليست سوى عبث وهراء . أما الطبقة الثورية الحقة التى ينبغى أن تمسك بزمام الموقف ، فهى طبقة العمال » .

وكان « بلكهانوف » وأصدقاؤه الماركسيون على اقتناع بضرورة النضال السياسى ، وكسب حريات ديموقراطية كأساس لنجاح الحركة الاشتراكية . وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه، ينطوى على اتفاق ظاهرى مع وجهة نظر الشعبيين الذين كانوا يطالبون بالإصلاح السياسى قبل ذلك بست سنوات ، فإن الاتجاهين كانا مختلفين فى جوهرهما بعض الاختلاف . فبينما كان الشعبيون يرون أن النضال السياسى سوف يؤدى إلى قيام ثورة تصطبغ بصبغة الإصلاحات الاشتراكية ، كان الماركسيون يرون أن الثورة سوف تكون « ثورة بورجوازية » تسندها الطبقة العاملة ...

ومن عجب أن المعايير انقلبت بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، أى بعد عام ١٩١٧ . . . فالفلاسفة الماركسيون الذين كانوا جزءاً من الحزب الاشتراكى الديموقراطى ، كانوا يجاهدون للقيام بثورة اشتراكية؛ بينما كان الاشتراكيون - وهم خلفاء الشعبيين- يرون أن الثورة يجب أن تكون بورجوازية ! .

وبينما كان الماركسيون يميلون إلى تمجيد العامل ، كان الشعبيون يميلون إلى تمجيد الفلاح . وعند ما عُقد أول مؤتمر اشتراكى دولى فى باريس عام ١٨٨٩ ، أدهش « بلكهانوف » سامعيه بقوله «لن تحرز الحركة الثورية الروسية نصراً إلا كحركة عمالية » . . . دُهش السامعون لأن « بلكهانوف » ، وهو أحد النبلاء والضابط السابق فى الجيش القيصرى الذى هجر مستقبلا لامعاً ليكون ثورياً ، قد أصبح ماركسياً متطرفاً ، يؤمن بالآراء المادية مثل « ماركس » و « أنجلز » . وحذّر « بلكهانوف» المثقفين الروسيين من « الاشتراكية العاطفية » التى أسماها « اشتراكية القلب » ومن قادة الشعبية الذين وصفهم بأنهم يشيدون قصور الثورة فى الهواء ، كما طالبهم بألا يؤسسوا اشتراكيتهم على فكرة « المسئولية الأدبية إزاء الشعب » أو « رد الجميل » وتسديد الدين للشعب ، أو الواجب إزاء الشعب . فقد كان يريد منهم أن يتفهموا العوامل التى تؤدى إلى تغيير المجتمع

الاقتصادى ، وأن يدركوا أن روسيا إذ تفتح أبوابها للرأسمالية تساعد التاريخ على أن يؤدى رسالته ، وعليها أن تتقبل النتائج المترتبة على ذلك ! .

ولقد أثارت هذه الآراء غضب المثقفين الذين كانوا يحاربون تفشى الرأسمالية إما على أساس عاطفى أو تقليـــدى : فالأروستقراطيون كانوا يعارضون تفشى الرأسمالية معارضة عاطفية لما فى التصنيع من قبح المنظر ؛ والأحرار والشعبيون والقوميون كانوا يحاربون الرأسمالية لأنها أصابت الحياة فى الريف بانحلال ممثّل فى هجرة الفلاحين إلى المدن حيث تلقفتهم المصانع التى قامت على أكتاف الرأسمالية .

وكان من الطبيعى أن يقف الشعبيون فى وجه الماركسية ، فوصفوا الماركسية بأنها « كريهة وقبيحة» . ولكن هؤلاء الشعبيين لم يلبثوا أن اعترفوا بجدوى الوسائل الماركسية العمالية ، عند ما شاهدوا الحركة الماركسية تزداد قوة . . . ومن ثم بدأوا يفكرون فى إعادة النظر فى نظرياتهم وخططهم . وهكذا تطورت « الشعبية » . وما إن حل عام ١٨٩٥ ، حتى حلّ محل الشعبية النقية ــ تحت وطأة هجوم الماركسيين عليها ــ طراز جديد من الشعبية هو « الشعبية الانتقادية » التى تزعمها « نيقولا ميخائيلوفسكى» الذى كان مركزه فى العقدين الثامن والتاسع

مشابهاً لمركز « شارليفسكى » أو « بيساريف » فى العقد السادس.

وقد كسب هذا الاشتراكى النبيل المولد شهرة واسعة كناقد أدبى ، وخاصة بعد أن نشر مقالاته اللامعة المشرقة مثل « اليد اليمنى للكونت تولستوى ويده اليسرى »(عام ١٨٧٣) و«العبقرية الفاشية » (١٨٨٢) وكذا دراساته عن الاشتراكية ، وخاصة « ما هو التقدم » (١٨٦٩) و « نظرية دارون والعلم الاجتماعى » (١٨٧٣) و « النضال من أجل الفردية » (١٨٧٦) و«الأبطال وعامة الشعب » (١٨٨٢) الذى أظهر فيه موهبة المجادل الذكى.

وإذ كان « ميخائيلوفسكى» يؤمن بآراء « لافروف » عن العلوم الإنسانية وخاصة «الفردية الاشتراكية» ، فقد استطاع أن يقدّم آراءً «اشتراكية » لا ماركسية قوية . ومثلما حدث فى العقد الرابع عند ما بدأ الروسيون يبحثون عن «دين اجتماعى جديد» بدأوا فى العقدين السابع والثامن يبحثون عن هذا الدين مرة أخرى فاعتنقوا الاشتراكية الجديدة التى نادى بها « ميخائيلوفسكى » . وكان سر نجاح « ميخائيلوفسكى » هو أنه قدّم للشعب إيماناً جديداً كان مزيجاً من الفكر والعاطفة والرغبة فى العمل . ولقد علّمت مقالاته الناس كيف يعيشون ، وكيف يفكرون ؛ ولكنه لم يكن صاحب نظريات سياسية ، ومن ثم مزج التيارات الشعبية فى مجرى واحد ، وحاول أن يخلق وعياً اشتراكياً نقياً مناهضاً

للماركسية المتزمتة الجامدة .

وكان « ميخائيلوفسكى » ينكر الماركسية ويرفض أن يتقبل فكرة المادية التاريخية ، لأنه كان يرى أن العوامل الخلقية والدينية والنفسية والقومية هى التى تفعل فعلها فى حياة البشر . . . فالفرد هو الذى يخلق مقاييس الخير والشر والعدالة والظلم ، وهى كلها آراء خلقية ؛ والفرد هو الذى يحكم على الأشياء ويحدد أهدافه وفقاً لمثله العليا ، التى تعبر عن وعيه الخلقى والدينى والنفسى والقومى . وهكذا ، فإن النشاط الفردى والجماعى وسيلة من القيم التى يصنعها الفرد ، والتى تحدد تفسيرنا للتاريخ ونظرتنا إلى الأحداث التى تقع حولنا . وهكذا فإن قيمة عليا واحدة فى تاريخ التطور البشرى هى التى فرضت نفسها على التاريخ ، هذه القيمة الواحدة هى « الفردية البشرية التى تنموا نمواً متكاملا » والتى هى فى ذاتها أحد الأهداف العليا للبشرية . . .

فالتقدم الاجتماعى هو السبيل إلى الحياة المتكاملة التى تُصان فيها حريةُ الفرد ومصالحه ومطالبه ... حقيقةٌ أن التقدم الاجتماعى لا يسير دائماً مع السعادة الفردية ، ولكن ذلك التعارض « البسيط » بين التقدم الاجتماعى والفردية خيرٌ من الماركسية التى تقتنص الفرد فى شبكة من التعقيدات السياسية والاقتصادية ، وتنكر عليه حقوقه الإنسانية ، وتجعله مجرد رقيق

أو رقم أو ترس فى آلة كبيرة .

وهكذا كان « ميخائيلوفسكى » يدعو إلى النضال من أجل الفردية ، حتى يتحقق قيام نظام تتوافق فيه مصالح الفرد مع مصالح المجتمع ، وهذا أمر لا يتحقق بشكل اجتماعى سليم إلا فى ظل نظام تعاونى قائم على أساس العمل . وهكذا كانت الاشتراكية التى يدعو إليها هى التعاون بين العمال واتفاق مصالحهم عن طريق العمل .. فالعمل يحرر الأفراد ، وما دامت مصلحة العمل تتفق مع مصالح الأفراد ، فإن الفرد لن يألو جهداً فى العمل والإبداع والتعاون مع غيره من العاملين المنتجين . ولعله من المفيد أن نشير إلى أن التفانى فى العمل وبخاصة العمل اليدوى ، كان من مميزات النبلاء النادمين الذين تحولوا إلى الشعبية بدافع من « التكفير الاجتماعى » عن أخطاء طبقتهم . ويشبه « ميخائيلوفسكى » زميله « ليوتولستوى » فى تمجيده العمل . وقد وضح هذا الاتجاه فى الأدب الروسى وضوحاً كافياً .

وعلى الرغم من أن « ميخائيلوفسكى » كان يمجد العمل ، ويعتقد أن العمل يحرر الفرد ، فإنه كان حريصاً فى الوقت ذاته على إنكار تأليه الشعب أو تأليه الفلاح أو تأليه العامل . كذلك كان يحذر المثقفين الذين يدافعون عن الشعب ، من أن تسيطر عليهم نزعات الشعب التى تشوبها فى بعض الأحيان شوائب

رجعية وتسيطر عليها ميول مرجعها إلى التعصب الأعمى .

وهكذا حاول «ميخائيلوفسكى» أن يصل إلى طريقة توحد بين المعرفة والأخلاق ، أو بمعنى آخر بين العلم المادى والمثل العليا .

ومن ثم قال « إن الإشارة إلى أن حقيقة السماء النظرية بعيدة كل البعد عن حقيقة الأرض العملية ، أمر لا يبعث على الرضا بل ويؤلمنى دائماً . . . كذلك أرى أن الحياة النبيلة والآراء الأخلاقية والاجتماعية العالية تبدو لى عاجزة ، إذا هى لم تحفل بالحقائق العلمية » .

كذلك كان « ميخائيلوفسكى » يؤمن بأن ثورة روسيا المقبلة سوف تكون نتيجة تحالف بين الفلاحين والطبقة العاملة والمثقفين . وهكذا خلع على الاشتراكية طابعاً جديداً ، وحاول أن يسير بها إلى المقدمة مرة أخرى ولكن فى زى جديد .

ولقد صادفت الاشتراكية الجديدة هوىً فى نفوس كثير من الناس ، فساروا وراءها . . . وكانت الماركسية قد اجتذبت بدورها بعض الناس . ومن ثم أصبحت الاشتراكية الجديدة « الشعبية الحديثة » والماركسية ، التيارين الرئيسيين اللذين تقاسما الطبقة المثقفة فى نهاية العقد الثامن وبداية العقد التاسع .

الجزء الثانى

نماذج من الإنتاج الفكرى لقادة الشعبيين والاشتراكيين

١ ـــ اسبنسكى

٢ ـــ جارشن

٣ ـــ نادسون

٤ ـــ سالتيكوف

الفصل الأول

الشعبية الأولى

كان خليقاً بالحركة الشعبية — كفكرة جديدة — أن تسود المناهج السياسية ، وأن تؤثر فى النشاط الأدبى ، وخاصة بعد أن أصبح « التجاوب مع الشعب » ووحدة الجماهير مع الطبقة المثقفة ، الحلم الذى سيطر على أخيلة المفكرين . ولعل أصدق وصف للاتجاه الشعبى هو ما قاله ألكسندر ارتل : « إن المرء قد لا يؤله الشعبية ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يستطيع أن يهرب منها » .

ويصدق هذا القول حتى على « تولستوى » و« ديستويفسكى» اللذين كانا يسيران ضد التيار ، ويعارضان الاشتراكية والحركة الثورية . فقد كان ما أجراه تولستوى على لسان الفلاح «أفلاطون كاراتيف » فى قصته (الحرب والسلم) برداً وسلاماً على قلوب الشعبيين . وكذلك كشف « ليفين » أحد أبطال قصة « أنا كارنينا » عن الحكمة العالمية فى عقلية الفلاح وطريقة حياته ، كما صورت نزاهة الفلاح على لسان الأمى المتلعثم « أكن » فى

قصة « قوة الظلام » تصويراً واضحاً يمثل الشعور الأخلاقى العالى . . كذلك أبرز « تولستوى » الفارق الضخم بين أخلاق الفلاحين العالية وسطحية الطبقة العليا ونفاقها ، كما سخر من المدنية الرأسمالية . . . أما « ديستويفسكى » فقد أبرز طهارة « الناس البسطاء » وأعرب عن إيمانه الجازم فى خلاص العالم عن طريق روسيا . . . ولا شك أن هذا كله يكشف عن مدى سطوة الحركة الشعبية ونفوذها ، حتى على أشخاص من أمثال تولستوى وديستويفسكى اللذين كانا يعارضانها .

أما الكتاب الناشئون فى ذلك العصر ، فقد استحوذت عليهم الحركة الشعبية استحواذاً قوياً ، فعمدوا إلى تأليه « الطبقات الشعبية » باعتبارها نمطاً اجتماعياً ذا أخلاق عالية . وسار هذا التأليه جنباً إلى جنب مع الاتجاه اللارأسمالى ، وذهب بعض الكتاب الشعبيين إلى أبعد من مجرد تمجيد الفلاح ، إذ راحوا يعزون سوء حال الفلاحين ، إما إلى نتائج البيئة الرجعية كالخرافة والجهل والفقر ، وإما إلى أدواء سطحية فى جسم الفلاحين الصحيح ، كالفردية الخشنة ونزوح الفلاحين إلى المدن الكبرى . ولكن كثيراً من الكتاب الشعبيين الناشئين استطاعوا على مر الزمن أن يتحرروا من تأليه الفلاح ، فصارت صورهم عن الفلاحين مصطبغة باللون الواقعى .

واستحوذت « الشعبية » فى الأدب على عقول كثير من الكتاب منهم الكاتب الأخلاقى العاطفى « نيقولا زلاتوفْاتسكى » (١٨٤٥ ــ ١٩١١) الذى يُعتبر كتابه (الأسس) من أحسن إنتاجه الأدبى ، إذ صوّر فيه الصراع بين مجتمع القرية والفلاحة الحديثة ؛ ومنهم الكاتب الساحر « ألكسندر لڤيتوف » (١٨٣٧ ــ ١٨٧٧) مؤلف كتاب « صور من الاستبس » الذى يُعتبر إنتاجه الأدبى مَعْلَماً من معالم الطريق التى سار عليها « تشيكوف » و « جوركى » ؛ ومنهم الكاتب اللاذع « فاسيلى سلبتزوف » (١٨٣٦ ــ ١٨٧٨) المدافع الدؤوب عن تحرير المرأة والمسجل الفكاهى للهجات الفلاحين ؛ ومنهم «نيقولا كارونين» ــ وهو الاسم المستعار للكاتب «بيتر وبافلوفسكى» (١٨٥٧ ــ ١٨٩٢) الذى اشترك فى نشاط حزب « الأرض والحرية »، والذى اشتهر بأنه مؤرخ الحياة الريفية ؛ ومنهم « نيقولا نونوف » (١٨٣٨ ــ ١٩٠١) الذى كرّس إنتاجه الأدبى ، وخاصةً قصصه القصيرة « المملكة المنسية » للدفاع عن فلاحى سيبريا ؛ ومنهم « بول زاسود مسكى » (١٨٤٣ ــ ١٩١٢) الذى كتب قصصا دامعة عن الفقراء فى المدينة والقرية ؛ ومنهم « كازيمير بارانزيفتش » (١٨٥٢ ــ ١٩٢٧) ؛ ومنهم الكاتب الموهوب « ميخائيل أليوف » (١٨٥١ ــ ١٩١١)

الذى سار على نهج « زاسود مسكى » ؛ ومنهم « ألكسندر أرتل » (١٨٥٥ ـ ١٩٠٨) الناقد الشعبى المتأثر بأدب « تولستوى » ، الذى رسم عدة صور معبّرة ناطقة عن الحياة الريفية ، والذى أتاح له امتلاكه لناصية اللغة ، فرصة السيطرة والتفوق على صغار الكتّاب الناشئين فى ذلك العصر .

ولقد وجّه قادة جماعة الشعبيين الذين ظلوا أوفياء لتقاليد العقد السادس ، اهتمامهم إلى المجتمع المثقف ، فرسموا صورةً صادقة لجيلهم الحائر . فبينما وصف بعضهم مثل « أندريه أوسيبوفتش نوفود فورسكى » (١٨٥٣ ـ ١٨٨٢) فشلَ الحركة الشعبية ، ركّز آخرون أعمالهم حول الأحداث اللافحة فى ذلك العصر كتحرير المرأة ، والنضال ضد التحزب الاجتماعى ، والصراع بين صغار الراديكاليين وبيئتهم المحافظة فى المجتمع والأسرة . وكان من المفضلين لدى الطبقة المثقفة « ألكسندر شلر ميخايلوف » (١٨٣٨ ـ ١٩٠٠) مؤلف القصة الشعبية الرائعة « عندما تُقطع الغابة تتناثر الشظايا » ، و « جورج ماشيت » (١٨٥٢ ـ ١٩٠١) الرجل المثالى ، وكاتب القصص القصيرة المثيرة « قسطنطين ستاينوكوفتش » (١٨٤٣ ـ ١٩٠٣) مؤلف « قصص البحار » وهى مجموعة من القصص الذائعة الصيت عن البحرية الروسية ، و « أنولنتى فيدروف أميولفسكى »

(١٨٣٦ – ١٨٨٣) الشاعر والروائى السيبيرى الذى نال كتابه « خطوة بعد أخرى » إعجاب الاشتراكيين .

ووجد الأدب الشعبي بغيته فى كتّاب تجاوبوا معه مثل « سيرجى تربيجوريف أتافا » (١٨٤١ – ١٨٩٥) الذى صوّر كتابه الواقعى الصلب « الأعواز » انحلال طبقة الملاك ؛ و « بولسلاف ماركفتش » (١٨٣٢ – ١٨٨٤) الذى كتب عدة روايات عنيفة ؛ «وفاسيلى أفسينكو » (١٨٤٢ – ١٩١٣) ، و « قسطنطين جلوفين أردوفسكى » (١٨٤٣ – ١٩١٣) .

وعندما أشرف العقد الثامن على الانتهاء ، كان الأدب المحافظ غير الشعبي سائراً فى طريق الانحلال . . . أما « دستويفسكى » ، وهو الكاتب الوحيد فى ذلك العصر الذى كان يعارض الراديكالية ، فيمكن أن يوصف بأنه كان من عدة وجوه كاتباً شعبيًّا دينيًّا .

الفصل الثانى

١ ـ اسبنسكى

عندما نمت النزعة « الشعبية » ، تحولت من تأليه الشعب إلى دراسة حياته وعقليته دراسةً عميقةً واعيةً ، وهذا هو الدرب الذى سار عليه « جليب اسبنسكى » (١٨٤٣ — ١٩٠٢) ، أهم كتّاب الحركة الشعبية ، الذى كان يمثّل الكفاح الراديكالى المتحرر فى العقدين السابع والثامن .

وكانت حياة « اسبنسكى » تؤهله لهذا الدور . . . فطفولته التعيسة نمتّ فيه حساسية دافقة . فقد كان إبناً لموظف حكومى صغير . وبعد التحاقه بجامعة « سانت بطرسبرج » ، أخذ يتردد على مجلة « الزميلة » الشهرية ، وظل يتردد عليها حتى نشرت له سلسلة من الصور الأدبية تحت عنوان « الحياة فى شارع راستريفا » ، كتبت بطريقة سيكولوجية على غرار المذهب الطبيعى فى الأدب . وكان موضوعها الصناع وصغار الموظفين والفقراء والمعدمين والمحرومين من الإرث .

وككل الكتّاب الشعبيين ، ركّز « اسبنسكى » اهتمامه

على « المستضعفين والمستنذلين » بفقرهم وقسوتهم وميلهم إلى الإغراق فى احتساء الخمر . وكان « شارع راستربيفا » يمثل جميع مظاهر البله والفظاظة والقسوة. ومن ثم كان الكتاب تصويراً صادقاً لرجال ونساء ديسوا بالأقدام وأنهكهم العمل الشاق والقلق والنضال من أجل لقمة العيش ، حتى دفع بهم أخيراً إلى التماس العزاء والنسيان فى احتساء الخمر . . . فهم يرهنون ملابسهم الرثة ولا يتورعون عن الاختلاس والسرقة والاغتصاب من أجل كوب من شراب « الفودكا » ، ويقعون فى براثن « بورفيرتش » الذى يقرضهم النقود ليزيدهم بؤساً على بؤس فيجعل حياتهم جحيما وظلاما .

وقد نمت ميول «اسبنسكى» الراديكالية والشعبية اتصالاته باللاجئين الاشتراكيين الذين قابلهم خلال رحلة إلى أوروبا عام ١٨٧٢ ، والعرى الوثيقة التى ارتبط بها مع أعضاء حزب « الأرض والحرية» وحزب إرادة الشعب ؛ وكان « لميخائيلوفسكى» فيما بعد تأثير قوى عليه .

وقد قال عنه « ميخائيلوفسكى » : إن حساسيته وأعصابه الضعيفة جعلته سريع التأثر بوخزات الضمير ، فقد كان يعذبه « ضميره الاجتماعى » ، لأنه رأى فى الظلم والفاقة وسوء الإدارة إهانات شخصية له . كذلك كان دائم الترحال فعاش فى القرى

والبلاد الصغيرة وجمع مادة لكتاباته الأدبية من كل مكان . وترجع مكانته فى نفوس الشعب إلى الصور الأدبية التى كشف فيها عن الحياة الريفية » ؟

وكشعبى ، كان « اسبنسكى » يميل إلى الإشادة بقوة الفلاح الخلقية ، مع أنه ككاتب واقعى ومراقب حاذق ، كان يعطى دائماً صورة صادقة لحياة القرية التى كان فى واقع الأمر يُعنى عنايةً خاصةً بناحيتها المكلومة ، كالمعيشة البائسة لفقراء الفلاحين الذين أثقلت كواهلهم الضرائب وغلت أيديهم سلطةُ رجال الإدارة الحمقى الغلاظ القلوب ، ومآسى الديون والقضايا والأوبئة والمجاعات والجدب ، وجهل الفلاحين أنفسهم وتعصبهم ، وما يقوم به « المزارعون المتوسطون » الذين أخذوا فى النمو حتى صاروا عشيرة من صغار المستبدين ، فأدخلوا الرأسمالية فى القرى . ولعله كان يكتب هذا ليكتسب مديح لينين !

وقد أثقل على الواقعية إلى الحد الذى يعدل وجهة نظر المثقفين نحو الفلاحين . ولكنه فى الوقت نفسه كان يحذّر المثاليين مما قد يجدونه فى الريف ، إذ كان يعتقد أن الفلاح ، ولو أنه من نمط أعلى بين الأفراد ، ما زال باقياً على مستوى منخفض من النمو . وكان هذا التمييز يغرب عن بال الشعبيين كثيراً .

كذلك كان « اسبنسكى » كاتباً فكاهيًّا يميِّز بين « المضمون الاجتماعى » لكل طبقة من الطبقات . كما كان كاتباً تصويريا يكتب القصة الخيالية والمقال الاجتماعى بكفاءة عالية . ولكن كتاباته ، كانت مع ذلك — فيما عدا استثناءات نادرة — تشبه كتابا ضخما سجّل فيه فنان موهوب ملاحظاته وأفكاره بطريقة غير رتيبة . فكان كل شي ناقصاً . ولم تكن الصورة قط عملا فنيًّا كاملاً .

وكان الشيء الذى يضفى حياةً على الصور التى رسمها ، هو القوة التى كان يستجيب بها لآلام الناس .

وإذ كان « اسبنسكى » حساساً بصفة خاصة للتأثيرات الخلقية للأوتوقراطية والفاقة ، فقد رأى أن المجتمع الروسى مكوّنٌ من فريقين كبيرين هما : فريق الإرهابيين وفريق الخائفين — ذلك أن الخوف كان يسحق الطبقات الدنيا ، فالشعب لم يكن يسمع غير هذين الإنذارين « أغلق فمك » ، و « طأطئ رأسك » . ومن ثم تعلم أثناء تجواله أن الناس العاديين حطمتهم العبودية وانعدام الأمن . فهاجم بعنف تمزيق النفس البشرية على هذه الصورة . وكانت أصدق صوره تعبيراً ، تلك التى تحمل عنوان « وضعتنى مستويا » (١٨٨٥) وموضوعها مدرس ريفى يدعى « تيابوشكن » ، نهش الجوع أحشاءه فرقد على مقعد خشبى فى كوخ قذر ،

وقد اتخذ من سترة ممزقة من جلد العنز غطاءً له . ولكنه رغم ذلك لا يسلم من الأذى . . فالبوليس يُنزل به شتى أنواع الردى ، و « المثقفون » ينظرون إليه شذراً ؛ وأعداؤه وموظفو الحكومة يهددونه بالويل . ولكن ليس من المهم ما قد يشعر به «تيابوشكن» من ألم وحزن ، لأنه يجد العزاء فى الذكريات : لقد ذهب مرة إلى فرنسا وشاهد « فينوس » فى الردهة المربعة فى اللوفر ! وبعث هذا التمثال فى نفسه الغبطة والإيمان . وفى استطاعته الآن أن يتحمل الخوف والبؤس ، لأن الآلهة قد وضعت نفسه مستقيمة مستوية ، وجعلته يتحقق من «سعادة كونه كائناً بشرياً» ، وإمكانه أن يكون جميلا ، فهو يملك جميع إمكانيات التحسن البشرى والوصول إلى مستقبل مجيد ! . . قد تستطيع الحياة القاسية والرجال غلاظ القلوب أن يُنزلوا به ألواناً من الظلم والإساءة ، ولكن طالما « فينوس » تقف شامخة ، فإن المثل الأعلى للتوافق والحرية ما زال يحيا فى عقول الرجال ؛ ولن ينهار « تيابوشكن » أمام الحقيقة الكريهة مهما تعفنت وزكمت رائحتها الأنوف . .

وهكذا كان « اسبنسكى » يؤمن أن المستقبل سوف « يضع كل شىء مستويا » ومن ثم لم يحرص على أن يحصن نفسه ضد المنازعات والبشاعات التى كانت تسود عصره . فعدم استقراره ،

والحماس الذى كان يعمل به ضد شرور المجتمع ، كان لهما نتيجة سيئة . ففى عام ١٨٩٩ ، ظهرت على « اسبنسكى » علامات الجنون ، وبعد ثلاث سنوات وُضع فى مستشفى للأمراض العقلية حيث بقى حتى مات عام ١٩٠٢ .

وهكذا يمكن القول إن حلم « اسبنسكى » بالمستقبل اللامع للشعب الروسى » واعتقاده فى « جمال الكائن البشرى الذى لا حد له » ، وبحثه المتحمس عن التوافق والعدالة ، كل ذلك عزّز مكانته فى قلوب مئات الآلاف من القراء الروس .

٢ – « جارشن »

ويشبه « اسبنسكى » تمام الشبه فى حساسيته ، كاتبٌ شعبىٌّ آخر فى ذلك العصر هو « فسيفولود جارشن » (١٨٥٥ – ١٨٨٨) . ولكن بينما كان « اسبنسكى » انعكاسا للحركة الشعبية فى العقد السادس ، كان « جارشن » يعكس حالة ومزاج العقد الثامن بعد هزيمة حزب « إرادة الشعب » . وكان ثمة خلافان آخران : كان « جارشن » من المثقفين ولم يقم بأية محاولة تعينه على أن يخطو خارج دائرته الاجتماعية « ويندمج مع الشعب » . وذهب به مزاجه الشاعرى بعيداً عن طبيعة « اسبنسكى » التى كانت تنمو نمو الصور الرمزية والتحاليل النفسية . وعلى الرغم من أن معظم الشعبيين وصفوا الحياة وصفاً حقيقيًّا ، وحاولوا أن يعطوا صورة صادقة لواقعية المجتمع ، فإن « جارشن » كان يحلل العقد النفسية لدى المثقفين ، والشكوك والرهبة التى كانت تثقل عليهم . فكلا الرجلين كان يعانى من نفس الشعور بالذنب ، ومن الحساسية الشديدة التى وصفها « تشيكوف » بالنسبة لجارشن بأنها « حالة ضمير ملتهب » .

وكان « جارشن » إبناً لأحد الملاك الصغار فى أوكرانيا

وضابطا بالجيش ، فتعلم فى جامعة سانت بطرسبرج . ومع أنه كان فى قرارة نفسه ضد الحرب ، إلا أنه تطوع فى الجيش كنفر عادى لكى يشترك فى حرب عام ١٨٧٧ – ١٨٧٨ ضد الأتراك ، لأنه أراد أن يقاسم الشعب أخطاره وبلواه . وكانت هذه الحركة خليقة بالمزاج الشعبى ، فالشبان والشابات كانوا يعملون تبعاً لقول القائل « إذا كان الشعب يعانى ، فيجب أن أعانى أنا أيضاً » . ومع أن « جارشن » لم يترك سوى قدر ضئيل من الإنتاج ، فإن سمعته الأدبية سرعان ما استقرت أثناء حياته ، الأمر الذى منحه قليلا من الرضا ، لأن نوبات اليأس واختلال العقل التى كانت تنتابه بين الفينة والفينة أبعدته عن العمل المنظم . وفى عام ١٨٨٨ انتابته نوبة من الكآبة فألقى بنفسه من فوق سلم بئر ولقى حتفه على الفور .

وقد تكون أول وأعظم قصة قصيرة له هى « الأيام الأربعة » (١٨٧٧) . وهى تقص طرفاً من تاريخ حياته ، كتبها بعد أن جُرح فى إحدى المعارك . فبطل قصته ، قد تمزقت إحدى ساقيه من رصاصة تركية ، ورقد لمدة أربعة أيام فى حومة الوغى بجوار جثمان متصلب لأحد الأتراك أردته رصاصة روسية . وكان الوصف والتفصيلات مما يقض مضجع النائم . « فالأيام الأربعة » ، كانت قصة الفزع المثير الذى تنشره الحروب .

ولقد اختص « جارشن » كتابته بمشكلة الشرور . ففى إحدى قصصه « الزهرة الحمراء » (١٨٨٣) اعتقد أحد نزلاء مستشفى المجاذيب أن جميع الشرور فى العالم تتركز فى ثلاث زهرات حمر نامية فى الفناء الخلفى للمستشفى ، فقطفها وأخفاها فى قميصه بالقرب من قلبه ، فشعر أن السم البطىء الكامن فى هذه الزهرات اللعينة يقتله ببطء ، ولكنه مع هذا كان على استعداد للقيام بالتضحية الكبرى لكى ينقذ البشرية ، بالقضاء على حياته . . وهو على هذا يموت معتقداً أنه استأصل الشر إلى الأبد . . . وتكاد هذه القصة تكشف عن مزاج « جارشن » . . فقد كانت الشرور والمساوئ تنهش قلبه ، ومات كبطل قصته ، بعد أن وجد أن وقر الشر لا يُحتمل .

وتدور كل قصص « جارشن » حول الآلام وسفك الدماء والفزع . ففى إحدى قصصه « الفنانون » (١٨٧٠) يريد النقاش « ريابينين » أن يطلى أحد عمال مصنع الصلب الذى ينحصر عمله فى أن يستعمل ثقل جسمه فى تثبيت المسامير داخل الغلاية ! وكان « جارشن » — كبطل قصته ريابينين — تشغل باله فكرة ضحايا القسوة والشره الإنسانى ، فأراد أن يثير شعوراً من الشفقة والفزع فى نفس القارئ . ولم يخفف وخزات الضمير عنده أى

أمل فى إصلاح قريب . . .

لقد كان « جارشن » يصبو إلى الحب والانسجام ، ولكنه كزميله « اسبنسكى » ، كان يعلم أن أحلامه لن تتحقق أثناء حياته . .

وفى إحدى قصصه الرمزية « أتيلا برنسيبس » (١٨٨٤) يسبب الزجاج فى إحدى بيوت تربية النباتات عجزاً والتواء فى إحدى النخيلات المجلوبة من الخارج ، ولكن الشجيرة تتملكها الكبرياء فتحطم الزجاج وتطل برأسها مزهوة فوق سطح المنزل .. ولكنها لا تجد سوى سماء من رصاص وبرد قارص ومزيد من العواصف الثائرة . .

وهكذا حاول « جارشن » فى هذه القصة ، كما حاول فى قصصه الأخرى أن يكشف عن مأساة نفسه . ولقد لاحظ معاصروه أنه كان يحاول أن يبين عدم جدوى الألم كذلك ، ولم يتحققوا من أن هذا الفنان المسلوب اللب يختلف عن زملائه الكتاب الأخرين . لقد كان يسمى نفسه واقعيا ، ولكن كتاباته كانت تنأى به عن المدرسة الواقعية . فقد اجتذبته تفصيلات الألم الجسمانى والعذاب الأدبى كما اجتذبت « دستويفسكى » ، فالعقدة الروائية والروح الرومانتيكية فى إحدى قصصه الطويلة « نادزهدا نيكولايفنا » (١٨٨٥) وهى قصة بغى اغتالها عشيقها

الشيطانى وقتل منافسه ثم أردى نفسه ، تُظهر العلاقة بين « جارشن » من ناحية و« دستويفسكى » مؤلف قصة « الجريمة والعقاب » من ناحية أخرى ، وإن كانت تكشف من جهة أخرى عن نثره المنغم وأسلوبه المجازى الرمزى ، وشعوره بكل ما هو قوى. ولعل « جارشن» هو الكاتب السيئ الحظ الذى مهد السبيل للعمالقة من أمثال « تشيكوف » وكتاب عصر الانحلال فيما بعد .

٣ ــ نادسون

كان يجارى « جارشن » فى الشعر ــ ولو على مستوى فنى أكثر انخفاضاً ــ «سيمون نادسون» (١٨٦٢ ــ ١٨٨٧) الشاعر الغنائى الحبيب لجيلٍ من أصحاب المثل التى أصابها الإحباط . فأبوه مات مجنوناً ، وكانت أمه ارستقراطيةً عليلة . . وبعد طفولة حزينة وحيدة ، درس فى المدرسة الحربية فى سانت بطرسبرج ، ثم خدم فى الجيش كضابط ، ولكن صحته العليلة أرغمته على الاستقالة إذ كان يعانى من مرض السل . وزاد حالته سوءاً موتُ شابة كان يحبها حباً أقرب إلى العبادة ، فقضى بقية حياته نصف عليل فى المصحات والمستشفيات فى روسيا والخارج .

وعندما كان « نادسون » فى السادسة عشرة ، كان حزب « إرادة الشعب » فى الطليعة ، فسار على نهج « نكراسوف » ، وكتب عن « المعركة ضد الظلم » وعن آلام الشعب . وصار فيما بعد خطيب الجيل الذى كان يدوى صوته فى جو من الهزيمة ورد الفعل الخانق ، ولكنه استعاد ذكريات أعمال البطولة والتضحيات فى الأجيال التى سبقته .

وكان « نادسون » بحساسيته المرهفة وعلامات الموت الوشيك، قادراً عن على التعبير عن مزاج معاصريه الذين كانوا يشعرون أنهم ينحلون ببطء فى عصر من الغش والخديعة . وكان الرضا يغشاهم عندما يستمعون إلى مقطوعات « نادسون » ، وكانت أشعاره — التى زاد من قيمتها قصة حياته البائسة — حبيبةً إلى نفوس الشعب، فأعيد طبع أشعاره أربع عشرة مرة فى اثنتى عشرة سنة . ولقد خاطب الشباب بلغة العموميات البسيطة ولو أنها كانت مليئة بالإيثار الكريم . ومع أنه كان يحشو قصائده بالكلمات الرنانة وعلامات التعجب ، إلا أن شعره كان مؤثراً . ويبدوا أن قرّاءه كانوا لا يلقون بالاً إلى تفاهة تعبيراته وتشبيهاته . ذلك أن مثل هذه الخصائص كانت فى العقد الثامن تلقى قبولا فى شعب ذلك الجيل ، وسرعان ما كانت ترتفع أصواتهم بنشيدها . أما الآن بعد أن خفتت الأصوات وكممت الأفواه ، وتغيرت الحال ، فإن الشعب الروسى لا يستجيب للفظ المؤثر الذى كان يردده هذا الشاعر ، شاعر العاطفة والتنهدات . ولكن قصائده لا تزال تحظى بإعجاب الأوربيين . ولعل الاستمتاع بشعر « نادسون » لبضع أحقاب، ظاهرة ذات مغزى اجتماعى أكثر منه أدبى .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الكتّاب الثلاثة الذين لمعوا فى

ذلك العصر : « اسبنسكي » و « جارشن » و « نادسون » ، كان مصيرهم محزنا : الجنون والمرض والموت المبكر ، وكأنهم أرادوا أن يرمزوا لمواطنيهم ومعـــاصريهم عن المصير المحزن لجيل بأكمله !

٤ ــ سالتيكوف

لم يُعنَ أعاظم الكتّاب فى ذلك العصر ، وهم « تولستوى » و « دستويفسكى » و« وترجينيف » و « ليسكوف » و « فت » بأن يجعلوا من أنفسهم رمزاً للطبقة المثقفة الاشتراكية . غير أن أديبين بارزين هما : نيكراسوف (فى الشعر) و « سالتيكوف » (فى النثر) صارا رمزاً للاشتراكيين ، واعترِفَ بهما من قادة الجناح الأيسر .

وكان مركز « سالتيكوف » فريداً . . فقد كان ينتمى إلى جيل من « المدرسة الطبيعية » ، وكانت وسائله وروحه هى وسائل الواقعية الانتقادية التى كانت تسود الجو الأدبى فى أيام شبابه . وعلى الرغم من أنه صهر نفسه فى بوتقة تقاليد ذلك الجيل ، فإنه فى نفس الوقت ، ابتكر نوعاً جديداً من التهكم الاجتماعى والسخرية السياسية .

ويُقارن مركز « سالتيكوف » فى الأدب الروسى بمركز « سويفت » فى الأدب الإنجليزى . ومع أنه نهج على منوال مَنْ سبقوه فى الهجاء وخاصةً « جريبويدوف » ، و « جوجول » (وكان تأثير الأخير عليه بارزاً ، وخاصةً فى تكوين الجملة

فى مؤلفاته الأولى) فقد كان أكثر غضباً ، وكان يسير على نهج مرسوم أكثر مما فعل أسلافه ، مما دفع « تشيكوف » إلى أن يقول عنه : « إن سالتيكوف وحده هو الذى يعرف كيف يعبر عن احتقاره بصراحة . ومع أن ثلثى قرائه يكرهونه ، فإنهم كانوا جميعاً يصدقونه ويثقون فيه». وتبين عبارة «تشيكوف» هذه ثلاث ميزات بارزة فى سالتيكوف هى : دقة وصفه الواقعى ، وإخلاصه للحقائق ، والغضب الذى يلوّن هجاءه .

ولقد وُلد «ميخائيل سالتيكوف» (١٨٢٦ — ١٨٨٩) — الذى كان يكتب تحت اسم مستعار هو (ق . شيدرين) والذى كثيراً ما يشار إليه بالاسم المزدوج ستاليكوف شدرين — وُلد فى عائلة عريقة فى النبل تملك إقطاعيات لا حصر لها . ومن ثم استطاع أن يرى — وهو طفل — الاستبداد الإقطاعى وسوء معاملة مُلاّك الأرض للفلاحين . وكان اتصاله ببتراشفسكى واهتمامه بالاشتراكيين الفرنسيين بعد تخرجه ، سبباً فى تكوين آرائه السياسية .

ولقد أثارت قصتاه « العمل المتشابك » و « معارضات » (١٨٤٨) اللتان تساءل فيهما : لماذا يركب بعض الناس العربات ، ويتردى غيرهم فى الحمأة ؟ — أثارت هاتان القصتان حفيظة رجال الإدارة والحكومة عليه ، فنُفى المؤلف الشاب إلى

« فياتكا » فى أقصى الشمال حيث أرغم على أن يحيا إلى عام ١٨٥٦ . ثم بسبب بعض ألوان التناقض التى كانت سائدة بين السلطات الإدارية ، سُمح له بأن يستأنف نشاطه الحر بعد ذلك !

ووصف « سالتيكوف » فيما بعد إقليم « فياتكا » الذى كان منفياً فيه بأنه — « عالم من الأبخرة المنتنة ، والمستنقعات ، والقال والقيل ، ولعب الورق ، واستحكامات رجال الحكومة ».. وسجل هذه الانطباعات فى كتابه « صور إقليمية » (١٨٥٦ — ١٨٥٧) الذى يُعتبر عرضاً لاذعاً لمفاسد الإدارة وحمق رجالها ، وقسوة البيروقراطية ، ومفاسد العهد التى لم يصفها بنفس القوة ، سوى « جوجول » . . . ومن ثم رحب به التقدميون ، وبخاصة « سزبنشفيسكى » و « دوبروليوبوف » .

ومع ذلك ، فإن انتشار كتب الكاتب « ن . شدرين » لم تؤثر كثيراً على حياة الموظف « ميخائيل سالتيكوف » ! ! فقد ارتقى فى الحكومة البيروقراطية وعُيِّن وكيلا لمحافظ « رازان وتفير » ، ثم وصل إلى مرتبة مستشار دولة عام ١٨٦٢ ، ثم استقال ليكرس نفسه للكتابة . وبعد القبض على « سزبنشفيسكى » صار أحد محررى مجلة « الزميل » واشترك فى عام ١٨٦٨ مع « نكراسوف » فى إدارة مجلة « مذكرات الوطن » التى لعبت

دوراً هاما ، بأن جمعت حولها قلوب الأحرار والراديكاليين . .
وفى عام ١٨٨٤ صودرت هذه المجلة بأمر الحكومة القيصرية
بعد أن قضى « سالتيكوف» ستة عشر عاما فى العمل من أجلها .
وهكذا حُرم « سالتيكوف » — الذى كانت تحتاج عبقريته
الثائرة إلى منفذ — من أقوى أسلحته فى النضال ضد النفاق
والجهل والظلم والخيانة . . . وأخيرا قضى الخمس سنوات التى
بقيت له من حياته ، يكتب تهكمه اللاذع وقصصه التى تروى
ترجمة حياته . .

ويمكن تقسيم كتابات « سالتيكوف » إلى ثلاث مجموعات
رئيسية : الأولى تشمل أروع كتاباته (عائلة جولوفريف)
التى أمضى ثمانى سنوات فى كتابتها ، ثم نشرها عام ١٨٨١ .
وهى تروى تاريخ حياة عائلة نبيلة شهدت انحلالها التدريجى
فوق أرضها . ولئن كان « جونشاروف » و « اكساكوف »
و « تارجينيف » قد وصفوا كذلك انحلال طبقة النبلاء بطريق
يستثير الحنو والشفقة ، فإن وصف « سالتيكوف » كان مليئاً
بالاحتقار والاشمئزاز والازدراء ... ذلك أنه كان عدواً عنيداً
للنظام الذى يؤيد طبقة النبلاء ، ومن ثم رأى فى الإقطاع الذى
يُمثّله هذا النظام منبعاً لكل شر « للموت والسموم والآلام
الضارية » .

ولقد، وصف سقوط عائلة « جولوفليف » بتفصيل يثير السخط . فصارت القصة رمزاً لانحلال طبقة سائرة في طريق الجنون والانحطاط . فمثلا كانت « أرينا بتروفنا » رأس العائلة الخادعة تتحكم فى زوجها وأولادها وعبيدها بيد من حديد وهى تمقتهم جميعا . . . ولانهماكها فى تكديس الثروة والمال ، ضحت بنفسها وسامت أولادها خسف العذاب ، وحطمت حياة زوجها — وهى تعتقد أن هذا كله كان « لصالح العائلة»! . فإذا ما أشبعت غرائز السلب والنهب فيها ، وكدست الثروة بامتلاك الأراضى والقرى والعبيد ، وضح لعينيها أن ثمرة عملها كانت هباء ، ووجدت نفسها تعيش فى فراغ ، إذ أتى ابنها « بورفيرى » فى النهاية ، وبسلسلة من الاختلاسات المحكمة الترتيب والخطط ، ليسلب منها الأرض والعبيد والمال ، فماتت الحاكمة العجوز ميتة الحزن والوحشة والألم .

وكان تصوير الابن الفاسد « بورفيرى جولوفليف » قوياً مؤثراً لدرجة أصبح معها رمزاً متجسداً للعبث ، فصار اسمه المستعار « يودوشكا» (أو يهوذا الصغير) رمزاً متداولا . . . وهو يقف فى صف واحد مع « بكسينيف » و « ويوريا هيد » المنافقين الآخرين فى الأدب العالمى ! فهذا « المتلوف » الروسى كان محبباً لأمه مع أنه كان فى الواقع وحشاً ضارياً ، ومصاص

دماء ! وكان رغم انحلاله الخلقى ناعم الملمس ، فسار فى سبيله الإجرامى بلا ضمير . . . وكان رغم ذلك دائم الابتهال إلى الله ، فهو يصلى بحرارة ويرسم على صدره علامة الصليب قبل أن يُقدم على أى عمل من أعماله الإجرامية البشعة ! !

ولكنه بعد نجاحه فى تجريد أمه وأقاربه من العقار والمال ، وبعد أن أصبح السيد الوحيد والمالك الوحيد للثروة الكبيرة ، لم يبقَ أمامه سوى عمل يسير هو ملء الفراغ الذى خلّفته البطالة ، فأرخى « بورفيرى » العنان لخياله الشرير ، ولجأ إلى شتى ضروب الفساد والنفاق تحت ستار من الأخلاق وخشية الله ! . فكان يقضى وقته فى خلق مضايقات سخيفة ودعاوى لا معنى لها ، لأن ذلك المسلك كان يحقق له وهماً لذيذاً بأنه يمارس نشاطاً ! . كما كانت صلواته وترديد مقتبسات من الإنجيل أو بعض الأقوال التافهة تخلع عليه مظهراً من التدين والاحترام ! كذلك كان هذا المنافق الذليل كاذباً ثرثاراً . فلسانه لا يكف عن الكلام ، لأنه كان يخفى انحطاطه الأخلاقى وكل أفعاله الشريرة خلف ستار من الثرثرة ! . وأخيراً جاءت نهايته حزينة كنهاية ضحاياه — فقد هجره الجميع وعاش فى عزلته تحوطه أكوام من القذراة والعرق المشبع بالتراب ، ولم تفده ثرثرته ولا تظاهره بالتقوى فى دفع الانحلال الجسمانى عن نفسه ! .

وهكذا كان هذا التاريخ العائلى الكريه الذى سجلته قصة « سالتيكوف » لا يسجل سوى الإحباط والفشل والموت ، فحتى وصف الطبيعة كان يرتبط بجو القصة القاتم — جو الكآبة والانحلال : فوجه الأرض قد أظلمته السحب وأحالته الأمطار إلى مستنقعات ! والصقيع يقتل فى الأرض نبضات الحياة ! . ووهج الصيف المدمر وما يصحبه من « ظلام الحرارة » يجعل الحياة جحيما لا يطاق . ولقد أوعزت صفة التوتر فى هذه الرواية إلى «دستويفسكى» أن يخلق نمطاً مماثلا من المنافقين الطفيليين فى شخصية « توماس أوبسكين» بطل قصته « قرية سبتانشيكوفو » ولكن « أوبسكين » كان مع ذلك شفيقاً وادعا ، إذا قيس بيودشكا بطل قصة « سالتيكوف » .

وإذ كان النظام الأوتوقراطى يحاول الدفاع عن شيئين أساسيين هما مجد الأسرة والملكية الخاصة ، فإن قصة « عائلة جولوفليف » قد سجلت انحلال طبقة النبلاء خلقاً وجسماً . وقد تم هذا خلال طائفة من التحاليل النفسية للشخصيات الرئيسية ، وهى طريقة ميزت قصة « سالتيكوف » عن سجل العائلة الذى كان يكتبه واقعيون آخرون . فاستعمال« سالتيكوف» للتفصيلات الواقعية كان عملا ذا مستوى مرتفع . . فقد اختار المؤلف أبطاله قصداً . . . وكانوا كلهم يخدمون غرضاً محدداً

متناسباً مع خطة محكمة التنظيم . .

ولقد أشاد « تارجينيف » — وهو الذى قارن « سالتيكوف » « بجوفينال » و « سويفت » بأسلوبه الرصين ومرحه المدمر ، وواقعيته الصافية الرزينة التى احتفظت بسحرها وقوتها وسط خياله النشيط . .

وتتوافر هذه الصفات — ولكن بإدراك نفسانى أقل — فى كتابه الأخير « الأزمنة القديمة فى بوشيخونى » (١٨٨٧) وهو شبه تاريخ شخصى لروسيا قبل عهد الإصلاح . ولكنه تعوزه القوة والتماسك اللتين ظهرتا بوضوح فى قصة « عائلة جولوفليف » ولكنه مع ذلك يحوى وصفاً رائعاً للعادات والحياة فى عزبة ريفية نمطية ، وصوراً عن النبلاء والفلاحين ، كما تمتاز بعض فصوله بقوة روائية عالية .

وتشمل المجموعة الثانية من أعمال « سالتيكوف » هجاءه وتهكمه . وهى صور مرسومة فى الأغلب الأعم مثل الكاريكاتير بخطوط عريضة جريئة ، وغالباً ما ينقلب التهكم إلى خشونة وكراهية . وتحفل كتابات « سالتيكوف » المليئة بالاحتقار بمرارة وازدراء للغباء والحمق . فشياطين العسف والشر وضيق الأفق والرجعية لم تسلم جميعاً من طعناته المرحة المتهكمة . ومن بين أعماله التى من هذا النوع « قصة مدينة » (١٨٧٠) . وربما

كانت هذه القصة أكثرها خصائصاً وأكثرها قبولا لدى الشعب..
فقد عمد – شأنه فى ذلك شأن «جوجول» – إلى مهاجمة الحاضر عن طريق الماضى ، إذ مثّل « سالتيكوف » تاريخ روسيا بتاريخ مدينة خيالية تدعى « جلابوف » (أو مدينة الحمقى) يقبل أهلوها حكامهم بنوع من قدرية الشرق ! !

وكان شعب «جلابوف» – كجميع شخصيات «سالتيكوف» – يعتريهم الخوف طوال الوقت . فقد كان مقدّراً عليهم أن يرتعشوا أبداً ، كما كان مقدّراً على حكامهم أن يبعثوا فيهم الخوف أبداً يضربهم بالسياط وسوء معاملتهم ! . وكان أهل المدينة متواكلين خاضعين خانعين . كما كان حكامهم ذوى جنة وجهالة . فأحد حكام « جلابوف » يحمل بدلا من رأسه آنية فارغة ! ، ولكن يبدو أن أحدا من الشعب لم يعبأ بذلك ، طالما أن هذا النظام مشابهٌ تماماً لكل نظام آخر .
« فالمواطنون يُقبض عليهم ويُسجنون ويُضربون وتُلهب ظهورهم بالسياط ثم يُباعون فى سوق الرقيق ! ! »

ولم يجد القراء صعوبةً فى أن يتعرفوا وسط هذا الوصف ، على ملامح القيصر ومحاسيبه . فالحاكم « نيجودابيف » (الذى لا يصلح لشىء) نسف الشوارع التى رصفها أسلافه لكى يحصل على مادة لبناء التماثيل ، فكان بذلك صورة مصغرة

للقيصر « بول الأول» . بينما كان « جراستيلوف » (الشاكى) الشهوانى الغامض الذى يضرب شعبه بجنون ، صورةً هزليةً للقيصر ألكسندر الأكبر . كذلك رسم « سالتيكوف » صورةً كاريكاتوريةً للجنرال « أراكشييف » أحد محاسيب القيصر « ألكسندر » تحت اسم « أجريوم بورشييف » وهو حاكم دخل « جلابوف » على جواد أبيض وأحرق المدرسة وألغى التعليم ، وكان حلمه أن يجعل الخط المستقيم ينتصر فى كل مكان — فى عقول الرجال كما فى الشوارع ! « وبابتداء حكمه ، توقف مجرى التاريخ » . كذلك كانت بعض فصول الكتاب تشير إلى حوادث تاريخية شهيرة ، وإن كانت قد بُعثرت فيها هنا وهناك بعض إشارات جريئة وتلميحات قاسية لدرجة أن الرقباء لم يجرؤوا على تعرف وجه الحقيقة ، وإلا اتهموا بأنهم يستنتجون اعتبارات لا توحى بالاحترام عن الإمبراطور والإمبراطورة ! ! والحقيقة أن السلطات أرادت أن تلعب دور الأصم الأعمى ، لأن الطريقة التى هاجم بها « سالتيكوف » مفاسد زمنه كانت دقيقة محكمة ، ولأنه حينما أشار إلى التاريخ قال فى مقدمة القصة « إننى لا علاقة لى بالتاريخ . . إن ما يهمنى هو الحاضر » ! وعندما كان « سالتيكوف » يقص مغامرات حكام « جلابوف » التى تتلخص إصلاحاتهم فى زرع أشجار الفار وتشجيع زراعة الخيار ،

أو عندما كان يقصّ خبر الثورات التى كانت تشب بين آن وآخر من جانب النواب ضد عصابات المحتالين ، كان يتحدث بطريقة جعلت المثالب التى انتقدها صورة للحياة المعاصرة فى ظل القياصرة ! !

كذلك كانت ملاحظاته عن خصائص المواطنين فى « جلابوف » خبيثة أيضاً . فقد قال « سالتيكوف » : كان لدى أهليها شيء من القوة فى قديم الزمان قبل أن يغيِّر جوبتر اسم المدينة من أمنوف (مدينة العقل) إلى جلابوف (مدينة الحمق) ولكن نومهم قد طال واستمر لعدة قرون ، وليس فى استطاعتهم الآن إلا أن « ينحنوا ويعرقوا » ! !

ولم يُنزل هجاء «سالتيكوف » ضربته على الحكام بفظاظتهم واستبدادهم فحسب ، بل تناول المواطنين بوجه عام لسلبيتهم وجبنهم . فقد كان «سالتيكوف» يسمى نفسه « رجلاً متحزباً » ، وكان يعنى بهذا أنه — بعكس الكتّاب الآخرين — يؤمن بمبادئ سياسية ثابتة . ومن ثم كانت كتاباته رمزاً للاشتراكية الثورية فى ذلك الوقت . فهو فى مهاجمته للأوتوقراطية ، ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أسلافه الأدباء . فلم تكن « قصة مدينة » عرضاً لمظاهر عزلة خاصة فحسب ، أو استعراضاً للأدواء الاجتماعية فى ذلك النظام ، ولكنها تناولت الدولة الروسية فى

كيانها التاريخى ، وهاجمت كل ما نتج عن القيصرية . فبينما استطاع سابقوه أن يثيروا الضحك ، استطاع « سالتيكوف » أن يثير الاشمئزاز ، ويلهب الرغبة فى الحرب ضد أمثال «اجريوم بروشييف » فى روسيا !

وفى الواقع ، يجب أن تُقرأ كتب « سالتيكوف » بعناية حتى يُستطاع فهم قوى البغضاء والقسوة التى أدت إلى الانفجار المرعب للثورة الروسية والحرب الأهلية . ويقص علينا «تارجينيف» الذى حضر قراءات عامة لبعض كتابات « سالتيكوف » الهجائية كيف أن صداها بين المستمعين كان قويا ، إذ كان سوط الهجاء يضرب بشدة ، ولم يسلم منه أحد . كذلك كتب جوركى يقول : « كان سالتيكوف ذكيا أميناً عنيفا ، فلم يحد قط عن قول الحق مهما كان مؤلما . . إنه كاتب عملاق ، ومجال إبداعه كبير . . . والضحك الذى يثيره لا يشبه الضحك الذى يثيره جوجول . . . إنه مذهل صادق عميق قوى . . . ولا يستطيع أحد بدون قراءة « سالتيكوف » أن يعرف شيئا عن تاريخ روسيا فى النصف الثانى من هذا القرن » .

وبعد نشر « الصور الإقليمية » (١٨٥٦ — ١٨٥٧) صار العرض التهكمى للموظفين الإقليميين إحدى ميزات «سالينكوف» الرئيسية . فبدلاً من تركيز نيرانه على بيوقراطية

سانت بطرسبرج كما جرت العادة فى آداب الواقعية الانتقادية ، كرّس انتباهه إلى الطغاة المحليين الذين كانوا يحكمون الأقاليم النائية فى الإمبراطورية المترامية الأطراف بيدٍ من حديد .

ومن ثم كان كتابه « البومباردون والبومباردات » (١٨٦٣ — ١٨٧٣) سلسلةً من الصور الأخلاقية عن الحكام الحمقى ذوى الخلق الفظ الذين كوّنوا طبقة تعيش على الرشوة ، وتصدر التشريعات حسب أهوائها ، وتخرق القانون ، وتقوم بمغامرات غرامية بعيدة عن الذوق الكريم .

وكان كتابه « الطشقنديون » وصفاً لصلف الشباب الشره الفارغ الرأس الذى يعتبر وظائف الحكومة فرصاً لزيادة الدخل ! وباختصار كانت النتيجة التى ينتهى إليها قراء قصص « سالتيكوف » هى « أننا تحت حكم خونة خادعين نصّابين مرتشين لا ضمير لهم ، وكلهم منافق فظ غليظ القلب » .

وكانت كتاباته الأخيرة « حكم الاعتدال والنظام » (١٨٧٤ — ١٨٧٧) و « التجاء مونريبوس » (١٨٧٩ — ١٨٨٠) و « خطابات إلى العمة » (١٨٨١ — ١٨٨٢) تسير على نفس نمط الكاريكاتير السياسى ، إذ هاجم « سالتيكوف » فيها جميعاً نبلاء الأقاليم والبورجوازية الجديدة ، وصوّر الطبقة الحديثة من الرأسماليين تصويراً يبعث على السخرية من التاجرين .

« ديرانوف » و « رازوفييف » والحلاق « كولابيف » الذين صارت أسماؤهم رمزية . . كما قال « سالتيكوف » إن جميع رجال الأعمال ورثوا انعدام الضمير وشراهة البيروقراطيين القيصريين ، وإنهم كانوا كأسلافهم نبلاء المولد مغرمين بالسرقة واستغلال « قطعان الغنم الروسى » ! . ولم يخادع « سالتيكوف » فى كتاباته عن الفلاحين ، ولكنه كان يشعر بالخوف السائد من الرأسمالية . وإذ كان متصلاً أوثق اتصال بالحركة الشعبية ، فقد سندها فى نضالها من أجل « الحرية والكرامة الإنسانية » ، لأنه كان يحتقر ضيق عقلية الطبقة الوسطى ، كما كان مقتنعا بأن الرأسمالية المبنية على السلب ستطلب سنداً من عناصر السوقة والجهلة فى الشعب الروسى ! وعلى هذا ، كانت آراؤه التقدمية الراديكالية تتحد مع اتجاهه السلبى تجاه نمو الرأسمالية فى بلده ، ولو أنه كان يلحظ بين وقت وآخر عدم إمكان تجنبها . ومن ثم كان يساير التيار العام : فالميل ضد الرأسمالية فى الأدب الروسى (ويشمل جناحها الأيمن) أمر معروف مشهور ! !

وكان « سالتيكوف » يعمد فى هجائه إلى ما كان يسميه « لغة أيسوب » . فكانت صفحاته تحفل بتلميحات وإشارات وابتداع كلمات جديدة وتحريف كلمات دارجة وتعبيرات تجرى على لسان الفلاحين . . . ذلك أنه كان يهدف إلى أن

يجعل القارئ يرى فيما بين السطور ، ويعرف المغزى السياسى للمادة المتخفية المعقدة . وكان هذا الأسلوب المبتكر هو السبب فى عدم ذيوع أدب «سالتيكوف» خارج روسيا ، لأن « الأسلوب الأيسوبى » الذى كان يكتب به أعجز المترجمين ، وتركهم حائرين قلقين ، مما جعلهم ينصرفون عن ترجمة مؤلفاته .

ولقد لجأ «سالتيكوف» إلى هذه «الأيسوبية» — التى تحمل الرضا لقرائها واليأس للرقيب والمترجم — فى المجموعة التالية من كتاباته وعنوانها « قصص خرافية » التى تحوى بعضاً من تشبيهاته السياسية الناجحة . ولقد بدأ « سالتيكوف » فى كتابتها عام ١٨٦٩ بالقصة التى عنوانها : « كيف استطاع مزهوك واحد أن يغذى قائدين » ولكن هذه القصة لم تنشر إلا فى العقد الثامن ، عندما جعلت مصادرة « بمذكرات عن الوطن » استعمال اللغة الأيسوبية ضرورة ! وعلى الرغم من أن البوليس صادر بعضاً من هذه « القصص الساذجة » كما يصفها مؤلفها ، فإنها انتشرت انتشاراً واسعاً عن طريق النسخ الخطية . وكانت كل قصة من هذه القصص — بطريقة أو بأخرى — توجه لسعات سياطها إلى الأوتوقراطية ، وتبين انعدام الحرية فى روسيا . فالموظف الغيور (فى قصة تحمل نفس الاسم) الذى أوقف صرف التموين وأهمل الصحة العامة وحارب العلم ، يذكرنا بأجريوم بروشييف

فى « قصة مدينة » . . . كذلك حفلت هذه القصة بتصوير دقيق « لفلسفة الطغيان الروسى » فهو يقول فيها « كلما كان الموظف مكروهاً ، كان نافعاً للوطن » ! فإذا ألغى التعليم فهو موظف صالح ، وإذا أحرق المدينة ، فهو صالح جداً ، وإذا أرهب الشعب فهو ممتاز ! !

وفى رواية « الدب » ، يأمر الحاكم الفظ بهدم جميع المطابع كإجراء تقتضيه مصلحة الأمن ! ! وفى رواية « النسر » يهزأ من محاولة القيصر رعاية الفنون فى بلد تسود فيه العبودية وإرهاب رجال الشرطة ! . وتهزأ قصص أخرى من المعتدلين . ذلك أن « سالتيكوف » كان يحتقر « الأرانب التى تضحى بنفسها » أو بمعنى آخر كان يحتقر أولئك الذين يعلو صوتهم ولكن سرعان ما يخفت إذا رأوا رجل الشرطة قريباً منهم .

وكان الانتقاد المر الذى يوجهه « سالتيكوف » مرده رغبته الجامحة فى تغيير الأحوال فى روسيا . وقد يُفسر هذه الرغبةَ الحب الذى تمتع به فى روسيا بعد الثورة ، فقد سجل النقاد تقريظهم له بمقتبسات من لينين وستالين ، وكلاهما قد عبّر عن إعجابه بهذا الفنان الفذ الذى يصفه النقاد والقراء الروس فى العصر الحاضر بأنه كان « يمثل الواقعية الإيجابية » التى تُستعملْ كوسيلة لتغيير الحقيقة الاجتماعية !! ومهما كانت الأسباب ، فإن

الحب الذى تمتع به كان غير عادى . فبينما لم يُصرح بطبع سوى خمسة وستين ألف نسخة فقط من كتبه فيما بين عامى ١٨٩٧ ، ١٩١٦ ، وُزعت من كتبه خمسة ملايين نسخة فى الأحقاب الثلاثة التى تلت الثورة .

وهناك قليل من شك فى أن « سالتيكوف » الذى تأثر بشرنيشفسكى تأثراً كبيراً فى العقد السادس ، يعتبر أن للأدب وظيفة اجتماعية . فقد كان مصلحا سياسيا ، احتقر نظرية الفن لأجل الفن ، وسخر من القراء الذين شغلوا أنفسهم « بالتفاهات العاطفية » . وكان دائماً مستعدا لأن يدافع عن فكرته القائلة بأن « الرضا الفكرى هو الجوهر الوحيد لأى عمل فنى » .

ولا شك أن مزاج « سالتيكوف » وواقعيته ، ومعرفته الفائقة بروسيا — تلك المعرفة التى اكتسبها خلال أسفاره التى شملت بقاعاً شاسعة ، ومن عمله الإدارى — قد أنقذته من العاطفية والمبالغة اللتين كانتا سائدتين فى العقد السابع . فقد كان نضاله من أجل مصالح الشعب مسألة عدالة وعقل ، لا مسألة عاطفة . كذلك كان يشعر تماماً — حتى أكثر من اسبنسكى — بتأخر الجماهير وجهلهم . وكثيراً ما وجه هجاءه إلى الصبر « الخانع » لدى الشعب . فقد كان يتساءل : لماذا يقبل الفلاح فقره بذلة ومسكنة ؟ ولماذا يسمح الروسى العادى لنفسه بأن يُظلم ويُستغل؟

ولماذا يضحك الجمهور عندما يحطم رجل الشرطة (وقد كان سالتيكوف يسميه طبيب الأسنان) بقبضته القوية فك الصغار ممن يسميهم البوليس « مغتصبي القانون » ؟ . وهكذا كان يحس بشفقة نحو أولئك الذين ديسوا بالأقدام ، ولكنها كانت شفقة تمتزج بالاحتقار لسلبيتهم وجمودهم . كذلك كان هجاؤه لاذعا محملا بالازدراء ، عندما كان يحاول إيقاظ الشعور بالكرامة الإنسانية عند الروسيين المستذلين لحملهم على تحطيم أغلال العبودية . وكان فى نفس الوقت يحب « الناس العاديين » ويعرف مقدراتهم ، ومن ثم ساند الفلاحين ضد الموظفين والنبلاء وملاك الأرض والبورجوازية — تلك الطبقات الأربع التى كانت هدفاً لهجماته التى لا ترحم .

وكان المنبع العاطفى لشعبيته ، هو حبه العنصرى لشعب بلده العظيم . . فقد كان يحب تكوينهم الجثمانى ، وعقليتهم ، وحديثهم الطلى ، وأغانيهم المرحة . . . وقراهم التى عضها الفقر بنابه ، ومناظر الريف الحزين ، وقد كتب (ميخائيلوفسكى) فى مقال عن « سالتيكوف » يقول « إن حبه للشعب الروسى وللأرض الروسية لا علاقة له بالتحليل المنطقى . . . لقد كان حبا تلقائيا ، لأن سالتيكوف كان روسيا أصيلاً . وعلى هذا فقد كان يجذبه كل شىء له نكهة روسية » !

ومن المتفق عليه بصفة عامة أن قصة « عائلة جولوفليف »، و « قصة مدينة» هما أخلد أعمال «سالتيكوف». ذلك أن كثيراً من كتاباته الأخرى — ولو أنها تعطينا سجلا غير عادى عن الحياة الروسية بين عامى ١٨٤٨ ، ١٨٨٠ — موضوعية ، لدرجة أن فائدتها مقصورة على إعطاء لمحات تاريخية للقارئ الحديث . غير أنى أعتقد أن « الأزمة القديمة فى بوشيخونى » وما تحويه من دراسة نفاذة عن عبودية الأرض ، يمكن أن توضع فى صف واحد مع أحسن ما أنتجه « سالتيكوف » . كذلك يعتبر بعض من هجائه وخاصة « قصص خرافية » منطبقاً تماماً على حالة روسيا اليوم ، كما كان منطبقاً على حالتها بالأمس . . فهذه القصص تصور ضروباً من الفساد ما زالت موجودة فى الحياة الروسية . ولقد كتب « إسكندر هرزن » فى العقد السابع يقول : « هل تتصورون أيها الرفاق أنه فى مكنتكم أن تلقوا بقصص سالتيكوف فى البحر لكى تتخلصوا من مساوئكم ؟ . . إنكم لمخدوعون إذا اعتقدتم ذلك » .

واليوم أيضاً لا تستطيع روسيا المعاصرة ، أن تلقى بهذه القصص فى البحر لكى تتخلص من مساوئ حياتها ! .

الجزء الثالث

كتّاب التربة الإقليميون
والشعراء الأرستقراطيون !

- بافيل مالنكوف
- ديمتري مامين
- نيقولا ليسكوف
- شعراء العقد السابع

الفصل الأول

كتاب التربة والشعراء الأرستقراطيون !

كانت « رائحة التربة » — النزعة الأقليمية المحلية الضيقة — التى اكتشفها نقّاد العقد الخامس فى كتابات « بسمسكى » هى المسيطرة على كتابات العقد السابع . فقد وجدت فى مؤلفات أكثر الكتاب تنوعاً — فى روايات « ليوتولستوى » الإقطاعى ذى اللقب ، وفى صور « اسبنسكى » البوهيمى الشعبى ، وفى هجاء « ميخائيل سالتيكوف » الموظف الحكومى الثورى .

وكان كتّاب التربة روسيين مائة فى المائة فى تصويرهم لأنماط البيئة ، وخاصةً فى لغتهم التى كان أساسها لغة الفلاحين. ومهما كانت آراؤهم السياسية ، فقد حاول معظم الكتّاب استعمال الشعار السائد : « فى سبيل الاتحاد مع الشعب » .حتى الكتّاب الذين كانوا يناهضون الراديكاليين والشعبيين بشروا « باستئناف الوحدة المفقودة بين الطبقة المثقفة وعامة الشعب » .

واتخذ هذا الاتجاه فى بعض الأحوال شكل « الإقليمية » التى ظهرت بوضوح فى كتابات صغار الكتّاب مثل « بول

ياكوشكين » (١٨٢٠ – ١٨٧٢) جامع أغانى الفلاحين ، والمكتشف « سرجى ماكسيموف » (١٨٣١ – ١٩٠١) مؤلف كتاب « عام فى الشمال وارتياد روسيا » ، والروائى المؤرخ « جريجورى دانيلفسكى » (١٨٢٩ – ١٨٩٠) وخاصة فى قصص « الهاربون فى نوفوروسيا » (١٨٦٢) ، و « عودة الهاربين » (١٨٨٣) و « الموجة التاسعة » (١٨٧٤) التى يتكلم فيها بصفة عامة عن جنوب روسيا بمزيد من التفصيلات .

١ — بافيل مالنكوف

ومن أهم ممثلى هذه المدرسة « بافيل مالنكوف » « ١٨١٩ — ١٨٩٣) الذى كان يكتب تحت اسم مستعار هو « أندريه بشرفسكى » الذى قال النقاد إن ملاحمه « فى الغابات » ، و « على التلال » (١٨٨١) توضع فى صف واحد مع أحسن ما أنتجه « جونشاروف » و « بسمسكى » . ولكن « مالنكوف » لم يصل إلى درجة من الشعبية تتعادل مع ما وصل إليه معاصروه . ويبدو أن كثيراً مما كتبه من وصف طويل ، بعث السرور فى نفس المهتمين بدراسة الأجناس البشرية وإن كان يبدو ثقيلا ممضا للقارئ الحديث. ومع ذلك ، فقد كان المؤرخ «بستوشيف — ريومين » على حق حين قال عن مؤلفات « مالنكوف » : « إن الروح الروسية تتكلم بالروسية عن الشعب الروسى فى هذا الكتاب » كما كان « ألكسيس رميزوف » على حق كذلك فى اعتبار هذا المؤلف واحداً من ينابيع « المجرى القومى » فى الأدب الروسى .

وكان « مالينكوف » يشبه « سالتيكوف » — وهما يشتركان

فى خصائص كثيرة — فى كونه مؤلفاً بيروقراطيا . فقد كان إقطاعيا بالوراثة ، وتخرج من جامعة كازان الإقليمية على نهر الفولجا ، وصار معلماً وعالماً جيولوجيا ، ولكن دراسته للتاريخ وعلم الحياة القديمة والأجناس البشرية لم تستطع أن تضمن له دخلا معقولا ، فهجر « مالنكوف » الدراسة ، والتحق بوظيفة بوزارة الداخلية . ومنذ عام ١٨٤٧ إلى حين وفاته تقريباً ، كان يعمل بالحكومة ، وسافر فى بعثات رسمية إلى الأقاليم الشاسعة فى الفولجا والأورال . وإذ كان حجة فى الشيع الدينية ، لعب دوراً إيجابيا فى الحملات ضد « المعتقدين فى القديم » فى الوقت الذى كانت الحملات المسلحة والضرب بالسياط وتحطيم المعابد تُعتبر فى العقدين الخامس والسادس من أفضل الوسائل لإقناع « الهراطقة » . ولقد استخدم « مالنكوف » بدوره — كموظف حكومى — هذه الإجراءات الغير إنسانية ، فأعطى بذلك الأحرار الحق فى أن يسموه « الرجعى الغليظ القلب » وأن يؤنبوه على أفعاله المتهورة .

ولكن بينما كان « مالنكوف » الموظف الحكومى يضطهد هؤلاء المعتقدين ويسمى معتقداتهم الدينية انحرافاً عن الديانة الصحيحة ، فإن « بشرسكى » الكاتب — وهو مالنكوف نفسه — قد وصفهم بعطف ومحبة . فكتاباه « فى الغابة » و « على

التلال » سجّلا مظاهر الحياة والعادات عند المعتقدين القدامى وأصحاب الطقوس القديمة الذين هربوا من الاضطهاد إلى غابات الأورال ، حيث كوّنوا مجتمعات جديدة تحت إشراف كبار السن منهم ، وبنوا المعابد ، واستمسكوا بطريقتهم القديمة فى الحياة . واكتشف « مالنكوف » أنهم كانوا شيئاً أكثر من مجرد طبقة من المتعصبين يعتبرون التقاليد البيزنطية والكتب الدينية القديمة كينابيع للحكمة . . . فهؤلاء المتزمتون الباحثون عن الحقيقة كانوا أيضاً حفظة اللهيب الروحى . وكان لأغانيهم وقصصهم رنين الشعر الصحيح . فى المنازل الخشبية الكبيرة التى كان يملكها الأغنياء ، وفى أكواخ الفقراء ، كانوا يتمسكون بأحوال « المسكوف » ومعتقداتهم فى القرن السابع عشر . وكان الكهنة بمظهرهم الخشن ولحاهم الطويلة ، والنساء بأثدائهن الكبيرة وأردافهن الثقيلة ، يستمعون إلى الروحانيات والغيبيات عن « مدينة كتزه » الغير منظورة القائمة فوق قاع إحدى البحيرات أو عن الجمال الوهاج لمملكة « أوبون » العجيبة ! !

وكان هناك ثمة حاجز مزدوج من الجبال والغابات يحمى هؤلاء المعتقدين من تطفل المدنية . وكان عليهم — شأنهم فى ذلك شأن الرواد الأمريكيين الأوائل — أن يناضلوا الطبيعة ، كما كانوا مضطرين أن يحيوا حياة خشنة من جراء النضال المستمر ،

مما جعلهم ذوى قوة جسمية وخلقية ، فأمسوا شجعانا وعمليين فى نظرتهم إلى الحياة .

ويقول « مالنكوف » إن كثيراً من الخصائص المتناقضة فى علم النفس كانت تسود حياة المعتقدين القدامى . فقد ساعدتهم عزلة الزمان والمكان على أن يستبقوا تحيزهم مصحوباً بإيمان عميق وخرافات ذات جذور عميقة ضاربة فى المسيحية الأولى . وكان « إله » هذه الجماعة قاضياً لا يعرف الرحمة ، فقد كان يثور لأقل مخالفة للقواعد الموضوعة ، ولم يكن يرضى عن أى نوع من أنواع الملذات أو إشباع النزوات ، كما كانت الحياة العائلية الصارمة فى حكم البطارقة تتمشى مع قانونه المتزمت .

ولقد قص « مالنكوف » المآسى التى كان يعانيها الشبان الذين أصاب البلى أجسامهم وأرواحهم نتيجة صرامة قدامى الكهان . وكان أحد الموضوعات الرئيسية فى روايات « مالنكوف» يدور حول النضال بين هؤلاء الكهان وبين رغبات الشباب التى تجرى مضادة لتعاليمهم .

وكانت روايات « مالنكوف » القصيرة بما فى ذلك قصتى «أهل كراسيلينسكوف» (١٨٥٢) و« بوياركوف » (١٨٥٣) ذات تأثير قوى رغم حركته البطيئة فى واقعيته العتيقة ، ورغم

التفصيلات الكثيرة عن الجنس البشرى . ولكن وصف الطبيعة واللغة الرتيبة التى كان يستخدمها ، والتعمق فى البحث، كل ذلك كشف عن أصالة أدبية . وفى الحق أن « مالنكوف » كان متعلقاً أشد التعلق بلغة روسيا فى العصور الوسطى ، وحاول أن يستعيد قدرتها على التعبير ، كزميله « لسكوف » الذى كان يهتم بما أسماه « اللغة الصناعية » التى كان كتبة المحال التجارية والحوذية واللصوص والرعاة والصناع يستعملونها . وقد أسماها « صناعية » لأنهم كانوا يلوون الكلمات ، ويخترعون تعبيرات جديدة ، ويغيرون من المصطلحات الأجنبية لكى تتفق مع النماذج اللغوية الروسية ، كما أحيوا البالى من الكلمات . وإذ كان شغوفاً بلغة « المعتقدين القدامى » النقية الحية ، المليئة بالتعبيرات اللاذعة والمقتبسات الكنسية ، حاول « مالنكوف » أن يبعث فيها الحياة . ومن ثم لم يكن عجيباً أن يعرب كثير من الكتّاب ، من « ليسكوف » إلى « أندريه بيلى » و «ألكسيس رميزوف» الذين حاولوا بعث الروح القومية فى المصطلحات الأدبية فى عصرهم ، عن تقديرهم لكتابات « مالنكوف » ، وأن يقتبسوا من مؤلفاته .

كذلك كان « مالنكوف » بلا شك ذا تأثير فى أسلوب « جوركى » . ومما يؤسف له أن هذا المظهر من أدب «جوركى»

لم يُدرس دراسة كافية . وباختصار يُعتبر « مالنكوف »
واحداً من الرواد فى الأدب الروسى بالنسبة لموضوعات رواياته
الغير عادية ، ووصفه للبيئة ، ودراسته الأجناس البشرية بطريقة
لم يسبقه إليها أحد .

٢ — « ديمترى مامين »

وفى العقدين الثامن والتاسع ، كان يمثل الإقليمية كذلك « ديمترى مامين » (١٨٥٢ — ١٩١٢) الذى كان أبوه كاهناً ريفياً فى الأورال . وقد درس « مامين » فى حلقات بحث فى « برم » وفى « سيبريا » ، ثم ذهب إلى « سانت بطرسبرج » حيث صار صحفيا تحت اسم مستعار هو سيبيرياك (السيبيرى) ولذلك يُشار إليه عادة باسم « مامين سيبيرياك » .

ولقد كانت مواهبه أقل أصالةً من مواهب « مالينكوف » ، فرواياته الواقعية مليئة بالكلمات ، ومليئة بالأوصاف والأشخاص والعقد الفرعية ، مما جعلها ثقيلة لدرجة أنها وُصفت بأنها لاشكل لها . . ولكنها كانت رغم ذلك ذات قوة أشبه بتلك التى توجد فى كتابات « زولا » و « دريزر » . ولكن مؤلفات « مامين » مكتوبة بعجلة وبساطة ، ولا ترتفع مادتها إلى الدرجة الفنية . ومع ذلك ، فشخصياته مرسومة بدقة ، وكثير من عقد رواياته حية وديناميكية ؛ فهى تصور نمو الرأسمالية فى الأورال حيث اتخذت لها أشكالا وحشية . وكان « مامين » يعطف على

الشعبيين ، فكتب عن استغلال ذوى الشره والجشع للفلاحين ، وعن استغلال خربى الذمة من المحامين والمهندسين للعمال . ولعل أفضل روايات « مامين » هى « المحاربون » (١٨٨٣) و « ملايين بريفالوف » (١٨٨٤) و « الخبز » (١٨٩٥) وكلها تبين الانحطاط الخلقى الناتج من سطوة المال . فى « الخبز » مثلاً ، نجد تجار الحبوب لا يقفون عند حد من التزوير والقتل لتكديس ثروات طائلة . . . وفى « خطوط من حياة بيبكو » (١٨٩٤) حاول « مامين » أن يثبت أن نفس عملية الانحلال الخلقى تحدث فى الطبقة الوسطى عندما تلوثها العقلية الرأسمالية ويتحكم فيها قانون البقاء للأقوى . . وروايته المسماه « إخوان جورديف » (١٨٩١) وهى واحدة من أفضل رواياته ، تمثل الواقعية الروسية تمثيلاً حياً .

وبالرغم من انعدام الصنعة والشكل فى كتابات « مامين » ، فقد لعبت دوراً بارزاً فى نمو الإقليمية . فقد كانت رواياته تتحدث عن الأورال وسيبريا ، منبئة بأنه سيأتى يوم يهز فيه شعراء وروائيو الأقاليم فى هذه الأراضى الشاسعة ، الحياة وتقاليدها هزاً عنيفاً .

٣ — « نيقولا ليسكوف »

وثمة كاتب آخر ، أطلق على نفسه اسم تلميذ « مالينكوف بشرسكى » ، أثبت أنه متفوق على أستاذه ، وأسس مدرسةً خاصة به ، هو « نيقولا ليسكوف » (١٨٣١ — ١٨٩٥) الذى يُعتبر أحد ممثلى التقاليد العظيمة فى الأدب الروسى .

وقد كانت حياته الأدبية غير عادية . فى العقد الثالث ، كان اسمه ممقوتاً بين أفراد الطبقة المثقفة التقدمية الذين كانوا يمقتونه كمؤلف لرواية « لا مخرج » (١٨٦٤) ، هذه الرواية التى هاجمت « النزعة الفوضوية » هجوماً شديداً ، وكذا قصة « الخناجر المسلولة » (١٨٧١) وهى قصة طويلة مسلسلة ، وصف فيها الثوار بأنهم قطاع طرق ، والمثقفين الأرستقراطيين بأنهم « طبول مدوية » . وثرثارون ذوو نظارات ولحى ! وإذ مقته التقدميون والثوار ووصفوه بأنه « رجعى » ، اضطر النقاد إلى إهماله فى النهاية ، الأمر الذى جعل « ليسكوف » لعدة سنوات يشعر أنه مضطهد ، وأن منافسيه يضعون العراقيل فى طريقه. ولم يكن ثمت تقدير ملحوظ لعمله أثناء حياته . ولم يوضع فى صف « بيسمسكى » و « استروفسكى » أو « دستويفسكى »

إلا فى نهاية القرن . ومنذ ذلك الوقت أخذت شهرته فى النمو المستمر . وحتى قبل الثورة ، شقت كتاباته لها مكاناً بين كتاب الروس الكلاسيكيين . كذلك عبر كثير من الكتاب فى العهد السوفييتى ، من « زامياتين » ، إلى « جوركى » عن إعجابهم بإنتاجه الأدبى .

وكانت عائلة « ليسكوف » مكونة من الكهنة والتجار . أما أبوه فكان موظفاً صغيراً ، ولكن أمه كانت من طبقة النبلاء.. ولم يحصل « ليسكوف » إلا على قدر ضئيل من التعليم ، فصار — على نقيض معاصريه — كاتباً بفضل تجاربه الشخصية لا بفضل ثقافته . فقد عمل كموظف مدنى فى « أوريل » و « كييف » ثم تولى إدارة إحدى الضياع وأشرف على مزرعة ، ثم أصبح رجل أعمال . وسافر فى أنحاء روسيا ، وقابل مجموعة عجيبة من الناس ، وجمع مادة طائلة من التجارب .

وفى عقده الثالث ، بدأ الكتابة تحت إصرار أصدقائه الذين أثر فيهم ما وجدوه فى خطابات العمل التى كان يحررها من ذكاء وفطنة . وبعد ظهور أولى قصصه « الكبش » (١٨٦٣) وأولى رواياته « لامخرج » (١٨٦٤)، كتب روايات وتاريخاً وقصصاً ومقالات وقصة تمثيلية واحدة « المقتصد » ، وحوت الطبعة التى جمعت كل إنتاجه (١٩٠٢ —

١٩٠٣) ستة وثلاثين مجلداً .

وكان « ليسكوف » رجل مصالح متعددة ، وعواطف متضاربة ، وقوة جسدية طالما كانت فى نزاع مع ميوله الدينية . ولقد قضى وقتاً طويلا يدرس الفن الشعبى القديم : عادات الناس وأغانيهم الشعبية وتراثهم القديم ، فساعده ذلك على أن يصبح خبيراً فى الساعات القديمة ، وفى المطبوعات الإنجليزية ، والأحجار الكريمة ، وأدب المعتقدين القدامى . وامتزجت شدة إحساسه الفنى ومعرفته الممتازة فى النقش والعمارة بعنصر شهوانى . ومن ثم وجد غبطة عظيمة فى حوادث الحياة الكثيرة الألوان . وكان يحب الأخلاق الشاذة ، والعادات المتقلبة ، والفكاهة الخالية من المعنى ، والمواقف الغير متوقعة ، والنهايات المفاجئة ، ويفسر هذا الحب للألوان المتعددة ، الثروة القصصية فى رواياته ، والحيوية العجيبة فى أسلوبه الفريد . ومع هذا ، فقد كان مولعاً بالعواطف السامية .

وكثيراً ما أشار إلى إمكان تنقية الغرائز البدائية بالحب والتضحية والبحث عن الحقيقة . ويوجد فى معظم أقاصيصه موضوع مركزى ، هو موضوع الخاطئ الذى يصل إلى مرتبة الطيبة عن طريق مطهر للجريمة أو الشهوة . وكثيراً ما كتب « ليسكوف » عن الخطايا الأولى التى فيها يصير بطل قصته

« دون كيشوت » من طراز سلافى .

كذلك كان « ليسكوف » واحداً من الكتّاب الروس القلائل الذين صوروا الأنماط الأخلاقية الإيجابية . وكان يبحث دائماً عن تجسيم قدسى للطيبة . ويصورُ قليل من أفضل قصصه القصيرة رجالاً سذجاً بسطاء يحاولون أن يحيوا حياة أمينة صادقة بالرغم من الرجس والشناعة فى بيئتهم .

وكان بطل أعظم روايات «ليسكوف» ـ شعب الكاتدرائية ـ (١٨٧٢) رجل فضيلة . فالقس «بتروسوف» كان رجل فضيلة وقوة خلقية ، وهو يحارب فى معركة خاسرة ضد موظفى الكنيسة ، فهو يحتقر البيروقراطيين الدينيين ، ولو أن محاولاته لإحياء الإيمان والأخلاق المسيحية تصطدم بمصالح رؤسائه السياسية والدنيوية ، واستمر حتى يوم موته يرفض بإلحاح أن يحيد عما اقتنع به . وكان مثله فى ذلك مثل « أفاكوم » الذى يشبهه من وجوه كثيرة .

وفيما عدا القسم الذى يصور فيه الراديكاليين تصويراً كاريكاتوريا ، فإن سجل الحياة الإقليمية وحياة صغار الكهنة كان عملاً ملحوظاً : فهو قوى وعاطفى ، وشخصياته من أفضل ما ابتدع القصص الروسى الواقعى . ومما صادف فيه نجاحاً ملحوظاً ، تصويره لشخصية الشماس القوى « إكيلا » الذى

كان من القوزاق سابقا ثم كرس قوته الجسمية وعواطفه الملتهبة للدفاع عن الدين . فقد كان واحداً من رجال « ليسكوف » ذوى الاستقامة الخلقية ، وهو رمز للقوة الكامنة فى الشعب الروسى .

ورواية « شعب الكنيسة » كانت بلا مؤامرات غرامية ، ولكن عوضها عن ذلك مزيجٌ من الحرارة الإنسانية والذكاء الحاد . فقد شُيدت على مستويات مختلفة ، وذهبت تلميحاتها إلى أبعد من حدود العقدة والقصة . فهى تعالج — ضمن ما تعالج — نفس المشكلة الخاصة بالمسيحيين فى المجتمع الحديث ، التى غزت أفكار « دستويفسكى » فى قصتى « الأبله » و « إخوان كارامازوف » . وكانت شخصية « بتروزوف » واحدة من قلائل شخصيات الأبطال « الإيجابيين » فى النثر الروسى فى القرن التاسع عشر — فهو لم يكن رجل إيمان وكرامة فحسب ، بل كان ذا ذكاء خارق وعلم غريز . فنضاله ضد الشكلية ، والتزمت ، ورغبته فى الإصلاح ، نتجت من تفسيره لطبيعة الحق ، والقانون المسيحى . فالنفوس البسيطة مثل مساعده أو الشماس « إكيلا » منجذبة إليه بالغريزة . وهنا ، وبالرغم من الأسلوب المحزن فى الفصول الأخيرة ، يوجد العزم والأمل فى رواياته . فالمعجبون بشخصية « بتروزوف » يشعرون بقوته

الروحية ، فهم يحترمونه كمدافع شجاع عن المسيحية النقية ولكنهم فى الوقت ذاته ، يحبونه كممثل حقيقى للخلق الروسى . وهكذا تبرز العواطف الدينية والوطنية . ويبدو أن « ليسكوف » يتفق مع « دستويفسكى » فى أن الروسى الطيب معناه المسيحى الطيب !

غير أن المؤلفات التى كتبها « ليسكوف » مستوحياً فيها المثل العليا المسيحية عن قدامى القديسين والكهنة الأمناء المحدثين ، جعلت المحافظين يشكون فيه ، فقد اتهموه بالمغالاة فى وصف بؤس الحياة بين صغار القساوسة ، وبالغرابة فى وصف حمق موظفى الكنيسة وغبائهم . كما أن قصصه عن الحياة بين الأساقفة ، ولو أنها كانت سليمة أمينة ، قد أثارت حفيظة رقباء الكنيسة ، فأعلنوا أن « ليسكوف » ليس إلا فوضويا متخفياً و « روحاً متمردة » و « رسولاً للثورة » . وفى العقد الثامن، فُصل « ليسكوف » من خدمة الحكومة ، بعد أن ظل فى وظيفته عدة سنين — وعلى هذا ، فقد وجد نفسه مرفوضاً من اليمين ومن اليسار ، ولم تقدّر أعماله إلا بعد وقت طويل .

وليست روايات « ليسكوف — فيما عدا « شعب الكنيسة » متميزة ككتاباته الأخرى ، ولو أنها غالبا ما تكون مثيرة — وبعضها مثل « المخدوع » (١٨٦٥) تنتمى إلى كتاباته الجدلية،

فهى تقر إنحلال « الفوضوية » ، ومليئة بالمؤثرات الروائية ، والإشارات الصحفية . ولم يدع « ليسكوف » فرصة للربط بين عقدة رواياته وبين الحوادث الواقعية ، تفلت منه . فقد أفاد فائدة كبيرة من فضائح ذلك العصر التى كانت تُروى فى المحاكم (قصة « يوم شتاء » ١٨٩٤) . كذلك حفلت رواية «سكان الجزر» (١٨٦٧) التى صوّر فيها شابا فى أحد الأحياء البوهيمية فى العاصمة ، بصفحات بارزة ، كان أسلوبه فيها يشبه إلى حد كبير أسلوب « دستويفسكى » . وهناك مجموعة أخرى من الروايات ، تتضمن قصصا تاريخية ، أظهر فيها « ليسكوف » معرفة واسعة بالأزمنة الغابرة وعاداتها ولغتها .

وتحتوى قصتا « الأيام القديمة فى بلود وماسوفو » التى بدأ نشرها عام ١٨٦٩ و « عائلة فى طريق الانحلال » (١٨٧٤) على مجموعة منحلة من الارستقراطيين ، والفلاحين ، والمواطنين ، وهى تنبئ عن اهتمام « ليسكوف » بالأصول التاريخية للخصائص الشخصية القومية — فهو يعود إلى الأصل فى محاولته تقرير أساس العادات الروسية والفكر الروسى . . أما كتابه الأخير « أرنب الحديقة » الذى لم يكمل حتى عام ١٨٩٤ ، ولم يُنشر حتى عام ١٩١٧ . فمختلف عن الروايات الأخرى فى أنه إحدى القصص الطويلة التى تُظهر روحه الفكاهية اللامعة

وصنعته الأدبية الأصيلة .

غير أن « ليسكوف » أفضل ما يمكن فى قصصه ورواياته القصيرة . وأهم مؤلفاته القصيرة « المتجول المسحور » (١٨٧٣) وهى تحفة أدبية تنتمى إلى الفئـــة التى قلما توجد فى الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر ، لأنها قصة تصويرية . فترى فيها « إيفان فلياجين » المتجول ، وهو عبد سابق ، دفعه عدم الاستقرار الجسمى والنفسى إلى التجوال فى روسيا ؛ فيسجنه التتار ، ويهرب ويصير ممثلا وبائعاً وتاجر خيل ، (أو كما يسمى نفسه « قاضى لحوم الخيل ») وجنديا وفارسا ، وأخيراً وبعد تغيرات كثيرة ، يصبح « صبيا » فى أحد الأديرة . وفى الوقت الذى يقص فيه قصته يكون فى رحلة للحج إلى شمال روسيا . ويقص الحاج حياته العجيبة بلغة يطرب لها محبو الروسيين. وفى النسيج اللغوى ، تغدو الرواية حيةً وفكاهيةً إلى درجة عجيبة مليئة بالألغاز والمصطلحات الشعبية ، ولكن إنشاءها فى نفس الوقت محكم ومعبر . وبالرغم من خشونته وقسوته التى تبدو بين آن وآخر ، وعواطفه المتفجرة ، فإن « فلياجين » يحب الطبيعة ويحنو على الأطفال والحيوانات الذين يفهمون بالبداهة نتيجةً لحبهم « الجمال » و « كمال الطبيعة » . فقد كان الجمال بالنسبة له يتمثل فى الغادة الغجرية « جروشا » التى تشبه القُبْلة

منها « لقمةً من الاسبرج المغموس فى السم،تبعث ألماً محرقاً فى الدم حتى يصل إلى القلب » ، ولكن « فياجين » يتحمل الألم ويرتكب الجرائم فى سبيلها ! .

وكانت شخصية « فلياجين » أسطورية . . . فرحلاته الكثيرة تشبه رحلات أبطال الأساطير . . وهو كذلك قريب الشبه من الشماس « أكيلا » .

وتعالج قصة « المتجول المسحور » نفس المشكلة التى أثارها «دستويفسكى» عن « ميتيا كارامازوف » و« ستافروجين » وهى مشكلة الجنوح إلى الحد الأقصى . فشخصية « فلياجين » ترمز للشعب الروسى .. ونهاية القصة واضحة كل الوضوح : فعندما يسمع « فلياجين » الشائعات عن الحرب ، ينسى أنه كان قد قرر أن يصير راهباً ليكفر عن خطاياه ، فيبدى رغبته فى التطوع ، ويقول لسامعيه وقد تملكتهم الدهشة : « إننى راغبٌ كل الرغبة فى أن أموت لأجل الشعب» .وأساس المثل العليا فى ذلك القلب الطيب هو — فى نظر « ليسكوف » — أهم مسحة فى الخلق الروسى . فالبحث عن « طريقة الحياة المستقيمة الفاضلة » فى روسيا كان لا يزال مستمرا .

وتُظهر « المتجول المسحور » الخصائص البارزة فى أدب « ليسكوف » : الخطوة السريعة فى رواية « الحكاية » والتنوع

المثير فى الحوادث ، ووفرة العمل والحركة الروائية ، (وهو فى هذا يشبه دستويفسكى) و « البناء المسلسل » للقصة أى سرد حادثة تلو الأخرى ، بما فيها من عقد فرعية وأحداث مثيرة . وهذه « المأساة الفكاهية » فى الحياة — كما يسميها « ليسكوف » — هى أيضاً صورة من روسيا بأقاليمها المختلفة : الاستبس ، والفولجا ، والقوقاز ، ووسط روسيا ، وبحيرة لادوجا .

ولقد أتاحت أسفار « فيلياجين » وحبه للخيل للروائى « ليسكوف » فرصة تعرفه بأشخاص من مختلف النحل . . فمن المتشردين ورعاة الغنم والغجر . . إلى ضباط الجيش والأرستقراطيين ، ومن أسواق الريف ، وسوق الخيل وحظائرها إلى الثكنات والضياع والمجاهل الشاسعة .

وتشبه هذه التحفة شبهاً كبيراً قصة طويلة أخرى « الملاك المختوم » (١٨٧٣) ، يحكى لنا فيها الراوية «مارك ألكسندزوف» — وهو صانع فنى ومحب للفن الدينى القديم — عن البلايا التى حلت بمجموعة من « المعتقدين القدامى » يعملون فى بناء قنطرة على نهر الدينيبر — فقد صادر البوليس الملكى ايقوناتهم ، ووضع الضباط الحمقى الأختام على الصور المقدسة . فبكى المعتقدون وهم يرون الشمع الساخن يذوب ويغطى وجه الملاك الحبيب ! ولا ينجح فى إعادة هذه الايقونات المقدسة إلى العمال

الأتقياء سوى معجزة يقوم بها قديس ! . وفى النهاية ترتد هذه الشيعة وتنضم إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، ويزيد من قوة هذه الحبكة المسلية ، الحيوية والتفصيلات البصرية والسمعية ، والمعرفة العميقة بالفن الدينى القديم والعادات الشيعية .

ويظهر ذكاء « ليسكوف » الحاد وميله إلى استعمال الغريب من الكلمات ، واللعب بها ، وتعقيدات الأحاديث الشيعية والتغييرات التاريخية والاجتماعية — يظهر هذه كله فى أحسن مظاهره فى قصته « سميث الأحول الأشول والبرغوث الصلب » (١٨٨١) . ويحكى القصةَ مهرجٌ فى سوقٍ من أسواق المزهرك وأصحاب الحوانيت الصغيرة والجنود الذين يزأرون بالضحك عند سماعهم ما فى كلامه من تورية وعبارات غريبة واصطلاحات فنية! . وموضوع القصة برغوث من الصلب متناهٍ فى الصغر أهداه البريطانيون إلى القيصر ألكسندر الأول فى رحلته بعد هزيمة نابليون ، لكى يبينوا للقيصر مهارة الصناع البريطانيين . والبرغوث يرقص عندما يُملأ . ويعتقد نيقولا الأول خليفة ألكسندر أنه ليس فى استطاعة أى روسى أن ينتج مثل هذا العمل الدقيق . . ولكن « بلاتوف » وهو قائد قوزاقى جامد خشن شغوف بالدفاع عن الشرف القومى ، يجد حداداً أمياً فى « طولا » وهى مدينة ذات شهرة قديمة بمن فيها من صانعى

الأسلحة والحدادين — ويقوم الحداد الأحول الأشول بصنع برغوث أدق من البرغوث الإنجليزى تز ين أرجله « حدوة » دقيقة ! ! ويستدعيه الإنجليز إلى لندن ، ويحاولون أن يغروه على البقاء فيها ، ولكنه يجد الجو مليئا بالضباب ، ويكتشف أن الويسكى ليس قويا كالفودكا ، والحلوى ليست حلوة المذاق كالحلوى الروسية ، فيقفل راجعا إلى وطنه ، وهو يدندن بأغانى « هومر » ، ويراهن إنجليزيا على الشراب ، ويقع فى نوبات من الهذيان فيضربه رجال الشرطة ويسلبون ما معه ، وأخيراً يموت فى مستشفى خيرى ! ! وهكذا فإن هذه التحفة الفكاهية تضرب على نغمة واحدة : هى المواهب الكامنة فى الشعب الروسى . فالحداد الأشول قد أدهش الأجانب ، كما أدهش « مارون المزهوكى » فى قصة « الملاك المختوم ». المهندسين الإنجليز والألمان ، عندما أظهر لهم طريقة حديثة فى تقطيع الصلب ، أو كما أدهش الفنان « سباستيان » الجميع بنقش أيقونة متناهية فى الصغر فى أقصر وقت ممكن .

وعندما وُضعت هذه القصة فى قالب تمثيلى بواسطة «يوجين زامياتين» حظيت بنجاح منقطع النظير فى موسكو وفى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى فيما بين عامى ١٩٢٠ ، ١٩٣٠ .

وترجع المهارة الكلامية فى قصص « ليسكوف » إلى الخبرة

الواسعة والبحث المستفيض . ولقد كتب يقول « إن اللغة العامية الشعبية الخشنة التى تملأ صفحات كتبى ، ليست من اختراعى . لقد سمعتها من الفلاحين ، أنصاف المتعلمين ، وأنصاف الأذكياء ، وأنصاف القديسين . . . ولقد طفقت عدة سنوات أجمع الكلمات والتعبيرات والأمثال ، التقطها من الشوارع ، ومن القوارب النهرية ، ومن مكاتب التجنيد ، ومن الأديرة ؛ وظللت سنوات أدرس بعناية النطق وطريقة الكلام فى المستويات والطبقات الاجتماعية المختلفة » . ومن ثم كان « ليسكوف » اختصاصيا فى « علم النحو الشعبى » ، وهو الاصطلاح الذى أطلقه أحد علماء اللغة الروسيين على عادة التهجية والنطق الخاطئ للكلمات والأسماء ذات الأصل الأجنبى أو العلمى .

وتتفاوت قصصه بين المآسى العابسة إلى الملاهى العابثة — فقصته «الليدى ماكبث فى حى متسنك» (١٨٦٥) مثلاً ، تكشف عن صنعته الدقيقة فى المأساة . فبطلة القصة « السيدة كاترين » تقتل حماها وزوجها العجوز وابن أخ صغير كان سيرث ثروة طائفة إسماعيلوف التجارية . وهى ترتكب كل هذه الجرائم إرضاء لعشيقها الذى كان يحقرها ويلعب بها ، وفى النهاية هجرها من أجل صبية صغيرة بيضاء اسمها « سونيتكا » . وعندما كان

المحكوم عليهم يساقون فى المعدية فى نهر الفولجا الذى انتفخ بمياه الأمطار ، تنقض « كاترين » على « سونتيكا » وتقذف بها إلى « الأمواج المظلمة » . وهكذا تنهى كل شىء بجريمة قتل رابعة ثم بحادثة انتحار ! !

وتمثل مآسيه الفكاهيـــة قصته « يوم الليل ذو الضجيج والعجيج » (١٨٩١) . وقد كُتب معظمها على شكل حوار . وهى تعالج موضوع المعجزات التى يقوم بها « إيفان من كرونستادت » وهو قسيس وقور يؤمن بمعجزاته كثيرٌ من التجار ! .

وتعالج قصة « خطأ طفيف » (١٨٨٣) بطريقة تبعث على السخرية موضوع عامل آخر يصنع المعجزات اسمه إيفان كوريشا — وهو فى الواقع رجل معتوه . بينما تقص علينا « شرتوجون » (نزهة الشيطان ١٨٧٩) ما حدث لأحد أفراد التجار من انحلال نفسى بسبب الخمر .

والفكاهة عند « ليسكوف » سطحية وخالية من التعقيدات . فهو يسخر من تعقيدات الحياة ، وتسره « الهرجلة » ، والمواقف والشخصيات المتشابكة ، ويستهويه الضجيج . وكان دائماً ذا صنعة تتراوح بين المكر والشفقة . ويعلل هذا الاتجاه وجود ازدواج فى فكاهته . فالهجاء الذى توسل به لم يكن حقيقيا ،

لأن الهجاء يتطلب عاطفة ، كذلك كانت سخرية « ليسكوف » متواضعة . فهو يلتمس المعاذير للضعف الإنسانى ، ويستهويه قالب القصة ، وضجيج الفكاهة ، والمرح « التهريجى » الذى تثيره الكلمة الفكاهية . وقد قال مرة « ما أنا إلا كناس ، وسأمسك بمكنستى دائماً لأزيح بها القاذورات من الطريق » .

فهذا الجامع للأمثال القديمة ، والذى تمتاز لغته بالطلاوة كالمجلة الملونة أو القماش الملون الحديث ، هو فى الواقع واحد من أدق الفكاهيين الروسيين . وتأثيره على « تشيكوف » — كما سنرى فيما بعد — واضح ظاهر . ويدين له الكثير من كتاب السوفييت وخاصة « ز وشنكو » و « زامياتين » بالكثير .

ولقد أثار تنوع الاهتمام عند « ليسكوف » والمظاهر الخاصة فى أسلوبه إعجابا واعتراضا فى الوقت ذاته . . . فمثلاً كان تولستوى يقول « إن « ليسكوف » يمتاز بفيض من المواهب » . . بينما كان «ديستويفسكى» ينتقدأبطال «ليسكوف لأنهم يستخدمون فى كلامهم « جملا جيدة التركيب » . أما « مشنكوف » وهو ناقد مشهور ، فكان يقول « إن أسلوب ليسكوف متناهٍ فى الدسامة» . وكان « تشيكوف » من الناحية الأخرى معجباً « بليسكوف » « كمزيج من الرجل الفرنسى الرقيق والقسيس المشلوح » ! . ولعل أصدق وصف لليسكوف ، هو ما أورده

« جوركى » الذى تأثر هو نفسه تأثيراً كبيراً بليسكوف حين قال : «لم يكتب ليسكوف عن المزهوك أوالفوضويين أو الإقطاعيين وإنما كتب عن الروسيين أنفسهم .. فكلٌ من أبطاله عبارة عن حلقة فى سلسلة الرجال – فى سلسلة الأجيال . إن الإنسان ليشعر أن ما يشغل « ليسكوف » فى أية قصة من أقاصيصه ، هو مصير روسيا جميعها ، لا مصير فرد واحد من الأفراد . . إن ليسكوف واحدٌ من كتّاب الطليعة ، وقد شملت كتاباته روسيا بأكملها » .

٤ — شعراء العقد السابع

حفل العقد السابع بشعراء عظام ، وشعراء أقل قيمة ، من « نيكراسوف » إلى « بولونسكى » و « بلشييف » . ومع هذا ، فقد ظل الأرستقراطيون والجماليون مخلصين لتقاليد « مايكوف » و « ألكسيس تولستوى » .

وكان الشعراء الأرستقراطيون أكثر أهمية وتأثيراً فى العقد السابع ، بأشعارهم الغنائية التقليدية ذات الأوزان الكلاسيكية .

وكان أحد الشعراء المثاليين هو « الغراندوق قسطنطين رومانوف » (١٨٥٨ — ١٩١٥) الذى نشر تحت الحرفين « ق . ر . » ثلاثة دواوين من الشعر بين عامى ١٨٨٦ ، ١٩٠١ ، كما كتب قصة « ملك اليهود » وهى قصة تمثيلية بالشعر ، وترجم عن الشعراء الإنجليز والألمان .

وثمة شاعر آخر هو « قسطنطين سلوشفسكى » (١٨٣٧ — ١٩٠٤) الذى كان أكثر تعبيراً عن الجو الكئيب فى العقد الثامن ، فقد كان نبيلا وموظفا مدنيا — وبدأ يكتب فى العقد السادس ، ولكنه هوجم بعنف من النقاد الراديكاليين ، نظراً

« لروح السخط » التى سيطرت عليه . وظل صامتاً لمدة حقبتين. وفيما بين عامى ١٨٨٠ ، ١٨٩٠ نشر أربعة مجلدات من القصائد، كانت روحها كئيبة متشائمة ، فشبّه بعض النّقاد نغماتها بالنغم الميت الذى يصدر عن تساقط أمطار الخريف .

وبنفس الطريقة التى كان يؤله بها شباب الراديكاليين « نادسون » ، كانت الطبقة العليا والبورجوازية المثقفة تعجب بشاعر آخر هو « الكسيس أبوختين » (١٨٤١—١٨٩٣) الذى أطلق عليه اسم « شاعر الفريق السياسى الذى لا يؤمن بالجمال » .. وقد كان «أبوختين» شخصية محبوبة لدى كبار الموظفين ، والنساء الجميلات ، لأنه كان نبيلا عريقا ، وموظفا مدنيا ورجل مجتمع . وفى منتصف العقد الثامن نال شعره تقديراً أكثر ، ونال هو شهرةً واسعة النطاق . ولقد كان يكتب بالأوزان البسيطة متتبعاً خطى « ألكسيس تولستوى » ، كما كان يضرب على النغمات الرخيصة والتافه من العواطف . وكانت أغانيه كئيبةً ، ولكنها لم تصل إلى مرتبة الشجن الحقيقى . وكان فكاهيا ، ولكن فكاهته لم تتعد مجرد البسمة المؤدبة فى حدود الذوق السليم . وكان يتغنى بمباهج الحب ، وخداعه ، وبالشباب الضائع ، وبما يحدث فى الحياة اليومية . ويعالج عددٌ من أغانيه المكتوبة بأسلوب الغجر ، المصير المحزن لمن يعيشون على هامش

الحياة ، وقد كتبت كلها بشبه غناء « مطربى المطريقة تقاهى »!

وكان « أبوختين » زميلا فى الدراسة لتشايكوفسكى وصديقاً لمسورجسكى ، الموسيقيين العظيمين اللذين لحنا أغانيه التى ظلت مفضلة لبضع سنوات عند الهواة ومطربى الحفلات الشعبية . .

وثمة شاعر آخر كان يعلو فوق صغار الشعراء علواً كبيرا ، هو « قسطنطين فوفانوف (١٨٦٢ – ١٩١١) الذى كان ينتمى إلى جماعة شعراء الأرستقراطيين لا بالمولد (فقد كان أبوه يدير حانوتاً صغيراً) ولكن بالنسبة لأدائه الفنى ، ولأنه كان غريماً للشعر الشعبى ومدافعاً عن نظرية « الفن للفن » .

فقد كرس « فوفانوف » أغانيه لوصف الطبيعة ، وألوان العواطف . وكانت بعض غنائياته ذات موسيقى غير عادية . وبالرغم من عدم تناسقها ، فإنها تكشف عن صناعة ملحوظة .

أما الشاعر العظيم بحق فى هذه الفترة والذى يقف فى صف واحد مع « ليرمونتوف » و « نيكراسوف» و« تيوتشييف » فهو « اثناسى شنشين » (١٨٢٠ – ١٨٩٢) الذى اشتهر باسم « فت » ، ولم ينصفه معاصروه باستثناء قلة مثل « تارجينيف » و « تولستوى » ، فقد كان يعيش فى عصر انتشرت فيه فكرة « الأدب ذو الرسالة القومية والاجتماعية » أو « الأدب الهادف » .

وإذ كانت قصائد « فت » تدور حول البلابل ، ورائحة الغاب ، وسحر نور القمر على وجه الحبيب ، اعتبرها أنصار « الأدب الهادف » لغواً فارغاً ، فتعرض بذلك لحملة وهجمات مدمرة ، إذ وصفه نقاده بأنه سطحى تافه ، كما وصفوا المعجبين به بأنهم حمقى سطحيون .

ولم يُعطَ « فت » المكان اللائق به ، إلا عند بداية القرن العشرين ، عندما أعاد الرمزيون تقييم الشعر الروسى . فقد كشف الرمزيون عن تأثيرات « فت » وبصره بالطبيعة ، وصفة المراوغة فى شعره ، كما أشاروا كذلك إلى المعنى الفلسفى لمؤلفاته ، فأوضحوا أن السبب فى عدم شعبيته لا يرجع إلى سطحية شعره ، بل إلى العمق الميتافيزيقى الذى لا يستطيع العامة أن يستسيغوه . وهكذا بدا « فت » متناقضا لعدد من النقاد والقراء ، ولكنا نعذرهم جميعا ، لأن شعر « فت » يحفل بالكثير من المتناقضات. كذلك كانت حياته متناقضة . فقد تزوجت أمه « شارلوت فت » من « شنشين » وهو نبيل روسى فى وطنها ألمانيا ، ولكن هذا الزواج لم يعترف به القانون الروسى رغم أنه أجرى حسب الطقوس اللوثرية ، فكان على « أثناسى » أن يحمل اسم أمه ويتقبل وضعه ذلك . وعلى الرغم من أنه جاهد عدة سنوات لتعديل لقبه ، فإنه لم يحصل على تعويض قانونى بأن يحمل اسم

شنشين — بما يتبعه من ميزات — إلا بعد أن بلغ الثالثة والخمسين .
ولقد اتفق الاسمان مع المظاهر المختلفة لشخصيته ، فالشاعر « فت » كان يعجب بجمال الفن الإغريقى ، ويعبد الطبيعة والموسيقى والحب ، وعرف نشوة الإبداع ، وترجم عن جوته وحافظ ، بينما كان الإقطاعى اللاذع وسائق العبيد « شنشين » من الناحية الأخرى منهمكا فى إدارة أملاكه الواسعة ، وفى جمع المال ، لدرجة أنه كان لا يكاد يجد وقتاً للكتابة . . وكان فى شيخوخته فخوراً بلقب « رجل البلاط » الذى كان بوشكين يمقته بشدة — أكثر من افتخاره بشهرته الأدبية كشاعر . ولم يظهر هذا الرجل الانتهازى الشره الغليظ القلب فى حياته العادية ، شيئاً من المثل العليا التى حفلت بها قصائده . وحتى أصدقاؤه الحميمون عجزوا عن حل هذا اللغز : كيف كان ممكنا لهذا الرجل المادى النشيط ، صاحب الأملاك ، الذى كانت ثروته ثمرة مجهوداته ، أن يفصل نفسه عن جميع المشاغل الدنيوية ويحوّل رقة الشعور ورقة المناظر إلى شعر لامع ؟

ولكن « فت » نفسه لم يُعانِ من هذا التناقض ، بل وجده شيئاً طبيعيا . فكاد دائماً يؤكد الفرق الأساسى بين الحقيقة والشعر . . فالشعر يمثل عنده الهرب من العالم المادى إلى العالم المثالى . ولقد كان الاثنان على نهجين منفصلين لا يمكن أن

يتقابلا أو يمتزجا . وحتى فى شبابه ، كان يقول إن سحر الفن كائن فى التضليل الذى يخلقه ، وفى « كذبه المقدس » . ووصل فيما بعد إلى أن « كذب الفن قد يكون الحقيقة الكبرى » ، لأنه يُظهر جوهر العالم . . فالشاعر فى لحظة إلهامه يلمح ما هو مخبوء عن الجماهير . وفى قصيدة كتبها عندما جاوز الستين (وقد كتب أفضل قصائده إما فى شبابه وإما فى شيخوخته) شبه الإلهام الشعرى بطيران عصفور لا يكاد جناحه يلمس مياه البحيرة ! !

وكان « فت » يرفض أن يظل مجرد « متفرج على الطبيعة » . فمعظم غنائياته تمثل صور الغابات والاستبس ، والفجر ، وغروب الشمس ، والحدائق فى نور القمر ، وتباشير الربيع ، والصيف . ولكن هذه الومضات المؤثرة كانت تشير دائما إلى وحدة الكون وكليته . . . وفى رؤيته لوحدة الكون ، لمح العلاقة بين « هذيان النفس» المظلم و «الرائحةالغامضة للشعب » .. فالنفوس والنباتات كانت بالنسبة له مظاهر مميزة للسر الإلهى والجمال الكونى . وكان يؤكد أن الحياة البشرية ما هى إلا حلم ، وأن الفنان هو وحده الذى « يكشف آثار الجمال فى كل مكان » . وكان يقول إن « مذبح الكون الحى فوق متناول إدراكنا . وما نراه من أشعة أرضية وغير أرضية ما هو إلا انكسارشمس الحقيقة ،

وما هو إلا حلم عابر » ! .

وتحت تأثير الفلسفة الألمانية المثالية عام ١٨٤٠ ، تكوّن « فت » كشاعر . فترجم إلى الروسية مؤلفات « شوبنهور » الذى كان يعجب به أشد إعجاب ، ولكنه مع هذا لم يشارك مؤلف « العالم كإرادة وفكرة » فى تشاؤمه ، وإنما كان يؤمن باللذة الطارئة ، فلم يتقبل « حلم الحياة العابر » فحسب ، وإنما بجلّه وتذوقه بشهوة . وكان لا يفزع من الموت أو الفناء . وقد قال فى إحدى غنائياته النفاذة « إنها ليست الحياة التى آسف من أجلها — ما الحياة والموت فى هذا الدوران الأزلى ؟ . . . إنى آسف فقط على الشعلة التى أنارت الكون مرة ، وهى الآن تذبل فى الظلام ، وأبكى عندما أراها تذوى » .

وكانت الطبيعة والحياة تجتذبان « فتّ » بشدة . وكانت نغمات شعره لامعةً مرحة . فعبّر عن فيض مشاعره العاطفية وحيويته الكامنة بلمسات دقيقة وبشكل سحرى . وكان « فت » سيد الفن الشعرى ، لأنه أضاف محصولاً كبيراً إلى الشعر الروسى . وقد استهوى تنوع تنغيمه وصفاء كتابته و رخامة شعره كثيراً من الأتباع من بينهم « بلمونت » و « بلوك » و « سولوجب » .

ولم يتمتع « فت » بالشعبية فى العصر السوفييتى . فقد

وصفه النقاد بأنه يهتم بالشكل الخارجى ، ولا يعمد إلى التوفيق بين الخيال والواقع . . . وحتى مقطوعاته الشعرية التى لُحنت ، قابلها النقاد السوفييت بهز أكتافهم . ويبدوا أن آراءه الإقطاعية هى التى أعاقته . ومع هذا ، فكثير من وصفه للطبيعة أو بعض القطع الكلاسيكية مثل « أنى آت — مرة ثانية بتحيات جديدة لأقول إن الشمس عالية فى كبد السماء » مسجلة فى الكتب الدراسية ، ويعرفها كل روسى متعلم تقريبا . وقدقال«تارجينيف» إن مَن لا يحب « فت » لا يحب الشعر . ولا تستطيع الاعتبارات السياسية ، ولا التغيير فى الأسلوب الشعرى ، أن تغير من الحقيقة ، وهى أن فت واحدٌ من أعاظم شعراء روسيا . وسوف يشعر القارئ الحساس بسحر عواطف ذلك الشاعر الذى رأى سر العالم خلف « أهداب النجوم الذهبية » والذى « تطلع من خلال الزمن إلى الأبدية » ، ولحظ وهج شمس الحقيقة ممثلة فى العالم » .

ومن الوجهة التاريخية ، لا يمثل « فت » نهاية تقاليد « بوشكين » فحسب ، وإنما يمثل أيضاً بدء اتجاه جديد . ومع أن معظم قصائده كتبت باللغة الصافية التى كان يكتب بها « بوشكين » ، فإنها كانت تفتقر إلى رقة « بوشكين » . كذلك كان « فت » بعيداً عن قومية « بوشكين » الواقعية ،

كما كان بعيداً عن عدم الاستقرار الاجتماعى الذى سيطر على « نيكراسوف » ، وكذا عن تحقيق « لورمونتوف » الأخلاقى . وكان شعره مليئاً بالمعانى والإشارات الخفية ، والحلاوة الموسيقية التى عبّر عنها بأشكال مرنة ساحرة .

وهذا كله معناه أن الحركة العظيمة فى الشعر الروسى التى بدأت فى عام ١٨٢٠ ، كانت قد وصلت فى ذلك الوقت إلى الذروة ثم أنهكت نفسها . وقد حدثت هذه الظاهرة نفسها فى ميدان النثر : ففى العقد الثامن بلغت « الواقعية » فى الأدب ذروتها ؛ كذلك كانت الحركة التى بدأت فى زمن « بوشكين » و « جوجول » قد أنتجت أعظم إنتاجها ثم ذبلت وماتت .

وبنهاية العقد الثامن ، كان العصر الكلاسيكى يوشك أن يختفى . فعصر الرمزيين فى الشعر ، وعصر « تشيكوف » فى النثر ، تساقطا إعياء ، وفتحا الباب أمام تطور جديد فى الأدب الروسى .

الجزء الرابع

« تشيكوف »

تيشكوف

فى عام ١٨٨٠ صار طالب بكلية الطب – كان يكتب تحت أسماء مستعارة بلغت اثنى عشر أو أكثر ، قبل أن يشتهر باسم أنطون تشيكوف – محرراً منتظما فى عدة مجلات فكاهية تصدر فى موسكو ، مثل : « الذبابة الضخمة » و « المنبه » و « الشظايا » إلخ . . . فكان يكتب متهكما و يعلّق على الحوادث الجارية . وكان إنتاجه مليئا بالسخرية والهجو ولواذع الكلام والصور . وقد مكّنته قريحته ومرحه الهادئ من أن ينتج سيلا مستمرًّا من الكتابة .

وكانت بعض الأسماء المستعارة التى لجأ إليها هى « أخ أخى » و « طبيب بلا خبرة » و « رجل بلا طحال » ثم الاسم الذى كان مفضلا لديه هو « أنطوشا تشيخونت » ، وهو اسم أطلقه عليه أحد مدرسيه .

وقد ولد « تشيكوف » إبناً لبقال ، وحفيداً لأحد رقيق الأرض عام ١٨٦٠ فى « تاجانروج » وهى ميناء صغيرة على بحر آزوف فى جنوب روسيا . ولم تكن طفولته سعيدة . فقد

رُبِّيَ تحت نظام أبوى صارم ، وفى جو من تقوى الطبقة الوسطى الأرثوذكسية والإرهاق الريفى . وإذ لم تنجح أعمال البقالة ، التى كان أبوه يمارسها ، قرر بعد إفلاسه عام ١٨٧٦ ، أن يرحل إلى موسكو مع عائلته ، وترك « أنطون » البالغ من العمر ستة عشر عاما لينهى دراسته فى مدرسة محلية للرياضة البدنية . فكان عليه أن يكسب عيشه وأجر تعليمه عن طريق تعليم ضعاف الأطفال ، والقيام بما يطلبه منه تجار المدينة من أعمال . ولقد أثّرت فيه بيئته الكئيبة وظروفه القاسية ، ولكنه كان لحسن طالعه شاباً مرحاً مليئاً بالحيوية يتمتع بإحساس مرهف بالفكاهة وعقل صاف رائق .

وبعد انتهاء دراسته الرياضية فى « تاجانروج » لحق بعائلته فى موسكو ، فملأ الجو المنزلى مرحا ، حتى لقد قالت « ماريا تشيكوف » إن أفراد العائلة كانوا يميلون بطبعهم إلى الدعابة ، وإن أنطون جعل هذا الميل الطبيعى إلى الدعابة يزداد تألقاً ، فأقبل أفراد الأسرة جميعاً على كتابة التمثيليات الساخرة المضحكة .

وكان أول إنتاج « تشيكوف » الذى نُشر ، هو « كتاب إلى جار مدرسى » (١٨٨٠) ، وهو مجون ساخر على طريقة « جوجول » و « ليسكوف » مع الكثير من اللعب بالكلمات ،

وخلط الجد بالهزل ... ثم ظهرت بعد ذلك قصص « ألف عاطفة وعاطفة » أو « الليلة المزعجة » (١٨٧٠) التى استلهم فكرتها من « نوتردام دى بارى » ومؤلفات «هيجو» الأخرى . أما كتابه « نصر لا ضرورة له » فيكاد يكون تقليداً للروائى المجرى الشهير « ماروس جوكيه » .

كذلك عارض «جولز فيرن» فى« الجزر الطائرة » (١٨٨٣). كما هزأ من قصص المغامرات الفرنسية التى لا تنتهى فى قصتى « أسرار المائة والأربعة والأربعين كارثة » و « روكامبول الروسى » اللتين كتبتا عام ١٨٨٤ ، ونُشرت أولاهما عام ١٩٢٣) ، كما كانت « دراما عن الصيد » سخرية من قصص القتل والجريمة .

ولم يكن « تشيكوف » فى كتاباته يحتقر أى غرض أومظهر مهما كان منحلا . فقد كتب عن جوع الشبان للحب ، وظمأ الفتيات كبيرات السن (العوانس) إلى الجنس ، والأساتذة المذهولين ، وصيادى النساء المزهوين . وكان ينسق التقاويم الفكاهية ، ويكتب الإعلانات الهزلية ، ويرد على المراسلات ، ويعلق على الحوادث . ولم تكن تعليقاته لاذعة ، لأن الرقباء كانوا يقفون للسخرية اللاذعة بالمرصاد . ذلك أنه كان من الخطر جداً فى روسيا فى العقد الثامن ، أن يكتب المرء بسخرية ،

حتى فى موضوعات مأمونة الجانب مثل اللحى والرءوس الصلعاء ، لأن القيصر ألكسندر الثالث كان ملتحيا أصلع ! .

ولقد تمكن « أنطوشا تشيخونت ! » بفضل ما درت عليه كتاباته الفكاهية من أرباح أن يصير « أنطون تشيكوف » « الحائز على الدكتوراه ! . وفى العام ذاته الذى حصل فيه على إجازته الدراسية عام (١٨٨٤) نشر كتاب « قصص خرافية عن ملبومين » ، وهو أول مجموعة لقصصه التى كان الكثير منها مرحاً بهيجاً .

وكان « تشيكوف » يغشى المحاكم والأسواق وحلبات السباق والبارات وأماكن اللهو الشعبية باحثاً عن مادة للكتابة . . ومن ثم استطاع أن يقف على حقيقة أخلاق البوهيميين ، والكتبة ، وصغار الموظفين ، والقساوسة ، والفلاحين ، والعمال . وكان لا يعلق أهمية كبيرة على الإنتاج الأدبى الساخر ، ومن ثم كان يعجب فى خطاباته كم درت القصص الفكاهية من مال وكم منحت من شهرة لأمريكى كان يكتب باسم « مارك توين » ! ! كذلك كان « تشيكوف » فى نشأته الأولى ككاتب يقلل من شأن نفسه ... فقد رفض عام ١٨٩٩ أن يضع قصصه الأولى ضمن ما جمعه . وكان يقول « لقد كتب أنطون تشيخونت ! » مادة كثيرة لا يستطيع « تشيكوف » أن يعترف

بها ! . . » وعندما نعيد قراءة قصص «أنطوشا تشيخونت !» اليوم ، نجد فيها كثيراً من العناصر البارزة فى إنتاج « تشيكوف » الناضج ، إذ كانت كلها تدور حول تفاهات الحياة وحقارة البشرية.

وينسى النقاد دائماً عملية التحسن الذاتى التى مرّ بها « تشيكوف » فى سنى دراسة الجامعة . ولقد كانت عملية طويلة تطور فيها الكاتب الناشئ تطورا ملحوظا تمثل فى عمق تجربته ، حتى ليمكن أن يقال إن الأدب الروسى لم يحفل بكثير من مثل هذا النمو الذاتى المتطور الذى بلغه « تشيكوف » على حساب مجهود شاق وتضحيات كثيرة ، وبعد نضال نفسانى مرير ، وصراع مع البيئة . وقد كتب إلى « ألكسيس سافورين » فى ٧ يناير عام ١٨٨٩ خطابا يلقى شيئاً من الضوء على قصة حياته.. كتب يقول : « إن ما اعتاد الكتّاب النبلاء أن يأخذوه من الطبيعة بلا ثمن ، أصبح على أفراد الطبقة السفلى أن يشتروه على حساب شبابهم . . . اكتب قصة — أرجوك أن تفعل — عن ابن الرقيق ؛ عن شاب عمل ذات مرة فى محل بقالة ، ورتل مع الكورس فى الكنيسة ، ثم ذهب إلى المدرسة العالية فالجامعة.. أكتب عن شاب رُبىّ على احترام الألقاب وتقبيل أيدى القساوسة وكثيراً ما ضُرب بالسياط.. اكتب عن هذا الشاب الذى اضطرته قسوة الحياة أن يعمل مدرساً خاصا ، وكان يسد رمقه بما كان

يتناوله من طعام فى بيوت أقاربه الأثرياء ، والذى كان منافقاً نحو الله ! . . لقد كان رجلاً لا ضرورة له ، شاعراً بتفاهته . . اكتب كيف أن هذا الشاب يعتصر العبد الرقيق ليخرجه من كيانه نقطة نقطة ، وكيف أنه عند استيقاظه ذات صباح صاف ، شعر بأن الدم الذى يجرى فى عروقه لم يعد دم عبد . . . لقد صار دم إنسان صحيح بعد أن دفع ثمن تحريره ! . . »

وبعد حصوله على درجته الطبية ، بدأ « تشيكوف » تمرينه فى موسكو ، ولكنه لم يصبح طبيباً محترفاً قط ، لأن الأدب كان يجتذبه اجتذاباً شديداً لدرجة أنه قرر أن يكرس كل وقته للكتابة . . ولكنه أحب الطب ، واعتقد أن الطب ساعده كثيراً . . . ولعله أفاد من الطب والتحاليل الأكلينيكية ، وتسجيل أعراض الأمراض البشرية فائدة كبرى فى ميدان الكتابة .

وفى عام ١٨٨٥ كتب « جريجوروفتش » أحد كتّاب النهضة الواقعية المحنكين إلى « تشيكوف » يرجوه ألا يقبر مواهبه ، وأن يحترف الأدب . كذلك طلب إليه صديقه « ألكسيس سافورين » محرر جريدة « نيوتيمز » اليومية أن يكرس كل وقته للكتابة . . . ولقد فعل « تشيكوف » ما طلبه إليه صديقاه على مضض ، فصدر كتابه الثانى « قصص موتلى » (١٨٨٦)

الذى كان برهانا على اتجاه الرقى الذى كان عليه أن يسير صوبه : الرقى من كتابة الصور إلى كتابة القصة القصيرة . وبعد ذلك بعامين انتقل من القصة القصيرة إلى القصة الطويلة غير الممعنة فى الطول ، وهى نوع من القصة يختلف عن القصة الطويلة عند كتّاب الغرب أمثال « پو » أو « ا . هنرى » — فهى نوع من القصة لا تمثل مجرد قصة استطرادية ، ولكن تمثل استمراراً فى الحوادث ورسما للأخلاق ، وربما كانت أقرب إلى شكل الرواية القصيرة .

أما المجموعة الثالثة من قصص « تشيكوف » : « فى الشفق » (١٨٨٧) فقد كانت تشمل قطعا مكتوبة بمادة فكاهية أكسبته جائزة بوشكين فى أكاديمية العلوم عام ١٨٨٨ . وقد كانت الجائزة خمسمائة روبل فقط ، ولكنها كانت الخطوة الأولى فى سلم الشهرة الأدبية الواسعة . وفى عام ١٨٨٩ بلغ « تشيكوف » قمة مجده الأدبى ، فقد مُثّلت النسخة المعدلة من رواية «إيفانوف» على مسرح ألكسندرسكى فى سان بطاسبرج . وكان أول تمثيل لها فى موسكو فى عام ١٨٨٧ قد قوبل بضجيج من الاستحسان والاستهجان . وفى ذلك العام ذاته نُشرت أول قصة طويلة من قصص « تشيكوف » وعنوانها « الاستبس » فى المجلة الشهرية « رسول الشمال » .

وقد أطلق المعجبون المتحمسون من أمثال « جارشن » على « تشيكوف » لقب « الفنان الممتاز » وامتدحوا عاطفيته فى وصفه للطبيعة فى قصة « الاستبس » ، وفهمه الدقيق لنفسية الطفل ، وكذا واقعيته الصافية . ومع هذا فقد عنّفه بعض النقاد « لترفه » وخلو إنتاجه من المعنى الاجتماعى ، غير عالمين أن « تشيكوف » كان يتجنب وضع المغزى قصداً . وفى خطاب له عن قصته « لصوص الخيل » — وهى واحدة من أفضل قصصه — سخر من أولئك الذين أرادوه أن يشير إلى أن سرقة الخيل عمل خاطئ ! . ذلك أن هدفه كان مجرد إظهار الناس والعادات كما هى ، دون أن ينصب من نفسه قاضياً أو واعظاً .

وكان « تشيكوف » فى الوقت ذاته يجتاز فترة من القلق والتأمل النفسى ، ولكن ذلك لم يحل دون نجاح تمثيلياته ذات الفصل الواحد : — « الدب » و « الفرس » و « الاقتراح » — وكذا قصصه القصيرة . فقد نجحت هذه القصص وأقبل عليها المحررون والناشرون ، وامتدحها النقاد ، فتدفق المال بين يديه ، وأصبح رجلا ذا مكانة أدبية ممتازة .

وفى نهاية العقد الثامن ، وقع تحت تأثير « تولستوى » ، وكان يبحث عن مشروع أدبى يستحق الذكر ، وأدى به هذا إلى أن يقوم فى عام ١٨٩٠ برحلة إلى سيبريا وجزيرة سخالين

لدراسة حالة المنفيين والمحكوم عليهم . وكانت الرحلة محفوفة بالمخاطر ؛ فخط سيبريا الحديدى لم يكن قد شُيّد بعد ، وكان على « تشيكوف » أن يسافر آلاف الأميال بالعربة ، وعاد من سخالين بطريق الهند ، والهند الصينية ، والسويس ، وأوديسا . وقد كتب فى ذلك إلى أصدقائه يقول « بعد أن جبت الهند والصين ، أستطيع أن أقول إننى لا أرى فرقاً كبيراً بين روسيا والممالك الأوربية الأخرى » .

ولم تكن النتيجة الوحيدة لهذه الرحلة هى كتاب « جزيرة سخالين » العظيم فى دراسته الإنسانية ، الممتاز فى حوادثه التصويرية وتدوينه الحقائق كما هى ، بل كان هناك كذلك « فى المنفى » و « جوسيف » ، وكذلك بضعة أخرى من قصصه التى استوحاها من أسفاره فى آسيا .

ولكن « تشيكوف » كان سيئ الحظ . . . ففى نهاية عام ١٨٨٥ ظهرت عليه أعراض السل الرئوى .

وفى بداية عام ١٨٩٢ أرغمه استفحال المرض على أن يشترى مزرعة قريبة من قرية « مليخوفو » غير بعيد من موسكو لكى يقيم فيهـــا . وعلى الرغم من اعتلال صحته ، فقد كانت الفترة بين عامى ١٨٨٩ ، ١٨٩٧ وفيرة الإنتاج ، ففى غضونها ، نشر أفضل رواياته القصيرة مثل : « المبارزة » و « قصة كئيبة »

و « قصة بلا اسم » و « العنبر رقم ٦ » و « الفلاحون » و « حياتى » (وهى قصة إقليمية) و « الراهب الأسود » ، كما كتب بعض التمثيليات مثل : « العم فانيا » و « العاصفة البحرية » . ثم بلغ الذروة الروحية ، وتسنم قمة الشهرة بفضل بساطته ، و إخلاصه ورقته وتواضعه ، والملامح المعبرة فى وجهه الجميل وعينيه اللتين كانتا تشعان ذكاء وتهكما ، وصوته المستوى الأجوف قليلا ، و إخلاقه المتينة ـ كل هذا كان يعبر عن شفقة حقيقية وحكمة حزينة . ومع ذلك ، فإن هذا الرجل الذى يبدو مستسلما ، هذا التجسد للرجل « السطحى » الطيب القلب ، كان باستطاعته أن يكون حازماً صلباً فى نضاله ضد كل شىء لم يقبله ، أو بدا له مناهضا للمبادئ الأساسية للطيبة والكرامة الإنسانية . فعندما أبطلت أكاديمية العلوم عام ١٩٠٢ انتخاب « مكسيم جوركى » كواحد من الزملاء ، لم يكن لدى أحد من الأعضـــاء العديدين الشجاعة على الاحتجاج بالاستقالة سوى اثنين هما : « تشيكوف » و « كورولنكو » . ولم يكن الاحتجاج منصباً على الأكاديمية بقدر ما كان موجهاً ضد القيصر نفسه .

ولكن اعتلال صحته أرغمته على أن يقوم بعدة رحلات خارج القطر ، فأقام عام ١٨٩٩ مدةً طويلة فى القرم ، حيث صار هو و « تولستوى » من أصدق الأصدقاء . كذلك ارتبط

«تشيكوف» بصداقة قوية مع «جوركى» . وغالبا ما كان يزوره كثير من الكتاب أمثال « بونين » و « كوبرين » و « مانين سيبيرياك » . وعند نهاية القرن ، بدأت تمثيلياته تظهر على « مسرح موسكو الفنى » ، وظلت قبلة الأنظار لعدة فصول متعاقبة . وفى عام ١٩٠١ ، كتب قصة « الأخوات الثلاث » ، وتزوج النجمة « أولجا نيبر » التى مثلت دور « ماشا » فى التمثيلية ! ولقد كان زواجا عجيبا ، لأنها استمرت فى حياتها الفنية فى موسكو ، بينما بقى « تشيكوف » فى القرم بسبب السل الذى كان ينهش صدره . وكانت مراسلاته معها مثلا بارزا لأدب الرسائل . ذلك أن خطابات « تشيكوف » على العموم كانت ذات أهمية كبرى لا من وجهة النظر السيكولوجية أو سرد تاريخ حياته ، ولكن من حيث قيمتها الأدبية التى كانت تنافس بعضاً من أفضل كتاباته .

وفى عام ١٩٠٣ ، نشر « تشيكوف » آخر تمثيلياته « بستان الكرز » كما نشر رواية قصيرة جديدة « المخطوبة » . وحوالى عام ١٩٠٤ ، صارت حالته ميئوسا منها . وفى مايو من تلك السنة أرسل إلى « بادنويلر » وهى مصحة ألمانية ، حيث مات فى الثانى من شهر يوليو . ثم أُحضِر جثمانه إلى موسكو ووورى التراب فى مقبرة «دير العذراء الجديد» مثوى الكثير من كتاب الروس .

ولقد كان « تشيكوف » عند موته واحداً من أقرب المؤلفين إلى قلوب الناس فى روسيا . كما أن هذه الشعبية — بما تخللها من اضمحلال طفيف بين عامى ١٩١٢ ، ١٩٢٢ — لم يضعف نموها إلى يومنا هذا ، ولا يبدو أنها سوف تضعف على الإطلاق فى المستقبل . فقد وضع النقاد « تشيكوف » فى مرتبة التقديس كأبر شخصية فى العصر الكلاسيكى فى الأدب الروسى . كما أكد القراء هذا الحكم بجبهم العظيم لأعماله — فبين عامى ١٩١٨ ، ١٩٤٧ بلغ ما نشر من مؤلفاته ثمانية عشر مليونا من النسخ .

وإذا كانت الإحصاءات تثبت شيئا ، فإنها تثبت أنه — باستثناء « جوركى » وبعض الكتّاب الكلاسيكيين الآخرين مثل « بوشكين » و « تولستوى » — لا يوجد مؤلف وتُستحَب قراءة مؤلفاته فى روسيا الحديثة مثل « تشيكوف » . فالطبعة الأنيقة التى تحوى جميع مؤلفاته وخطاباته فى عشرين مجلداً (٥٣٠٠٠ نسخة من كل) والتى تعهد بطبعها مكتب النشر عام ١٩٤٤ وتم طبعها عام ١٩٥٠ ، دليل محسوس على الحب الذى يكنه الروسيون لتشيكوف .

ولم يكن « تشيكوف » نفسه يعتقد أن مؤلفاته ستجد صدىً دائماً كهذا .. فقد كان يقول إنه وزملاءه الكتّاب ليسوا سوى

مجرد انعكاس لصور زمنهم « إنهم لن يطلقوا علينا أسماء تشيكوف وتيخونوف وكورولنكو وشيجلوف وبزهنسكى ، وإنما سيطلقون علينا « العقد الثامن » أو « نهاية القرن » . . ولقد أكد الزمن هذا الحكم أيضا ، إذ لا يكاد أحد اليوم يقرأ روايات «تيخونوف» و « فاسيلى » و « ألكسيس » أو القصص القصيرة لإيفان شيجلوف (وهو اسم ليونتيف المستعار) أو صور بزهنسكى ، وإنما أصبحوا كلهم يقرأون « تشيكوف » باعتباره مثلا عليهم جميعا .

ولعل ما عناه « تشيكوف » هو أن مجال موضوعات قصصه وتمثيلياته كان محدداً بأحوال عصره ، فاعتبر نفسه مؤرخ العقدين الثامن والتاسع . ولقد صدّقه كثير من النقاد حين قال ذلك . ولا تزال الكتب التى تصدر فى روسيا وفى الخارج تسمى مؤلفات تشيكوف « مرآة الحياة الروسية فى نهاية القرن التاسع عشر » . وليس ثمة شك فى أنها تعكس صور الغباء والاستهتار أيام حكم ألكسندر الثالث » . فتصويره للكهنة وللطبقة الوسطى والفلاحين ولطبقة المثقفين بصفة خاصة ، تصوير واقعى يمكن أن يفيد منه المؤرخون فى دراسة الجيل المغلوب على أمره الذى كتب عنه « تشيكوف » . وهذا يفسر لنا النغمة الكئيبة فى كتاباته ، وبلادة أبطاله ، والشعور بالتفاهة الذى يشيع فى

معظم قصصه . ولكن مع أن مثقفى « تشيكوف » الذين كانوا يجعجعون ويذوبون أسى دون القيام بأى أعمال ، وموظفيه القذرين الثقيلى المعشر ، ونسائه الشهوانيات التعيسات ، وفلاحيه الجهلة الذين يشبهون البهائم ، كانوا جميعاً ينتمون إلى الحياة الروسية فى العقد الثامن ، فإن هذا لا يفسر تماما تعلق الناس به ، لأن شهرته لم تقتصر على روسيا ، بل تعدتها إلى ممالك أخرى كثيرة ، وخاصة إنجلترا وألمانيا واسكندناوة والولايات المتحدة .

كذلك حطم «تشيكوف» قيود فى زمنه ، شأنه فى ذلك شأن جميع الكتاب العظماء ، وكشف عن الينابيع الخفية للحياة ، وسجل لنا تفسيراً مبتكراً للسلوك الإنسانى عموما .

ولم يولد فى روسيا حتى الآن كاتب يمكن أن يقال إنه ملأ مكان تشيكوف .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨

كتب ظهرت حديثاً

- مشكلات الأطفال اليومية

للدكتور إسحق رمزى

- التربية الفنية فى فترة المراهقة

للأستاذ سعد الخادم

- الأسلوب الابتكارى

للدكتور حمدى خميس

- اتجاهات فى التربية الفنية

للدكتور محمود البسيونى

- تاريخ الصناعات الشعبية فى مصر

للأستاذ سعد الخادم

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة

اقرأ

كمال بسيوني

الثريّا

دار المعارف بمصر

الثريّا

كمال بسيونى

الثريّا

اقرأ ١٨٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٨٣ – مارس سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

الإهداء

إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين

أستاذى الجليل :

أنت علمتنى وألهمتنى وأوحيت إلىّ .

وأنت أحببتنى وآثرتنى وعطفت علىّ .

فكنتُ لك تلميذاً ، كما كنتُ لك ابناً .

ولكنى أشد تلاميذك تأثراً بك ، وأقرب أبنائك شبهاً لك

فهل تأذن لى فى أن أهدى إليك هذا الكتاب أداء لبعض مالك

علىّ من فضل ، وما لك عندى من يد ؟

كمال بسيونى

١

لا تقلْ إنها جميلة رائعة الجمال ، ولكن قل إنها الجمال يحيا ويتحرك . ولا تقل إنها فاتنة بارعة الفتنة . ولكن قل إنها الفتنة تمشى على قدمين . فأنتَ إذا شهدتها اليوم — حين أقبلتْ مع الغروب تطوف بالبيت — لم تستطع أن تفرق بين الجمال والجميل ، ولا بين الفتنة والفاتن ، وإنما اختلط عليك الأمر اختلاطاً ، ثم اقتنعت بأنك تشهد الجمال والفتنة يطوفان بالبيت ، فيختلبان قلبك ، ويستلبان لبك ، وينسيانك نفسك وما يحيط بك من الناس والأشياء .

قال ابن أبى عتيق يداعب صديقه عمر بن أبى ربيعة حين سمع منه هذا الكلام : أما تسأم هذا اللهو الذى تأخذ فيه منذ أنْ تصبح إلى أن تمسى ، وتأخذ فيه منذ أن تمسى إلى أن يتقدم الليل ؟ ومن يدرى ؟ فلعلك أن تأخذ فيه نائماً كما تأخذ فيه يقظان ، فأكبر الظن أن أحلامك — إذا أظلك النوم بجناحيه — ليستْ إلا لهواً وعبثاً ، كما تلهو وتعبث حين تجتمع لك قواك العاملة كلها

٧

قال عمر : فإنى لا ألهو ولا أعبث ، وإنما أحدثك عن فتاة رأيتُها اليوم فى المسجد الحرام . كان وجه النهار شاحباً ، وكانت الشمس قد أخذت تنحدر إلى مغربها مسرعة ، كأنما كانت تنهزم أمام هذا الليل الذى أقبل فى هدوء وجلال ، كأنه سيل من الظلمة الحالكة يغمر مكة وما يحيط بها من الجبال والآكام . وكنت أنا فى المسجد الحرام فى ذلك الحين ، فأنت تعلم أيها الصديق أن أحب ساعات الدهر إلىّ هذه الساعة ، حين تنتهز النساء فرصة الليل ، فيخرجن للطواف ، هنالك أترصدهن ومنهن من تترصدنى ، وهنالك تبتدئ أحاديثنا الحلوة لتتم بعيداً عن البيت . كنتُ إذن فى المسجد الحرام حين آذنت الشمس بالمغيب ، وأخذت الظلمة تغزو الفضاء ، فما يروعنى إلا هذه الفتاة الأنيقة الرشيقة ذات الوجه النضر والقد المعتدل ، هذه التى أقبلتْ على البيت ساحرة باهرة تحيط بها هالة من الفتنة الفاتنة ، وعلى وجهها ابتسامة حلوة تغشى وجهها بغشاء من الجمال الرائع ليس إلى تصويره من سبيل . فلما رأيتها وقفت مسحوراً مبهوراً لا أعرف ماذا أصنع ولا أدرى كيف أقول ؟ وما أدرى أطال وقوفى على هذا النحو أم قصر ؟ ولكنى أعلم أن الفتاة قد ملكت علىّ نفسى وقلبى ، واستأثرتْ

بعقلى ولبى ، فشغلتنى عن كل شىء وعن كل إنسان . ولقد أذكر أنى قد رأيتُ فتيات كثيرات ، فرضيتُ عنهن ، أو أعجبتُ بهن ، أو فتنت بجمالهن . ولكنى لم أشعر قط بهذا الشعور الذى شعرت به حين رأيتُ هذه الفتاة . فقد شعرتُ بأنى قد وجدتُ شيئاً كنتُ أفتقده ، وكنتُ فى أشد الحاجة إليه . أو قل إنى شعرتُ بأن سعادتى قد كملت ، وقد كانت ناقصة ، ونفسى قد اطمأنتْ ، وقد كانت قلقة . وقلبى قد استقر فى صدرى ، وقد كان ثائراً مضطرباً . هنالك أحسستُ فى قلبى حباً لهذه الفتاة لم أعرف كيف أصفه ولا كيف أسميه ؟ ولكنى كنتُ أجد من نفسى نزاعاً شديداً إلى أن أجلس إليها ، وأقول لها ، وأسمع منها . وقد أتمت الفتاةُ طوافها ، وخرجت من المسجد الحرام ، فلا أحس بنفسى إلا وأنا أسيرُ إلى جوارها وأسألها عن اسمها ، ولكنها لا تجيب . فأحدثها عما أحسه فى قلبى لها من حب ، ولكنها لا تسمع لى إلا بأذن معرضة ولا تلتفت إلىَّ إلا بوجه مشيح . فلما لم أجد سبيلا إلى كلامها قلتُ فى نفسى : اتبعْها ، فلعلك أن تعرف من هى ؟ ومن عسى أن تكون ؟ وقد تبعتها حتى رأيتها تدخل دار عبد الله بن الحارث ابن أمية الأصغر ، فعرفتُ أنها إحدى بناته ، فقد أعلم أن

له بنات أربعا ، كُنَّ منذ أعوام قصار يلعبن مع الصبيَّات أمام المسجد الحرام ، وقد أذكر أنهن على طفولتهن كنَّ مشرقات الوجوه ، باسمات الثغور ، ساحرات العيون ، وكن أسيلات الخدود ، جميلات القدود ، نحيلات الخصور . وكن عِذابَ الأصوات ، مِلاح الألفاظ ، فاتنات الأحاديث . وقد أذكر أيضاً أن أسماءهن : الثريا والرضيا وقريبة وأم عثمان .

قال ابن أبي عتيق : فقد كانت هذه الفتاة هي الثريا إذن ؟

قال عمر : نعم كانت هي الثريا أيها الصديق . وقد عدتُ إلى داري كئيباً محزوناً بعد أن دخلت الفتاةُ دارها ، وأغلقتْ الباب من ورائها . وما أريد أن أخفي عليك شيئاً أيها الصديق ، فقد نازعتني نفسي إلى دخول الدار ، وما أظن إلا أنني لو أرسلتُ نفسي على سجيتها لدخلت ، ولكني لا أجد إلى دخول الدار من سبيل ، وماذا أقول لأهل الدار ؟ وكيف أجيبهم إن سألوني ماذا أريد ؟ وماذا أصنع إذا أعلنتْ إليهم الفتاة أني قد تبعتها . وحاولتُ كلامها ، ولم أتركها حتى انتهتْ إلى الدار ؟ فلم يكن بد أيها الصديق من أن أعود أدراجي وأذهب إلى داري ، وأخلو إلى نفسي ، أو أخلو إلى هذه

الفتاة ، أو أخلو لأستمتع بهذا الجمال الذى رأيته ، وأتصل به ، وأفنى فيه . وقد خلوتُ إلى نفسى . فإذا أنا مازلت أسيراً لهذه الفتاة ، أراها حين أقبلتْ تطوف ، وأراها حين انتهتْ من الطواف وغادرت المسجد ، وأراها وأنا أسيرُ إلى جوارها وأكلمها فلا ترد علىَّ ، ثم أراها وهى تدخل دارها ، وتغلق الباب من ورائها، وتتركنى قائماً واجماً كئيباً محزوناً . نعم ظللتُ أسيراً لهذه الفتاة ، ووجدتُ فى هذا الأسر لذة قوية عنيفة ، وكم وددتُ لو أنى ظللتُ لها أسيراً ، أستمتع بلذة الأسر ، وأنعم بها ، ولا تصرفنى عنها صارفات الحياة .

قال ابن أبى عتيق : ولكن جاريتك الحسناء تدخل عليك مترفقة ، فتنبئك متلطفة : بأنى أستأذن عليك . فتصرفك عن هذه اللذة ، أو تصرف هذه اللذة عنك . فأنت إذن كارهٌ مقدمى ، ساخط على زيارتى ، لأنى قطعتُ عليك لذتك ، وقد كنتَ تريد أن تتصل ، وأن تمضى فيها إلى غير حد .

قال عمر : وكيف أكره مقدمك وأسخط على زيارتك ؟ وأنت أصدق الناس لى وداً فى السر والجهر ، وأحسن الناس عندي بلاء فى الشدة واللين . ومن يدرى ؟ فلعل القدر أن يكون قد ساقك إلىَّ الليلة ، لأفضى إليك بأمرى ، وأستعين

بك على هذا الحب الذى أعرف أوّلهُ ولا أعرف آخره ، ولا أدرى أسعيد أنا به أم شقّى ؟

قال ابن أبى عتيق : فما رأيك فى أنك لا تعرف الحب ولا تفهمه ، وقد سمعتُ منك هذا الحديث الطويل العريض على أنه لون من ألوان المزاح ، وضرب من ضروب العبث .

قال عمر : برئتُ إليك من المزاح ، وبرئْتُ إليك من العبث ، إنما أعرض عليك دخيلة نفسى ، ولو استطعتُ أن أخرج قلبى من بين جنبىَّ لتنظر فيه ، لما رأيت فى صفحة من صفحاته مزاحاً ولا عبثاً ، إنما هو الجد كل الجد ، والحب كل الحب لهذه الفتاة التى تسمى الثريا .

قال ابن أبى عتيق : ألم يتعبك هذا الحديث الذى لا ينقطع وهذا الهراء الذى لا ينقضى ؟ أتراك كنتَ مع إبليس قبل أن أقدم عليك ؟ فأكبر الظن أنه هو شيطانك الذى يطلق لسانك بهذا الهذيان .

قال عمر : ثم تزعم بعد ذلك أنى أمزح وألهو ، وأنت المغرق فى المزاح واللهو . فأنا قبل كل شىء لا ألغَى ولا أهذِى ، وإنما أتحدث إليك بالجد كل الجد ، فأنا أحب الثريا حباً لا حد له . وأنا بعد ذلك لا عمل لى إلا هذا الحب . وهل

نستطيع أن نشاركك فى الحياة العملية ، وقد استأثر بها بنو أمية من دوننا ؟ فلننصرف إلى الحب وما يستتبعه من لذة أو ألم ومن سعادة أو شقاء .

قال ابن أبى عتيق : ولكن الحب شىء ، وهذا العبث الذى تخوض فيه شىء آخر .

قال عمر : فإنى قلتُ لك : إنى أحب الثريا ، لا ألهو ولا أعبث وإنما أفضى إليك بذات نفسى ، ولا ألتوى عنك بما أجد فى أعماق الضمير .

قال ابن أبى عتيق : ولكنى لا أعرف عنك إلا اللهو والعبث .

قال عمر : فاعلم عنى منذ اليوم أنى أحب ، وأحب الثريا وأريد أن أصل إليها ، فأشرْ علىَّ .

قال ابن أبى عتيق — بعد أن فكّر غير طويل — : فأنت تستطيع أن تصل إليها عن طريق زوج أبيها أم نوفل .

قال عمر — وقد كاد يطير من الفرح — نعم عن طريق أم نوفل .

٢

وكانت أم نوفل هذه فتاة حلوة رشيقة ، معتدلة القد ، خفيفة الحركة ، كثيرتها ، منطلقة اللسان ، عذبة اللفظ ، حرة فيه ، لا تكاد تصمتُ . ولا تكاد تتكلم إلا بأبعد الكلام عن الجد والحزم . وكان كل شيء فيها يعطى عنها صورة صادقة للفتاة النزقة اللعوب ، التى لا تفهم الحياة إلا على أنها فصل من فصول اللهو ، وضرب من ضروب العبث ، وفن من فنون المجون ، والتى تريد أن تلهو ما استطاعت إلى اللهو سبيلا ، وأن تأخذ من الفكاهة والدعابة بأعظم حظ يمكن أن تأخذ به فتاة . وقد رأى شباب قريش منها هذا كله ، ففتنوا بها أشد الفتنة ، واتخذوا اسمها رمزاً للشباب القوى والجمال الفتىّ والخفة المدهشة . ولعل غير واحد منهم فكر فى أن يتخذها له زوجاً ، ولكن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر يتقدم إليها بعد أن ماتت زوجه ، وتركت له بناته الأربع . وتصبح أم نوفل زوجاً لعبد الله ، تؤنس وحدته ، وتدبر بيته ، وتربى بناته ، وترزقه الولد أيضاً . ولكن عبد الله وهو رجل غنى نستطيع أن نقول :

إنه فاحش الثروة ، ينصرف إلى ثروته ، يدبرها ويثمرها ، وإلى حياته المالية يعكف عليها حتى تنسيه كل شيء . تنسيه زوجه فلا يلتفت إليها ولا يحفل بها ، وهو مع ذلك يحبها ، ويحب بناته ، ويريد لهن حياة سعيدة لا يشوبها شر ولا سوء . فهو يبيح لهن من أسباب النعيم شيئاً كثيراً . وقد أسكنهن داراً فخمة في مكة ، وبنى لهن قصراً عظيماً في الطائف ، كُنَّ يَصِفْن فيه . وأطلق أيديهن في المال يأخذن منه حاجتهن، وفوق حاجتهن ، لأنه يريد أن يستمتعن بهذه الثروة الضخمة حقًّا . وتعيش أم نوفل مع بنات زوجها عيشة الترف ، وتقضى الحياة في لهو ونعيم ، وتقوم من بنات زوجها مقام الأم ، تحنو عليهن ، وتؤثرهن من المحبة والبر ، ومن المودة والعطف ، ومن الحنان والرفق ، بكل هذه الكنوز التي لا تفنى ، والتي تحتويها قلوب النساء . فإذا بلغن أشدهن قامت منهن مقام الصديق أيضاً ، فعبثت معهن ، ومزحت ، وبادلتهن أخف الألفاظ وأشدها إيغالاً في المجون ، وشاركتهن في أحاديث أنفسهن ونجوى ضمائرهن . وتلقت أسرار لهوهن ، فنصحت لهن فيها وأعانتهن عليها . وهن يرون منها هذا كله فيبادلنها الود والحديث والثقة والأسرار . ويستعنَّ بها على ما قد

تضيق به صدورهن من الخواطر والهموم ، وعلى ما تفيض به نفوسهن أحياناً من ألوان الغبطة والابتهاج . ولكن أم نوفل وإن انتهت إليها مقاليد الثراء ، واجتمعت لها أسباب النعيم ، لم تكن سعيدة ، فقد كانت تشعر بأن فى الحياة شيئاً آخر غير الطعام والشراب والنوم والزينة . وليست الحياة مقصورة على هذا الجزء الحيوانى الذى رفهته الحضارة بألوان الترف . كان لها فى الحياة مثل أعلى ، يخالف كل المخالفة ما هى فيه من طعام وشراب ونوم وعناية بالأعمال اليومية . فليست الحياة مقصورة على الجسم وما يتصل به من الغرائز ، وإنما هى تتناول القلب وما له من شعور وعاطفة . كانت تريد أن تحب ، وأن تجد من يحبها . ولم يُتح لها هذا الحب ، لأن زوجها كان منصرفاً عنها إلى أعماله المادية ، ولأنه كان لا يستطيع أن يتصور الحب كما تتصوره . هذا هو مثلها الأعلى ، وهى تفكر دائماً فى مثلها الأعلى ، وتشعر دائماً بحاجتها إليه ، وبأنه لم يُتح لها . وزوجها لا يحس منها هذا الشقاء ، ولو أحسه لما فهمه . وقد ظلت أم نوفل تشقى بهذا الشعور . وتنتظر الفرصة التى تتيح لها أن تلقى الفتى الذى تحبه ويحبها . وقد كانت مع ذلك تشعر شعوراً خفياً بأن هذه الفرصة لن تتاح لها إلا إذا أقبل موسم

الحج ، وامتلأت مكة بالطوائف المختلفة من الناس . هنالك يتاح لها أن تختلط بالشباب ، فتنظر إليهم وينظروا إليها ، وهنالك يمكن أن تتصل الأسباب بينها وبين الفتى الذى تتفق أهواؤه وأهواؤها ، وتلتقى نظرته للحياة ونظرتها . ويظهر أن أم نوفل كانت صادقة فى هذا الشعور . فقد أقبلت ذات موسم مع المساء إلى المسجد الحرام ، فرأت طوائف مختلفة ، وطبقات متباينة من الناس ، فأخذت تسعى بينهم ، وتنظر إليهم ، وتسمع لأحاديثهم ، ولكن من هذا الفتى الوسيم القسيم ذو الوجه المشرق والثغر الباسم والنفس الوديعة والحاشية الرقيقة ، هذا الذى قد أحاطت به النساء من كل وجه ، وأخذنه من كل نحو . وهو قائم باسم يطوف بالبيت فى نشاط وخفة ، وفى تأنق وظرف . يكلم هذه ويبسم لتلك ، ويداعب كل من يراها على كل حال ؟ إنه عمر بن أبى ربيعة ، وإن النساء لمفتونات به ، متهالكات عليه ، وإنهن ليتحدثن عن جماله وخفته وعن لطفه وظرفه ، منهن من تجهر له بذلك فيبتهج ، ومنهن من تسر ذلك وتذكر لصاحبتها أنها تشتهيه ، وتود لو استمتعت بلذات الحياة معه ، ولكنها تخشى أن يفضحها فى شعره . فكثيراً ما وصف الفتى خلواته مع النساء ، وسقط هذا الوصف

فى أيدى المغنين ، فإذا هو مصدر للهو والطرب لهذه الأروستقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار . فتنظر أم نوفل إلى هذا كله . وتحس من نفسها ميلا إلى هذا الفتى وكلفاً به ، وإذا هى تنظر فترى نفسها تدنو منه وتنظر إليه نظرات فيها الرغبة ، وفيها الإعجاب ، وفيها الحب أيضاً . فما هى إلا أن يحدثها الفتى ، فتتلطف له وتتحدث إليه فى دعابة ورفق. ولكن نساء أخر قد أقبلن فدنون من الفتى ونظرن إليه ، فحدثهن الفتى أيضاً . ولذيذ جداً منظر الفتى بين هؤلاء النساء ، فكل واحدة منهن تريد أن تخلو إليه ، وكل واحدة منهن تتحرق شوقاً إلى هذه الخلوة ، وكل واحدة منهن تسعى جاهدة إلى أن تصرف الأخريات ليتم لها ما تريد ، والفتى بينهن يخدع هذه ليغازل تلك ، ويخدع تلك ليغازل هذه . وكل واحدة منهن تشعر مرة وتنخدع أخرى ولكنها لا تبرح مكانها ، وكأنها تستكثر على نفسها أن تترك الفتى لغيرها وتولى منهزمة . حتى إذا شعرت أم نوفل بأن الساعة متأخرة انصرفت . ولكنها تنصرف الليلة لتعود مع المساء إذا كان الغد . ويكثر اختلافها إلى المسجد وتوددها للفتى وترددها عليه ، وإذا هى تحبه وإذا هو يحبها ، وإذا هما سعيدان بهذا

الحب ، ولكن سعادتهما مختلفة ، فأما الفتى فسعيد على نحو ما يسعد الشبان العابثون الذين لا يفكرون فى الغد ولا يحسبون للمستقبل حساباً ، وإنما يندفعون فى لذتهم وسعادتهم إلى غير حد ، وهو مغتبط بهذا الحب ؛ لأنه قد أضاف صاحبة جديدة إلى صاحباته اللائى يزدن كل يوم ، ولعله ألا يعرف لهن عدداً . وأما هى فسعيدة ولكن مع شىء غير قليل من الحزن والإشفاق ، فهى سعيدة لأنها تحب الفتى ، ولأنها قد وجدت ما يزيل هذا الشقاء الذى كانت تشعر به منذ حين ، ولأنها ترى نفسها تتفتح للحب واللذة كما تتفتح الزهرة للضوء والندى . ولكنها مع ذلك محزونة مشفقة ؛ لأنها تعرف الفتى وسوء سيرته مع الفتيات ، ولأنها لا تعرف ماذا يضمر المستقبل لحبهما ، وعن أى نكبة سيتكشف لهما الغد . على أن هذا الحزن وهذا الإشفاق يزيدان فى حرصها على السعادة والغبطة ، ويحملانها على أن تتزيد منهما ما استطاعت ، فهى تسبق إلى كل وقت ملائم ، وتنتهز كل فرصة سانحة ، لتأخذ بحظها المقدور لها مع صاحبها من اللذة والمتاع . ولكنها تخلو إليه ذات يوم فيتحدثان فى الحب وآثاره ، وفيما يجد كل منهما من الوحشة لفراق صاحبه ، فإذا هى تحس بأن حب صاحبها قد تغير

وأصابه شيء من الفتور ، فليس هو ذلك الفتى المفتون المدله الذى كانت تراه قبل ذلك ، وإنما هو فتى آخر هادئ مطمئن ، يتكلف الافتتان والهيام . أما هى فبعيد حبها كل البعد عن الهدوء والفتور ، وإنما هو يتلظى ويضطرم ، وهى تجتهد الاجتهاد كله فى تخفيفه وتلطيفه . وقد طلبت إلى صاحبها أن يلقاها مع المساء ، فيعتذر لأنه لا يستطيع . فهو مضطر إلى لقاء صديقه ابن أبى عتيق فى أمر لا يمكن إرجاؤه . ثم ينصرف الفتى وإنها لتألم أشد الألم لما رأت من تغيره وفتور حبه . ولكن الفتى ينصرف عنها انصرافاً تاماً إلى غيرها من الفاتنات الحسان ، فهو يتنقل بينهن كما تتنقل النحلة بين الألوان المختلفة من الزهر . وهى تتأذى بهذا الهيام فى ذات نفسها ، ولكنها تعتذر مع ذلك عن الفتى ، فالفتى شاب قوى الشباب ، غنى موفور الغنى ، جميل بارع الجمال . والفتى بعد هذا كله لا يعمل شيئاً ، أو لا يكاد يعمل شيئاً ، وما يصدر عنه من الحركة والنشاط ليس بذى غناء ، وليس أفسد للشباب الغنى الجميل من هذا الفراغ الذى يملأ حياته ، إن صح أن يملأ الفراغ شيئاً . والفتى آخر الأمر قوى الحس حاد الشعور لا يستطيع أن يقاوم الفتيات الجميلات حين يخلبنه

باللفظ واللحظ ، ويسعد نه بالقرب والوصل . وقد طال انصراف الفتى عنها حتى استيأست منه ، ولكن ماذا ؟ هذه جارية حسناء من جواريه تقبل عليها ذات يوم مع الضحى ، فتخبرها بأن سيدها يرغب فى لقائها فى المسجد الحرام إذا كان المساء . ويقع منها هذا النبأ موقع الدهش الحائر ، فماذا حدث من الأحداث؟ وماذا جد من الأمور ؟ وما سؤاله عنها بعد نسيانه لها ؟ وما رغبته فى لقائها بعد هذا الإغضاء الطويل ؟ أيمكن أن يكون الفتى قد حن لها ، أو عاوده الشوق إليها ؟ . وتذهب إليه فترى وما أجمل ما ترى ، وتسمع وما أعذب ما تسمع ، ترى افتتاناً وهياماً ، وتسمع ثناء وإطراء . وكل هذا يملأ قلبها راحة وأمناً وهدوءاً ، ويملأ نفسها طمأنينة ودعة واستقرارا . ولكنها لا تكاد تنصرف عن الفتى ، وتخلو إلى نفسها ، حتى تفكر فيما رأت وفيما سمعت ، وحتى تحاول أن تتبين أصله وترده إلى علته وتجد له تفسيراً أو تأويلا .

٣

وقد فكرت أم نوفل ، وما كانت فى حاجة إلى التفكير ، وقد جاء ذكر الثريا عرضاً فى الحديث بينها وبين عمر ، فإذا هو يعلن إليها أنه قد رآها بالأمس حين خرجت للطواف ، وأنه لم يعرفها حين رآها ، فتبعها حتى انتهت إلى الدار ، فعرف أنها الثريا . وتتبين أم نوفل من عمر عاطفة قوية نحو الثريا ، وتحس أن علاقته الجديدة بها ليست إلا وسيلة فى حقيقة الأمر إلى هذه الفتاة الجميلة الفاتنة ، ذات الوجه النضر والجسم الغض والصوت العذب . وآية ذلك أنه قد طلب إليها أن تحضر معها الثريا إذا كان المساء من الغد ، وتلقاه فى المسجد الحرام ، وهو سينتظرهما معاً إلى جوار البيت . وليس من شك فى أن هذا كله قد وقع منها موقعاً أليماً ، ولكنها كانت تحب الفتى وتحرص على سعادته ، فلما أحست حبه للثريا لم ترد أن تجاهد ولا أن تثقل عليه ، وإنما أرادت أن تترك له الذكرى جميلة نضرة ، لأنها تحبه حقًّا . ثم هى لا تكتفى بذلك ، وإنما تمهد سبيل اللقاء بين الفتى والفتاة ، وتضحى بنفسها فى سبيل

هذا الفتى الذى تحبه ، والذى يسعدها ويملأ قلبها غبطة أن تراه سعيداً مغتبطاً ولو مع غيرها من الفتيات . وليس من شك فى أن كلا منهما لم ينم من ليلته هذه ، فأما أم نوفل فقد كانت تفكر فى الفتى كيف أحبها ، ثم انصرف عنها ، ثم عاد إليها ليتخذها وسيلة للغرض الذى يقصد إليه ، وطريقاً للغاية التى يريد أن يبلغها ، وهى مع ذلك لا تجزع ولا تشكو ، وإنما ترتسم على ثغرها ابتسامة حلوة مُرَّة ، تصور الرضا أكثر مما تصور الغيظ . ثم كانت تفكر فى نفسها كيف أحبت الفتى وسعدت بحبه ، ثم أخذت هذه السعادة تكدر شيئاً فشيئاً ، ويمازجها البؤس قليلا قليلا ، ثم أخذت تضؤل وتهون وتمحى حتى صارت حياتها كلها ألماً وشقاء . ثم يقدر لها بعد ذلك أن ترى السعادة ، ولكن كما يرى الظمآن السراب ، يحسبه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد عنده الحزن واليأس وخيبة الأمل وكذب الرجاء . ثم كانت تفكر فى الثريا وما عسى أن تذوق مع الفتى من لذة الحياة ونعيمها ؟ وهل ذاقت هى من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التى جنتها مع الفتى فى أيامها السالفة ؟ وكانت تتمثل الثريا وهى تقبل على عمر ، فيلقاها بوجهه المشرق وثغره الباسم وينظر إليها بعينيه

القويتين الحادتين ، ويتحدث إليها بصوته العذب الممتلىء الذى تشيع فيه القوة وتفيض منه الحرارة ، والذى يحمل إلى قلبها ألفاظه الحلوة الرائقة الشائقة ، وإذا هى تفهم منه مالم تكن تفهم ، وتعلم منه ما لم تكن تعلم، وتحس منه مالم تكن تحس، وإذا هو يثير فى نفسها عواطف لم تكن تعرفها ولم يكن لها بها عهد . وإذا هى تسرع إلى هاتين الذراعين اللتين يمدهما لها الفتى غير مُحْتفلة بالعاقبة ولا مقدرة لما عسى أن يكون . كانت أم نوفل تفكر فى هذا كله . ولكن عمر كان يفكر فى شىء واحد ، كان يفكر فى الثريا ، ويقدر ما عسى أن يظفر به من السعادة حين يتاح له أن يلقاها ويسمع منها ويتحدث إليها ، وكان يستقبل ساعات الليل والنهار متهيئاً للنعيم ، متعجلا حركة الفلك مشفقاً مع ذلك من طارئ يطرأ أو حادث يلم .

ويشرق النهار ويرتفع الضحى وتقبل أم نوفل على الثريا فتدعوها إلى الطواف معها إذا كان المساء . ولكن الثريا تأبى عليها ذلك ، وتعلن إليها أنها ضيقة الصدر بالخروج إلى المسجد الحرام . فإذا سألتها أم نوفل عن ذلك ، أخبرتها بأنها كانت قد خرجت للطواف أول من أمس ، فلقيها إلى جوار البيت

هذا الفتى الفاسق المسمى عمر بن أبى ربيعة ، فانتظرها حتى إذا انتهت من طوافها وخرجت ، خرج وراءها ، وأخذ يتحدث إليها أحاديثه الغاوية التى يتحدث بها إلى النساء ، والتى كانت قد سمعت عنها ولكنها لم تسمعها من قبل . وأم نوفل تضحك لهذا الحديث ، وتعلن إليها أن ما حدث من ابن أبى ربيعة خليق أن يشجعها على الخروج لا أن يثبطها عنه ؛ فالمرأة التى ترضى عن نفسها حقاً ، وتطمئن إلى قوتها حقاً ، هى التى تبلو خصمها وتلقى عدوها فى أى ميدان أراد ، فإذا كان بينه وبينها هذا النضال العنيف الذى يكون بين الرجل والمرأة عادة ، لم تضعف له ، ولم تشفق منه ، وإنما ثبتت له ثباتاً ، وامتنعت عليه امتناعاً ، ولم تمكنه من أن يقهرها ، ويغلبها على أمرها ، وينتصر عليها ، ويظفر منها بما يريد . وإنما اضطرته إلى أن يخضع ويذعن ويستسلم ، ويعترف بعجزه عن أن يبلغ منها ما بلغ من أمثالها ، وهكذا تنتهى به إلى يأس مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه . وقد يحلو لها أن تعلقه بين اليأس والأمل ، فتبتسم له ابتساماً مُطْمِعاً مغرياً ، وتحتشم أمامه احتشاماً موئساً مهلكاً ، وهى فى هذا الإطماع والامتناع تعذبه عذاباً فظيعاً منكراً ، فهى تدنيه وتقصيه ، وهى تغويه

وتضنيه ، وهى تريه الغاية قريبة بعيدة ، والطريق قصيرة طويلة ، وهى لا تتركه آخر الأمر إلا كاسف البال وإن أظهر الرضى وأظهر الابتهاج . تقول أم نوفل للثريا هذا كله وتؤكد لها أن المرأة لا تغلب إلا إذا أحبت ، ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تذعن إلا إذا رغبت فى الإذعان . ثم تضطرها إلى الخروج معها إلى المسجد الحرام ، وتزين لها لقاء الفتى هذا الذى يريد أن يقهرها ولا بد أن تقهره ، ويريد أن يبسط سلطانه عليها ولا بد أن تبسط سلطانها عليه . فإذا وصلتا إلى المسجد الحرام كانت الثريا تتأهب لنضال عنيف بينها وبين عمر بن أبى ربيعة ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تفكر فى هذا الفتى الماجن العابث الذى يتصدى لكل فتاة ، ويجرى وراء كل فتاة ، ويريد أن يغرى كل فتاة . لقد رأته فرأت فتى جميلا حقاً ، وسمعت حديثه فسمعت حديثاً عذباً حقاً ، ولكن هذا لا يمنع الفتيات من أن يتقين فتنته ، ويقاومن سحره ، ولا يقعن فى شركه . وإذا لم تستطع فتاة من الفتيات أن تستعصى عليه ، فسوف تستعصى هى عليه ، وتلقنه درساً لا ينساه ، وهو أن من الفتيات الصغيرات الساذجات من يستطعن الثبات له والامتناع عليه ، والارتفاع عما يفتن فيه من ضروب الإغراء

والإغواء . ولا تكاد الثريا وأم نوفل تتقدمان نحو البيت حتى
تريا عمر بن أبى ربيعة قائماً باسماً إلى جواره ، يحدق النظر
فى وجوه النساء ، ويفصل النظر إلى أجسامهن ، كأنه يمتحن
متاعاً يريد أن يشتريه . فأما أم نوفل فتبدى شيئاً من الأعجاب
بعمر وجماله وظرفه . وأما الثريا فتسخر من عمر وجماله وظرفه .
وتقول : إنها لا ترى إلا فتى قرشياً كسائر فتيان قريش . وهى
لا ترضى عن وقوفه وترصده للنساء اللائى أقبلن للطواف ، وهى
ضيقة أشد الضيق بنظراته الطوال هذه التى تجرد المرأة من
ثيابها تجريداً . ولكن عمر قد رآهما فتقدم إليهما فحياهما
بابتسامة حلوة ونظرة يملؤها الظرف . فتنكر الثريا على عمر
هذه التحية فى ألفاظ لا تبرأ من قسوة ولا تخلو من جفاء ،
حتى لتضطر أم نوفل إلى التدخل فى الأمر وإرضاء عمر .
ولكن أم نوفل تترك الثريا وتتحدث إلى عمر حديثاً طويلا لم
تعرف عنه الثريا شيئاً ، ولكنه دفعها إلى شىء من التفكير
عميق . فما هذا الحديث؟ وما الصلة بين أم نوفل وهذا الفتى ؟
وألا يمكن أن تكون أم نوفل هى التى جاءت بها إليه ؟ وإلا
ففيم إلحاح أم نوفل عليها فى الخروج للطواف ؟ وإن الثريا
لتفكر فى هذا كله . وإذا أم نوفل تقبل عليها فتزعم لها أنها

كانت تعتذر للفتى عما كان منها إليه ، وتتحدث إليها فى أن الامتناع على الرجال لا يكون بالإساءة إليهم ، فقد تستطيع الفتاة أن تفهم الفتى فى أدب ورفق وبشىء من النقاء والصراحة فى موقفها أن أية محاولة يحاولها مخالفة للذوق وغير مجدية عليه ، وليس من العسير على المرأة أن تحمل الرجل على تغيير موقفه منها ، فهى قادرة على أن تخجله وتجعله هزأة بابتسامة تَبْسِمها .

وتحاول أم نوفل أن تأخذ الثريا وتذهب إلى عمر لتعتذر إليه ، ولكن الثريا تأبى عليها ذلك . وتبدى احتقارها للفتى وازدراءها له ، وتعلن أن ما قالته للفتى إنما هو أقل ما ينبغى أن يقال له . فتلح أم نوفل عليها فى الاعتذار للفتى ، لأنها قد أساءت إليه فى حين أنه لم يسىء إليها ، وتذعن الثريا آخر الأمر وتذهب إلى الفتى فتعتذر إليه . ولكن أم نوفل لا تنصرف عن المسجد الحرام إلا وقد أحستْ أن الفتاة تميل إلى الفتى ، ولكنها تخفى هذا الميل . وإذن فلم يمكن سخطها عليه وتبرمها به فى كل ما سلف إلا مظهراً من مظاهر الحب .

٤

وفى نفوس النساء فساد كثير وشر عظيم تخفيه صروف الحياة وخطوبها ، وتظهره محن الحياة وتجاربها ، فلعل مجون عمر بن أبى ربيعة قد جعله فتنة للثريا كما جعله فتنة للنساء من قريش ، ولعل الثريا كانت تحسد النساء اللائى بينهن وبين عمر صلة على عبثه معهن ، وتراهن قد استأثرن من دونها بخير كانت تطمع فيه وتطمح إليه . ولعل الثريا حين كانت تنكر على عمر لهوه وعبثه كانت تنكرهما عليه مع غيرها ، وتتحرق فى الوقت نفسه شوقاً إليهما . ونفوس النساء ألغاز مشكلة معضلة تعجز عن حلها أقوى العقول وأفطن الفطن . فلعل احتقار الثريا لعمر وازدراءها له أن يكونا لوناً من ألوان الثناء والإطراء ، وضرباً من ضروب الفتنة والإعجاب . وآية ذلك أن الثريا لم تنم من ليلتها هذه ، وإنما أخذت تفكر فى عمر هذا الفتى العابث الماجن الذى أحبته مع عبثه ومجونه ، بل أحبته من أجل عبثه ومجونه ، وما تدرى كيف تعلل هذا الحب أو كيف تفهمه ؟ فقد كانت تظن أنها تبغض الفتى أشد البغض ، فإذا

هى كلفة به مشوقة إليه حريصة أشد الحرص على أن تكون من صاحباته ، بل على أن تكون صاحبته الوحيدة . وقد كانت تظن أنها تنفر من مجون الفتى وعبثه ، وما كان أحب إليها مع ذلك أن تنعم بهذا المجون والعبث ، وأن تستمتع بهما حتى آخر الدهر . وقد كانت تقدر أنها ستثبت للفتى وتمتنع عليه ، فإذا هى تتورط فى الفتنة به ، وإذا هى تبذل كل ما تملك من قوة لتدافع عن نفسها ، ولتتخلص من هذا الحب الطارئ ، ولكنها لا تفلح فى هذا الدفاع ، لأن خصمها قوى عنيد ، ولأن هذا الخصم ليس عمر ، وإنما هو نفسها ، فهى تحب عمر ولا تستطيع أن تخفى عنه هذا الحب مهما تفعل ومهما تحاول . ولكن الأمر ليس أمرها هى ، وإنما الأمر هو أمر هذا الفتى الذى أحبته ، إنه الفتى الأول والأخير فى نفسها ، وما أكثر الفتيات فى نفسه . فهو بالقياس إليها كل شىء ، وليست هى بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره ، وعرف هو غيرها كثيرات . ولم تذق هى لذة الحياة قط ، وما أكثر ما ذاق من ألوان اللذات ، وما بلى من صنوف النعيم . فهل يمكن بعد هذا كله أن يكون قد أحبها ؟ كلا . إن الفتى لصائد لاهم له إلا احتبال الفتيات واختلاب النساء . يغرى الواحدة منهن

بألفاظه الحلوة وأحاديثه المعسولة ، حتى إذا بلغ منها ما يزهده فيها ، انصرف عنها ، والتمس لذته وهواه حيث استطاع ، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب ينفق فيه الوقت ، ولهو يستعان به على احتمال الحياة . وهل يمكن لمثل هذا الفتى أن يعرف الحب ؟ كلا . هو إذن يريد اللهو والعبث ، وهو خليق أن يتعلم الحب . ويتعلم الحب على يد الثريا هذه التي تحبه ، والتي يسعدها ويملأ قلبها بهجة أن تراه يحبها . وأي شيء أيسر عليها من أن تعلمه الحب ؟ يكفي أن يقبل عليها يلتمس عندها ألوان اللذات ، فتقبل عليه حفية به متلطفة له ، وتختلس إليه بين وقت ووقت نظرة غامضة لا يفهم منها شيئاً . وتتحدث إليه مع ذلك أحاديث ملتوية تترك في نفسه وأمام عقله ألغازاً وأسراراً لا يستطيع أن ينفذ إلى أعماقها ، وإذا هو عاجز عن فهمها ، يتقاضاها شيئاً من الوضوح والجلاء ، فتأبى عليه إلا هذا الغموض الذي يؤذيه ويضنيه ويؤرق عليه ليله وينغص عليه نهاره . وإذا هو مفكر فيها إذا أصبح ، ومفكر فيها إذا أمسى ، ومفكر فيها بين ذلك ، حتى ليلتمس الفرار منها فلا يظفر به إلا في جهد أي جهد وعناء أي عناء ، وحتى لينكر نفسه وينكر من حوله من الناس والأشياء وينكره

من حوله حين يطول عليهم ما هو مغرق فيه من الوجوم والذهول . وهكذا دبرت الثريا أمرها ، واستعدت للقاء الفتى . ولم يقبل المساء من الغد حتى كانت معه فى المسجد الحرام ، وإذا الفتى يعلن إليها حبه ، وإذا هى تنفر من هذا الحب وتأباه ، وإذا الفتى يلح عليها فيه . وإذا هو ينبئها بأنها تحبه أيضاً . تنكر وتأبى ، ولكن إلحاحها فى الإنكار ، وإصرارها على الإباء ، لا يزيدان حبها إلا وضوحاً ، ولا يزيدان ميلها إلى الإذعان إلا ظهوراً ، ما أسرع ما تتغلب إرادة الفتى ، وما أسرع ما ينتصر الحب ، فإذا الفتاة مذعنة ، وإذا هى معترفة بالحب ، وإذا هى قابلة لكل ما يطلب إليها صاحبها . وماذا يطلب إليها صاحبها إلا أن يتما حديثهما بعيداً عن البيت ، فى مكان منعزل من الصحراء من شرقى مكة أو غربيها ؟

ويخاو الفتى إلى الفتاة لا يراهما إلا هذا القمر الذى قام فى مكانه من السماء ، يرسل أشعته المطمئنة إلى الأرض فى أناة وريث ، ويبسط ضوءه الهادئ النقى على الفلاة فيغشيها برداء رقيق من النور ، وإلا هذه النجوم التى تألقت فى السماء كأنها المصابيح ، وانطلقت فى طريقها مسرعة كأنها تستبق . وتتلطف الفتاة بالفتى وتحتفى به فى شيء من الغموض لا عهد

له به . وتمد إليه بين الحين والحين نظرة غامضة يحبها ولا يفهم منها شيئاً ، وتتحدث إليه أحاديث غريبة تنقله إلى عالم آخر غير هذا العالم الذى يعيش فيه . وينصرف الفتى عن الفتاة ، وإنه لموقن بأنه لم يكن مع فتاة من الفتيات اللائى يعرفهن من قبل ، وإنما كان مع فتاة أخرى غريبة ، لها قوة هائلة تتسلط بها عليه ، وفيها مع ذلك شىء من الكبرياء يجعلها تزدريه فلا تلقاه بنفس مشرقة مسفرة ، وإنما تسير معه سيرة غامضة ، وتتحدث إليه أحاديث ملتوية . ويتكرر اللقاء بين الفتى والفتاة وتكثر الخلوة بينه وبينها . ولكن ماذا ؟ إنه ليخلو إلى نفسه الساعات الطوال فيفكر ويمعن فى التفكير ، ويقدر ويغرق فى التقدير ، ويروى ويلح فى التروية ، ومع ذلك فما كان من دأبه التفكير ، ولا كان من طبعه التقدير ، ولا كان من خلقه التروية . وقد كان يلقى النساء ويجلس إليهن ويتحدث معهن ، ويلهو بما يرى منهن وما يسمع من حديثهن ، لا يتكلف تأويل ما يرى وما يسمع ، ولا يلتمس له تحليلا أو تعليلا . ولكنه منذ أن عرف الثريا وأحبها هذا الحب ، وهو لا يرى منها شيئاً ولا يسمع منها حديثاً إلا عُنى بتفسيره وتأويله ، فإذا وصل من ذلك إلى ما يريد رضى واطمأن . وإذا عجز عن

التعليل والتأويل سخط واضطرب . وهو على كل حال يعجب من نفسه ويسخر منها ويرثى لها لهذا المرض الجديد الذى أصابها والذى لا يجد منه برءاً ، مرض التماس العلة لكل ما يصدر عن الثريا من قول أو عمل والانتهاء فيه إلى المصادر والغايات . وليس من شك فى أن الثريا هى التى دفعت عمر إلى هذا النحو من التفكير ، ودفعته إليه بهذا الغموض الذى كانت تثيره حولها ، فإذا هو يسأل نفسه : ما عسى أن تكون هذه الفتاة التى لا أملك من أمرها شيئاً ، والتى تملك من أمرى كل شىء ؟ وأى شىء فيها يغرينى بها ويدفعنى إليها ويحببها إلىّ ؟ وهل هى تحبنى كما أحبها هذا الحب القوى العنيف الذى لا أعرف له حدًّا ولا أمداً ؟ وإذا كانت تحبنى فما هذه الكبرياء البغيضة التى أحسها منها ، والتى هى مزاج من الرثاء لى والقسوة علىّ ؟ وما لها تسير معى هذه السيرة الغامضة . ولا تتلقانى بنفس مشرقة مسفرة ؟ أتراها تزدرينى كما تزدرى فتيان قريش هؤلاء الذين حيل بينهم وبين الاشتراك فى الحياة السياسية العامة ، فانصرفوا إلى اللهو واللعب ؟ وإذن فمن ذلك الفتى الذى تنظر إليه ، وتداعب الأحلام حين تنظر إليه ، وتفكر فيه فتطيل التفكير ؟ وهنا كان الدم يغلى فى عروق

عمر ، ويصعد اللهب فى وجهه ، وتقدح عيناه بشىء كأنه الشرر . فينهض واقفاً وقد جاشت فى نفسه عواطف ثائرة مختلطة ، واضطربت فى رأسه خواطر قاتمة مظلمة . ولكنه لا يلبث أن يتمثل الثريا فى ساعة من ساعات اللهو ولحظة من لحظات الحنان ، وهى تقبل عليه بوجهها المشرق وثغرها الباسم ونفسها الراضية ، فتمنحه ابتساماتها الحلوة ، وتهدى إليه نظراتها الرفيقة ، وتسوق إليه دعاباتها الظريفة . هنالك كانت تهدأ نفسه ، ويستقر قلبه ، ويرتاح ضميره ، وإذا هو نادم على ما قدم من سوء الظن بهذه التى لا ينبغى أن تساء بها الظنون .

٥

ولكن أمر عمر يشق على الناس جميعاً ، فصاحباته ينكرن انقطاعه عنهن ، وأصدقاؤه ينكرن منه هذا الهدوء الذى لا عهد لهم به ، وهذا التفكير الذى اتصل حتى أصبح عادة له . والناس يتحدثون بأن ابن أبى ربيعة قد نسك . وما نسك ابن أبى ربيعة ، ولكنه قد أحب ، وأحب الثريا هذه الفتاة التى شغلته عن كل شىء وعن كل إنسان ، فأصبح لا يفكر إلا فيها ، ولا يسعى إلا لها ، ولا يحرص إلا عليها . ولكنهم يسمعون المغنين يتغنون له شعراً يذكر فيه الثريا ، وإذا هذا الشعر يكثر ويكثر ، وإذا هم يقولون : عاد الفاسق إلى لهوه وعبثه . ولكن الفاسق لم يعد إلى لهوه وعبثه ، وإنما أحب حقًّا وتغنى حبه الصادق فى هذا الشعر العذب المؤثر الذى يسمعونه فيلهون به ، ولا يحاولون أن يستكشفوا ما فيه من المعانى والمرامى والأغراض. ولكن هذا الشعر يتصل ويتصل ولا يذكر إلا الثريا ، وإذا هم يقولون : أصبح عمر بن أبى ربيعة صاحباً للثريا ، لا يتحدث إلا عنها ولا يتغزل إلا فيها ، ولا يتغنى إلا جمالها . ويموت

أبو الثريا فى أكبر الظن فى ذلك الحين ، ويخلو الجو لعمر ، فإذا هو يلقى الثريا جهرة بعد أن كان يلقاها خفية ، وإذا هو لا يخشى أحداً ، فقد مات أبوها ، وليس لها أخ يحميها ، ولن يجد عند غير الأب والأخ من الغيرة ما كان سيجده عندهما ، وآية ذلك أن طائفة من أهلها قد لاموه على لقائها فلم يعبأ بهم ولم يكترث بلومهم . وقد تحدثوا إليه فى أن الشرف يفرض عليه أن يمتنع عن لقائها حتى لا يفسد مستقبلها وهى جاهلة ، وحتى لا تسوء سمعتهم وهم بريئون . فأظهر شيئاً من الاقتناع ، حتى إذا انصرفوا عنه سخر منهم فى نفسه ، لأنه يرى أن الشرف يفرض عليه أن يلقاها وأن يحرص على لقائها . أليست تحبه ؟ أليست قد وهبت نفسها له ؟ أليس قد وعدها بالوفاء ؟ فانصرافه عنها وهجره لها نكث للعهد وخفر للذمة وحرمان لها من سعادة قد أطمعها فيها . فإذا يئسوا منه تحدثوا إلى الثريا فى أن تغلق بابها من دونه ، وذكروا لها ألمهم للقائها له . ولكن الثريا لا تسمع لهم ، وتعلن إليهم أنها حرة فى أن تلقى من تشاء متى تشاء وكيف تشاء ، وإذا كنتم تألمون فألمكم سخيف ، لأن مصدره العادة والحرص على القديم . أما ألمى إذا انقطعت الأسباب بينى وبين هذا الفتى فألم صادق ،

لأنه ألم السعيد الذى حرم سعادته ، وألم المحب الذى حيل بينه وبين من يهوى . وتنتشر هذه المقالة بين الناس وإذا الناس لا يتحدثون إلا عن الثريا ، لا يقولون : الثريا بنت فلان وإنما يقولون : الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة . ومنذ ذلك اليوم أخذ اسم أبى الثريا يضؤل ويمّحى ويزول ، وإذا الرواة تختلف فيه : أهو على بن عبد الله بن الحارث ؟ أم هو عبد الله بن الحارث؟ولكن الثريا تُعرف على كل حال بأنها صاحبة ابن أبى ربيعة لا يختلف فى ذلك أحد ولا يمارى فى ذلك أحد . ولكن الناس مع ذلك لم يعرفوا هذا الحب القوى العظيم الذى كان يربط بين الثريا وعمر ، ولم يستطيعوا أن يفرقوا بينه وبين هذا اللهو والعبث الذى كان يربط بين عمر وبعض النساء . ولعل لهم بعض العذر فى ذلك فقد رأوا هذا الفتى الذى يجرى وراء كل فتاة قد جرى وراء الثريا . فما الفرق إذن بين جريه هذا وذاك ؟ ولكن الثريا قد استطاعت بسيرتها الغامضة مع الفتى أن تشغله عن كل شىء إلا عنها . وعن كل تفكير إلا فيها . ولكن الناس لم يعرفوا ذلك ، بل لم يعرفوا شيئاً آخر ، لم يعرفوا أن هذه الفتاة بسيرتها الغامضة ، كانت تدفع الفتى إلى يأس مهلك وضيق شديد وألم لا حد له . أليس

قد عجز الفتى عن فهمها ؟ أليس قد كَلّ الفتى عن احتمال صحبتها ؟ أليس قد ملّ الفتى أن يتقاضاها الوضوح والجلاء ؟ وإذن فما بقاؤه معها ؟ لينصرف إلى صاحباته القديمات ، فيلهو معهن ما شاء له اللهو ، ولْيَنْسَ هذه الفتاة التى تنغص عليه حياته وتفسد عليه أمره . وينصرف الفتى إلى صاحباته . ويُقبل معهن على اللهو ، فيسرف على نفسه وعليهن فيه يريد أن ينسى الثريا . ولكنه لا يبلغ من ذلك شيئاً ، فما زالت الثريا عنده هى كل شىء ، وما زال سلطانها عليه أقوى من كل سلطان . ولكن الناس يقولون : فتى يسرف فى اللهو ويتهالك على اللذة ويغرق فى المجون . وما حاولوا أن يسألوا أنفسهم عن إسرافه فى اللهو ما أصله ؟ وعن تهالكه على اللذة ما مصدره ؟ وعن إغراقه فى المجون ما سببه ؟ ولو أنهم سألوا أنفسهم هذا السؤال لعرفوا أن الفتى إنما يتكلف هذا كله من أجل الثريا . ولعرفوا أن هذا الفتى الذى يرونه راضياً سعيداً ناعم البال . ليس من الرضى والسعادة ونعمة البال فى شىء ، وإنما هو من السخط والشقاء والبؤس فى كل شىء ، ولكنه يتكلف الرضى ويتكلف الابتسام وقد يتكلف الضحك ليخدعهم وليخيل إليهم أنه سعيد موفور . ولكن هل استطاع الفتى أن

يخدع الفتاة عن نفسه ؟ كلا . فإنها لتعلم حق العلم ما يملأ قلبه من حزن وألم ، وما يملأ حياته من بؤس وشقاء ، وإنها لتعرف أنها هى التى قد انتهت به إلى هذا كله . ولكنها مضطرة إلى ذلك . فهى لا تستطيع أن تجلو له نفسها ، وتلغى بينه وبينها الحجب ، لئلا يزهد فيها كما زهد فى غيرها من النساء . ولكن هل ترضى الفتاة عن لهو الفتى مع غيرها من النساء ؟ إنها لتعرف أنه لا يقبل على لهوه معهن بنفس راضية وقلب مبتهج . وإنها لتعرف أنه يتكلف هذا اللهو ويتخذه وسيلة إلى نسيان آلامه وأحزانه . وإنها لتعرف أنه يفرُّ إلى هذا اللهو من هذا الغموض الذى تثيره حولها . ولكنها لا ترضى عن هذا اللهو مهما كان الأمر . فهى تحاسبه عليه أشد الحساب . وهى تسأله عن خلواته التى يصفها فى شعره وصفاً دقيقاً ما أصلها وما مصدرها ؟ فيزعم لها : أنه يذهب فى ذلك مذهب الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون . وهى تسمع منه هذا ، ثم تعلن إليه : أنها لن تصدقه بعد ذلك إذا تحدث إليها فى الحب ؛ لأنه فى كل يوم يتحدث إليها بأكاذيب ليس من شأنها أن تحملها على تصديقه إذا ذكر الحب وما إلى الحب من أخلاق الرجل ذى الطبع الكريم . وإذا كنتَ قد تلوثت بهذه المخزيات فكيف

تستطيع أن تذكر الحب أو تتحدث فيه ؟ وهو يؤكد لها : أنه قد أحبها مخلصاً ، وما زال يحبها مخلصاً ، وأنه ليس ماجناً ولا محترفاً صناعة المجون . ولكن غموضها معه وما يدفعه إليه هذا الغموض من القلق والاضطراب والحزن والألم هو الذى يضطره إلى الانصراف إلى هذا اللهو ، والترفيه عن نفسه بتصوير هذه الخلوات الآثمة التى ليس لها وجود إلا فى خياله . حتى ليعتقد كثير من الناس خطأ أنه قد اتخذ المجون مهنة وعاش على اقتراف الآثام والدنيات . ولكنها تعلن إليه : أنها لا تسمح له مطلقاً باللهو مع النساء ، ولا بتصوير هذه الخلوات التى يزعم ألا وجود لها إلا فى خياله . فهذا كله يؤذيها ويُضْنيها ويشق عليها . وهو يعلن إليها : أن غموضها مصدر علته ، وأنه يريد أن يعرفها حقاً ، ويعرف هل تحبه حقاً ؟ فإن كانت تحبه ففيم هذه القسوة ؟ وفيم تعذيب الحبيب ؟ وإن كانت تكرهه ففيم صحبتها له ؟ وفيم اتصالها به ؟ وهى تنظر إليه باسمة ثم تميل إليه فتضمه إلى صدرها ضما رفيقاً ملؤه الحنان والحب ، وتضع على ثغره قبلة حلوة طويلة حارة ، ثم تنظر إليه ، ولا تقول شيئاً . ثم تحيط عنقه بيدها . وتميله فى رفق حتى تضع رأسه على كتفها ، وتظل تنظر إليه ، ويظل ينظر إليها وهما

مغرقان فى صمت عميق . أطال هذا الموقف أم قصر ؟ لاسبيل إلى معرفة ذلك . ولكن الشيء الذى ليس فيه شك ولا ريب هو أنها قد انعطفت إليه فقبلت ثغره مرة أخرى ، ثم أقامته حتى إذا استوى فى مجلسه جعلت تمر أصابعها فى شعره رفيقة به ، باسمة له . مطيلة النظر إليه . صامتة مع ذلك لا تقول شيئاً ، وكأن هذا العطف الصامت الحار قد ملأ نفسه رضاً وأمناً ودعة وهدوءاً ، وإذا هو يسألها عن هذا العطف الذى لم يألفه ، وعن هذا الحنان الذى لم يتعوده ، وعن هذه النظرات التى برئت من القسوة ، وعن هذا الإغراء الذى خلص من الإباء ؟ وإذا هى تقول له : فاستمتع بهذا كله ، ولا تسألنى عن شيء . وينعم عمر بهذا العطف الخالص الذى تقدمه له الثريا ، ويحرص منذ اليوم على أن ينتهز كل فرصة تهيأ له . لينعم بكل سعادة تعرض عليه ، لا يسأل نفسه عن مصدرها ولا عن أسبابها . ولا يتكلف تعليلها ولا تأويلها ، فقد استقر فى قلبه أن يتخفف من عقله بين الحين والحين ، وأن يعيش بحسه وقلبه وضميره . فما ينبغى أن تكون حياة الناس كلها بحثاً عن العلل ، والتماساً للمصادر والأسباب .

٦

وقد خيل إلى عمر أن الأمور ستستقيم له منذ اليوم ، وأن الثريا ستقف عليه منذ اليوم قلبها وعقلها وحسها وشعورها وعواطفها وأهواءها ، وأنها لن تصرف عنه هذه السعادة التى غمرته بها والتى صرفته عن الحياة والأحياء وأنسته الناس والأشياء ، وأنها لن تنزل به إلى هذه الأرض التى يعيش عليها الناس بعد أن ارتفعت به إلى هذا الجو البعيد فى السماء . وقد آوى عمر إلى مضجعه من تلك الليلة ، فلم يمتنع عليه النوم كما كان يمتنع عليه فى لياليه التى خلت ، وإنما لبى دعاءه حين دعاه ، ومد ذراعيه فطوق بهما عنقه فى كثير من الرأفة والرحمة والحنان ، وإذا عمر ينسى نفسه ويمعن فى هذا الرقاد الحلو الهادئ المطمئن. ثم يسفر الصبح ويرتفع الضحى وتكسو الشمس بضوئها النقى ظواهر مكة وبطاحها . ويفيق عمر من نومه هادئاً مطمئن النفس رضىّ البال . وينفق نهاره بين أصدقائه يخوض معهم فى ألوان من الحديث . ويجاذبهم أطرافاً من اللهو . فإذا أقبل الليل وبسط أرديته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام طلب

عمر إلى صديق له أن يصحبه إلى الثريا ، فيظهر هذا الصديق شيئاً من التردد لأنه يخشى أن يُفسد على عمر خلوته مع صاحبته . ولكن عمر يعلن إليه : أنه إنما يذهب إليها الليلة ليأخذ معها فى ألوان الحديث ، وأنه ليس فى حاجة إلى هذه الخلوة وقد أنفق معها بالأمس يوماً ذاقا فيه من النعيم ما شاء حبه لها ، وما شاءت قدرتها على فتنته وإمتاعه . ويُقبل الصديقان على الثريا فتستقبلهما جارية من جواريها وتجلسهما فى بهو من أبهاء الاستقبال ، وكأنَّ الثريا قد سمعت صوت عمر وهو يسأل جاريتها عنها ، فهى تكشف الستر ، وتسرع فى الخروج إليه . ولكنها تنظر فترى صاحبه ، فترجع . فيقول لها عمر : أقبلى أقبلى ، فإنه ليس ممن أحتشمه . ولا أخفى عنه شيئاً . ويستلقى فيضحك . ولا تكاد الثريا ترى ذلك حتى تغضب غضباً شديداً . يضطرب له دمها ويغلى . وإذا هى قد استحالت استحالة كاملة ، فانحسر عنها ضعف الأنوثة وسرت فى جسمها قوة غريبة . وإذا هى تقبل على عمر وكأنها النمر قد جرى فيه غضب وهياج . وتدنو منه وعيناها تقدحان شراً . ثم ترفع يدها وتهوى بظاهر كفها على وجهه — وقد كانت تتختم فى أصابعها العشر كسائر نساء عصرها — وإذا الدم

يتفجر من أنفه ومن فمه فى قوة كما يتفجر الماء من الينبوع . وعمر ينظر إلى هذا الدم مرة . وإلى الثريا مرة أخرى ، فى ذهول وغفلة وبله . لم يفهم شيئاً . ولم يقدِّر شيئاً . ولم ينتظر شيئاً . وإنما أخذ على غرة أخذاً . والثريا ماثلة ذاهلة أمامه لم يتح لها أن تفكر فى الأمر قبل وقوعه . ولم تتوقع أن ينتهى الأمر إلى ما انتهى إليه . وهذا الصديق قد قام فى مكانه ينظر إليهما وقد أخذه الذهول كما أخذهما . ولكنه كان أسرعهم إلى الإفاقة من هذا الذهول ، وإذا هو يسرع إلى بعض الماء فيعالج به هذا النزيف . فإذا جف الدم ، وطُرد عن عمر ذهوله ، وانجلت عنه غفلته ، واستيقظ من هذا البله ، ظل يرمق الثريا بنظرات فيها كثير من العتب وكثير من الحزن وكثير من الحب أيضاً . وكأنّ الثريا قد أحسّتْ وقع هذه النظرات على شخصها ، فإذا هى تتقدم إلى عمر وتدنو منه وتجلس إلى جواره ، ثم تنظر إليه فإذا فى وجهه شحوب ، وفى شفتيه تورم ظاهر . وهى تفتح فمه فإذا ثنيتاه العليان قد تحركتا وكادتا أن تسقطا . وهى تعتذر إليه وتستعطفه وترضاه ، وتميل عليه فتضمه وتقبِّله . ثم تلاطفه بيدها ، تداعب بها خده مرة ، وتجرى أصابعها فى شعره مرة أخرى . ويرى الصديق بعض هذا فيستأذن وينصرف.

ويترك العاشقين يتراضيان. وتخلو الثريا إلى عمر فتبذل له ما تملك وما لا تملك حتى لا ينصرف عنها إلا وقد ظفرت منه بالرضا ؛ فهى تذيقه من ألوان اللذة بعض ثمراتها الحلوة ، وهى تعيد النظر إلى ثنيتيه مرة ومرة ومرات . وهى تبدى حزنها العظيم وأسفها الشديد، حتى ليُهَوِّن عمر عليها الأمر، وكأن الخطب خطبها لا خطبه . وهو يعلن إليها أنه سيعالج ثنيتيه حتى تكون راضية . ويقبل عمر من الغد على غير واحد من أطباء الحجاز . فلا يجد عندهم علاجا ناجعاً ، وإذا هو مضطر إلى أن يسافر إلى البصرة يلتمس عند أطبائها من ألوان العلاج ما افتقده عند أطباءِ الحجاز فلم يجده .. ويعود عمر من البصرة فإذا ثنيتاه قد ثبتتا ولكنهما قد اسودتا . ولا تكاد الثريا ترى ذلك حتى تجزع جزعاً شديداً، ولكنَ عمر يُهَوِّنُ عليها ويعلن إليها . أنها قد تركتْ به أثراً خالداً سوف يعتز به طوال الحياة . ولا أدرى أأرضاها هذا القول؟ ولكنى أعلم أن عمر كان منذ اليوم يُعرف بسواد هاتين الثنيتين ، وكان يفخر فى شعره بسواد ثنيتيه .

وقد أنفق عمر مع الثريا بعد أن عاد من البصرة أياماً سعيدة حافلة بألوان اللذة وصنوف النعيم . لم يعرف فيها ألماً ولا حزناً ،

ولم يُحِس فيها ضيقاً ولا اضطراباً . وكانت الثريا رفيقة به إلى أقصى غايات الرفق ، لطيفة معه إلى أبعد حدود اللطف محبة له إلى أرقى درجات الحب ، تصرفه فى فنون الهزل والجد ، وتنقله فى أطوار المرح والهدوء ، وهو مستسلم لها استسلام الطفل إلى أمه الحنون ، واجدا فى ذلك لذة ممتعة ومتاعاً لذيذاً . وقد نظر عمر إلى نفسه ذات يوم فإذا هو سعيد موفور حقا . وإذا هو ليس فى حاجة إلى أن يتكلف الرضا ويتكلف الابتسام وليس فى حاجة إلى أن يُقبل على اللهو فيسرف على نفسه فيه ، قد فارقت نفسه كآبتها ، وبرئ قلبه من مرضه ، فهو راض سعيد ناعم البال رخيّ العيش يبتسم للحياة وتبتسم له الحياة .

٧

ولكن نظرة واحدة من نظرات الثريا كأنها السهم ، فيها عطف وقسوة ، وفيها إغراء يثير الطمع ، وإباء يبعث على اليأس . هذه النظرة زعيمة بأن تعيد إلى عمر كآبة نفسه ومرض قلبه . وإذا هو ضيق بالثريا ساخط عليها منصرف عنها إلى من يلقى من النساء . وتنظر الثريا إلى عمر هذه النظرة ذات يوم ، وكان اليوم من أيام مكة القائمة القاعدة ، وكان موسم الحج قد أقبل ، وأقبلت معه المترفات من نساء المدينة والشام والعراق ، وخرجت له المترفات من نساء مكة أيضاً ، وكانت الجوارى الحسان يمضين فى مكة من أعلاها إلى أسفلها ، يتغنين أغانيهن الحلوة العذبة التى تتلقفها الأسماع وتطمئن لها القلوب ، والتى تنبىء الناس بإقبال الموسم . وكان هذا كله يثير فى قلوب الناس ألواناً من الفرح مختلفة متباينة ، فقوم يفرحون لرواج تجارتهم ، ولما يضطرهم إليه الموسم من بيع وشراء ، وقوم يفرحون لما يتيح لهم الموسم من اختلاط ولهو وحرية لا يجدونها فى حياتهم العادية ، وقوم يفرحون لما تحمل إليهم الهوادج من نساء وفتيات

يكلفون بهن ويرغبون فيهن ويتحرقون إليهن تحرقاً . ويخرج عمر من عند الثريا يلتمس الراحة لنفسه المعذبة . وينشد الاطمئنان لقلبه المضطرب ، ويبتغي الهدوء لضميره القلق ، فإنه لماض في طريقه بالقرب من منىً فما يروعه إلا هودج ضخم تظهر عليه آثار النعمة والترف ، فيعرض لهذا الهودج ويتصل بصاحبته ويتحدث إليها ، فإذا هي رملة بنت عبد الله بن خلف ، وإذا جسمها جميل رائع ، وإن كان في وجهها شيء من جهامة ، وفي أنفها قليل من كبر . وإذا هو يقول فيها قصيدته :

أصبح القلب في الحبال رهينا مُقْصَداً يوم فارق الظاعنينا

وإذا هذه القصيدة تشيع بين الناس ، ولكنها مع ذلك لاتصل إلى الثريا ، وقد كانت الأمور من أجل ذلك خليقة أن تسير سهلة يسيرة بين عمر والثريا ، فالثريا لم تعلم بشيء مما كان بين عمر ورملة . ولكن أم نوفل . نعمْ أم نوفل هذه التي تركناها مدة طويلة ، ولم نعد نتحدث عنها أو نعرف من أمرها شيئاً ، هذه المرأة تقبل على عمر ذات يوم مغرية مطمعة ، فلا ترى منه إلا إباء وصدوداً فتنصرف عنه ، وإنها لتضمر في نفسها أمراً .

ثم تسمع أنه قد رأى رملة وتحدث إليها وقال فيها شعراً ، وإذا

هى تستقصى هذا الشعر وتستظهره . ثم تقبل على الثّريا فتسلم عليها ، وتسألها : ألا تعلمين ؟ فتقول الثّريا : ماذا أعلم ؟ فتبتسم أم نوفل فى دهاء ومكر وفى سخرية أيضاً وتقول لها : ألا تعلمين أن ابن أبى ربيعة قد تغزل فى رملة بنت عبد الله بن خلف ؟ فتقول لها الثّريا فى غضب وحدة : ماذا تقولين ؟ فتقول أم نوفل : أقول الحق . ثم تنشدها قصيدة عمر فى رملة . ولكن الثّريا لا تكاد تسمع البيت الأول منها :

أصبح القلب فى الحبال رهينا ... مُقصداً يوم فارق الظاعنينا

حتى تثور وتفور وتقول : إنه لوَقَاح صَنَعٌ بلسانه ، ولئن سلمتُ له لأردّن من شأوه ، ولأثنين من عنانه ، ولأعرفنه نفسه . فلما بلغت أم نوفل إلى قوله :

قلتُ من أنتمُ فصدت وقالت ... أمبِدٌ سؤالك العالمينا

قالت الثّريا : إنه لسَأَلٌ ملحّ ، قبحاً له ، ولقد أجابته إن وفت . فلما بلغت إلى قوله :

نحن من ساكنى العراق وكنا ... قبله قاطنين مكة حينا

قالت : غمزته الجهمة . فلما بلغت إلى قوله :

قد صدقناك إذ سألت فمن أنْـ ... ـتَ ؟ عسى أن يجر شأن شئونا

قالت : رمته الورهاء بآخر ما عندها فى مقام واحد .

ويقبل عمر على الثريا بعد ذلك ، فإذا موقف من أشد المواقف تأثيراً فى النفس ، ذلك أن الثريا تتهمه بحب رملة ، وتسمعه ما قاله فيها من الغزل ، وعمر ينكر هذه التهمة ، ولكن هذه التهمة ليست متكلفة ولا منتحلة ، وإنما كان بين عمر ورملة لقاء وغزل . ولكن عمر والثريا يختلفان فى هذا اللقاء وهذا الغزل . فأما الثريا فترى أن عمر قد أحب رملة وكلف بها ، ومن أجل ذلك قال فيها ما قاله من الغزل . وأما عمر فيعلن أنه لم يحب رملة ولم يكلف بها ، ويؤكد أنها لم تقع منه موقعاً ، وأنه لا يحب إلا الثريا . وهو إذا كان قد تغزل فى رملة ، فليس معنى هذا أنه أحبها ، وإنما معناه أنه تأثر فى لحظة من اللحظات بمؤثرات حسية خالصة ، ليس بينها وبين القلب والعاطفة صلة فاسترسل مع حبه للثريا ، ولم ينظر إلى ما كان بينه وبين رملة من لقاء وحديث إلا كما ينظر إلى متعة عارضة لا قيمة لها . ولذلك نسى الأمر ، ويكاد أن يكون قد نسى الشعر أيضاً . وهو مخلص حين ينكر هذا الحب ، ومخلص حين يزدرى هذه الأشياء التافهة . ويرى ألا قيمة لها . وهو يريد أن يأخذ معها بحظه من الفكاهة والدعابة ولكنها تأبى عليه ما يريد ، وتعلن مغاضبتها له ، وتؤكد له : أنه لن يظفر منها منذ الآن بشيء .

وعمر ينكر هذه القسوة . ويلومها على هذه الغلظة ، ولكنه مهما يلح فى اللوم ويسرف فى الاستعطاف فهى لا ترق ولا تعطف ، وإنما تمضى فى إبائها ونفورها ، وتنصح له أن يتركها وأن يصاحب رملة أو غير رملة من هؤلاء النساء اللائى يتغزل فيهن . فهى قد شبعت من هذا الخداع . وعمر يؤكد لها : أنه ليس مخادعاً ولا شيئاً يشبه المخادع ، ويحاول أن يوضح لها رأيه فى هذه الصلات المادية الحسية التى تجمع الرجل والمرأة أحياناً ، دون أن يكون هناك سبب آخر من عقل أو شعور ، فهذه الصلات صلات تافهة لا قيمة لها ، ولكن الثريا تقول له : مهما يكن رأيك فيما كان بينك وبين رملة فأنا آلم له ، بل إنه لينغص علىّ حياتى كلها تنغيصاً . ثم تنصرف عنه ، ويمضى عمر فيبعث إليها كتاباً كله حب وشوق وكله استعطاف وترضى ، ولكنها لا تجيبه ولا ترد عليه ، وإنما تمعن فى إعراض يملؤه السخط والازدراء ، ويصدر عن نفس شديدة الكبرياء . فإذا لم يجد عمر وسيلة إلى إرضائها خلا إلى نفسه كئيباً محزوناً وقال قصيدته الرائعة :

من رسولى إلى الثريا فإنى ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتاب
سلبتنى مَجَّاجَةُ المسك عقلى فسلوها ماذا أحل اغتصابى

وهى مكنونة تحير منهـا في أديم الخدين ماء الشباب
أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها ؟ قلتُ جدا عدد الرمل والحصى والتراب

ويشرق الضبح ذات يوم فيرى الثريا فى طريقها إلى الطائف ، تنتهز فرصة الصيف من ناحية ، وتريد البعد عن عمر من ناحية أخرى . ويرى عمر وقد أفاق من نوم غير عميق وهو ينظر إلى الشمس هذه التى سعت إلى غرفته فى استحياء ، ثم أخذ الحياء يزول عنها شيئاً فشيئاً ، وإذا هى تغمر الغرفة فى جراءة أشبه شيء بالوقاحة . وقد كان عمر خليقاً ألا ينظر إلى الشمس هذه النظرة ، وأن يستمتع بضوئها حين ينفذ من الأفق ضئيلا نحيلا كأنه السهم ، ثم يمضى أمامه ويمتد من جميع أقطاره فيغمر الأرض والسماء جميعاً ، ويملأ ما بينهما بهجة وجمالا . كان عمر خليقاً أن يستمتع بهذا الضوء المشرق الصافى الذى يبعث فى النفوس والأجسام حركة وحياة ونشاطاً . ولكنه كان فى هذا الصباح مثقل النفس والقلب بحزن يشبه الموت . فلم يستطع أن يخلص لهذا الضوء وأن يستمتع به ، فقد كان هجر الثريا له أشبه شيء بالصاعقة التى نزلت عليه دون أن يفكر فيها أو يتوقع لها نزولا . فما أكثر ما تغزل عمر فى

غير رملة من النساء ، فما لقى من الثريا مثل ما لقيه هذه المرة من الغيرة الشديدة التى لم تعرف لها حدا تنتهى إليه ، وإنما مضت أمامها لا تلوى على شىء ، وإذا الثريا ساخطة عليه أكبر السخط واجدة عليه أعظم الموجدة ، وهو يحاول أن يرضيها ما وجد إلى رضاها سبيلا ، ولكنه لا يبلغ مما يريد شيئاً . ويقبل المساء وهو غارق فى تفكيره هذا الحزين . فإنه لفى ما هو فيه إذ يقبل عليه صديقه ابن أبى عتيق ، فلا يكاد يراه حتى يقول له :

سأبلّغ رسالتك التى كلفتنى إياها . قال عمر : وما هذه الرسالة ؟ قال ابن أبى عتيق : أنسيت قولك :

من رسولى إلى الثريا فإنى   ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتاب؟

فإنى لم أكد أسمع هذه الأبيات حتى عرفتُ أنك تريدنى وتنوّه بى . فقم فتعال معى أصلحْ بينك وبين الثريا ، فأنا رسولك الذى سألتَ عنه . ويمضى الصديقان ووجههما الطائف حيث تقيم الثريا . فتستقبلهما أم نوفل . ولكنها تجلس ابن أبى عتيق فى بهو من أبهاء الاستقبال ، وتجلس عمر فى حجرة من هذه الحجرات الخاصة التى كانت تشهد مّا يأخذ فيه عمر مع الثريا من سمر ولهو . فإذا سألها عمر عن ذلك قالت له : إن الثريا لو علمت بأنك هنا ما أقبلتْ . فهى غضبى

عليك غضباً لا حد له . فيسكت عمر ، وتهتف أم نوفل بالثريا وتعلن إليها زيارة ابن أبي عتيق ، فتقبل خفيفة نشيطة فتسلم عليه ، ويحدثها ابن أبي عتيق عن ألم عمر وحزنه ، وما يلقى من هذا الندم الذى يكلفه شططاً ، ويرهقه من أمره عسراً ، ويخبرها بأن عمر موجود . وأنه قد أقبل ليستعطفها ويترضاها ، ثم يهتف به ، فيدخل عمر وهو متوجع يألم أشد الألم لما تورط فيه من لقاء رملة والحديث إليها ، ويألم لأن هذا الأمر قد تكشف عن كوارث ، ونغص الحياة عليه وعلى حبيبته . والثريا تنظر إليه وتسمع له ، وما كانت تظن أنه سيضعف إلى هذا الحد ، وإذا هى كلها إشفاق ورحمة ، وإذا هى تكره أن يألم حبيبها هذا الألم الثقيل ، وإذا هى تعلن رضاها عنه ، وتثق بما يضمر لها من حب . وإذا هى ليست فى حاجة إلى أن يعترف لها بهذا الحب وقُوَّتِهِ وسلطانه على نفسه : وإذا الأمر بينهما قد عاد إلى ما كان عليه من صفاء ونقاء .

٨

ويخلو عمر إلى الثريا فيتحدث معها فيما يتحدث فيه العشاق . وهل للعشاق حديث إلا الحب ؟ وقد تحدث عمر والثريا ما شاء لهما الحب من حديث . ومن يدرى ؟ فلعلهما قد تعاتبا فيما كان من كل منهما أيام القطيعة . يقول عمر للثريا : لقد أعرضتِ عنى ، ولم تفكرى فىّ ، ولم تحفلى بما ألم أو ما كان يمكن أن يلم بى من الأحداث والخطوب ، وما أدرى ماذا كنت تصنعين بحبك حين انقطعت بيننا الأسباب ؟ فتقول له الثريا : كلا يا أحب الناس إلىّ وأكرمهم علىّ وآثرهم عندى وأحسنهم مسلكاً إلى نفسى ومنزلا من قلبى . لئن كنتُ قد أعرضتُ عنك فإنى ما نسيتُك ولن أنساك . وكم أرقنى الشوق إليك ، وكم حرقنى البعد عنك . ولو لم أكن أحبك أكنتُ أصفح عنك ، وأرضى عليك ؟ لقد أحببتك وكنتُ وفية أمينة ، ولكنك وإن أحببتنى إلا أن هذا الحب لم يكلفك رهبانية ولا نسكاً . فأنتَ تستمتع بالحياة ، وتبدل من الأخدان والخليلات كما تبدل ثيابك . ألا تعلم أن حياتك هذه العابثة

الماجنة التى لا ترجو لأحد ولا لشىء وقاراً ، والتى تندفع فيها إلى غير حد ، تؤذينى وتضنينى وتفسد علىّ أمرى كله ؟ فيقول لها : ولكنى أحبك حبًّا لا أعرف له حدا ولا أمدا . ولو لم أكن أحبك أكنتُ أتجشم ما تجشمت من أهوال فى سبيل رضاكِ عنى ؟ وما ينبغى أن تتحدثى عما بينى وبين النساء من صلات ، فهذه صلات مادية لا تقوم على الشعور ولا على العقل ، ويجب أن تزدريها كما أزدريها . وأنتِ تعلمين أنى لا أحب هؤلاء النساء ولا أكلف بهن . إنهن لا يقعن منى موقعاً وأنا لا أحب إلا إياكِ ولا أكلف إلا بك . وأنا قد أتأثر فى لحظة من اللحظات بمؤثرات حسية خالصة ليس بينها وبين القلب والعاطفة صلة ، فأنطقُ بهذا الغزل الذى تقيمين الدنيا من أجله وتقعد ينها ، وهو فى حقيقة الأمر لا يدل على شىء. فتقول له . ولكنى مع ذلك لا أريد أن تتحدث إلا عنى ، ولا تتغزل إلا فىّ ، ولا تمدح إلا إياى . إنى أحبك وأغار عليك وأنت تعرف الغيرة إذا اضطرمت نارها فى قلوب النساء كيف تلتهم كل شىء ، وكيف تمتنع على كل روية وتستعصى على كل تفكير . لقد وفيتُ لك كما لم تف امرأة لعاشقها قط ، ولقد خنتنى مع النساء ، ولم ترع للحب حرمة ولم ترج للوفاء

وقاراً . فانظرْ إلى نتيجة هذه المقارنة وإلى أثرها فى قلب امرأة عاشقة غالية فى العشق ، لا تعرف فى الحب هوادة ولا ليناً ولا تقبل فيه موادعة ولا مصانعة . ويبذل عمر كثيراً من الجهد ويحتمل كثيراً من العناء حتّى يوفق إلى إرضاء صاحبته واستعطافها عليه واجتذابها إليه . ولكنه يقول لها : ومع ذلك فأنا أحب أن تغارى على، وأن تهيمى بى ، وأن تجنبينى سيرتك هذه الغامضة. أريد أن أراك دائماً حناناً خالصاً ، بل أريد أن تضايقينى بحبك الملح ، وأن تغرقينى بسَيْل جارف من العواطف يندفع فلا يكاد يُبقى على شىء ، فأنا أجد فى هذا كله اللذة كل اللذة والنعيم كل النعيم . فإذا انتهى هذا الحديث كان العاشقان قد اتفقا على أن يغير كل منهما سيرته مع الآخر ، تجنبه الثّريا قسوتها وإباءها ، وكبرياءها وازدراءها ، ويجنبها انصرافه إلى النساء ، ولهوه معهن ، وغزله فيهن . ثم ينصرف عمر إلى مكة ، ولكن الصباح لايكاد يشرق ، والضحى لا يكاد يرتفع من الغد ، حتّى يكون عمر فى طريقه إلى الطائف للقاء الثّريا ، لا يبالى هذه الشمس التى ارتفعت حتّى قاربت أن تستوى فى كبد السماء ، وقد أخذت أشعتها المحرقة تلح على الأرض والناس حتّى قهرتها وقهرتهم أو كادت . وإنما يمضى أمامه

لا يلوى على شيء ، وقد سكن من حوله كل شيء ، حتى لا يسمع إلا أخفاف مطيته تمس الأرض مسا رفيقاً ، وإلا هذه الأنات التي ترسلها المطايا إذا جهدها السير وحنت إلى الراحة ، وإلا ما كان يناجى به نفسه من حديث الثريا إذا لقيها وجلس إليها . وإنه لفى ذلك وإذا صوت حلو عذب رقيق يأتيه من قريب ، وإذا هذا الصوت لا يكاد يبلغ أذنيه حتى ينتهى إلى نفسه فيمس منها موضعاً دقيق الحس سريع التأثر ، وإذا هذا الصوت يحمل إليه تحية عذبة هى التى يسمعها من صاحبته كلما لقيته . هنالك يقف ويلتفت صوب الصوت ، فإذا الثريا ، كانت قد أقبلت لتلقاه فى مكة ، وكان هو قد أقبل ليلقاها فى الطائف ، فالتقيا فى الطريق ، ويدنو الفتى من الفتاة فيضمها إليه ، وتُلقى هى بنفسها عليه ، ويظلان على ذلك وقتاً لا يدريان أكان طويلا أم قصيراً ، ولكنهما يفيقان على قطرات من الدموع لايدريان أكانت دموعه هو ؟ أم كانت دموعها هى ؟ لأن كلا منهما قد بكى ، لأنه لم يملك عواطفه ، ولم يستطع أن يحبس الدمع ، فانهمل الدمع من عينيه انهمالا . وقد أتيح لهما بعد لحظة أن يتمالكا ويتماسكا فأخذ كل منهما ينظر إلى صاحبه وهو يهدى إليه

ابتسامة حلوة يبلها الدمع . ولكن عمر يأخذ بيدها ، ويجلسها ، ويجلس إلى جانبها ، ويطوق عنقها بذراعه ، ويظل ينظر إليها ، وتظل تنظر إليه ، وهما لا يقولان شيئاً . ثم تسمعه يتحدث إليها فى صوت هادئ وادع وهو يقول لها : ألا ترين أن الشمس محرقة والقيظ شديد ؟ فهلم بنا ، تعودين معى إلى مكة أو أعود معك إلى الطائف ؟ ولكن الثريا لا تجيبه ، وإنما تنحدر من عينيها دمعتان هادئتان يمسحهما عمر فى رفق ، ثم ينعطف إليها فيقبلها ، ثم ينهضها فلا تمتنع عليه ، وإنما تستجيب له فتنهض غير متثاقلة وإذا هو يطوق خصرها بذراعه ، ويسعى معها رفيقاً ، فتسعى مطيعة مذعنة ، وعلى وجهها إشراق كئيب ، وعلى ثغرها ابتسام حزين . حتى إذا تهيآ لاستئناف السير قال لها : سأذهب معك إلى الطائف . وما دام الأمر بيننا - كما أرى ، فلن أكلفك بعد الآن مشقة السفر وعناء الرحيل إلى مكة ، وسأختلف إليك كل يوم ما دمت تصيفين فى الطائف . ومنذ اليوم كان النهار لا يرتفع إلا رأى عمر فى طريقه إلى الثريا . يمضى أمامه مسرعاً فى المضى ، يدفعه عزم لا يعرف الكلال ، وشوق لا هواده فيه وحب لا حد له ، وهو يمضى ويمضى لا يحس جهداً ولا مشقة بل لا يشعر

بأنه يمضى ، لأنه لا يفكر إلا فى أن صاحبته بعيدة عنه ، ويريد الوصول إليها . فإنه لفى طريقه ذات يوم ، وإذا أصوات تصل إليه من بعيد . فلا يحفل بها ولا يلقى إليها بالا ، وإنما يمضى أمامه لا يلوى على شىء ولا يقف عند شىء ، ولكن هذه الأصوات تدنو منه أو يدنو هو منها ، فيلتفت فإذا جماعة من الركبان ، هؤلاء الذين يحملون الفاكهة من الطائف إلى مكة وإلى غير مكة من بلاد الحجاز ، فيسألهم عن الأخبار قبلهم ، فيقولون : ما استطرفنا خبرا ، إلا أننا سمعنا عند رحيلنا نواحاً وصياحاً عالياً على امرأة من قريش اسمها اسم نجم فى السماء ، وقد سقط علينا اسمه . فيقول عمر : الثريا ؟ فيقولون : نعم . ولا يكاد عمر يسمع هذا حتى يخشى أن يكون هذا النواح والصياح على الثريا صديقته ، فقد كان قد تركها عليلة ، ولعل العلة أن تكون قد اشتدت بها فذهبت بحياتها . ولا يكاد عمر يفكر فى هذا حتى تضطرب نفسه كلها ، وإذا هو مجنون أو كالمجنون ، يريد أن يتبين الأمر ويعرف حقيقته ، وإذا هو يوجه فرسه على وجهه إلى الطائف يركضه ملء فروجه ، ويسلك طريق كَدَاء ، وهى أخشن الطرق وأقربها . حتى ينتهى إلى الثريا ، وقد توقعته ، وهى تتشوف له وتشرف . فيجدها

سليمة عميمة ، ومعها أختاها رضيا وأم عثمان ، فيخبرها الخبر ، فتضحك وتقول : أنا والله أمرتهم بذلك ، لأختبر مالى عندك ، فيقول عمر فى ذلك قصيدته :

تشكى الكميتُ الجرى لما جَهَدْته ... وبيَّن لو يسطيع أن يتكلما

٩

وكان لعمر أخ صالح تقى ورع هو الحارث ، وكان يكره من أخيه عمر حياته اللاهية الفارغة ، وكثيراً ما ضاق بهذه الأحاديث التى يسمعها عنه ، والتى تقطر كلها إثما ، وتشيع فيها الخطيئة كما تشيع الحياة فى الغصن المورق اللدن . وكثيراً ما خلا إليه يعظه وينهاه عن هذا العبث الدائم واللعب المتصل واللهو المقيم . وكان عمر يسمع له غير حافل به ولا آبه له ولا مكترث بحديثه ولا معنى بما يقول . ومن يدرى ؟ فلعل عمر قد حاول أن يعبث بالحارث كما يعبث بهؤلاء النساء ، فتقدم إليه فى أن يشاركه فى لهوه وعبثه ، ونصح له بأن ينعم بالشباب ، ويذوق لذاته كلها ، ويستمتع بما فيه من فنون الترف وألوان الغبطة . ولو أن الحارث كان رجلا لين النفس فاتر الرأى لا يحفل بالشرف ولا يقدر المروءة لشايع أخاه على ما أحب ؛ فوسائل الإغراء قوية . وسبل العبث ميسرة ، والعصر كله غارق فى اللهو إلى أذنيه . ولكن الحارث كان رجلا صلب الرأى جرىء القلب مستمسكاً بالآداب حريصاً على الشرف .

فلم يكن من سبيل إلى أن يندفع مع أخيه فى حياة العبث من ناحية ، ولم يكن من سبيل إلى أن يترك أخاه مندفعاً فى هذه الحياة من ناحية أخرى . وكان من أجل ذلك ينصح لأخيه ما وسعه النصح ، وينكر عليه ما وجد إلى الإنكار عليه سبيلا . وكان أشد ما يعجب له منه أنه لا يسأم اللذة ، ولا يضيق باللهو ، ولا يحتاج من حين وحين إلى شىء من الحزن يرد نفسه إلى بعض أطوار الجد ، ويصور له الحياة على أنها شىء غير هذا الباطل الذى لا ينقضى والعبث الذى لا يزول . وكان أشد ما يألم له أن أخاه ليس إلا واحداً من هؤلاء الغزلين الذين أخذوا يكثرون فى الحجاز ، وينشرون دعوتهم إلى العبث . وقد أخذت هذه الدعوة تقوى وتشيع وتنبث فى أطراف الأرض فعظم الشر وكثر الفساد . وليس من شك فى أن الحارث قد كان ينصح لهؤلاء العابثين كما ينصح لأخيه . ولكنهم كانوا يزورون عنه ويعرضون عن نصحه . وكانوا ينكرون عليه نسكه وعبادته ، ويضيقون بحياته هذه البغيضة التى لا سماحة فيها ولا يسر . ولا راحة فيها ولا لين ، وإنما هى تضييق على الناس حين يغدون إلى اللهو ، وحين يروحون عنه ، وحين يجتمعون على الدعابة وحين يتفرقون عنها . ومن الذى نصبه عليهم يأمرهم

وينهاهم ، ويبيح لهم وينكر عليهم ؟ وماله يتجاوز حدوده ويتدخل في شئون الناس ؟ أليس يكفيه أن يكون صالحاً تقيا ؟ . كان الحارث يسمع هذا الكلام وأمثال هذا الكلام من هؤلاء العابثين فكان يعلم أنه لن يبلغ من نصحه لهم شيئاً . ولكنه يضيع قوّته عبثاً ، ويفني جهده في غير طائل ولا غناء ، وقد يضطرهم إلى العناد ، فيتمادون في العبث من حيث يريد لهم أن يقلعوا عنه . وكان أشد ما يضايقه أن الدولة تعلم هذا كله عن هؤلاء العابثين . فلا تراقبهم ولا تقاومهم ولا تأخذهم بأقصى ما تملك من الشدة والعنف ، وإنما تعينهم على هذا العبث ، وتمد لهم في هذا المجون ، لأنها ترى في ذلك تقوية لشأنها ، وتثبيتاً لسلطانها ، وصرفاً لهؤلاء العابثين أن ينازعوها الأمر ، وكلهم أو أكثرهم من أبناء المهاجرين والأنصار ، أو من المتصلين اتصالا قويا بأبناء المهاجرين والأنصار . وماذا تريد الدولة من هؤلاء العابثين إلا أن يظهروا لها الطاعة والإذعان . وعليها بعد ذلك أن تكفل لهم لذة الحياة ونعيمها ، وإمتاع نفوسهم وأجسامهم بما تثيره اللذة والنعيم من ضروب الإحساس والشعور . وإذن فليأخذوا من اللذات ما يتاح لهم ، وليؤدوا إليها ثمن هذه اللذة طاعة وإذعاناً . ولتعينهم الدولة على هذه اللذات

بما تدر عليهم من الأموال ، حتى لا يطيعوا ويذعنوا فحسب ، وإنما ليخلصوا لها الحب . ويصفوها مودة قلوبهم وخاصة نفوسهم . فماذا يستطيع الحارث إذن أن يفعل ؟ إنه لا يستطيع أن يُغَيِّرَ من سيرة هؤلاء العابثين شيئاً ، فليس له إلا أن يرى وينكر ، وحسبه هذا الإنكار . على أن الحارث كان يشعر شعوراً خفيا بأن هؤلاء العابثين سيسأمون ما أغرقوا فيه من اللذة . وسيملون ما أسرفوا على أنفسهم فيه من السرور . فهم يستقبلون النهار حين يشرق نوره مغتبطين ، ويستقبلون الليل حين تدلهم ظلمته مبتهجين ، وينفقون ما بين إسفار الصبح وإظلام الليل فى ألوان اللذات ، وينفقون ما بين مغرب الشمس وانتصاف الليل فى صنوف النعيم . وكل شيء مُنْتَهٍ إلى السأم إذا اتصل حتى السرور واللذة ، وحتى السعادة والنعيم . فسيمل هؤلاء العابثون حياتهم هذه ، وسينصرفون إلى التقوى والعبادة والتفكير فى الموت وما وراء الموت ، بعد أن طال انصرافهم إلى اللهو واللعب ، واتصل تفكيرهم فى اللذة والسرور . ومن أجل ذلك لم يفكر الحارث فى أن يقطع ما بينه وبين أخيه من أسباب المودة ، لأنه لم يقطع الأمل فى استخلاصه من حياة اللهو واللعب ، وكان يتودد إليه ، ويتردد

عليه، مقدراً فى نفسه أن يوماً سيأتى قريباً أو بعيداً ، ولكنه آت لا شك فيه — سينصلح فيه أمره ، ويعود إلى الجادة بعد أن طال انحرافه عنها ، وتتصل الأسباب بينه وبين الخير بعد أن طال انقطاع هذه الأسباب . وقد كان عمر يلقى أخاه لقاء حسناً ، ويسمع منه ويقول له حين تتصل أحاديثهما بالدعابة والعبث الحلو أو المر . فإذا اتصلت بالجد الحازم لم يسمع ولم يقل وإنما أعرض إعراضاً وازور ازوراراً . ولكن الحارث يقبل على عمر ذات مساء ، وكان عمر ينتظر هذا المساء أشد ما يكون شوقاً إليه ووجداً به وتلهفاً عليه ، لا ليرى أخاه . فقد كان معه بالأمس ، ولم يبعد عهده به بعد ، ولم يحس الشوق إلى لقائه . ولعله أن يكون مُثْقلا ببعض ما وجهه إليه من نصح ، وما ساقه إليه من إرشاد . كلا . لم يكن عمر مشغول النفس بهذا المساء حرصاً على رؤية أخيه أو شوقاً إلى لقائه ، وإنما كان مشغول النفس بالثريا . فقد كانت قد ضربت له موعداً للقاء فى هذا المساء . وكان عمر قد اهتم لهذا الموعد قبل أن يحين حينه ، هيأ له واستعد لاستقباله وحرص عليه أشد الحرص ، ولم يستقبل ساعة من ساعات اليوم إلا فكر فيما بين هذه الساعة وبين ساعة الموعد من أمد .

وكان يتمثل صاحبته وقد أقبلت عليه باسمة مشرقة الوجه تسعى إليه فى هدوء ظاهر متكلف وهيام خفى مكظوم ، حتى إذا لقيته صافحته وضغط كل منهما على يد صاحبه ، واجتهد كل منهما فى أن يقرأ فى عينى صاحبه ، ثم جلست إلى جواره تحدثه فى رفق أحاديث الحب . ثم تودعه بعد حين طويل أو قصير وقد ضربا للقائهما موعداً آخر يضمر لهما مثل ما أضمر لهما هذا الموعد من حياة كلها ابتهاج ونعيم . كان عمر يفكر فى هذا كله، وكان يتهيأ للقاء الثريا . ولكن الحارث قد أقبل عليه ، وهو يريد أن يصرفه ، ولكن حياءه وأدبه يأبيان عليه ذلك، ونفسه تنازعه أن يخبره بما بينه وبين الثريا من موعد هذا المساء ، ولو أرسل نفسه على سجيتها لأخبره ، ولاحتمل مرارة هذا الوداع لينعم بحلاوة هذا اللقاء . ولكن لا سبيل إلى أن يخبره بذلك ، وماذا يصنع بحيائه ؟ وماذا يصنع بأدبه ؟ وكيف يلقى أخاه بعد ذلك ؟ فلم يكن بد من أن يحتمل زيارة أخيه . ولكن أخاه لا يكاد يطمئن فى مجلسه حتى ينهض فيخرج من ثياب ويدخل فى ثياب . ويستعد للنوم . وهو يوجه عمر فى حاجة له ، ثم يأوى إلى سرير عمر مسرعاً يتمنى لقاء النوم ، ويشفق كل الإشفاق ألا يلقاه . فقد كان متعباً مكدوداً حقا .

ولم يكد ينزلق فى هذا السرير ، ويضع على وجهه الغطاء . حتى أحس راحة وهدوءاً ودعة ، ثم أخذ يفقد نفسه قليلا قليلا . وإذا هو مغرق فى نوم هادئ لذيذ . وكان الحارث خليقاً أن يمضى فى نومه هذا الهادئ اللذيذ لولا أن أحس على جسمه شيئاً غضا بضا ، وعلى ثغره شيئاً حلواً لذيذاً حارا لم يتعود أن يجده من قبل . فيفيق من نومه مذعوراً ، ويفتح عينيه فيرى الثريا قد ألقت بنفسها عليه ، وجعلت تقبله ، وهى تظن أنه عمر ، فيصيح بها : اعزبى عنى فلست بالفاسق أخزاكما الله . فإذا تنبهت الثريا إلى أن هذا النائم لم يكن عمر ، وإنما كان الحارث مضت مسرعة لا تمشى على الأرض ، وإنما تمشى فى الهواء . ثم تغلق الباب من دونها ، وتتركه ساخطاً يلعنها ويلعن صاحبها . وإنه لفى ذلك وإذا عمر يُقبل ومعه الثريا لقيته حين انصرفت فأخبرته الخبر ورجعت معه . ويدخل عمر على الحارث فيقول له مداعباً : مالك وللثريا ؟ أتتك مسلمة عليكِ ، فلعنتها وزجرتها وتهددتها ، وهاهى هذه باكية ، فيقول الحارث . وإنها لهى ؟ فيقول عمر : ومن تراها تكون ؟ فلا يقول الحارث شيئاً ، وإنما يكتفى برفع رأسه وهز كتفيه منكراً عليهما هذا العبث وهذا المجون .

١٠

وما ضاق الحارث بشيء وما سخط على شيء كما ضاق بشعر عمر وسخط عليه . ولم لا ؟ أليس هذا الشعر تمثيلا صادقاً لحياة العابثين فى الحجاز خلال القرن الأول للهجرة ؟ أليس هذا الشعر تصويراً صحيحاً لحياة المرأة العربية اللاهية فى هذا القرن الأول ؟ أليس هذا الشعر وصفاً دقيقاً للصلة بين الرجال والنساء فى هذا العصر ؟ ثم أليس هذا الشعر مرآة لنفس عمر وما تصبو إليه من لذة وما تتهالك عليه من نعيم ؟ وألم ينقطع عمر لهذا الشعر يفسد به عقول الشباب ويدنس به قلوبهم الطاهرة ؟ وهل عرف الشباب الحجازى شاعراً وصف المرأة جملة وتفصيلا بمثل ما وصفها به عمر جودة وكثرة ودقة بنوع خاص ؟ بل هل عرف الشباب الحجازى شعراً أظرف وألطف وأخف روحاً وأحسن موقعاً فى النفوس وأعظم اختلاباً للقلوب والعقول من شعر عمر ؟ فكر الحارث فى هذا كله ورأى أشراف قريش يتحرجون من هذا الشعر ويشفقون من أثره فى الفتيان والفتيات . ويحتاطون فى حماية نسائهم من

روايته والظهور عليه . ورأى فى الوقت نفسه النساء يحببن هذا الشعر ويكلفن به ويُحَرِّضْنَ الفتى على قوله حين يترصدنه ويَتَعَرَّضْنَ له . فماذا يفعل الحارث فى هذا الشعر؟ أيتركه ينمو ويزداد ويشيع بين الناس فيؤتى ثمراته المنكرة البغيضة ؟ أم يحاول أن يصرف الفتى عنه فيجنب الناس ما عسى أن يتورطوا فيه بسببه من الخطايا والآثام ؟ ولكنه قد حاول غير مرة أن يصرف الفتى عن هذا الشعر فلم يسمع له ولم يفهم عنه ولم يقبل منه . وإنه ليفكر ويفكر فيخطر له هذا الخاطر : ماذا لو أغرى الفتى بالمال ليصرفه عن قول الشعر ؟ ليجربْ هذه الوسيلة فلعلها أن تنتهى به إلى الغاية التى يريدها . ويخلو الحارث إلى عمر ذات يوم فيحدثه عما لشعره من أثر سيىء فى نفوس الفتيان والفتيات . ويعلن إليه أنه إذا كان ماجناً فلا أقل من ألا يدفع الشباب معه إلى هذا المجون بهذا الشعر الذى يقوله ويدفعه إلى المغنين ، فما أسرع ما تسمعه الآذان وتنطلق به الألسنة وتفسد له الضمائر والقلوب . ويبسم عمر ساخرا لهذا الكلام . ولكن الحارث يمد يده إليه بكيس كبير ممتلىء بالدنانير . ويقول له : خذ هذا على ألا تقول شعراً منذ اليوم . ويفتح عمر الكيس فإذا مال كثير يخلبه ويملأ قلبه بهجة وسروراً .

فينظر إلى الحارث مبتسماً ويسأله : كم ؟ فيقول له : ألف دينار . فيعلن عمر قبوله لما يُعرض عليه . ثم ينصرف الحارث وإنه لأسعد الناس بما ظفر به ، فهذا عمر لن يقول شعراً منذ اليوم . ولكن عمر ينظر فيرى أن مقامه فى مكة خليق أن يهيجه على قول الشعر ، فهذه الثريا ما زالت مستأثرة به ، لا تمكنه من الانصراف عنها والزهد فيها . وهى قد تضطره بغموضها إلى الفرار عنها إلى النساء يلتمس فرجاً من حرج ومخرجاً من ضيق . ولكنه لا يفر عنها إلا ليعود إليها أشد ما يكون شوقاً لها وكلفاً بها ورغبة فيها . فهل يستطيع مع هذا كله ألا يقول شعراً ؟ ثم هذا موسم الحج قد كاد أن يقبل ، وهو لم يكن يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامى للجمال ، يتلمس فيه النساء المترفات ،ويكون بينه وبينهن ما يكون من لقاء أوحديث أو مكاتبة ، تعمل رسله فى ذلك فتأتيه المواعيد فى مكة حيناً وفى منى حيناً آخر . فإذا انتهى الموسم شيعهن وقال فيهن الشعر الجيد يسبقهن إلى مواطنهن . وهو قد أقلع عن تلمس النساء فى مواسم الحج منذ أن عرف الثريا ، إلا أن تضطره بغموضها إلى ذلك . ولكن من يضمن له إلا تُرسل إليه الثريا ابتسامة غامضة أو تمد إليه نظرة لا يفهم منها شيئاً ؟ بل من يضمن له

ألا تتعرض له النساء وهن يحببنه ويتهالكن عليه ويحرصن على أن يقول الشعر فيهن ؟ فلم يكن بد من أن يفكر فى رحلة تخرجه من هذه البيئة ، وتصرفه عن قول الشعر . ولكن أواجد هو فى نفسه الشجاعة على السفر إن تهيأت له أسبابه ؟ فليس من اليسير ولا من الأشياء التى يستطيع احتمالها ترك هذه الحبيبة مهما كانت قسوتها عليه ومهما كانت سيرتها معه . وكيف له بتركها وتعريضها لأزمة من هذه الأزمات العنيفة الحادة التى تتعرض لها المرأة حين يهجرها حبيبها وينآى عنها ؟ وهل لهذه الرحلة نتيجة بالقياس إليه إلا الوحدة المظلمة والعزلة المؤلمة والحياة القاتمة التى يحياها وهو يائس من ماض لا سبيل إلى عودته ، ومنتظر مستقبلا أيسر ما يقال فيه : إنه الضعف والعجز والفناء والموت ؟ فما ينبغى إذن أن يفكر فى الرحلة فإنه لا يفكر فيها إلا امتلأت نفسه حزناً . وامتلأ قلبه منها رعباً ، وامتلكه جزع يفسد عليه أمره كله وينغص عليه حياته كلها . وإنه لفى ذلك وإذا الثريا تقبل عليه فتجعل هذه الرحلة أمراً لا مفر منه ، فإنها لم تكد تجلس إليه حتى حدثها بما كان بينه وبين أخيه الحارث ، وبما أخذ يفكر فيه من الرحيل . ولا تكاد الثريا تسمع أنه قد فكر فى الرحيل حتى تقول له : فأنت

تبيعني إذن بهذه الدنانير التي أعطاها لك أخوك؟ ثم تعلن مغاضبتها له . وتنصرف عنه وإنه لضيق أشد الضيق بهذه الحياة التي يحياها ، والتي لا يعرف أسعيد هو فيها أم شقي؟ فما أكثر ما تحمله الثريا على الرضا والسخط . وعلى اللذة والألم ، وعلى النعيم والبؤس ، وعلى الظفر والحرمان . ولا بد له أن يستريح من هذه الحياة وقتاً ما . مهما كان الأمر ومهما كانت النتائج .

وإذن فلا بد من الرحيل . ولكن إلى أين؟ هنا يخطر له أن يرحل إلى اليمن . فهناك في «لَحْج» تقيم أخواله . فماذا عليه لو خرج فأقام عندهم ما شاء الله له أن يقيم؟ لا شيء . وما هي إلا أن يتهيأ الفتى للرحلة ويتهيأ أيضاً لفراق الثريا . وكان خليقاً أن يذهب إليها فيُوَدِّعَها قبل سفره . فقد يكون في ذهابه إليها بعض الخير ، حين تتصل عيناه الحادتان بوجهها الجميل فتطبعان صورته الحلوة الرائعة في نفسه فتكون له رفيقاً مؤنساً في سفره هذا الشاق الطويل . ولكنه لم يفعل . لأنه يعرف أنه إن ذهب إليها فسوف تترضاه ، وتعلن إليه حبها ووفاءها وتنكر عليه تفكيره في الرحيل . وهو سيعلن إليها ضيقه بهذه الحياة التي يحياها ، وأنه في أشد الحاجة إلى شيء من الراحة لنفسه المعذبة ، وإلى قليل من الاطمئنان لقلبه المضطرب .

وهذا من غير شك سيحملها على أن تبره وترفق به وتتلطف له وتعطف عليه . وهو يخشى أن يضعف أمام ما تظهر له من هذه العواطف فيبقى وهو يريد الرحيل . ولو أنه كان واثقاً أن تجنبه الثريا بعد ذلك قسوتها ومغاضبتها وهذه الأشياء التي تنغص عليه حياته ، لرجع عما اعتزم من الرحيل . ولكنه يعلم عجزها عن ذلك . فليستعد إذن للرحلة والفراق . وهو يعلم أن الفراق مؤلم . أليس يشعر بالألم ؟ أليس سيشعر به أثناء سفره ؟ ولكن لابد من احتمال الألم إذا لم يكن عنه منصرف . وما أشرقت الشمس وما ارتفع الضحى حتى كان عمر قد بدأ طريقه الطويلة إلى غايته البعيدة . وانتهى النبأ إلى الثريا فلم تظهر ارتياعاً ولا التياعاً . ولم تصعد من صدرها زفرة ، ولم تنحدر من عينها عبرة . ولم يفارق وجهها هدوؤه وانبساط أساريره . ولم يفقد صوتها اطمئنانه وعذوبته . ومع ذلك فقد كانت نفسها تبكي بكاء مرا ، وكان قلبها يشكو شكاة الطائر المهيض . ولكن أصداء هذا البكاء وهذه الشكاة لم تكن تتردد إلا في أعماق الضمير . لقد كانت ثابتة للخطب مطمئنة له لأنها واثقة أن صاحبها يحبها . وأنه لا ينصرف عنها إلا ليعود إليها أشد ما يكون شغفاً وكلفاً ، وشوقاً وهياماً ، ورغبة وحنينا .

وكانت مطمئنة إلى أن صاحبها سيطرب يوماً فيقول الشعر ، على الرغم من هذه الدنانير الألف التى أغراه بها الحارث . ذلك لأن الشعر إنما ينتجه الشاعر ، لا لأنه يريد أن ينتجه ، وإنما لأنه مضطر إلى إنتاجه اضطراراً ، بحكم هذه الملكة الفنية التى فطره الله عليها . فهو يصدر عنه كما يصدر التغريد عن الطائر الغرد ، وكما ينبعث العرف من الزهرة الأرجة ، وكما ينبثق الضوء من الشمس المضيئة . ولعلها سخرت من الحارث حين أغرى عمر بالمال ليترك الشعر . ولعلها سخرت من عمر أيضاً حين ظن أنه قادر على ترك الشعر . وكانت الثريا محقة فى سخريتها من الحارث ومن عمر جميعاً . فهذا عمر يطرب ذات يوم فيقول قصيدته التى فيها :

ما أنس لا أنس يوم الخَيْفِ موقفَها
وموقفى وكلانا ثَمَّ ذو شجن

وقولهـا للثريا وهى باكيـة
والدمع منها على الخدين ذو سُنَن .

بالله قولى له فى غير مَعْتَبَةٍ
ماذا أردتَ بطول المكث فى اليمن

إن كنتَ حاولت دنيا أو ظفرت بها
فما أخذتَ بتّرك الحج من ثمن

وتسير هذه القصيدة حتّى يسمعها الحارث ، فيقول : هذا والله شعر عمر . قد فتك وغدر .

١١

وأقبل عمر من اليمن . فأقبلت عليه وفود من علية قريش وأصحاب المكانة فيها ، فسلموا عليه ، وجلسوا إليه ، فتحدثوا معه ألواناً من الحديث مختلفة متباينة ، تدور كلها حول ما جدّ من الأمور فى مكة منذ أن رحل عمر عنها إلى أن عاد إليها . ولعلها دارت أيضاً حول ما رأى عمر فى اليمن وما عرض له من الأمور وما ألم به من الأحداث . ويظهر أن هذه الأحاديث قد طالت حتى انتهى النهار وأقبل الليل وهى لا تريد أن تنتهى . وكأن واحداً من الحاضرين قد ضاق بها وأراد أن يفرغ منها فطلب إلى عمر أن يدعو لهم بعض إمائه يغنين ويرقصن ، فما أنفق الليل فى خير من الغناء والرقص . ودق عمر يدا بيد ، فأقبلت جارية حسناء تسأله ماذا يُريد ؟ فطلب إليها أن تتهيأ هى وبعض الجوارى ليرقصن ويغنين له ولأصحابه . وما هى إلا لحظات حتى فتحت الأبواب وانفرجت الأستار وأقبل الجوارى حساناً صباحاً يرقص ويغنين ويطربن الحاضرين . وليس من شك فى أنى لم أشهد هذا الرقص ولم أسمع هذا الغناء

ولم أرَ طرب الحاضرين بهذا الرقص وهذا الغناء . ولكن ليس من شك أيضاً فى أن هذا الرقص كان رائعاً بارعاً ، وفى أن هذا الغناء كان جميلا فاتناً ، وفى أن الحاضرين لم يطربوا لهذا الرقص وهذا الغناء وإنما سُحِروا سحراً ليس فوقه سحر . فقد كان الجوارى يغنين فى شعر عمر وهن يرقصن ، فكانت حركاتهن الأنيقة الرشيقة تمازج أصواتهن العذبة الرخيمة . وهى تنطلق بهذا الشعر الجميل الرقيق . وكان هذا الرقص يصور فى حركاته هذه العواطف المختلفة التى يصورها فى أصواته هذا الغناء العذب . ويصورها فى ألفاظه هذا الشعر الجميل ، فكانوا يرون هذه العواطف مصورة فى الحركات والصوت واللفظ جميعاً ، فكانوا لا يشكُّون فى أن هذا الرقص وهذا الغناء وهذا الشعر ، كل هذا قد اجتمع ليصور عواطفهم أصدق تصوير وأدقه ، فقد لا يتاح للحركات وحدها ، ولا للأصوات وحدها ، ولا للألفاظ وحدها ، أن تصور هذه العواطف ، وإنما يتاح لها أن تصور هذه العواطف إذا اجتمعت كلها وتعاونت كلها على تصويرها .

ثم تقبل الثريا على عمر فلا تكاد تراه حتى تلقى بنفسها بين ذراعيه وهى تقاوم شوقاً لم يلبث أن استحال إلى دموع غلاظ

تحدرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام . ويضمها عمر إليه ويقبلها تقبيل الوامق المشوق ، ولا يستطيع هو الآخر أن يحبس الدموع فتنهمر من عينيه انهماراً . فلما أفاقا وهدأت نفساهما شيئاً ، واستقر قلباهما فى صدريهما قليلا ، قالت له : أهكذا تترك ثرياك العزيزة ووطنك الحبيب ؟ فماذا أزعجك عنى ؟ وماذا أخرجك من وطنك وأنت تحيا فيه حياة ناعمة وتعيش فيه عيشاً باسماً ؟ ما كنت أحسب أن فراقى يهون عليك إلى هذا الحد ؟ وأن نفسك تتجافى عن وطنك على هذا النحو ؟ وهم عمر أن يجيب . ولكن الثريا لم تمهله ، وإنما قالت له : أهكذا ثقل عليك حبى . وضاقت نفسك بى ، فانتزعت نفسك منى ومن وطنك انتزاعاً ؟ قال عمر وهو يضمها إليه : فوالله ما ثقل على حبك ولا ضاقت نفسى بك ، وإن مكانك منى بحيث تعلمين ، فأنت سعادتى ونعيمى ، وأنت أملى ورجائى فى هذه الحياة ، ولكنك تكلفينى ما أطيق ومالا أطيق بمغاضبتك لى وقسوتك على وبما تركين فى نفسى وأمام عقلى من ألغاز وأسرار لا أستطيع أن أنفذ إلى أعماقها ، وبما تثيرين حولك من غموض يحجب نفسك عنى ، فأحاول أن أصل إليها فلا أبلغ من ذلك شيئاً ، وإنما أجاهد وأجاهد ثم لا أكاد

أقرب من الغاية حتى تبعد عنى ، وكأنها تفر منى ، فأنا فى جهاد متصل وطموح مستمر . وأظنك تبيحين لمن تكلف هذا الجهد واحتمل هذا العناء أن يفكر فى الرحلة لا يريد القطيعة ، وإنما يريد الفرار إلى حيث يستريح ويستجم ، ثم يستأنف الجهاد والطموح . وتهم الثريا أن تجيب ، ولكنه يمضى فى حديثه قائلا : وكنتُ فى أثناء هذه الرحلة التى بعدتُ فيها عنك ، أغالب الشوق إليك فأغلبه حيناً ويغلبنى أحياناً ، وأصارع الحنين إليك فأصرعه حينا ويصرعنى فى أكثر الأحيان. ولولا أنى وجدتُ من أخوالى ومن بعض من لقيت من الناس ، ومن هذه الطبيعة المشرقة الباسمة المتألقة ما كان يشغلنى عن نفسى ويصرفنى عما كان يتنازعنى من العواطف والأهواء ، لانتهى بى الأمر إلى مالا أحب . وقد رجعتُ إليك مستسلماً لحبك مذعناً لسلطانك واستجبت لدعاء الحب فألقيت نفسى فى ناره المضطرمة فوجدت فى الاحتراق بهذا الجحيم نعيما أى نعيم . ثم ينعطف إليها فيقبلها ويضع خده على خدها ، وينعمان معا بساعة حلوة لذيذة . فإذا انصرفت الثريا وخلا عمر إلى نفسه جعل يسأل نفسه عن هذه الفتاة القادرة الساحرة التى لم يكد يجلس إليها حتى ضعف وتهالك وترك نفسه لها تصرفها كما

تريد ، وترك أمره لها تدبره كما تهوى ، وكأنه أمام قوة قاهرة لم يستطع لها مقاومة ، فاستسلم لها مذعناً مقهوراً . وهى على ذلك تستجيب له فى بعض ما يريد كما تستجيب الأمة الخاضعة للسيد المتسلط ، فلا يزيده هذا إلا حيرة وغيظاً ، وإذا هو يريد أن يعرف : ما هذه النفس الغامضة التى تنغص أيامه وتؤرق لياليه ؟ أتمتاز هى عن نفوس النساء بشىء ؟ أم أنها نفس امرأة لا أكثر ولا أقل ، ونفوس النساء ألغاز لا تحل وليالى لا تنجلى وأسرار لا يظهر عليها أحد . وتلح هذه الخواطر على عمر وتستأثر به فيخرج كئيباً محزوناً ، يلتمس راحته فى امرأة يتحدث إليها ، أو فتاة يلهو معها ، فلا يكاد يتقدم به المسير شيئاً حتى يلقى فى طريقه كلثم بنت سعد .

١٢

وكانت كلثم بنت سعد هذه فتاة مخزومية من قريش ، وكانت فى ريعان شبابها ، قد أوتيت من الجمال والفتنة حظا عظيما ، وكانت إلى جمالها وشبابها شديدة الذكاء ، كثيرة العلم ، قوية الإرادة إلى حد غريب ، شديدة السلطان على نفسها ، تشعر بالشىء العنيف ، وتتأثر بالعاطفة الحادة ، ولكنها تخفى هذا كله على الناس فلا يحسونه ولا يشعرون به . وقد تستطيع أن تخفيه على نفسها . وقد رأت عمر بن أبى ربيعة فأحبته وكلفت به ، ولكنها لم تفكر فى الزواج منه . أو قل إنها فكرت فى الزواج منه ، ولكن عقلها لم يوافق على هذه الفكرة آخر الأمر . فعمر بن أبى ربيعة فتى جميل قوى ماجد ولكنه يتخذ له صاحبة هى الثريا ، وهو لا يكتفى بهذه الصاحبة وإنما يحوم حول كل فتاة يراها رائعة ، فهو مسرف فى اللذة متهالك على اللهو مفتن فى ضروب المجون ، فهو لا يصلح أن يكون لها زوجاً ، أو قل إنه لا يصلح أن يكون زوجاً . هى إذن

يائسة من الزواج منه ولكنها تحبه فيجب أن تقاوم هذا الحب . ولكن نفسها تنزع إليه فيجب أن تحارب هذه النفس وتلزمها أن تطمئن إلى ما هى فيه من حياة الوحدة . وحسبها جواريها يُسَلِّينَها ويغنين لها ويطرفنها بغرائب الأنباء وعجائب الأخبار . ولكن عمر قد رآها ، فأعجبه جمالها ، ولم يجد بأساً فى أن يتحدث إليها ، ويتحدث إليها فى الحب . ولكنه لا يكاد يذكر لها الحب حتى تعلن فى شدة وعنف أنها تكرهه وتنفر منه كل النفور ، لأنه مصدر ألم لا حد له ، ثم تتركه ولا تسمع لحديثه وكان عمر خليقاً أن ينصرف عنها كما انصرفت عنه . ولكنه يريد أن يلهو ، وأن يمضى فى هذا اللهو إلى أبعد حد ممكن . فيرسل إليها جارية من جواريه هؤلاء اللائى يحسن الحديث ويعرفن مداخل القلوب . ولكن هذه الجارية لا تكاد تتحدث إلى كلثم عن عمر حتى تغضب ، وتأمر الجارية أن تقطع هذا الحديث وأن تخوض فى حديث غيره . ولكن الجارية تحاول أن تتم الحديث ، فتثور كلثم عليها وتضربها ، ثم تطردها ، وتحذرها أن تعود إليها مرة أخرى . ولكن عمر يغرى الجارية بالعودة إلى كلثم ومحاولة الحديث إليها ، فقد يمكن أن تصل معها إلى ما لم تصل إليه من قبل . وتذهب الجارية إلى

كلثم فلا تكاد تراها حتى تقول لها : فقد بعثك عمر بن أبي ربيعة إلىّ وأطعته وأقبلت علىّ أيضاً ؟ فتقول لها الجارية : نعم يا سيدتي بعثني عمر إليك ، ولم أستطع أن أخالف عن أمره . ومتى خالفت الجارية عن أمر سيدها ؟ هنالك تثور كلثم ثورة هائلة ، فإذا هي مجنونة أو أكثر من المجنونة ، لم يمتقع وجهها ولم تظهر عليه آثار الغضب ، وإنما اضطرب دمها وغلا حتى يكاد يخرج من عينيها ، وإذا لسانها منطلق بأشنع الألفاظ ، وإذا صوتها قد بلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ من الارتفاع ، وإذا هي تريد أن تبطش بالجارية . وقد أسرعت إلى الجارية فضربتها وخنقتها ثم دفعتها دفعاً إلى خارج الدار . وتتحدث الجارية إلى عمر بكل هذا . ثم لا تلبث هذه الأنباء أن تشيع في الناس ، وإذا رسل عمر يأبون كل الأباء ويرفضون أشد الرفض أن يذهبوا إلى كلثم وأن يبلغوها رسالة ما . ولكن هذا كله يغري عمر بها ، وإذا هو يذهب إلى سوق الرقيق فيبتاع جارية سوداء لطيفة رقيقة عذبة اللفظ حلوة الحديث فيكرمها ويحسن إليها ، ويكتب إليها رسالة ويقول لها : إن أوصلت هذه الرسالة إلى كلثم فأنت حرة ، وعلىّ أن أيسر لك العيش طول الحياة . وتحتال الجارية بكل الحيل . وتتوسل

بكل الوسائل حتى تبلغ رسالة عمر إلى كلثم . وتأخذ كلثم الرسالة فتقرؤها فإذا فيها قصيدته :

من عاشق صب يسرُّ الهوى قد شفَّه الوجد إلى كلثم

فإذا قرأت كلثم هذه الرسالة قالت للجارية : إنه كاذب مخادع يريد أن يصل منى إلى ما يريد ، ثم يهجرنى وينسانى . وهو لا يحبنى وإنما يشتهينى . وتؤكد لها الجارية : أنه يحبها ، وأنه صادق فى حبه . وتستطيع الجارية أن تقنع كلثم بأن عمر يحبها ، فتقول لها كلثم : وأنا أعلم حقا أنه يحبنى ، وأستطيع الآن أن أقول : إنى أحبه أيضاً . ولكنى لم أشعره قط بهذا الحب . ولقد حاولتُ كثيراً أن أمسك نفسى وأن أذود عنها وأن أحميها من السقوط فى هوة الحب . ولكن يظهر أن النساء جميعاً غنيمة ولو مرة واحدة فى الحياة لهذه الجذوة الملتهبة الضرورية جذوة الحب . قالت الجارية : إنك يا سيدتى امرأة متكبرة قوية الإرادة تقاومين وتمانعين هذا الألم اللذيذ . ومع أنك كتمت الأمر ولم تتحدثى إلى عمر بشىء . فإن لحاظك قد فضحت هذا السر . قالت كلثم للجارية : ماذا تقولين ؟ قالت الجارية : فإن عمر يعرف أنك تلتهمك جذوة الحب . ولكنك تجاهدين وتمانعين . وقد حدثنى فيما حدثني .

أنك وإن كنت تنكرين الحب إلا أنك تصطلينه . قالت كلثم : إذن فاذهبي إلى عمر فأنبئيه بأنى لا أجد بأساً فى أن يزورنا هذا المساء .

ويقبل عمر على كلثم مع الليل ، ويمكث عندها شهراً كاملا — فيما يحدثنا الرواة — لا يعلم أهله أين هو ؟ ولا تعرف الثريا أين ذهب ؟ حتى إذا استأذن فى الخروج قالت له : بعد أن فضحتنى ؟ لا والله لا تخرج إلا بعد أن تتزوجنى ، فتزوجها وولدت له ولدين : أحدهما ولده جوان .

١٣

تورط عمر إذن فى زواجه من كلثم بنت سعد ، ولولا أنه تورط وأقام عندها شهراً ما تورط فى هذا الزواج . وكذلك الناس يلهون ويعبثون فيورطهم لهوهم وعبثهم فى أشياء ، لها فى حياتهم أكبر الأثر وأعظم الخطر . ولو أن عمر كانت له إرادة حقا فى الزواج لتزوج من الثريا صاحبته ، هذه التى يختلف إليها ويجشم نفسه الأهوال فى سبيلها . وما أدرى أكانت الثريا تطمع فى الزواج من عمر ؟ أم كانت تكتفى منه بهذا الحب ؟ وما أدرى أيضاً أكان عمر يعرض لها بالزواج ويشير إليه فى أحاديثه معها ؟ أم كان يكتفى بحديث الحب ؟ ولكنى أعلم أن الثريا لم تكد تعلم أن عمر قد تزوج من كلثم حتى جزعت جزعاً شديداً . وعرف عمر هذا الجزع ، أحسه فى نفسه لأنه يعلم مقدار حب الثريا له ، وعرفه من صديقاتها المتصلات بها والمتصلات به أيضاً . ومن يدرى ؟ فلعله قد تسمع عليها واحتال فى استراق حديثها . وما يمنعه أن يدور حول بيتها كما كان الأحوص يدور حول بيت أم جعفر ، وينتهز لذلك فرصة

الليل . فيحاول أن يسترق السمع ويختلس بعض ما يتصل من ،
حديث ؟ ومهما يكن من شيء فقد عرف عمر أن زواجه من
كلثم كان له فى نفس الثريا أكبر الأثر وأعظم الوقع . وهو
يصور ذلك فى قصيدته :

أخبروها بأنى قد تزوّجـ ـتُ فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختهـا ولأخرى جزعاً ، ليته تزوج عشرا
وأشارت إلى نساء لديهـا لا ترى دونهن للسر سترا
ما لقلبى كأنه ليس منى ؟ وعظامى أخال فيهن فترا
من حديث نمى إلىّ فظيع خلت فى القلب من تلظيه جمرا

وليس من شك فى أن عمر قد فكر من أول يوم تمّ فيه
زواجه من كلثم أن يستأنف صلته بالثريا . فهو إنما يهزل
فى هذا الزواج ولكنه لا يهزل فى هذا الحب . ومتى هزل الناس
فى الحب ؟ وكان من أجل ذلك يهيىء نفسه ليعود أدراجه إلى
حيث الحب وما يمكن أن يستتبع من نعيم أو بؤس ومن سعادة
أو شقاء . وكيف لا يستجيب لنداء قلبه وهو يحيا مع زوجه
حياة لا يعرف كيف يصفها ولا كيف يسميها ؟ فقد كان
يحس بأنه لا يحب بيته ، وإنما يحب هذا البيت الذى ترك
قلبه فيه ، هنالك فى ذلك البيت الجميل الذى تعيش فيه هذه

الفتاة المترفة التى تسمى الثريا . فى هذا البيت ترك عمر قلبه . وهو من أجل ذلك لا يعرف كيف يحيا بعيداً عن هذا البيت ؟ فهو يفكر فى الرجوع إليه ، واستئناف الصلة به . إلى هذا البيت يريد أن يلجأ ، وفى ظله يريد أن يعيش ، وعند صاحبته يريد أن يلتمس الراحة لنفسه المعذبة والشفاء لقلبه المريض . ولكن ما خطبه وما خطب الثريا إن رأته فأنكرته، ثم أبت أن تفتح له بابها ، وأن تلقاه بما يحب أن تلقاه به من الرضى والعطف والابتسام؟ ما خطبه وما خطب الثريا إن سألته : أين كان ؟ كيف يجيبها ؟ وبم يجيبها ؟ أيقص عليها أمره مع كلثم وهى تعرفه ؟ أم يطويه عنها ولا فائدة من طيه ؟ وكيف يعتذر إليها عن زواجه من كلثم ؟ بل كيف يرفع طرفه إليها ويحدق النظر فيها بعد أن خانها هذه الخيانة ؟ إنه ليستحى أن يذهب إليها ، وإنه لا يجد القوة على أن يلقاها . ولكنه مع ذلك لا يجد القدرة على البعد عنها ، ولا يعرف كيف يحيا بدونها؟ ومن أجل ذلك فلا بد أن يقبل عليها ، وأن يفضى إليها بأمره كما وقع . فينبئها بأنه قد تورط فى زواجه من كلثم ، وأن هذا الزواج إن دل على شىء فإنما يدل على أن هناك شيئاً فوق الأشياء يدبرها ويسخرها ، وفوق الناس يسيطر عليهم ويدبر

أمورهم . وهذا الشيء هو القضاء . القضاء الذى يعبث بعقول الناس وقواهم . ويعبث بسلطانهم وإرادتهم ، ويقول كلمته فتفسد عليهم ما دبروا . وتنقض ما أبرموا . وتلزمهم أن يعترفوا بضعفهم وقصورهم وغرورهم ، وبأنهم عاجزون مهما بلغوا من العقل والذكاء ومن الرقى والحضارة أن يضمنوا لأنفسهم السعادة ويحموا أنفسهم من الشقاء . نعم ينبئها بهذا كله ، وينبئها مع هذا كله بأنه مريض قد أقبل يلتمس العناية والعلاج . فهو — وإن تزوج من كلثم واعتبرت هى هذا الزواج خيانة لها — إلا أن هذه الخيانة ليست فى حقيقة الأمر إلا لوناً من ألوان الضعف وضرباً من ضروب العلة ، لم يتعمدها تعمداً ، وإنما تورط فيها تورطاً ، واضطرته إليها أسباب قاهرة لم يجد إلى التخلص منها سبيلا . فهو خليق بأن تعطف عليه وتعنى به وتطبَّ لدائه وعلته ، وهذا العطف ليس تشجيعاً له على خطيئته ، وإنما هو فهم لها وإدراك لأسبابها ، ومعرفة لضعف الإنسان وغروره ، وعمل على إصلاحه لا على الانتقام منه . وإنها لأدرى الناس بعلته وأقدرهم على علاجه .

وهو يقبل عليها فلا تكاد تراه حتى تضطرب . وإذا هو محزون يدافع عبراته ، ولا يكاد يثبت على قدميه ، ولا يكاد ينطق

بتحيتها . وهى متأثرة ، ولكنها تتجلد وتتكلف القوة ، فتحييه
تحية فاترة ، ويجلس . فتسأله : ما خطبه ؟ وماذا يريد ؟
فيحاول الكلام . ولكن لسانه معقود ، وشفتيه مقفلتان . لم
يتح للسانه أن ينطلق بشىء ، ولم يتح لشفتيه أن تنفرجا عن
شىء . وإذا هو يبحث عن الكلام الذى كان قد أداره فى
نفسه ، وكان يريد أن يقوله لها . وعن هذه الألفاظ الحلوة
التى كان يريد أن يرسلها إلى نفسها الثائرة وقلبها المكتئب .
ولكنه لا يجد فى نفسه شيئاً . فقد أنسى كل شىء . ثم يتاح
لهذا اللسان المعقود أن ينطلق ، ولهذا الفم المطبق أن ينفتح ،
وإذا هو يعلن إليها ندمه وألمه . وما يحمله هذا الندم من أثقال
وما يجشمه هذا الألم من أهوال . ولا يكاد عمر يستمر فى
حديثه حتى تشعر الثريا بأنه لا يستطيع أن يعيش بدونها
حقا . وقد بلغ بها التأثر أقصاه ، وفقدت كل قوة ، فهى
تضمه إليها . وهو محزون ولكنه سعيد بين ذراعى حبيبته .
وإذا هذه الحبيبة التى كانت ترى نفسها قد أهينت ، وترى
صاحبها قد خانها ، وكانت تريد أن تكون كريمة أبية ، وأن
تقطع الصلة بينها وبين هذا الخائن ، لا تستطيع أن تقطع

صلتها به ، لأن سلطان الحب عليها أقوى من سلطان الكرامة .
وقد استطاع عمر أن يخرج بعد أن تم له رضا صاحبته ، وضربت
له موعداً للقاء .

١٤

ويرجع عمر من عند الثّريا ذات يوم فيلقى فى طريقه صديقه ابن أبى عتيق . فإذا سأله ابن أبى عتيق : من أين ؟ قال : مِنْ عندها . قال ابن أبى عتيق : من عند الثّريا ؟ قال عمر : فتريد مِنْ عند مَنْ إذن ؟ قال ابن أبى عتيق وهو يبتسم : من عند كلثم زوجك . هنالك ينفجر عمر فى حزن شديد ويقول لابن أبى عتيق : إنى لمجرم أيها الصديق لأنى لا أحب امرأتى ، وإنما أحب صديقتى وعشيقتى الثّريا . لقد تورطتُ فى الزواج من كلثم . وكنتُ أظن أنى سأخلص بهذا الزواج من حب الثّريا ، فلم أزد إلا إيغالا فى حبها ، وإلحاحاً فى الهيام بها وإمعاناً فى الحرص عليها . إنى لأحيا مع امرأتى أيها الصديق حياة كلها كذب ونفاق ، وأنا لا أستطيع أن أمضى فى هذا الكذب والنفاق . قال ابن أبى عتيق وهو يألم لما انتهى إليه حال صديقه : هوّن عليك أيها الصديق ، ولا تغل فى الحزن ، ولا تسرف فى التشاؤم فالحياة فيها الخير والشر ، ونحن مضطرون إلى أن نحتمل الحياة على ما فيها من خير وشر ،

دون أن نجد السبيل الواضحة إلى اتقاء الشر أو الاستزادة من الخير . نحن مضطرون إلى أن نحتمل الحياة كما هى وإلى أن نؤمن بأن ما فى الحياة من خير وشر ليس مصدره الحياة وإنما مصدره نفوسنا نحن . مصدره هذه النفوس التى تجهل نفسها ، فيضطرها هذا الجهل إلى أن تخطئ مرة وتصيب أخرى ، فتسعد حيناً وتشقى حيناً آخر . قال عمر : فإن الإنسان إذن عاجز مهما يفعل ومهما يبالغ فى الحيلة عن أن يحقق السعادة ويظفر بها كما يحب ويرضى ؟ قال ابن أبى عتيق : نعم أيها الصديق ، ولكن الإنسان مغرور يثق فى نفسه ويؤمن بأنه قادر على أن يصلح من حاله ويخفف من آلامه ، وهو فى حقيقة الأمر يجهل نفسه جهلا تاما ، وهو يجهلها أشد الجهل حين يعتقد أنه يعلمها أشد العلم ، فلا تسرف فى الإيمان بنفسك ، واحتمل الحياة على ما فيها من خير وشر . ويستأذن ابن أبى عتيق بعد أن يكون قد خفف عن صاحبه بعض ما هو فيه . وينصرف عمر إلى بيته ، فلا يكاد يلج بابه حتى تقبل عليه كلثم فرحة مرحة مبتهجة تريد أن تلقى بنفسها بين ذراعيه ، فيبسط لها عمر ذراعيه ويضمها إليه ويقبلها ، ثم يجلسها إلى جانبه ، وينظر إليها نظرة غامضة لا تفهمها ،

فتقول له : ماذا تريد أن تقول ؟ فيقول لها : أريد أن أقول : إنى أحبك . فتقول له فى دعابة ومكر : فما هكذا كنت تريد أن تقول . فيقول لها : فماذا كنتُ أريد أن أقول إذن ؟ فتقول له : لا أعرف . ولكن حسبى أن أفهم أنك لم تكن تريد أن تقول هذا ، ثم توجه الحديث وجهة أخرى فتسأله : أين كنت ؟ فيقول لها : وأين أكون إلا عند صديقى ابن أبى عتيق . نلهو فى هذا السخف الذى نلهو فيه كل يوم . وتفهم هى أنه يكذب عليها ، ولكنها تتظاهر بالسذاجة ، وتظهر له أنها تصدقه وتثق به ، حتى إنه ليسخر منها فى نفسه ، ولكنه يحدثها عن حبه لها وكلفه بها ويقول لها : ما أظن أنك تحبيننى كما أحبك ؟ فتجيبه فى سذاجة متكلفة واطمئنان مصطنع : إنها تحبه أكثر مما يحبها . ولذيذ جدا هذا الحديث ؛ لأنه يمثل هذا النفاق الشنيع بين امرأة تعرف أن زوجها يحب غيرها ، وتريد أن تحدثه بما تعرف، ولكنها تحبه وتخشى أن تسوءه إن حدثته بما تعرف . ويضطرها هذا الحب إلى أن تظهر ثقة لا حد لها ، فهى تلهو وتمزح معه فى سذاجة واطمئنان مصطنعين . وهو يخدعها ويخونها ويكذب عليها ويمعن فى الكذب ويتكلف مع ذلك أن يلهو وأن يداعب . وهى تعلم

أنه يخدعها وأنه يتكلف ما يتكلف من اللهو والمداعبة ، ولكنها لا تظهر له شيئاً ينم عن معرفتها لذلك . فإذا أقبل الليل تهيأ عمر للخروج ، فتسأله زوجه : إلى أين ؟ فيقول لها : إلى ابن أبي عتيق ، فقد ضرب لى موعداً أن ألقاه الليلة فى المسجد الحرام ، وتحس كلثم أن عمر يكذب عليها وأن بينه وبين الثريا موعداً لابد أن يكون ذاهباً إليه . فتحاول أن تمنعه من الخروج وأن تحول بينه وبين الذهاب إلى هذا الموعد . ولكن عمر ينبئها بأنه ذاهب إلى الموعد الذى ضربه له صديقه ، وليس من سبيل إلى تَخَلِّيه عن هذا الموعد . وتلح كلثم فى أن تصرفه عن ذلك ، فما أسرع ما تشعر بأنها لن تصل منه إلى شيء . فلا تسل عن دهشتها ولا عن ذهولها ولا عن حسرتها وألمها . ولكن ما أسرع ما تملك نفسها فتقف هادئة بل مبتسمة ، كأنها لم تفهم شيئاً . وتطلب إلى زوجها أن يقبِّلها قبل أن يخرج ، فيقبلها ، وكلاهما متكلف : أما هو فيتكلف الكذب والخديعة ، وأما هى فتتكلف الصبر والجلد ، وفى الحق أنه لم يكن أقل منها حزناً ، ولكنه عن حزنه مشغول ، فهو لا يفكر إلا فى صاحبته ، وقد تركت كلثم زوجها يخرج وإنها لتفكر فى أن تستحوذ عليه ، وهى لا تعرف كيف تستحوذ عليه ولكنها تعلم أنها مقدمة على أمر عظيم .

١٥

وقد فكرت كلثم فى أن تلقى الثريا ، وأن تضع حدا للصلة بينها وبين زوجها ، فذهبت إليها ذات يوم فلقيت عندها نسوة من قريش . فلما انصرف هؤلاء النسوة وخلت المرأتان كان بينهما موقف مؤثر ؛ ذلك أن كلثم تتحدث إلى الثريا فى صراحة مخالفة لما ألف الناس من ذوق وتقليد ، فتزعم لها أنها تحب زوجها حبا شديداً ، وأن زوجها يُحبُّها حبا شديداً أيضاً ، وأن من الاثم أن تعمدَ امرأة مهما تكن إلى هذا الحب فتسىء إليه . أما الثريا فتسمع هذا الكلام مبتسمة لا غاضبة ولا حانقة ، وتعلن إلى كلثم أنها تعرف عمر قبل أن يعرفها ، وأن الحجاز كله يعرف أنها صاحبته . ولكنها مع ذلك تُهَوِّنُ على هذه المرأة المسكينة فى شىء من السخرية مر شديد المرارة . ثم تظهر من العطف عليها والرفق بها ما يملأ قلبها اطمئناناً . ثم تبالغ الثريا فى هذا فتتخذ كلثم صديقة لها ، وتهدى إليها هدية قيمة من كسوة وألطاف ، وهما إذن صديقتان . وقد أمنت كلثم كل مكروه . ولكن أمد هذا الأمن ليس طويلا ،

فقد خرجت كلثم تراقب زوجها ذات ليلة ، فإذا هو ينتحى ناحية فى الصحراء ، وإذا هو يذهب ويجىء كأنه ينتظر أحداً . على أن انتظاره هذا لم يدم طويلا . فهذه الثريا قد أقبلت . وهاهى هذه تتقدم إليه ، وها هو هذا يدنو منها فيفتح لها ذراعيه ، وهى تلقى بنفسها بينهما فيضمها ويقبلها . وتنكر كلثم ما رأت ، وتهم أن تقفل راجعة وتترك هذين العاشقين يستمتعان بما أتيح لهما من نعيم ، ولكنها تستكثر على نفسها أن تشقى وينعم هذان العاشقان . وإذا هى تتقدم إليهما فيكون بينها وبينهما موقف مؤثر شديد التأثير . فانظر إليها مغضبة ساخطة قد استطاعت أن تضطر هذين العاشقين إلى أن يسمعا منها كل ما تريد أن توجه إليهما من سب ولوم . ثم انظر إليها قاضية تأخذ بالعدل وتريد أن تعرف ما قدر لها بين هذين العاشقين . فهى أيضاً عاشقة ولحبها الحق فى الحياة . ثم هى زوجة ولها حقوق الزوجات . ثم انظر إليها ضارعة قد جثت أمام الثريا تستعطفها وتترضاها وتطلب إليها أن تترك لها زوجها . وانظر إلى الثريا وقد اضطربت كلها لهذا الموقف فخيرت عمر بينهما ، وعمر لا يختار ، وإنما يريد أن ينصرف مع زوجه ليفرغ من هذا الموقف المؤلم . أو يريد أن يصرف

زوجه ، ولكن زوجه قد رأت وفهمت . فانظر إليها وقد اقتنعت بضعفها ، واستيقنت بأن عمر ليس مفتوناً بالثريا ، وإنما يحبها حقا ، وإذا هي تتشجع فتكظم عواطفها وتغالب عبراتها ، ولا تطلب إلى زوجها أن يرحمها أو يرد إليها ، وإنما تطلب إليه أن يطلقها ، لأنه إذا لم يكن يحبها ففيم الحياة معاً ؟ ثم تنصرف وتتركه مع عشيقته واجماً بهذا الحديث لا يعرف ماذا يصنع ولا يدرى كيف يقول ؟ ولكن الأمر لا يقف عند هذا فسيقبل عمر على المنزل بعد حين طويل أو قصير وسيلتقى الزوجان وجهاً لوجه . فانظر إلى ما يحدث في هذا الموقف من تغير العواطف وتبدلها . فهذه كلثم تنتظر زوجها مغضبة محنقة محزونة . وهي تهيء نفسها للدفاع عن حقها وعن شرفها . وهي تعتقد أنها ستحسن الدفاع ، وأنها ستكون شجاعة قوية بل عنيفة قاسية . ولكن ماذا ؟ لقد أقبل زوجها فلم تكد تراه حتى فقدت شجاعتها وقوتها ، وإذا هي تكظم الحزن أن ينفجر وتحبس الدموع أن تنهمر . وإذا هي تبحث عن القوة المادية فلا تجدها ، وعن اللفظ فلا تكاد تظفر به . أما هو فقد أقبل على المنزل وهو يرى أنه قد ظلم امرأته ظلماً فاحشاً ، وأساء إليها إساءة منكرة . فهو يستعطفها

ويترضاها ويحاول أن يدافع عن نفسه ، وهى لا تسمع له ولا تصدقه . ولكنه صادق . فقد لا يكون حبه إياها قويا ، ولكنه قد أحبها . وقد قَوَّت المحن هذا الحب فأصبح الآن عظيما . وهو كلما تكلم ظهر صدقهُ . وكلما ظهر صدقه أثر فى نفس امرأته ، وإذا تحول غريب فى العاطفة : أما هو فشديد الهيام بزوجه ، يدنو منها يريد أن يضمها إليه . وأما هى فليست أقل منه هياماً ، ولكنها أشد منه شجاعة وأعظم منه شعوراً بالكرامة . فهى تغالب عواطفها وتقف زوجها عند حده . وتسأله : أيستطيع أن يقطع الصلة بينه وبين صاحبته ؟ فإذا هو متردد ، يفكر ولا يجد جواباً صريحا . ولكن هذا التردد نفسه يكفيها فتقتنع بأنه لا يستطيع . وانظر إلى التغير الجديد فى عواطفها . أنظر إليها راضية مطمئنة تعلن إلى زوجها أنها تحبه ، وأنها وإن كانت تألم لأنها لا تجد لحبها صدى فى نفسه ، إلا أنها ستطوى قلبها على ألمه ، وستغمض عينيها على القذى ، وستضحى بنفسها فى سبيله ، وستضحى بسعادتها فى سبيل سعادته . وفى سبيل الحب ما تتكلف فى ذلك من عناء . وفى سبيل الحب أيضاً ما تؤرق فى ذلك من ليل طويل . فى سبيل الحب هذا كله . فإن هذه المحنة القاسية لم تتكشف لها

إلا عن شيء واحد ، وهو : أنها تحب زوجها إلى أبعد ما يمكن أن ينتهى إليه الحب ، وتحتمل فى سبيله أقصى ما يمكن أن تحتمل المرأة من مشقة وجهد وتضحية . وهو يسمع منها هذا فيأخذه شيء من الذهول لا حد له ، وإذا هو معجب بهذا الحب وهذه التضحية عجباً لا يزيده إلا هياماً . فانظر إليه وقد مال إليها فى وداعة وحنان ، ونظر إليها فى رفق وعطف ، ثم انحنى عليها فضمها إليه ضما خفيفاً ، وقبلها فى هدوء ودعة . وهى مستسلمة له لا تجد من نفسها ممانعة ولا شيئاً يشبه الممانعة . ولكنها تنظر فتجد دموعاً تنحدر من عينيها لا تدرى لماذا انحدرت ؟ فلم تكن فى حاجة إلى البكاء ، ولم تشعر بدافع إليه . ولكن هذه الدموع انحدرت فى صمت ، فمسحها عمر فى رفق ، وضمها إليه مرة أخرى ، وقبلها ، وإذا هى تأوى إلى ذراعيه كأنها الطفل قد استسلم إلى أمه الرءوم . ويطمئن رأسها إلى كتفه ، وتقضى على ذلك ساعة لم تنس عذوبتها طول الحياة . ثم ترفع رأسها وتستوى جالسة ، ثم تبسط ذراعيها فتطوق بها عنقه ، ثم تقبله . ثم تقول له : ليت الثريا تقبل فترانا الآن ، لتعرف أنها هى التى تنغص علينا حياتنا وتفسد علينا أمرنا . قال عمر فى صوت حزين رزين : فلا تفكرى فى الثريا

ولا تقحمها دائماً فى حياتنا . قالت كلثم فى صوت يضطرب بين الشدة والهدوء : وهل غيرها ينزلنا من هذه السعادة التى لا توصف إلى هذا الشقاء الذى لا يطاق ؟ فلم يجب عمر . وخيم على المكان صمت عميق .

١٦

ولست أدرى أحق ما زعمت كلثم لزوجها عمر من أنه لولا الثريا لعاشت معه عيشة سعيدة ؟ فقد كان عمر لاهيا عابثاً قبل أن يعرف الثريا ، وقد عرف الثريا وأحبها حبا قوياً عنيفاً ، وكان ينصرف عنها إلى النساء . لا تقلْ : فإنها هى التى كانت تدفعه إلى ذلك بسيرتها معه . فأنا أعرف ذلك . ولكنه كان ينصرف عنها مهما كان مصدر هذا الانصراف وسببه . فإذا كان عمر ينصرف عن الثريا وهو يحبها هذا الحب القوى العنيف ، فأليس من الجائز بل من المحقق أنه كان سينصرف عن كلثم إلى غيرها لو لم يعرف الثريا . وهو لا يحب كلثم كما يحب الثريا ؟ بلى . كان سينصرف عنها ، وكان هذا سيؤذيها وسيشق عليها . ولكن ما لكلثم تغار من الثريا هذه الغيرة . وهى ترى عمر يجرى وراء كل امرأة وكل فتاة ، ويتغزل فى كل امرأة وكل فتاة ؟ أليس هذا لأنها تعرف أن ليس لامرأة من النساء ، ولا لفتاة من الفتيات سلطاناً لها على قلب عمر كسلطان الثريا ؟ بلى . هو كذلك . ومن يدرى ؟

فلعل عمر أن يكون قد تحدث إليها بما يحسه فى قلبه للثريا من حب قوى لا يعرف له حدا ولا أمداً ، فأضرم هذا فى قلبها ناراً من الغيرة لا تعرف كيف تطفئها ، ولكنها تدفعها إلى مواقف مؤثرة عنيفة كانت تقفها من الثريا وعمر حيناً ، ومن الثريا وحدها حيناً آخر ، ومن عمر وحده فى أكثر الأحيان . وكان أشد هذه المواقف حدة وأكثرها عنفاً وأعظمها تأثيراً هذا الموقف الذى وقفته من الثريا حين طال انصراف عمر عنها وتخلُّفُه عن المنزل أكثر الليل ، فلم تشك فى أنه إنما ينفق الليل مع الثريا ، وإن زعم لها أنه إنما ينفقه بين أصحابه فى لهو وسمر . ويقبل عمر عليها ذات يوم مع الصبح ضعيفاً مكدوداً ويسعى إلى مضجعه بطيئاً متهالكاً ، ثم يلقى بنفسه على السرير إلقاء . كأنه عجز عن أن يمسك جسمه على ما ينبغى له من اعتدال القامة فخر على السرير كما ينقض البناء . وقد رأته كلما يقبل ثم يسعى ثم ينهار على هذه الحال ، فلم تشك فى أنه أنفق ليله أو أكثر ليله فى غير السمر وفى غير ما يأرق له السمار من لهو الحديث . وقد تركته كلما يقذف بنفسه فى أمواج النوم التى كانت تتمثل أمام عينيه ، فطغت عليه هذه الأمواج المصطخبة فغمرته وأغرقته فنسى بينها كل شىء . ولا يكاد

عمر يمعن فى نومه هذا الثقبل حتى تغرق كلثم فى تفكير عميق . ولكنها لم تفكر فى أن زوجها قد خانها مع الثريا . ولا فى أنه إنما تعرض لهذا الضعف بسبب هذه الخيانة ، ولا فى أنه جدير بما يلقى فى جسمه وصحته بسبب عبثه ومجونه . فالأمر قد أصبح فوق هذه الاعتبارات كلها ، فهناك زوجها الذى تحبه وتؤثره قد أنهكه الضعف ، وأنهكه الضعف بسبب امرأة تغريه وتغويه وتعبث به كما تشاء . وهى تفكر فى أن تنتقم من هذه المرأة ، أو تفكر فى أن تحمى زوجها منها على أقل تقدير . ولكن أفى الحق أنها كانت تريد أن تحمى زوجها من إغواء الثريا ؟ أم كانت تريد أن تستأثر به ، فكانت أثرة تظهر الإيثار . وكانت محبة لنفسها تزعم حماية زوجها ؟ لا أدرى . ولكنى أعلم أنها قد ذهبت إلى الثريا ثائرة فائرة ، فلم تكد تخلو إليها حتى أنبأتها بأنها قد أقبلت لأمر جلل . ولا تطيل فتنبئها بأن عمر قد أصبح فى حالة يرثى لها حقا ، وأنه قد تعرض لما تعرض له من الضعف والخور بسببها هى . وأنها قد فكرت فى الانتقام له . ولكنها تكتفى الآن بالنذير . ولا تريد أن تتجاوز هذا النذير إلى العنف ، فهى تنذرها بأوخم العواقب إن حاولت أن تغوى زوجها بعد ذلك . والثريا تسمع

لها ، مستخفة بها ، ساخرة منها ، حتى إذا انتهت من كلامها قالت الثريا — وقد وقفت موقف من يستعد للحرب ويتحدى خصما عنيفاً — : فإنى قبل كل شىء لا يخيفنى النذير ولا يرعبنى الوعيد ، وأنا بعد ذلك لا أغوى زوجك ، وإنما هو الذى يحبنى ويختلف إلىّ . وإذا كنت أنت حقا قوية قادرة فامنعيه عنى . ولكنك لن تستطيعى ذلك ، لأنه يحبنى أنا ولا يحبك أنت . وأنا لم أدعه إلى هذا الحب . ولو أنى دعوته إليه وأراد نفسَهُ عليه لما استطاع ، وأنت تدعينه إلى أن يحبك ، وهو يريد نفسَهُ على حبك ، ولكنه لا يستطيع ، لأنه لا يملك هذا الحب . فالناس لا يحبون لأنهم يريدون أن يحبوا . ولكنهم ينظرون فيرون أنفسهم يحبون فيخضعون للأمر الواقع . وعلى هذا النحو تجدين أن أمور الحب لا تخضع للإرادة ، ولا يستطيع العقل أن ينظمها ويدبرها . فلا تلوميني ولا تتجنى علىّ . هنالك سقط فى يد كلثم . فإذا هى مضطربة ذاهلة ، ولكنها تسرع فتملك نفسها ، وتقول للثريا فى صوت قوى ولهجة حادة : فما لهذا أقبلت . وإنما أقبلت لأنتقم لزوجى منك ، أو لأحميه منك على أقل تقدير . قالت الثريا ساخرة : تنتقمين لمن ؟ وتحمين من ؟ أيتها العاجزة الحرقاء . إنك قد أخفقت فى أن تستأثرى

بزوجك ، فأقبلت تلومينى فى غير موضع للوم ، وتتجنين على فى غير موضع للتجنى . قالت كلثم : فإنى لم أخفق فى أن أستأثر بزوجى فابعدى أنت عنا وجنبينا شرورك وآثامك . قالت الثريا : فأنت تحبين عمر إلى هذا الحد ؟ ولكن ما رأيك فى أنك لا تُحِبِّين عمر ، وإنما تحبيننى أنا . فأنا وحدى من دون هؤلاء النساء اللائى لها عمر معهن . أنا وحدى التى كونتُ عمر ، وطبعته بطابعى . وقد كان يهذى – كما يقول جرير – قبل أن يعرفنى ، فلما عرفنى قال الشعر ، فأنا التى جعلته كما هو شاعراً ظريفاً فاتناً خفيف الروح والظل والدم جميعاً . وعمر إنما يحبنى أنا . وإذا كان قد بذل لك شيئاً من اللين والرفق ، أو أظهر لك شيئاً من الحب والعشق ، فقد تعلّم هذا كله بين ذراعىّ . وأما أنت فلم تلهميه شيئاً ، ولم تثيرى فى نفسه عاطفة . إنه ليمنحك فضل حبه إياى . ولا تكاد كلثم تسمع ذلك حتى تضعف وتنخذل ، وكأنها قد سُحقت سحقاً .

وإذا هى تجهش بالبكاء ، حتى لتثير فى نفس الثريا عاطفة الرحمة والشفقة . وإذا الثريا تسألها العفو . وتعلن إليها أنها ستترك لها زوجها ، وأنها قد نزلت لها عنه . وأنها ستقطع صلتها به . ويقبل عمر على الثريا بعد ذلك . فتقص عليه

ما كان من كلثم لها ، وما كان منها لكلثم . وتعلن إليه أنها ستضحى بحبها وعواطفها فى سبيل كلثم . وستقطع صلتها به منذ اليوم ، حتى يكون لزوجه فحسب . ولا يكاد عمر يسمع ذلك ، حتى تدور به الأرض ، وإذا هو يعلن إليها : أنها إن صممت على ذلك فهو تارك مكة ومرتحل إلى اليمن . فما يستطيع أن يعيش فى مكة ، والصلة بينه وبين الثريا مقطوعة والحبل بينه وبينها مبتوت .

١٧

ولم يكد عمر يفصل من مكة ويمعن فى طريقه إلى اليمن حتى أحست نساء مكة بشىء غير قليل من الوحشة لفراق هذا الفتى الذى كان له فى نفوسهن أعظم الأثر وأقواه . ولكن امرأتين قد شقيتا بذلك أشد الشقاء ، ولقيتا منه أعظم الجهد وأعظم العناء . ونغصت عليهما حياة النهار ، وصرف عنهما نوم الليل . وفارقت كل واحدة منهما نفسها ، فتبعت ذلك الفتى الذى كان ماضياً فى طريقه نحو الجنوب . وقد عرفت بالطبع هاتين المرأتين : فأما إحداهما فكلثم بنت سعد زوجه وأما الأخرى فالثريا صاحبته .

كانت كلثم تفكر فى زوجها هذا الذى هجرها دون سبب واضح ، أو علة معروفة . وهو لم يهجرها فحسب ، وإنما ترك لها مكة كلها ، ولم يشأ أن يخبرها إلا بأنه مرتحل إلى اليمن ، فمقيم هناك مدة من الزمن قد تقصر وقد تطول ، ولكنه على كل حال سيتركها ، وسيكفل لها حياة طيبة فيها كثير من الرغد والخفض ، وفيها كثير من السعادة والنعيم .

وما فكرت كلثم وما كان لها أن تفكر فى هذه الحياة الطيبة التى سيكفلها لها زوجها فى غيبته . فقد كان بقاؤه معها أحب إليها من كل شىء . بل كان بقاؤه معها بلا شىء أحَبَّ إليها من كل شىء بدونه . وإنما كانت تفكر فى هذا الرحيل الذى لم تعرف له سبباً ولا مصدراً . والذى لم يكن يخطر لها على بال . فقد كانت تقدر أنها ستنعم بزوجها وتستمتع معه بلذات الحياة بعد أن تركته لها الثريا ، وكانت تتمثل هذا الربح الكثير الذى ساقته إليها الثريا حين أعلنت إليها أنها قد تنازلت لها عن زوجها ، وأنها ستقطع صلتها به . ولكن زوجها لم يكد ينصرف عن المنزل ويعود إليه إلا ريثما أعلن إليها السفر إلى اليمن . أفلا يمكن أن يكون قد ذهب إلى الثريا وأن تكون الثريا قد أعلنت إليه القطيعة فضاق بمكة ومن فيها وما فيها من الناس والأشياء فأقدم على هذا الرحيل . وإذن فليتها لم تذهب إلى الثريا ، وليتها لم تنازعها حب عمر . وليتها لم تضطرها إلى قطيعته . فقد كانت هذه القطيعة مصدر هذا الشر وأصل هذا البلاء . وإذن فليت الثريا لم تقطع صلتها له . فقد كانت صلة الثريا له هى التى تبقيه فى مكة وتمسكه فيها ، ولأن يعيش معها فى مكة متصلا بالثريا أحب إليها من هذا

الفراق الذى لا تعرف أيقصر أم يطول ؟ والذى ستنفقه مؤرقة محرقة مفرقة النفس . كانت كلثم تفكر فى هذا كله ، وكانت هذه الخواطر تملأ نفسها هما وحزناً وتُفْعِمُ قلبها قلقاً واضطراباً. وكانت تحاول الصبر فلا تجد إليه سبيلا .

ولم يكنِ أمر الثريا بأيسر من أمر كلثم . ولكن خواطرها كانت من طراز آخر ومن طبيعة أخرى ، فهى ليست زوجاً لهذا الفتى وإن كانت عشيقة له ، وهى التى هجرته فاضطرته إلى هذه الهجرة ، بل هى التى دفعته إليها دفعاً . ولكنها مع ذلك تحبه ، وحسبك بالحب مثيراً للحزن والقلق ، وباعثاً للجزع والفزع ، وحائلا بين القلوب وبين ما تحتاج إليه من الهدوء والاطمئنان .

لقد أحبت الثريا هذا الفتى حبا ملك عليها نفسها وقلبها ، وكانت خليقة من أجل ذلك أن تراه دائماً إلى جوارها ، ولكنها تعلن إليه القطيعة وتهجره هذا الهجر المنكر ، فتضطره إلى هذا الرحيل وتدفعه إليه دفعاً . أمحبة هى لهذا الفتى أم مبغضة له ؟ أراغبة هى فى هذا الفتى أم راغبة عنه ؟ أحريصة هى على جوار هذا الفتى أم على فراقه ؟ إن أمرها لعجيب مهما تقلبه على وجوهه . لكن ألمها شديد وحزنها موجع وقلقها مضن .

وإن لومها لنفسها لشديد ، وإن تأنيبها لنفسها لعنيف ، لما فرطت فى ذات حبيبها . فقد كانت خليقة ألا تقطع الأسباب بينها وبينه . وقد كانت خليقة وقد قطعت هذه الأسباب ، ألا تخلى بينه وبين الرحيل ، حتى لا يتعذر عليها أن تراه أو تسعى إلى رؤيته كلما اشتاقت إليه بين الحين والحين ، فما الذى دفعها إلى أن تركب رأسها فتقطع صلتها به ؟ وما الذى دفعها إلى أن تركب رأسها مرة أخرى فتتركه يرتحل . وهلا أخذت عليه عهداً حين أعلنت إليه القطيعة من أجل كلثم ، أن يبقى فى مكة حتى يتاح لها أن تراه وأن تستمتع برؤيته فهى لم تعلن إليه القطيعة عن قِلًى ، ولم تهجره عن زهد فيه أو رغبة عنه أو نفور منه . ولعلها لم تحبه قط كما تحبه الآن . ولم تؤثره قط كما تؤثره الآن . ولم تعرف سلطانه عليها ويده عندها كما عرفتهما الآن . بل إنها لتحس كأنما شطرت قلبها شطرين فحفظت شطره فى صدرها وتركت شطره الآخر يمضى إلى مكان بعيد فى أعماق اليمن حيث لا يتاح لها أن تلقاه . بل لعلها لم تعلن إليه القطيعة إلا حبا فيه وإيثاراً له وضنا به على هذه الحياة التى يحياها مقسَّما فيها بين زوجه وعشيقته . فأرادت أن توفر له حياة الأمن والهدوء والاستقرار . ولكن ألا يمكن أن

تكون قد فعلت هذا لأنها تريد أن يكون عمر لها من دون زوجه . ولعلها كانت قد طلبت إليه ملحة عليه أن يترك زوجه ويخلُص لها هى ، فهى كغيرها من العاشقات تأبى إلا الاستئثار السخيف بكل شىء . ولا يكفيها أن تستأثر من عشيقها بحبه وحنانه وقدرته على اللذة . وهى تذكر أنها كانت تضيق عليه وتسرف فى الغيرة وتعتدى على حريته اعتداء متصلا لا يطاق . وهى إذن لم تعلن إليه هذه القطيعة إلا لأنها تبينت عجزه عن أن يقطع الصلة بينه وبين زوجه ، وهى لا تحتمل شريكاً فى الحب كما أنها لا تقنع من الحب بالشىء القليل .

وجعلت هذه الخواطر تفسد على الثريا أمرها ، وتعرضها لآلام وأحزان لا حد لها . وكثيراً ما جعلت الثريا ترد عن نفسها هذه الخواطر بأنها حين أعلنت إليه القطيعة ، لم تقل له ارتحل . وكثيراً ما ارتحل ثم عاد لم تتجاوز غيبته الشهر والشهرين ، فلتنتظر حتى يعود وتجدد العهد معه وتستأنف الصلة به . ولكنها تنتظر الأشهر والأشهر ولا يعود عمر ويتحدث الناس فى مكة بأن عمر بن أبى ربيعة قد نسك وترك حياة اللهو والعبث . وتشعر الثريا بخيبة أمل فى صاحبها لا عهد لها بها . وإذا هى تطوى قلبها على جراحه ، ويشاء القدر أن يقبل على مكة فى ذلك الوقت سهيل بن عبد العزيز بن مروان .

١٨

وكان سهيل بن عبد العزيز بن مروان فتى أمويا من قريش ، وكان قبيح الصورة دميم الشكل لا تكاد تقع عليه العين إلا انصرفت عنه مشمئزة وانحرفت عنه نافرة . وكأنّ دمامته وقبحه قد صرفا عنه النساء أو صرفاه عن النساء . فلم يحاول أن يفتنهن لفقده أسباب هذه الفتنة ، ولم يحاول أن يتتبعهن ليأسه من أن يظفر منهن بنصيب . ولكنه وإن لم يُقدم على غرام مع النساء بسبب دمامته وقبحه إلا أن دمامته وقبحه هذين قد دفعاه دفعاً إلى أن يتخذ له زوجاً من أجمل نساء العصر شكلا ، وأحسنهن منظراً ، وأروعهن صورة ، وأقدرهن على اختلاب القلوب واستلاب الألباب . ولم لا يتخذ هذه الزوج وهو من الأسرة الحاكمة التى تملك أمر المسلمين وترعى شئونهم وتتصرف فيهم كما تريد ؟ ومن غير الثريا من النساء تستطيع أن تدانيها فى جمالها وحسنها ، أو تقاربها فى فتنتها وروعتها ؟ إذن فليتقدم لخطبتها . ولكنها صديقة عمر بن أبى ربيعة ، ولها معه ماض مهما يقل الناس عن طهره وبراءته

فحسبه أنه ماض ، وأنه محسوب عليها مهما كان الأمر .
ولكن سهيلا رجل ساذج طيب القلب من ناحية ، وهو حين أقبل على مكة قد رآها ففتن بها من ناحية أخرى ، فهو لا يفكر إلا فى أن يتخذها له زوجاً . وحسبه أنه سيتزوج من هذه الفتاة التى فتنته وملكت عليه أمره كله ، وحسبه أنها سترضى به زوجاً لها على جمالها الجميل وقبحه القبيح . .

ويتحدث سهيل إلى بعض أقربائها الأقربين فى أمر هذا الزواج ، فيقبلون مغتبطين به ، مطمئنين على مستقبل ابنتهم ، واثقين بصدق سهيل وإخلاصه ،وبأن الثريا ستكون سعيدة فى بيته . ولكن الثريا لا تكاد تسمع بهذا الزواج حتى ترفضه رفضاً قاطعاً ، ترفضه لقبح سهيل وترفضه لأنها وإن قطعت صلتها بعمر إلا أنها ما زالت تحبه ، وهو وإن طالت إقامته فى اليمن إلا أنه سيُقبل يوماً ما ، وستعود صلة الود بينهما كما كانت قوية متينة . وهى تعلن إليهم : أنه إذا تم هذا الزواج فسوف تجحده ولا تعترف به . فهى إذن مقتنعة فيما بينها وبين نفسها بأن كلمة الحب أقوى من كلمة الزواج وهى مقتنعة أيضاً بأن حبها لعمر لم تنفصم عروته ، وبأنها ما زالت مدينة بحياتها لعمر ، وأن عمر ما زال مديناً بحياته لها . ولعلها

كانت تجحد زواجه من كلثم ولا تعترف به ، لأنه زواج لا يعتمد على أساس من الحب ، وإن اعتمد على أساس من الدين . وإذا كان عمر قد خالف الحب وخرج على شريعته وتزوج من كلثم فتورط فى الخطيئة . فليس ينبغى لها أن تخرج على قانون الوفاء وأن تقطع صلة أنشأتها كلمة الحب. هى إذن تقدس الحب ، وتتخذه لها شريعة ومنهاجاً . فهى لا تريد أن تخرج عليه ولا أن تخالف عن أمره . وهى تعلم أن شبابها وجمالها وحاجتها إلى الحياة وإلى السعادة فى الحياة كل ذلك يقضى عليها بقبول الزواج ، ولكنها ترفض هذا الزواج وتقضى على جمالها النضر بهذا الذبول ، وتقضى على نفسها بالبقاء فى العزلة ، وتحرم على نفسها ما يباح لغيرها من الرجال والنساء من هذه الحياة الاجتماعية السعيدة المعقولة .

وبينما هذا الجهاد فى أشد أطواره من العنف ، يقع شىء يزيده عنفاً ، ويحمل الثريا على أن تثور ، فتخرج على نفسها التى كانت تلح عليها فى رفض هذا الزواج ، وتخرج على الحب الذى كان يحرم عليها هذا الزواج . وإذا هى قابلة لما كانت ترفضه من قبل . ذلك أن كلثم تقبل عليها كئيبة ملتاعة تحدثها عن زوجها هذا الذى قضى فى اليمن

هذه المدة الطويلة العريضة ولم يعد إليها . وإذا الثريا تعلن إليها أنها قد فعلت الواجب وأكثر من الواجب حين ضحت بنفسها وعواطفها فى سبيلها وسبيل سعادتها ، وقد أعلنت إلى عمر القطيعة ، قبل أن يسافر إلى اليمن . وإذا كلثم تبكى بكاء مراً وتقول لها : فليتك لم تعلنى إليه القطيعة . إذن لبقى فى مكة ولم يرتحل إلى حيث ارتحل ، ولم يقم حيث أقام . هنالك تغضب الثريا وتقول لها : فماذا أصنع لك أكثر من هذا ؟ لقد أحْبَبْتُ عمر أشد الحب ،وأعلنتُ إليه القطيعة من أجلك . فآثرتك بخير ما أحب. ثم أنت هذه تنكرين علىّ هذه القطيعة ، وتتمنين لو لم أعلنها إليه . سوف أريحك يا كلثم . سوف أترك لك ولزوجك الحجاز كله . قالت كلثم : فما لهذا أقبلت . قالت الثريا : أقبلت لهذا أو لغيره فإنك سترين وستسمعين فى الأيام القليلة المقبلة أنى قد تركت الحجاز . وكلثم تستعطفها وتتوسل إليها ألا تفعل . ولكنها لا تصل منها إلى شىء . فقد استقر رأيها على أن تقبل الزواج من سهيل ، وأن ترتحل معه إلى مصر أو إلى الشام .

١٩

وعاد عمر إلى مكة لا أدرى أبلغه وهو فى اليمن شىء عن خطبة سهيل للثريا ، فأقبل مسرعاً ليُلغى أمر هذه الخطبة إلغاءً . ولكن القضاء كان قد سبق بما لم يكن يُحب ، فتمت الخطبة وانتهت إلى غايتها وأصبحت الثريا زوجاً لسهيل ؟ أم أن عمر قد عاد إلى مكة حين اشتد حنينه إليها ، وطال شوقه إلى لقاء من فيها من الناس عامة ، وإلى لقاء أهله وأحبائه خاصة ، وإلى لقاء الثريا بنوع أخص . فلم يكد يبلغ مكة ويأخذ مع أهلها فى بعض الحديث حتى بلغه هذا النبأ المؤلم الذى هدّه هدًّا ، ومزق فؤاده تمزيقاً ؟ ومهما يكن من شىء فقد عاد عمر إلى مكة ، وتحدث إليه المتحدثون بأن الثريا قد تزوجت من سهيل بن عبد العزيز بن مروان . وارتحلت معه إلى الشام أو مصر — يختلف فى ذلك الرواة — فلم يكد عمر يسمع ذلك حتى فقد صوابه وخرج عن رشده . ولولا فضل من ثبات وبقية من عقل لانتهى به الأمر إلى جموح يخرجه عن طوره ويدفعه إلى مالا صلاح له من الأمر . ولكنه تمالك نفسه وأطرق

قليلا . ثم رفع رأسه وعلى ثغره ابتسامة يسيرة ، ثم نظر أمامه لا يريد أن يرى شيئاً . وإنما هو واجم باسم ينظر ولا يرى ، ويفكر ولا يحقق شيئاً ، ثم تتسع ابتسامته قليلا ، ثم ينفرج فمه عن ضحك ساخر وهو يتغنى هذين البيتين :

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عمرك الله كيف يلتقيان ؟
هى شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يمانى

وهو يسأل محدثيه فى صوت حزين بعيد محطم . متى كان ذلك ؟ وكيف ؟ فيخبرونه : بأن ذلك كان فى الأيام القريبة الماضية حين أقبل سهيل على مكة فرأى الثريا وفتن بها وجن بها جنوناً . وقد خطبها فرفضت أول الأمر ، ولكنهم لا يعرفون لماذا وافقت بعد ذلك ؟ . ويركب عمر فرسه ، ويأخذ معه غلامه ، ويفصل من مكة ، ويأخذ قصد الشام . وإنى لأراه فى طريقه فيمتلىء قلبى رحمة له وإعجاباً به وخوفاً عليه . وأى قلب لا يرحم هذا الفتى العاشق الذى لم يكد يقبل من سفره حتى تهيأ لسفر آخر ، وقد ألم به ذلك الخطب الذى قتل نفسه وسحق قلبه ومزق ضميره ، حين علم أن حبيبته لم تصبح له . وإنما أصبحت لرجل آخر يستطيع أن يبلغ منها كل ما يريد باسم الدين والعرف والقانون . وهى

قد ارتحلت مع ذلك الرجل ، فلن يجد عندها منذ اليوم ما كان يجده عندها من قبل من لذة ومتاع . وهو لا يريد اليوم إلا أن يراها ويملأ عينيه من جمالها . ويملأ قلبه ونفسه وضميره مما تشيعه في الجو حولها من ظرف ورقة ، فهو ينطلق كما ينطلق السهم ، ويمضى أمامه مندفعاً لا يقف ولا يلتفت عن يمين ولا شمال ، ولا يلتفت إلى وراء . كأنه بطل من أبطال القصص قد مضى لغايته ووعى نصيحة الناصح ، فهو لا يلتفت مخافة أن يدركه البوار إن حوّل وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه .

وأى قلب لا يعجب بهذا الفتى العاشق الذى كان يهيئ نفسه ليستأنف الصلة بينه وبين حبيبته التى هجرته . فإذا هى قد أفلتت منه وتزوجت من غيره وابتدأت رحلتها الطويلة إلى غايتها البعيدة ، وإذا هو لا يحس ثورة جامحة وإنما يحس ألماً لاذعاً ، وإذا نفسه لا تتحدث إليه بالانتقام منها ، وإنما تتحدث إليه باللحاق بها ، ليراها ويودعها ويذرف بين يديها دموعه الغزار . فهو لا يريد أن يقصر فى ذاتها أو يؤذيها بالإهمال والإعراض ، أو يسوءها بالجحود والعقوق ، وقد عاهدها على الود الدائم والوفاء المقيم . فهو يسعى لا يلوى على

شيء . لا يفكر إلا فى أن يلحق بها . يدفعه حب قوى ، وشوق عنيف ، وحنين لا حد له .

وأى قلب لا يخافُ على هذا الفتى العاشق الذى يعرف الناس عنه أنه ليس صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة . وإنما هو زير نساء يحب الدعابة والمجون ، ولا يتحرج مما يتحرج منه الرجل المستقيم . وله فى مكة وما حولها خطوب تخيف منه وتخيف عليه . وهو يترك مكة ويسعى وراء فتاة يعلم الناس أنه كان يحبها ، ولكنها قد تزوجت وارتحلت مع زوجها ، فهو يهيء نفسه لخطر ما بعده خطر ، وقد يذهب ضحية له . وإذن فليس له ثأر يطالب به . وليس من سبيل إلى استعداء السلطان على قاتله .

لك الله أيها الفتى العاشق الوامق . لستُ أدرى أين وجدتَ القوة التى هيأتَ بها نفسك للسعى وراء معشوقتك ؟ ولستُ أدرى كيف فكرت فيها وأقبلت عليها بعد إطراحها لك وإعراضها عنك ؟ ولستُ أدرى كيف تجد القدرة على لقائها والتحدث إليها بعد أن وجدتْ هى القدرة على هجرك وقطع أسباب الود بينها وبينك؟ إن إقبالك عليها وسعيك وراءها لا يدلان إلا على أنك عاشق كسائر العشاق . فيك ضعفهم وقصورهم وغرورهم

وفيك إيثارهم وأثرتهم معاً . إنك لتؤثر الثريا وتتمنى أن تستأثر بها وتعود معها إلى أيامكما السالفة . ولكن هيهات هيهات . لقد أصبحت الثريا ملكاً لسهيل . وقد ارتحل بها إلى حيث يستقبل حياة لا يفسدها عذل العذال ولا تكدرها وشاية الوشاة . وإنك لتسعى وراءها محتملا مشقة الطريق وجهد السفر ، لا يدركك الإعياء ولا ينالك الكلال . وإنك لتقطع الطريق ، وإن النهار ليتقدم وإن الشمس لترتفع وترسل أشعة من اللهب تضطرم لها الأرض ويتوهج لها الجو . وأنت تسعى فى هذه النار المحرقة تريد أن تنعم بساعة حلوة لذيذة تقضيها مع حبيبتك قبل أن تبعد عنك ويتعذر عليك اللقاء . ها أنت هذا قد قطعت مرحلتين من الطريق . وهذه الشمس قد أخذت تخف بعد شدتها ، وأخذ وجه النهار يدركه الشحوب . وهذه هى الثريا وهذا زوجها وهذه حاضنتها وهؤلاء خدامها وجواريها . إنزل عن فرسك وادفع به إلى غلامك . وانتظر حتى يذهب هذا النهار الفظيع الذى لا يخفى عليه شىء ولا يستتر من دونه أحد ، ويقبل هذا الليل العطوف الأمين بظلمته الحصينة المتينة التى لا تلمع فيها إلا هذه الأشعة الضئيلة التى ترسلها إليك النجوم كأنها التحية الخفية يرسلها الحبيب إلى عاشقه

بمأمنٍ من الرقباء. فإذا أقبل هذا الليل فامش متنكراً ومرّ بهذه الخيمة التى نزلت فيها الثّريا ، فسوف تعرفك وتثبت حركتك ومشيتك . ويمشى الفتى متنكراً فلا تكاد الثّريا تراه وتعرفه حتى يخفق قلبها خفقات لا تدرى أهى خفقات بالرضا والغبطة ، أم خفقات بالغضب والضيق ؟ فقد كان فراق الفتى لها قد طال أمده . ولم يعرف أنها بعد أن أعلنت إليه القطيعة قد ندمت على ذلك أشد الندم ، وودّتْ لو أقبل عليها فاستأنف صلته بها . فلما طالت غيبته فى اليمن وطال انتظارها لمقدمه دون جدوى ، قضت أيامها محطمة القلب خائبة الأمل ملتاعة النفس محزونة الضمير . وكانت تغالب الشوق والحنين إليه فتغلبهما حيناً ويغلبانها حيناً . حتى كان اليوم الذى أقبل فيه سهيل عليها فخطبها وتم زواجه منها ثم ارتحل بها . وما كانت تظن أن عمر سيقبل من اليمن ويعرف أمرها فيتبعها ويدركها فى الطريق ، فلما رأته وعرفته أحست هذا التردد بين الابتهاج والابتئاس ، وبين الرضا والسخط . ثم بعثت حاضنتها إليه فأتت لها به إلى حيث استقبلته بابتسام فاتر ونشاط متكلف . وليس من شك فى أنها قد تصنعت هذا الفتور وتعملت هذا التكلف . ولو أرسلت نفسها على سجيتها

وأطاعت غريزتها لألقت نفسها بين ذراعى حبيبها ضاحكة باكية ومغرقة فى الحزن والفرح معاً . ولكنها تكلفت الأناة والوقار ونجحت فيما تكلفت . فأرسلت إلى نفس عمر شيئاً من الفتور وخيبة الأمل . ولكنها تجلس إليه فيتعاتبان ويبكيان . فتقول الحاضنة لهما : ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل ، فيحادثها ويغرق معها فى مناجاة حلوة هادئة ، ثم يفيقان حين يمسهما برد السحر ، وكأنما ثابا إلى نفسيهما من سفر بعيد ، وينظران حولهما فيريان الفجر وقد أخذ يتنفس فى دعة . ويريان أصابعه تمتد إلى الأشياء كأنما تريد أن تلمسها ، ويريان الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودعها محزوناً ، ويريان النجوم تنهزم فى السماء كأنما تخاف جيشاً منتصراً . فيودعها ويبكيان طويلا . ثم يقوم فيركب فرسه . ويقف ينظر إليهم وهم يرحلون ، ثم يتبعهم بصره حتى يغيبوا . ويقول قصيدته :

ياصاحبيَّ قفا نستخبر الطللا

عن حال من حَلَّهُ بالأمس مافعلا

٢٠

والآن ماذا تصنع أيها الفتى البائس الشقى ؟ لقد انحدرت إلى مكة ولكنك لم تكد تهبط إليها حتى دفعت بفرسك إلى غلامك ، وأمرته أن يذهب هو إلى المنزل . وأما أنت فلن تقبل على المنزل الآن . ماذا تريد؟ وإلى أين تمضى ؟ إنك لتنتهى من طريق لتندفع فى طريق أخرى ، كأنك لا تريد وجهة بعينها ولا تسعى إلى غاية معروفة ، وكأنك إنما تلتمس راحة النفس فى تعب الجسم . وإنك لتمضى وتمضى حتى تصل إلى المسجد الحرام . انظر . ها أنت هذا قد بلغت المسجد الحرام . فأما عن يمينك فهذه الطريق التى تنتهى بك إلى دار هند بنت الحارث . وأما عن شمالك فهذه الطريق التى تنتهى بك إلى دار صديقك ابن أبى عتيق . إلى أى الوجهين تريد أن تمضى؟ أتريد أن تمضى إلى يمين لتبلغ هِنْدا فتجلس إليها وتسمع منها؛ فقد يُضْحكك ما تخوض فيه من عبث ودعابة . فما أكثر ما يكون حديثها عبثاً ودعابة ، فهى لا تحسن فى الحياة إلا العبث والدعابة . أم تريد أن تمضى إلى شمال لتبلغ

صديقك ابن أبى عتيق فتستعين به على ما يضيق به صدرك من الخواطر والهموم؟وقد تجد فى حديثه إليك تسلية وتسرية وعزاء؟ أم تريد أن تدخل المسجد الحرام ؛ فقد تجد فيه بعض النساء اللاهيات أو بعض الغزلين العابثين . إلى أين تريد أن تمضى ؟

وما أرانى محتاجاً إلى أن أسمع منك جواباً . فأنت تريد من غير شك أن تأخذ طريقك عن يمين لأنك تريد أن تقبل على هند ، فتجد عندها من ضروب اللهو ، وألوان العبث والمتاع ما يخفف عن نفسك بعض ما تجد من حزن وما تحس من شقاء . ها أنت هذا قد بلغت دار هند . وهذه الدار كما عرفتها رشيقة أنيقة مغرية مطمعة لا ترد طارقاً ولا تصد راغباً ولا تتجهم لزائر ولا تنبو بضيف . إنها لتدعوك ملحة فاستجب للدعاء ، وإنها لتناديك ممعنة فلب النداء . وإن فى داخل هذه الدار لفتاة لو رأتك لأقبلت عليك مبتهجة لك رفيقة بك ، تمسح رأسك وتمس وجهك وتأخذ بطرف ردائك . ولو حاولت أن تتقيها وأن تمتنع عليها فلن تجد إلى شىء من ذلك سبيلا . إنها لتحبك وتتمناك وتكلف بك وتحرص عليك . وإنها لتقضى أيامها لا تتحدث إلا عنك . وتنفق لياليها لا تفكر إلا فيك . ادخل يا فتى وخلاك ذم . فستجد عند هند شفاء

قلبك وراحة نفسك ، إن فى وجهها لإشراقاً حلوا . وإن فى طرفها لسحراً فاتنا . وإن فى صوتها لعذوبة تخلب العقول وتستهوى الألباب — ها أنت هذا قد دخلت ، وهذه هى هند . أنسيتها ؟ هندُ التى كم وجدت فى رفقها بك وعطفها عليك ما ينسيك قسوة الثريا وجفوتها . هند التى كانت خليقة أن تحتل من قلبك هذه المكانة الممتازة لولا أن سبقت إليها الثريا فاحتلتها . كلا . لم تنس هندا ، ولكنك عنها مشغول بالثريا . وهى تحدثك وتحدثك ، وكان خليقاً أن يصل صوتها إلى نفسك فيحييها ويوقظ فيها الذكرى ويبعث فيها الأمل ويشيع النشاط . ولكن صوتها لا يبلغ نفسك ولا ينتهى إليها . وها أنت هذا قد أنفقت معها شطراً من النهار . ولكنك لم تجد عندها راحة نفسك وهدوء قلبك . قم فاستأذن وانصرف . ولكن إلى أين ؟ وما أرانى أيضاً محتاجاً إلى أن أسمع منك جواباً . فأنا أعلم أنك تحب دار الثريا ، وتجد لذة فى أن تخلو إليها فتقول لها وتقول لك . إذن فعرِّج عليها وقف عندها ساعة ، فأنا لا أكره أن تقضى ساعة مع دار الثريا ، تقف فيها وتستوقف . وتَذْكُر حبيبتك وتذكِّر بها وتَتَبْعُها فى ظعنها ، وتصف ما سلكت من طريق ، وما عرض لها فى سفرها من

خطوب . وما أنضت من إبل ، وما وردت من ماء ، وما انتهت إليه من مرعى . نعم أنا لا أكره أن تقضى ساعة مع دار الثريا تنسى فيها نفسك وترسل قلبك على جناحى هذا الطائر الرشيق الذى يحسن الإبطاء والإسراع والوقوف والمضى جميعاً وهو الذكرى . وسوف تتحدث إليك الدار أحاديث جميلة شديدة التأثير فى نفسك ، تثير كثيراً من الخواطر الشاحبة الحزينة التى لا تخلو من أن تثير لذات شاحبة حزينة مثلها . وما رأيك فى حديث تحمله إليك هذه الدار التى لا تنطق وأنت تسمع هذا الحديث وكأنك تسمع إلى إنسان ينقل إليك بعض ما يخطر له من الخواطر وما يعرض له من المعانى وما يثور فى قلبه من العواطف . وها أنت هذا قد قضيت مع دار الثريا وقتاً طويلا ، وقد أخذت الشمس تنحدر إلى مغربها مسرعة ، وما إخالك قد ذقت طعاماً ولا شراباً . ألم تحس لذع الجوع وحر الظمأ ؟ ألم يأن لك أن تعود إلى منزلك فتصيب من طعامه وشرابه وترفق بنفسك وترفه عليها ؟ فقد أنفقت يوماً طويلا ثقيلا لم تذق فيه للراحة طعماً كما لم تذق فيه من الطعام أو الشراب شيئاً . ها أنت هذا قد عدت إلى دارك . ولكنك لم تقبل على طعام ولا شراب . وأحسب لو أنك

أقبلت على الطعام والشراب لما أصبت منهما إلا قليلا ، وما وجدت لما أصبت طعماً أو أحسست له ذوقاً . فقد كان سيصرفك عنه شخص هذه الحبيبة الذى يرتسم فى نفسك ارتساماً قويا ويتمثل أمامك تمثلا متصلا ملحا . وهذه زوجك تقبل عليك . ولكنك ضيق الذرع بها ، تريد أن تخلو إلى نفسك وتفرغ لخواطرك وتستعرض حياتك هذه المعقدة أشد التعقيد ، الملتوية أشد الالتواء . تستحضر ما ضيك البعيد ، وتستحضر ما ضيك القريب . وتحاول أن تتصور حياتك فيما تستقبل من الأيام . وها أنت هذا قد خلوت إلى نفسك فذكرت أيامك الخالية قبل أن تعرف الثريا ، أيام أن كنت لاهياً عابثاً تندفع فى لذتك وسعادتك إلى غير حد ، لا تفكر فى الغد ولا تحسب للمستقبل حساباً . وذكرت أيامك بعد أن عرفت الثريا ، هذه الأيام التى كنت ضيقاً فيها بالثريا ، ولكنك كنت سعيداً بهذا الضيق . وكنت متعباً فيها من غموضها ، ولكنك كنت تجد راحتك فى هذا التعب . وإذا أنت لست كعهد الناس بك لاهياً عابثاً لا تعرف الحب . وإنما أنت رجل آخر قد خلقتك الثريا خلقاً جديداً . وإذا أنت محب هائم ، وإذا أنت كثير التفكير متصل التروية ، لا ترى من

الثريا شيئاً ولا تسمع منها شيئاً إلا حاولت أن تعرف مصدره وغايته وتفهم ظاهره وتأويله . ومع ذلك فقد طبت الثريا لعلتك ذات يوم ، وأنفقت معها يوماً سعيداً لذيذاً ، ولم يكن هذا اليوم آخر الأيام السعيدة اللذيذة ، فقد قضيت معها أياماً أخرى هى من غير شك أسعد أيامك وألذها . لم تعرف فيها ألماً ولا حزناً . ولم تحس فيها تعباً ولا ضيقاً . ولم تكن فى حاجة إلى التفكير والتروية ، فقد شغلتك الثريا بنفسها وبما تذيقك من ألوان اللذات عن كل شىء وصرفتك عن كل شىء . وكنت فى هذه الأيام لا تحب أن ترى غير الثريا من النساء مهما برع جمالهن وراع حسنهن ومهما خلبت فتنتهن النفس وراق منظرهن العين . فقد كانت الثريا عندك هى كل شىء . وكان إذا أقبل عليها أترابها وأنت معها سئمتَ بهن وضقت بهن ذرعاً : فقد كان محضرهن خليقاً أن يصرفك عن الثريا أو يصرف عنك الثريا وأبغض شىء إليك وأشقه على نفسك أن تنصرف عن فتنتك أو تنصرف عنك فتنتك . والآن وقد تزوجت الثريا من سهيل وانقطعت بينك وبينها الأسباب ألا تحب أن تنساها ، وأن تعود كما كنت لاهياً عابثاً لا تعرف الحب ، هذا الذى يؤرقك إذا أظلم الليل ويفرق نفسك إذا أسفر الصبح

ولكن من لك بذلك ؟ وما سبيلك على قلبك ؟ وما سلطانك على نفسك ؟ وهل أمور الحب تخضع للإرادة ؟ ستظل محبا للثريا هائماً بها ، لأنك لا تملك غير ذلك . وستنظر إلى بيتك كلما دخلته ، وإلى بيت الثريا كلما مررت به . وإلى المسجد الحرام كلما أقبلت عليه ، وإلى هذه الأشياء المختلفة التى كانت تشهدك مع الثريا فتأسف وتأسى . وتذكر ما كان لهذه الأشياء كلها من أثر فى حياتك . بل تذكر أن حياتك مكونة من هذه الأشياء . ومن يدرى ؟ فلعل الذكرى أن تملأ نفسك وقلبك وأن تنسيك نفسها . وأن تخيل إليك أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها . ولعلك تعتقد أنك مع الثريا فتدعوها باسمها ولكنها لا تجيب . فتلتفت عن يمين وشمال فلا تجد أحدا . وإنما أنت تسير وحدك . فتثوب إلى نفسك وقد وجدت حزناً لاذعاً وألماً ممضاً ويأساً لا صبر معه ولا احتمال له . قل الحق . ألست أصور ما تجد ؟ ألست أصف ما تحس ؟ ألست أحدثك بما تحب أن أتحدث إليك فيه ؟ ولكنك قد أطلت الخلوة إلى نفسك . تتغنى ؟ وماذا تتغنى ؟ تتغنى شعرك فى الثريا ؟ أما أنا فمعجب بهذا الشعر ، لأنه ليس إلا صيحة من هذه الصيحات التى تنبعث من نفوس العشاق حين تتلظى قلوبهم

بجمر الحب ، وتضطرم نفوسهم بنار الشوق فتنبعث قوية عنيفة لأنها صدرت عن حب قوى وشوق عنيف . تغنّ ما شئت من هذا الشعر فأنا أجد فى كل ما تتغناه لذة ومتاعاً وغذاء لقلبى وعقلى جميعاً . إنى لأرى فى هذا الشعر كيف كنت تحرص على لقاء الثريا والجلوس إليها والتحدث معها والاستمتاع بما تبعث فى نفسك من لذة وبهجة وأمل . وأرى فى هذا الشعر كيف كنت تنتظر إدبار النهار وإقبال الليل لتقبل على الثريا فتلقاك مشرقة الوجه باسمة الثغر تحمل إليك الحياة ، وتجدد فى نفسك الأمل ، وتمس قلبك بجناح الحب المحرق . ولكن مالك قد انقطعت عن الغناء ، وأغرقت فى هذا الصمت العميق ، ورفعت رأسك كالواجم ، ونظرت إلى السماء محدقاً فيها ؟ لقد أنسيتُ أن فى السماء نجماً يتسمى باسم الثريا أو تتسمى هى باسمه . أتراك قد خلوت إلى نفسك فى هذه الساعة من الليل لترى هذا النجم وتستقبل أشعته وترسل نفسك إليه ، لا لأن هذا النجم يبعث إليك مع أشعته لذة أو حبا أو أملا ، وإنما لتسأله عن ثرياك التى أضللتها ما خطبها ؟ وأين يمكن أن تكون ؟ وهل لك إليها من سبيل ؟ ولكن النجم صامت لا يرجع عليك جواباً ولا يرد إليك صدى ، كأنما أدركه الصمم ، وكأنما عقد

لسانه عن الكلام . ومع ذلك فما كان أكثر ما تسمع النجوم لأهل الأرض ، وما كان أكثر ما يسمع أهل الأرض لحديث النجوم . لقد أطلت سؤال هذا النجم ولم تظفر منه بشيء فماذا أنت صانع ؟ إنك لتريد أن تكتب إلى الثريا كتاباً تبعث به إليها إذا أقبل الصبح قم. فاكتب إليها هذه الأبيات :

كتبت إليك من بلدى كتاب مـولـه كمد
كئيب واكف العينيـ ن بالحسرات منفرد
يؤرقه لهيب الشو ق بين السحر[1] والكبد
فيمسك قلبه بيد ويمسح عينـه بيد

ثم ماذا تريد بعد ذلك ؟ إنك لتود أن تنتظر مع الثريا ، تذكرها وتفكر فيها حتى مطلع الفجر . أليس كذلك ؟ ولكنك الآن تلتمس الذكرى فلا تجدها ولا تظفر منها بشيء . فأنت تريد أن تذكر فلا تستطيع . وتريد أن تفكر فلا تجد سبيلا إلى التفكير . وأنت تأوى إلى مضجعك وقد كنت أزمعت ألا تأوى إليه . ولكن للقوة البدنية حدا . ولكن للتعب سلطاناً هو باسطه وغاية هو بالغها . وقد قضيت مع الثريا ليلة كاملة لم تذق فيها النوم . وهذه الليلة الثانية قد انقضى أكثرها وكادت توالى نجمها تتغور — كما تقول — فلا بد لك إذن من بعض الراحة سواء رضيت أم كرهت .

---

(١) السحر : الرئة .

٢١

وينصرف عمر إلى اللهو والعبث كما ينصرف كل فتى أخفق فى حبه وكان له حظ من الشباب والجمال والثراء والفراغ أيضاً . ولو أن عمر لم يكن شاباً جميلا ثرياً خليقاً أن يفتن النساء وأن يستهوى نفوسهن ، لكان من الجائز أن ينصرف إلى الزهد أو إلى شىء يشبه الزهد من هذه الحياة الجافة الغليظة الخشنة ، ولكن الشباب والجمال والثراء جميعاً قد أعانته من ناحية على اللهو والعبث ، وأعانته من ناحية أخرى هذه السياسة الأموية التى كانت تحظر عليه وعلى أمثاله الاشتراك فى الحياة العامة . وانصرف عمر إلى النساء يعب من جمالهن عبا ، كأن بعد الثريا قد أظمأ نفسه ، وحرق جوفه ، وجفف حلقه . فأقبل عليهن يسقى نفسه الظامئة ، ويطفىء جوفه المحترق ، ويرطب حلقه الجاف . والناس يرون هذا كله فيقولون : فاسق ماجن . وما علموا أن حبه للثريا هو الذى دفعه إلى هذا الشراب الحلو الذى لم يُعصر من كرْم ، ولم يعتّق فى دَن ، ولم يصب فى كأس ، ولكنه يُسكر كأنه الخمر . ومع ذلك

فلم يَسكر عمر من هذا الشراب . لا لأن هذا الشراب غير خليق أن يُسكره ، وإنما لأن أربه فى شراب آخر . وهو إنما يتخذ هذا الشراب تسلية وتسرية وعزاء عن شرابه الآخر.

نعم عرف عمر كثيراً من الملاح الغيد اللائى يفتن باللفظ واللحظ ويسعدن بالقرب والوصل ، ويُعذبن بالتيه والصد . عرفهن وتغزل فيهن ولكن وُده لهؤلاء النساء لم يكن إلا وسيلة من وسائل العزاء حين كانت الثريا تثير فى نفسه ما تثير من ألوان السخط والضيق أول الأمر ، ثم حين تزوجت من سهيل آخر الأمر ، ولم يعد له إليها من سبيل . وأنا أعرف أنه قد قال عن نفسه : أنا موكل بالجمال أتبعه . فعرف عنه الناس أنه كان شاعراً عابثاً يجرى وراء أهوائه وشهواته. فإلهه الذى يعبده ويخلص له هو نفسه ، يبتغى لها اللذة والنعيم ويدفع عنها الألم والشقاء ما وجد إلى ذلك سبيلا . وهو من أجل ذلك مضطرب القلب ، أو لا قلب له ، يحب اليوم ويسلو إذا كان الغد ، أو يحب الآن ويسلو بعد حين . ولكنى أعرف أيضاً أنه وإن كان عابثاً إلا أنه كان محبا ، وكان حبه هو الذى يدفعه إلى هذا العبث . وكان يلقى من يلقى من النساء وصورة واحدة هى التى تتمثل أمامه وترتسم فى نفسه هى صورة الثريا . وكم ود لو طغت

صورة غيرها عليها فاستراح من حبها هذا الذى يكلفه شططا ويرهقه من أمره عسراً . ولكن هذه الصورة لم تكن تفارقه فى يقظة أو نوم وفى نهار أو ليل . وكانت تلح عليه فى أن يجاهد ما استطاع الجهاد ويحتال ما وسعته الحيلة حتى يلقى الثريا فيسمع منها ويتحدث إليها . أليس مشوقاً إلى أن يعلم علمها بعد أن فارقته ؟ وأليس مشغوفاً بأن يقص عليها ما لقى من أهوال بعد هذا الفراق ؟

ولم تكن حال الثريا خيراً من حال عمر ، فقد تزوجت من سهيل وارتحلت معه ، وكان من وراء ذلك خاطر قد طوت نفسها عليه طياً . وهو أن زواجها من سهيل لن يحول بينها وبين لقاء عمر إن أحبت . فهى تستطيع إن شاءت أن تبتغى الوسائل للقائه . ولو فعلت لأتيح لها هذا اللقاء . ولو فعلت لاستأنفت التحدث إليه والاستماع له ، ولأمتعته من حديثها ونظراتها بما كانت تمتعه من قبل . ولا ستمتعت من حديثه ونظراته بما كانت تستمتع به من قبل أيضاً . وقد جعل هذا الخاطر يتردد فى ضميرها يقظى ، ويتردد فى أحلامها نائمة . وهى تملك أمرها وتضبط نفسها ، وتمسك لسانها فلا تظهر شيئاً ولا تقول شيئاً ولا تخلى بين أحد وبين ما أخفت فى

ضميرها من هذا السر المكتوم . وكانت صورة عمر تتمثل أمامها إذا أصبحت ، وتتمثل أمامها إذا أمست ، وتتمثل أمامها بين ذلك . وكادت هذه الصورة أن تفسد عليها حياتها مع سهيل . وتفسد على سهيل حياته معها . فقد كان سهيل يحبها حباً قوياً ملحاً ، وكان يضايقها بهذا الحب القوى الملح . وهى لم تكن تحبه ولا تطمئن إلى جواره ، فكانت تقابل حبه هذا القوى الملح بشيء من الفتور أو النفور . وكان لا يكاد يقبل عليها حتى تتمثل صورة عمر وتطيل النظر إليها ، ثم تخطف النظر إلى زوجها . وتفصل ما فى عمر من محاسن ، وتوازن بينها وبين ما فى سهيل من مقابح . تفعل ذلك فيما بينها وبين نفسها . وتكاد أن تجهر به إلى زوجها ، لولا أنها تملك نفسها فى مشقة شاقة وعسر عسير . وقد يدنو منها زوجها متلطفاً متظرفاً مترفقاً متملقاً ، يتحبَّبُ إليها ويريد أن يخاصرها ، وأن يرافقها إلى غرفتها فتدفعه دفعاً شديداً ، ثم تفلت منه إلى حيث تستخفى وتوصد من ورائها الباب . وقد تلين له وتدين . ولكنها لا تلين ولا تدين إلا متمثلة صورة عمر . تغمض عينيها عن صورة زوجها الذى معها ، لترى صورة ذلك الحبيب البعيد ، وإذا زوجها يظن أنه قد سحرها سحراً واختلب قلبها ولبها اختلاباً

حين ارتقى بها إلى أقصى ما تستطيع أن ترتقى إليه من السعادة والبهجة والنعيم . ولكنه فى حقيقة الأمر لم يسحرها ولم يختلب قلبها ولا لبها ، وإنما الذى سحرها حقا واختلب قلبها ولبها حقا هو ذلك الحبيب الذى تمثلت صورته ، فاستسلمت له واستمتعت به وسعدت معه .

وكذلك كانت حياة الثريا تشبه شبها قويا أو ضعيفاً حياة عمر ، وكانت نفسها تضطرب بمثل ما تضطرب به نفسه من الألم والحزن . وكان قلبها يجد ما كان يجد قلبه من اللوعة والأسى . وكان أحب شىء إليها أن تقبل عليه فى مكة فتدنو منه وتفضى إليه بذات نفسها . كما كان أحب شىء إليه أن يقبل عليها فى مصر أو الشام فيدنو منها ويفضى إليها بذات نفسه . وكان كل منهما ينتظر الفرصة السانحة ليقبل على صاحبه . وتسنح الفرصة للثريا فتنتهزها ، وكانت هذه الفرصة هى موسم الحج .

٢٢

قالت ثريا لأتراب لها قُطُف

قُمْنَ نحيّ أبا الخطاب من كَثَبِ

فطِرْنَ حدّاً لما قالت وشايعها

مثل التماثيل قد مُوِّهن بالذهب

يرفلن فى مطرفات السوس آونة

وفى العتيق من الديباج والقصب

ترى عليهن حلى الدر متسقاً

مع الزبرجد والياقوت كالشهب

قالت لهن فتاة كنتُ أحسبها

غريرة برجيع القول واللعب

هذا مقام شُنُوع لا خفاء به

ألا تخفن من الأعداء والرقب

وكان من الحق أن يحذرن وأن يخفن ، فقد كن فى المسجد الحرام فى ذلك الحين ، وكان موسم الحج قد أقبل ، وأقبلت معه الطوائف المختلفة من الناس ، فملئوا مكة وملئوا المسجد الحرام

وكانت الثريا قد استأذنت من زوجها سهيل ، وخرجت تريد أن تحج فى ظاهر الأمر ، وتريد أن تلقى عمر فى حقيقة الأمر ، وقد أذن لها سهيل فى الخروج إلى مكة ، لأنه لا يستطيع أن يخالف لها عن أمر أو يخرج لها عن رأى . فقد كان يحبها حبًّا شديداً ، ويثق بها ثقة لاحد لها ، ويعتمد عليها فى كل شىء الاعتماد كله . يصدقها إذا قالت ، ويؤيدها إذا فعلت ، حتى إنه ليصدقها وهو يعلم أنها كاذبة ، وحتى إنه ليذعن لها وهو يعلم أنها ظالمة . ذلك لأنه يحبها إلى حيث تنمحى إرادته أمام إرادتها . فلما أعلنت إليه أنها تريد الحج لم يفكر فى أنها ذاهبة إلى مكة حيث يقيم عمر بن أبى ربيعة صديقها القديم . ولم يفكر فى أنها قد تلقاه وتخلو إليه وتعيد معه أيامها الحلوة اللذيذة . لم يفكر فى شىء من هذا أو فكر فيه ولكنه لم يأبه له ولم يحفل به ، لأنه لا يعدو أن يكون ظنا سيئاً ، وما ينبغى أن يسىء الظن بزوجته التى يحبها والتى لا ينبغى أن تساء بها الظنون . وقد أقبلت الثريا على مكة ، وكان أول شىء فكرت فيه هو لقاء عمر . وقد بعثت إليه من يأتى لها به دون أن يخبره بمجيئها . ويقبل عمر فلا يكاد يراها حتى يقول لها : حبيبتى ثريا . فتقول له : حبيبى عمر . ثم تلقى بنفسها بين

ذراعيه ، ثم يكون من كل منهما لصاحبه قبل طويلة حلوة حارة ، تؤدى كثيراً من المعانى ، ولسان كل منهما معقود ، وقلب كل منهما واجف . ثم يتاح لكل لسان من هذين اللسانين المعقودين أن ينطلق ، ولكل قلب من هذين القلبين الواجفين أن يطمئن . وإذا الثريا تعلن إلى عمر أنها ما زالت تحبه رغم زواجها من سهيل ، وأنها عاجزة عن مقاومة هذا الحب ، وأنها تتجلد وتجاهد ولكنها لا تظفر من هذا الجهاد بطائل . وأنها قد اقتنعت آخر الأمر بأنها لا تستطيع أن تنسى هذا الحب ولا أن تبرأ منه ., وأنها لا تستطيع أن تحتمل بعدها عن عمر ، فهى منذ اليوم ستتردد عليه فى مكة بين الحين والحين ؛ تقبل فى المواسم لأداء الحج ، وتقبل فى غير المواسم لأداءالعمرة . وهو يسألها : أليس من الحق أنك تحبين زوجك ؟ وهى تجيبه فى صراحة وعنف . كلا . لا أحبه ولم أحبه ولن أحبه . وما أحببت وما أحب ولن أحب غيرك . انتهى بها الحب إلى الجنون فهى لا تخفى من أمرها شيئاً . وعمر يضمها إليه ، فتبكى ما شاء لها البكاء ، وإذا دموعها تطلق دموعه فلا يستطيع أن يحبسها فتنهمر من عينيه انهماراً . وما أدرى أطال بكاؤهما أم قصر ؟ ولكنى أعلم أنهما قد تحدثا بعد ذلك

فنوناً من الأحاديث مختلفة ، وأنفقا معاً وقتاً سعيداً طالما حلما به وتمنياه ، ثم تودعه على أن يلقاها كل يوم ما دامت فى الحجاز . فلما كان هذا اليوم وكانت جالسة فى المسجد الحرام مع لداتها وأترابها ، نظرت فرأت عمر ، فقالت لهن : قمن نحى أبا الخطاب عن كثب. فقمن نشيطات له مسرعات إليه ، لم يبالين هذه الطوائف المختلفة التى تملأ المسجد ، والتى لا يمنع أن يكون بينها من يعرفهن فيسعى بهن إلى أهلهن أو أزواجهن فحذرتهن هذه الفتاة من هذا الأمر الذى يوشك أن يجر عليهن شرا عظيما . ولكنهن لم يسمعن لها ولم يفهمن عنها ؛ لأنهن كن مشغولات بعمر عن كل شىء . وقد أقبلن على عمر فحيينه وحياهن ، وسمعن منه وقلن له ، ثم انصرفن عنه بعد ذلك مسرورات محبورات .

ولم يكد ينته الموسم وتنصرف الثريا عن مكة حتى عادت إليها وكثر اختلافها إلى مكة منذ هذا الموسم كثرة لفتت إليها الأنظار حتى اضطر أحد أصدقاء سهيل إلى أن يحدثه فى ذلك . ولكن سهيلا يعلن إليه : أنه سعيد مغتبط واثق . ويحاول هذا الصديق أن يفتح عين سهيل وأن يدله على ماضى الثريا مع عمر ، وأن يلفته إلى حاضرها معه . فيجيب سهيل : بأنه لا يحفل

بذلك ولا يلتفت إليه ، لأنه يثق فى زوجه ويطمئن إليها ، حتى إنه لو رآها بين ذراعى عمر ما صدق أنها آثمة . ويتركه هذا الصديق حين يرى أنه لن يصل منه إلى شىء ولن يظفر منه بشىء . ولكن الثريا جعلت تطيل إقامتها فى مكة حين تقبل عليها ، وأخذ الكلام يكثر عنها وعن عمر بن أبى ربيعة ، فأخذ سهيل يرتاب ، ويشك فى أمانة الثريا ، وفى أن الصلة بينها وبين ابن أبى ربيعة ما زالت قائمة . فإذا عادت إليه أفضى إليها بهذا الشك فمحته فى الحال بلطفها وظرفها ورقتها وحسن حيلتها ، فيعود سهيل إلى الثقة والاطمئنان . ثم لا تلبث أن تعلن إليه أنها ذاهبة إلى مكة فيعود الشك إلى نفسه ، فيشكو إليها ، فتعطف عليه وترضاه . ولكنها تذهب إلى مكة وتطيل فيها المقام ، فإذا عادت إليه شكى إليها وبكى فتعطف عليه وترضاه ، حتى أصبح من أخلاقه أن يشك ويشكو ومن أخلاقها أن تعطف وترضى . ولكن الحق الواقع أن الثريا كانت تذهب إلى مكة للقاء عمر ، وأن الصلة بينها وبينه ظلت قائمة بعد أن تزوجت من سهيل . وكان سهيل يعلم ذلك ويتأذى به فى ذات نفسه إيذاء لا حد له . وكان من أجل ذلك يريد أن يقطع ما بينه وبينها من صلة . ومن يدرى ؟ فلعله فكر

فى مراقبتها حين تذهب إلى مكة . ولعله راقبها فتبين له اتصالها بعمر ، ولكنه لم يتحدث إليها هذه المرة بشىء فقد كرهها ، أو خيل إليه أنه كرهها ، فهو لا يريد أن تترضاه أو تعطف عليه ، وإنما يريد أن يخلص منها إلى حيث يستريح من الحب وآلامه وأثقاله . ولكنه لم يكن يفكر فى تركها والسلو عنها حتى يشعر بالعجز عن هذا كله . ومن يدرى أيضاً ؟ فلعله فكر فى شىء آخر ، فكر فى أن يأخذها مع عمر حين تتصل به وتخلو إليه . ولكنه خشى عليها من الفضيحة ، وهو يحبها مهما يقل ومهما يفعل ، فهو لا يستطيع أن يلجأ لهذا مهما كان الأمر . فإذا أقبلت عليه أنبأها بأنه قد استيقن اتصالها بعمر حين ذهبت إلى مكة . وتسرع هى فى أن تتلطف له وتأخذه باللين والرفق منكرة بطبيعة الحال ما يتهمها به . متهمة إياه بالغيرة والإسراف فى الغيرة ، فتكاد تخدعه وتكاد ترضيه ، وتميل عليه فتقبله ، فتوشك إرادته أن تنمحى . ولكنه واثق بما بلغه عنها ، فهو لا يصدقها . وهو يريد أن يعفو ، ولا يطلب منها ثمناً لهذا العفو إلا شيئاً واحداً وهو أن تنبئه بأنها قد اتصلت بعمر حين ذهبت إلى مكة . فتأبى لأنها لا تريد أن تعترف فتسىء إلى صاحبها : فإذا عرفت أن زوجها قد رأى أن ليس

إلى الشك فى ذلك من سبيل تغير فى نفسها كل شىء ، فعدلت عن الخداع والمكر إلى الصراحة والاعتراف . ولكنها لا تلوم نفسها ولا ترى أنها قد فعلت شيئاً ينكره الخلق أو الدين . فهى تحب صاحبها وإن ما نع زوجها فى هذا الحب . وأين السبيل إلى ممانعة الحب وهو لا يملك من أمره شيئاً ؟ وهل تعرف هى كيف أحبت صاحبها ؟ رأته فأحبته دون أن تعرف كيف أحبته ؟ ولا لماذا أحبته ؟ ولعلها لم ترد أن تحبه ، وإنما أحبته دون إرادة . وهل الناس يحبون لأنهم يريدون أن يحبوا ؟ ولا يكاد سهيل يسمع هذا حتى يأخذه ذهول يشبه الجنون . وإذا هو يحب أن يسمع من امرأته أنها تحبه ، لأنه يحبها . وإذن فاعتراف امرأته له بأنها قد اتصلت بعمر لم يغظه ولم يغضبه وإذن فهو ليس ذلك الزوج الذى يريد أن ينتقم لشرفه ، وإنما هو المحب الذى يريد أن يجد لحبه صدى فى نفس حبيبته ، بل الذى يريد أن يكتم على حبيبته سوء السمعة . هو عاشق لا زوج ، فلا يريد أن ينتقم ، وإنما يريد أن يجهل كل شىء عن أمر عشيقته مع صاحبها . وهو يريد أن يعيش معها ، ولكنه يضرع إليها ألا تلقى ابن أبى ربيعة بعد ذلك . وهى تعلن إليه أنها ستحاول إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

٢٣

ولم تجد الثريا سبيلا إلى الامتناع عن لقاء عمر ، وهى تحبه هذا الحب القوى العنيف الذى لا تعرف له حدًّا ولا أمدا ، فكانت تتردد عليه فى مكة ، وتنفق معه الأيام الطوال ، غير عابئة بما قد يثيره هذا فى نفس زوجها من ألم وحزن ومن بؤس وشقاء . وليس من شك فى أن سهيلا على سذاجته وطيب قلبه لم يستطع أن يحتمل هذا كله ، فأضنته العلة وذهبت بحياته فيما يحدثنا بعض الرواة . أو لم يستطع أن يحتمل هذا كله فطلقها وتخفف من عبء باهظ وثقل ثقيل فيما يحدثنا البعض الآخر . والشىء الذى لا شك فيه هو أن سهيلا قد استراح بالموت أو بالطلاق من هذه الحياة التى يحياها مع الثريا ، والتى كانت أشبه شىء بالجحيم الذى لا يطاق . وفى الوقت نفسه قد استراحت الثريا من حياتها البغيضة الثقيلة معه ، فعادت إلى مكة وأقامت إلى جوار صاحبها الذى تصفيه الحب وتمنحه الود وتصدقه الوفاء .

وتعود الثريا إلى أيامها الحلوة مع عمر وقد خلصت نفسها

للحب ، وصفى ضميرها للهو وحسن استعدادها للمجون ، أو قل لاستيفاء حظها من المجون . وإذا هى تخلو إليه كما كانت تخلو إليه من قبل فتطلق لسانها بما تشاء فى غير تكلف ولا تحرج ، وترسل نفسها على سجيتها فى غير احتياط ولا تحفظ . وتخلع عن نفسها هذه الخصال المصطنعة التى فرضتها الحضارة ، وتأخذ معه بحظها من البهجة والنعيم . فإذا انصرفت عنه فإلى رفيقات اللهو وخليلات العبث تسمر مع من بقى منهن فى مكة ، وتنتظر موسم الحج لتلقى من تزوجت منهن وارتحلت مع زوجها عن مكة ولا سيما عائشة بنت طلحة .

وكانت عائشة بنت طلحة هذه سيدة رائعة الجمال بارعة الفتنة ، وكانت رفيعة المكانة عظيمة المنزلة عريضة الثراء . وكانت قد عوّدت نفسها البر بأهل مكة والتوسعة عليهم كلما أقبلت على مكة للحج أو العمرة ، لا تعرف أن أحداً منهم قد مسه الضر واشتدت عليه الحال إلا أعانته وأغاثته وأنجدته ، تكتم ذلك ما وسعها الكتمان ، كأنما كانت تستحى من أن يعرف الناس عنها برها وكرمها . ولكن الناس كانوا يعلمون منها ذلك ويتسامعون به . وكان صنائعها يرون من شكر الصنيعة ومعرفة الجميل أن يذيعوا إحسانها إليهم

وأياديها فيهم . وكانت عائشة على ذلك لا تكتفى بهذا البر المكتوم تبذله لأهل مكة كلما احتاجوا إليه ، وإنما كانت تدعوهم إلى حفلات عامة فى أيام كانوا يرونها أعياداً ، فتقدم لهم الطعام والشراب ، وتقدم لهم الخلع والألطاف . وكانوا يستجيبون لدعوتها ولا يتخلفون عنها سواء فى ذلك الميسور والمقتر عليه فى الرزق ، يرون ذلك نعمة منها عليهم وحقا لها فى أعناقهم وكانت النساء المترفات يقبلن عليها كلما أقبلت على مكة . فيأخذن بحظهن من الطعام والشراب ، ثم يفرغن للأحاديث والأسمار فيقضون فيها شطراً غير قليل من الليل ، ثم يتفرقن موفورات محبورات ، تخفق قلوبهن بالحب لها ، وتنطلق ألسنتهن بالثناء عليها .

وتقبل عائشة على مكة ذات موسم فترى مكة قائمة قاعدة تشارك الحجاز كله فى قيامه وقعوده ، لأنها كانت تنتظر كما كان الحجاز كله ينتظر إقبال عائشة . وما هى إلا أن تنطلق مواكبها الرائعة فتمتلئ بها أرجاء مكة ، وتفرغ لها الدور والمتاجر ، ويهرع لها الناس كلهم شيوخهم وكهولهم وشبانهم وصبيانهم إلى الشوارع الواسعة والميادين العامة التى تسير فيها هذه المواكب . وإذا هم جميعاً لا يتحدثون إلا عن عائشة

ومواكب عائشة وجوارى عائشة . وإذا هم جميعاً مبتهجون ، تملأ قلوبهم الغبطة ويغمر نفوسهم الفرح ويشيع فى ضمائرهم السرور . وما تكاد عائشة تستقر فى مكة حتى تقبل عليها الثريا وأخواتها ونساء من مترفات قريش وأهل الدعة فيها ، فتلقاهن عائشة كما تعودت أن تلقاهن بوجه مشرق وثغر باسم وتحية حلوة يحملها إليهن صوت عذب . ويجلسن إليها فيتبادلن من الأحاديث ما يشأن ، ولا يبخلن على أنفسهن بالمزاح والضحك والإسراف فيهما . فإذا أخذن بحظهن من المزاح والضحك والحديث انصرفن وقد حملتْ كل واحدة منهن ما أمرت لها به عائشة من خلع وألطاف . ولكن من هذا الفتى الوسيم القسيم القائم بالباب ؟ إنه الغريض المغنى ، كان قد أقبل مع مولياته الثريا وأخواتها ، ودخلن هُنّ وانتظر هو بالباب . حتى إذا خرجت كل واحدة منهن مع جواريها الخلع والألطاف ، قال لهن : فأين نصيبي من عائشة ؟ فقلن له : أغفلنا ك وذهبت عن قلوبنا . فقال : ما أنا ببارح من بابها أو آخذ بحظى منها ، فإنها كريمة بنت كرام . واندفع يغنى بشعر جميل : —

تذكرتُ ليلى فالفؤاد عميدُ

وشطتْ نواها فالمزار بعيدُ

فسمعت عائشة صوته فقالت : ويلكم . هذا مولى العبلات بالباب يذكر بنفسه . هاتوه . فلما دخل عليها ورأته ضحكت وقالت له : لم أعلم بمكانك . ثم دعت له بأشياء أمرت له بها . ثم قالت له : إن أنت غنيتنى صوتاً فى نفسى فلك كذا وكذا (شىء سمته له) فغناها فى شعر كثير :

وما زلت من ليلى لدن طر شاربى
إلى اليوم أخفى حبها وأداجن
وأحمل فى ليلى لقوم ضغينة
وتحمل فى ليلى علىَّ الضغائنُ

فقالت له : ما عدوتَ ما فى نفسى ، ووصلته فأجزلت .

وهكذا أنفقت الثريا أيام الموسم بين لداتها وأترابها من ناحية ، وبين صاحبها عمر من ناحية أخرى . ومن يدرى ؟ فلعل عمر قال فيها فى هذا الموسم هذه القصيدة التى تصور بعض ما كانا يأخذان فيه من أسباب اللهو والمجون والتى أولها :

لم تر العين للثريا شبيهاً بمسيل التلاع يوم التقينا

٢٤

والأيام تمضى فتذهب بشباب عمر وجماله ، وبنضرته ورونقه . وإذا هو شيخ نحيف ضعيف ، نحيل هزيل ، عليه من مظاهر الشيخوخة هذا الشعر الذى وخطه الشيب . وهذه التجاعيد التى تظهر فى جبهته وتمتد حول أنفه من يمين وشمال وهذان الجفنان اللذان لا ينفرجان إلا فى شىء من الجهد . وهاتان الشفتان اللتان لا تنطبقان إلا فى شىء من العناء . وهذا التهدل والترهل فى وجهه وجسمه ، فإذا تحرك فعن قوة فاترة خائرة وعن جسم متهالك قد أخذ يشيع فيه الفناء . وإذا تحدث فعن صوت بعيد محطم ، كأنه ذلك الصوت الذى تحدثه إذا مسستَ إناء من الفخار قد أصابه شق يسير . وإذا جلستَ إليه سمعتَ تنفسه سريعاً يتبع بعضه بعضا كأنه تنفس المكدود المجهود. فليس غريباً أن يفكر عمر بعد هذا كله فى العبادة والنسك . ومن يدرى ؟ فلعله فكر فى الموت وما بعد الموت من حياة . وأى شىء كان أيسر من التفكير فى الموت وما بعده بالقياس إلى هذا الشيخ الذى كان يدنو من الموت أو يدنو منه الموت ؟

والذى كان يعيش فى مكة فى القرن الأول للهجرة ، ويعرف الموت وما بعد الموت من هذه الحياة الخالدة التى تمايز فيها النفوس والقلوب والضمائر بما تلقى من جزاء أعمالها . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ،. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

لقد مسه جناح من رحمة الله فأراد الفراغ له ، والخروج لطاعته عن حياته العابثة وأيامه اللاهية . وقد حاول أخوه الحارث قبل ذلك أن ينتزعه من لهوه ويخرجه عما هو فيه من عبث ومجون ولكنه لم يستطع . فلكل شىء وقته وإبانه . ومن المحال أن تهدى نفساً لم تنضج بعد لحياة العبادة . ورحمة الله لا تمس إلا من يريد الله أن يهديه سبيل الخير . وقد نضجت نفس عمر ، وأراد الله له بعد هذه الحياة التى يملؤها اللهو ويشيع فيها الفساد أن يكون عبداً صالحاً ، فاستنقذه من نفسه ، واستخلصه له من آثام الحياة وسيئاتها .

ويقبل عليه أصحابه ذات ليلة . فينكرون إعراضه عنهم ، وما ظهر من انقباض وجهه وتقطب جبينه ، وما أحسوا وراء ذلك من فتور النفس وجمود القلب وشرود الخواطر واشتغال البال . وهم لم يتعودوا منه إلا النشاط للهو إذا نشطوا له ، والإقبال على العبث إذا أقبلوا عليه ، والمشاركة فى اللذة إذا أخذوا فيها .

وقد كانوا يقبلون عليه مصبحين وممسين ، ويقبلون عليه فى أى ساعة من ساعات النهار أو الليل ، فلا يرون منه إلا نشاطاً وانبساطاً ، وإلا إقبالا عليهم وإيناساً لهم . يقبل معهم على اللذات إقبال المخلص فى حب اللهو ، المسرف فى إيثار اللذة ، المتهالك على أن يأخذ من العبث بحظ موفور . فلما أقبلوا عليه من ليلتهم تلك لم ينشط لما نشطوا له ، ولم يلقهم بما تعود أن يلقاهم به من البشر وطلاقة الوجه وابتسام الثغر وانبساط الجبين . وإنما استقبلهم فى شىء من الإعراض لم يروه حتى أنكروه فى أنفسهم ، ثم أحسوا وراء هذا الإعراض ما أحسوا من الفتور والجمود والشرود ، فلم يظهروا له مما أحسوا شيئاً . وطلبوا إليه أن يدعو لهم بعض إمائه يغنين ويرقصن كما يفعلن دائماً كلما أقبلوا عليه . ولكنه ازور عنهم بعض الشىء ، فألحوا فى الطلب فألح فى الإباء . هنالك جلسوا يتندرون ويتفكهون ، مستبقين إلى الضحك مسرفين فى المزاح متهالكين على الدعابة . وكانوا يلمحون له بدعابتهم ، ويلحون عليه بمزاحهم ، ويحرضونه على مشاركتهم فلا يجدون منه إصغاء إليهم ولا انتباها لهم . ولو أتيح لهم أن يصلوا إلى أعماق قلبه وأغوار نفسه لعرفوا أى لوعة كانت تحرق قلبه تحريقاً ، وأى حسرة كانت تفرق نفسه تفريقاً ،

وأى ندم لاذع كان لايفارقه يقظان ولا نائماً، ولرحموا أنفسهم مما يرحمهم منه ، ولعدلوا بأنفسهم عن هذه الطريق التى عدل بنفسه عنها ، ولعلموا أن الحياة باطل كلها ، ولخلوا إلى أنفسهم فاستغفروا ربهم وأنابوا إليه . فلعلهم أن يزيلوا عن أنفسهم بعض ما علق بها من إثم ، ويغسلوا عن قلوبهم بعض ما لصق بها من وضر . ولكنهم لم يتح لهم أن يتبينوا دخيلة نفسه وسريرة قلبه ، فمضوا فى لهوهم وعبثهم ومزاحهم وضحكهم متكلفين أن يلقوا إعراضاً بإعراض وجفاء بجفاء . ولكنهم لم يلبثوا أن أحسوا كأن شيئاً ينقصهم ، وكأن اللهو لا يستقيم لهم . وكأن نفوسهم لا تستجيب لهذه اللذات التى تدعوها فتلح فى الدعاء . ولا يشكون فى أن انقباض عمر عما ينبسطون له هو مصدر ما يجدون من حرج وضيق ، ومبعث هذا الفتور الذى أخذ يسعى إليهم شيئاً فشيئاً ، فيلهيهم عما أخذوا فيه من عبث ومزاح ، ويكاد يصرفهم عن لذتهم صرفاً . هنالك يقبلون على عمر لائمين أول الأمر ، ثم ملحين فى اللوم ، فإذا لم يجدوا منه عناية بهم أو استماعاً لهم رقوا له ورفقوا به ، وتحولوا إليه عن دعابتهم وفكاهتهم ، وجعلوا يسألونه عما عرض له من أمر . وما نزل به من خطب ، وما ألم به من مكروه . ويبلغ رفقهم

هذا الحلو قلب عمر فيتأثر به ويلين له ، وإذا هو يعتذر إليهم عما لقيهم به من فتور ، وقد عوّدهم أن يكون لهم مكرماً وبهم حفيا ، ثم يعلن إليهم أنه لم يقدم على ذلك راغباً فيه ، وإنما دفع إليه مكرهاً عليه . هنالك يعلنون إليه : أنهم لا يشكون فى أنه لم يلقهم بهذا الإعراض إلا وقد عرض له من الأمر ما اضطره إلى ذلك . ثم يطلبون إليه أن يفضى إليهم بدخيلة نفسه وجلية أمره كما عودوه أن يفضوا إليه بأسرارهم وجلية أمرهم . فلعلهم أن يكونوا عندما يحب من المعونة له والترفيه عليه . فيسكت عمر سكتة قصيرة ثم يقول لهم : ما أحبّ لكم ولا لنفسى أيها الأصدقاء أن ننصرف إلى اللهو والعبث هذا الانصراف . أفليس خيراً من هذا اللهو وهذا العبث أن ننصرف إلى العبادة والنسك ؟

ولم يكد أصحاب عمر يسمعون منه هذه الجملة حتى اندفعوا إلى ضحك غليظ متصل . ثم سكت عنهم الضحك بعد حين ، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض نظر المنكر لما سمع ، الساخر منه ، فى شىء غريب من الفرح والمرح . ولكن واحداً منهم ينظر إلى عمر نظرة لا تخلو من استهزاء يشوبه الإشفاق ، ويقول له : لقد كنا نحسب أن التفكير فى العبادة والنسك

والحديث عنهما أمر مقصور على أخيك الحارث . ولكن الأمر قد تجاوزه إليك . أو مستك العدوى منه ؟ قال عمر : فإنى لم تمسنى العدوى من أحد ، وإنما مسنى جناح من رحمة الله . قالوا : فإنا لم تمسنا هذه الرحمة بعد ، وما ينبغى أن تمسنا فى يوم من الأيام مهما تتقدم بنا السن . ومع ذلك فإنا لم نأت إليك لتتحدث إلينا عن رحمة الله التى يصيب بها من يشاء من عباده ، وإنما أتينا إليك لنأخذ معك فى اللذة واللهو . قال عمر : فإن نفسى لراغبة عنهما منذ اليوم . وتفرق هؤلاء الأصدقاء عن عمر ، وإن بعضهم ليقول لبعض . يا عجباً للفاسق . يريد أن يستنقذنا من الشر ويهدينا إلى الخير ، ثم بندفعون فى ضحك متصل عريض .

٢٥

وتمضى الأيام على الثريا فتنال منها كما نالت من عمر . ولكنها على ذلك تحتفظ بكثير من شبابها وجمالها . ثم يموت عمر فتجزع عليه الثريا أشد الجزع وتهلع عليه أكبر الهلع ، وتبكى عليه نساء مكة كلهن ، وتقول إحداهن وهى تندبه : فمن لأباطح مكة بعد ابن أبى ربيعة يمدح نساءها ويتغنى جمالهن ؟ ومنذ ذلك اليوم جعل الذواء يسرى فى شباب الثريا ، وأخذ الذبول يسعى إلى جمالها . ولم تلق الحياة بعد ذلك إلا بوجه محزون كئيب يصور قلباً مكلوماً مظلماً . وتحرص الثريا منذ اليوم على أن تلم بهذه الأماكن التى كانت تشهدها مع عمر فتتمثل ما كانا يأخذان فيه من لهو ومتاع . وتتحدث بهذا كله إلى صديقاتها أحاديث يغشاها الحزن وتتردد فيها الذكريات المؤثرة ، وهى بهذه الأحاديث إنما تتمم هذا المعبد الحزين الذى أقامته فى نفسها لهذه الحياة المنقضية ، ولهذه العهود الماضية ، ولهذه الذكريات التى ستدوم ما دامت لها الحياة .

ثم تخرج ذات يوم إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان

وهو خليفة بدمشق فى دين عليها . فبينا هى عند أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إذ دخل عليها الوليد ، فقال : من هذه ؟ قالت : الثريا . جاءتنى أطلب إليك قضاء دين عليها وحوائج لها . فأقبل عليها الوليد فقال : أتروين من شعر عمر ابن أبى ربيعة شيئاً ؟ قالت : نعم . أما إنه يرحمه الله كان عفيفاً ، عفيف الشعر وتروى له هذه الأبيات التى يقول فيها :

وحساناً جــواريا خفرات حافظات عند الهوى الأحسابا
لا يُكَثِّرْنَ فى الحديث ولا يتـْ بَعْن يَنْعقن بالبهام الظرابا

فيقضى حوائجها وتنصرف بما أرادت منه . فإذا خلا الوليد بأم البنين قال لها : لله در الثريا . أتدرين ما أرادت بإنشادها ما أنشدتنى من شعر عمر؟ قالت : لا . قال : فإنى لما عرَّضت لها به ، عرَّضت لى بأن أمى أعرابية . وأم الوليد هى وَلاَّدة بنتُ العباس بن جزىّ بن الحارث بن زهير بن جَذيمة العبسى .

ثم تموت الثريا فيذهب الغريض إلى كَثير بن كَثير السهمى فيقول له : قل أبيات شعر أنح بها على الثريا هذه التى ربتنى وعلمتنى النوح بالمراثى على من قتله يزيد بن معاوية من أهلها يوم الحرّة . فيقول :

ألا يا عين ما لك تدمعينا ... أمن رمد بكيت فتُكحلينا
أمَ انْتِ حزينةتبكين شجوا ... فشجوك مثله أبكى العيونا

ويذهب الغريض إلى مأتمها فتُضرب الستائر بينه وبين النساء وينوح وتنوح من حوله النساء .

قال مسلمة بن إبراهيم : قلتُ لأيوب بن مسلمة : أكانت الثريا كما يصف عمر بن أبي ربيعة ؟ فقال : وفوق الصفة . كانت والله كما قال عبد الله بن قيس الرقيات !

حبذا الحج والثريا ومن بالخَـ ... ـيْف من أجلها ومُـلْقَى الرحال
يا سليمان إن تلاق الثريا ... تلق عيش الخلود قبل الهلال
درةٌ من عقائل البحر بكرٌ ... لم تنلها مثاقب اللآل
تعقد المئزر السخام من الخزِّ ... على حَقْوٍ بادنٍ مكسالِ

٢٦

قلت لمحدثى — وكان عاشقاً لفتاة اسمها ثريا — والله ما أدرى أكنت تتحدث عن ثريا ابن أبى ربيعة حقا أم كنت تتحدث عن ثرياك أنت .

قال محدثى : وهل تظن أنى كنت أتحدث عن تلك الثريا لولا ثرياى العزيزة ؟

قلت له : فنحن إذن مدينون لثرياك بظهور هذه القصة ، قصة الثريا .

قال لى : وهل أكتب ما أكتب أو أتحدث ما أتحدث إلا وأنا أتمثل ثرياى العزيزة ؟

يولية سنة ١٩٥٤ م كمال بسيونى

مجموعة «أولادنا»

قصص شائقة ساحرة

للناشئة بين الثانية عشرة والسادسة عشرة من أعمارهم

ظهر منها حديثاً :

أوليفر تويست

القصة العالمية المشهورة ، قصة الطفولة المشردة التي تقسو عليها الأقدار ثم ترأف بها فسخر لها القلوب الرحيمة لتنتشلها من مخالب الشر وحمأة الرذيلة .

دافيد كوبرفيلد

القصة التي تعتبر أروع قصص ديكنس ، ففيها تصوير لشخصيات أصبحت خالدة على الزمن بميزاتها وأخلاقها ، وفيها كذلك صراع بين الخير والشر حتى ينتصر الخير

في مهب الريح

قصة الشباب الغني المترف يفقد فجأة غناه وثراءه فيهوى إلى حضيض الفاقة والفقر ولكنه يعتمد على نفسه فيعمل ويكافح في الحياة ويمتهن أشق الصناعات والمهن فيبني نفسه من جديد وينعم بنجاحه .

ثمن كل قصة ١٥ قرشاً

دار المعارف بمصر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة

اقرأ

الدكتور محمود محمد الجوهري

المراسل الحربي

دار المعارف بمصر

المراسل الحربيّ

الدكتور محمود محمد الجوهري

المراسل الحربيّ

اقرأ ١٨٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٨٤ – أبريل سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

الإهداء

إلى الأم المثالية

إلى كل أم فقدت ابنها فى المعارك التى خاضتها مصر دفاعاً عن القيم الخالدة فى تاريخها الطويل . . .

إلى الأم المكافحة التى تعد أولادها ليكونوا جنوداً للوطن . .

إلى أم أولادى :

مدحت ، مرفت ، محيي

أهدى هذا الكتاب

هذا الكتاب

جزء من ثمرة المجهود الشاق المضنى فى :

دراستى فى الشئون العسكرية بالجيش المصرى حتى حصلت على « ماجستير فى العلوم العسكرية » من كلية أركان الحرب المصرية .

دراستى فى « معهد التحرير والترجمة والصحافة » حتى حصلت على « ماجستير فى الصحافة » من كلية الآداب بجامعة القاهرة .

جزء من رسالة « الصحافة العسكرية » التى أعددتها فى ست سنوات وحصلت بها على درجة « دكتوراه فى الآداب » من جامعة القاهرة مع مرتبة الشرف .

جزء من الخبرة الشخصية التى اكتسبتها خلال المدة التى قضيتها فى عضوية مجلس تحرير جريدة « الأهرام » ورئيساً للشئون العسكرية بها .

وفى الواقع أن هذا الكتاب هو أول كتاب يتعلق بدراستى الصحفية والعسكرية معاً .

وقد دفعنى إلى فكرة إصداره ما لمسته من نقص فى هذا

الموضوع خصوصاً فى الحرب الفلسطينية الأولى عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ التى اشتركت فيها ضابطاً محارباً فى كتيبة البنادق التاسعة التى كانت رأس الحربة فى دخول فلسطين وكان أحد قادتها وأركان حربها ومديرى معاركها الزميل المشير أركان الحرب « عبد الحكيم عامر » نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة والقائد العام للقوات المسلحة للدول العربية المتحدة » .

وما لمسته عندما عملت فى الصحافة المصرية إبان العدوان الثلاثى الغاشم على مصر فى ٢٩ أكتوبر — ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

وإيمانى بأنه لم تعد هناك أمة بمعزل عن الحرب ، ولم يعد هناك فرد بمنأى عنها كذلك ، فإن الحرب أصبحت أممية جامعة ، معركة يخوضها الجندى فى ميدان القتال كما يخوضها أى فرد آخر من أفراد الأمة ، وبات من الضرورى أن يكون لكل فرد فى جهاز الأمة دراية بالحرب وتطوراتها وقوانينها وما يمكن أن تكون عليه فى المستقبل .

رأيت أنه أصبح من الضرورى أن يعرف هذا الجيل من شباب اليوم الذى يطلب أفراده العلم فى كل ميدان ، كل شيء عن الحرب خصوصاً عندما يعدون أنفسهم لأداء ضريبة

الدم يوماً ، سواء فى صورة مقاتلين أو مراسلين للصحف من ميدان القتال .

بهذا الكتاب أكون قد حققت فكرة كنت أتمنى أن تخرج إلى حيز التنفيذ وأنا بين أفراد القوات المسلحة ، وهو اليوم يشعرنى بأننى ما زلت جندياً وإن كنت قد تركت مهنتى الأساسية وافترقت عن زملاء العمر بالقوات المسلحة ولكنى ما زلت معهم بالقلب والروح والقلم .

وحينما أكتب هذا الكتاب أجد لزاماً علىّ أن أقول بأنه ليس بالدليل الوحيد ولا بالسفر الذى يجعل من يقرأه مراسلا حربيًّا أو كاتباً عسكريًّا أو ناقداً للشئون العسكرية فى ميدان الصحافة العامة يستطيع أن يضع تخطيطاً للقسم العسكرى فى الصحيفة ، أو يتولى أمر النشر الحربى ، أو يعمل مراسلا حربيًّا دون تدريب أو تمرين .

وليس هو كذلك محاولة لإيضاح كل ما يتعلق بمهمة المراسل الحربى أو تحديد الموضوعات التى يمكن أن توضع محل الدرس والبحث فى هذا الموضوع .

فإن المراسل الحربى والناقد العسكرى كالقائد فى الميدان ، والقيادة وإدارة الرجال هبة تولد ولا توجد .

لذا لا أستهدف من هذا الكتاب التصوير الكامل النهائى لجميع صور النشر الحربى والقائمين بها ، بل هى محاولة لإيضاح التطور الذى وصلت إليه مهمة المراسل الحربى منذ فجر التاريخ إلى اليوم .

ووضع الأصول والقواعد الأساسية التى ستبقى على مر الأيام حتى لو تغيرت أسلحة القتال .

وقصدت بذلك أيضاً أن يكون هذا الكتاب هو المقدمة لكل من يعمل فى محيط الصحافة والحرب .

وأن يكون المدخل للدراسات العسكرية والصحفية ، ودعامة يبنى عليها كل من يعمل فى محيط الصحافة العسكرية دراسات أخرى أعمق وأبعد مدى وأثراً مقرونة بالخبرة والتجارب الشخصية .

والله ولىّ التوفيق

القاهرة فى أول أبريل سنة ١٩٥٨

المؤلف

محمود محمد الجوهرى

دكتور بكباشى أركان الحرب

تمهيد

« المراسل الحربى هو الجندى المجهول الذى
يؤدى وظيفته بين الحديد والنار »

من أهم مبادئ الحرب التى لم تتغير منذ القدم مبدأ السرية كما أن أهم الأمور الجوهرية فى الصحافة هى الإذاعة والنشر . من هنا يتضح لنا أنه ليس فى استطاعة القوانين أن تقرب بين هذين الأمرين المتناقضين إلا إذا استمد كل طرف من الآخر العون مع حسن النية والإدراك السليم ، لذا فإن القيادة العامة وهيئة أركان الحرب تجد أمامها دائماً عملا من أشق الأعمال حينما تريد أن تضع تعليمات يسترشد بها الكاتبون الحربيون .

فإن من الصعوبة بمكان أن تمتنع الصحافة ويمتنع الجمهور فى الأوقات العصيبة وفى الأزمات الشديدة عن توجيه الأسئلة التى كان من المستحسن عدم توجيهها فى هذه الآونة أو من الإلحاح فى طلب معلومات يتعارض نشرها مع الظروف السياسية كل التعارض .

ومن واجب المراسل الحربى دائماً وبصفة خاصة ألا ينسى

أن أية عبارة تنشر فى صحيفة دون مراعاة أقصى درجات التبصر والحكمة قد تؤدى إلى نتائج عسكرية خطيرة فى حين أنها قد تظهر ضئيلة وقت نشرها ، فإن البيان الذى ينشر بغير تبصر وحذر أو الذى ينشر فى وقت غير ملائم قد يكون له من التأثير السيئ ما لا يمكن إصلاحه مهما صدر فى تكذيبه من بيانات ومهما اتخذ من الإجراءات لإبطال تأثيره بعد أن ظهر مطبوعاً .

إن السلطات العسكرية لتدرك كل الإدراك أهمية عامل الزمن عند الصحافة حينما تكون العمليات الحربية آخذة مجراها فى الأوقات التى لا بد لكل شىء فيها أن يسابق الزمن ، وغالباً ما يحدث فى أحرج الظروف أن يعترى الأعصاب وهن من تأخير الأنباء التى تتسبب فيه الرقابة الحربية فى الميدان حتى ولو كانت منظمة أحسن تنظيم ، وقد يزداد هذا التأخير حتى يصبح تضييقاً لا يحتمل ، فعلى المراسلين فى مثل هذه الأوقات العصيبة أن يذكروا أنه يجب أن تعرض رسائلهم على الرقابة التى يقوم بها ضباط قد يكونون مرهقين بالأعمال ومتعبين كالمراسلين تماماً ، فضلا عن ذلك فهم ضباط يعلمون أن هفوة واحدة قد تؤدى إلى نتائج خطيرة للجيش ولهم بصفة شخصية فيما يختص بمستقبلهم العسكرى ، فلتكن الصراحة التامة

من جهة والحذر المقرون بالولاء من جهة أخرى ثم التعاون المتبادل فى أداء المهمة العظيمة التى تقرب من القداسة وهى مهمة قيادة الرأى العام وتوجيهه توجيهاً سليما فى أوقات الأزمات القومية أهم ما يهدف إليه المراسلون الحربيون .

وتعتبر القوات العسكرية أن مراسلى الصحف العربية والأجنبية ومصوريها هم ممثلو الصحافة ، كما تعتبر الفنانين ورجال الإذاعة والسينما من رجال الصحافة أيضاً ، وكذلك كل من يعمل فى تداول الأخبار العسكرية ونشرها سواء بالبرق أو بالبريد أو بالسينما .

والصحافة العسكرية هى التى حملت وما زالت تحمل العبء الأول فى نشر المعرفة بين صفوف الجند وربط العقول برباط من توارد الخواطر وتداعى المعانى ودفع الأيدى التى تكيف الأسلحة إلى ترويض الأقلام وإغراء الأنظار التى ترقب العدو إلى الإقبال على المطالعة .

وأثر الصحافة فى الجيش من الآثار الواضحة التى لا ينبغى أن تغفل من تاريخه شأنها شأن المواقع التى خاضها والقواد الذين عبروا به ميادين الأحداث ، فإن مرآة نهضة الجيش لا تلوح فى قوة أسلحته أو نوع معداته أو طريقة تدريبه أو شخصية

رجالاته بقدر ما تلوح فى صحفه ومجلاته فهى المعيار الذى تقاس به حقيقته ومبلغ احتماله .

والصحافة العسكرية ليست مقصورة على الصحف والدوريات التى تصدرها القوات المسلحة على اختلاف أنواعها لضباطها وجنودها فقط بل هى أعمق من هذا بكثير لأنها تشمل كل ما يتعلق بالشئون العسكرية من ناحية النشر سواء فى الصحف العسكرية أو المدنية وتمد العسكريين والمدنيين على السواء بالأخبار العسكرية فى وقت السلم وفى وقت الحرب ، وهى ليست المادة الفنية البحتة التى تهم أفراد القوات المسلحة فحسب بل هى الأخبار العسكرية التى تهم عامة الشعب .

تعتبر الأخبار العسكرية أهم ما ينشر فى الصحف المدنية فى وقت الحرب وللقيام بهذا الواجب نجد جهازاً خاصاً يؤهل للقيام بمهمة الحصول على الأخبار العسكرية والتعليق عليها ، وهنا تظهر أهمية المراسل الحربى والناقد العسكرى والمعلق على الأخبار العسكرية فضلاً عن الرقابة العسكرية على الصحف التى تستلزمها سلامة الدولة وأمنها .

ويقضى النظام الحديث فى جميع صحف العالم بتكوين مجالس للتحرير تتكون من رؤساء التحرير ويضم إليهم مدير

التحرير أو رؤساء الأقسام إذا دعت الضرورة إلى ذلك ، ويختص هذا المجلس برسم سياسة الجريدة ويقرر طريقة معالجة كل موضوع وكل حديث وينبغى أن يكون بكل جريدة عضو فى هذا المجلس للشئون العسكرية حتى يضع السياسة التى يقوم عليها القسم العسكرى فى الجريدة خصوصاً فى وقت الحرب ، ويتكون القسم العسكرى فى الصحف الكبرى عادة من رئيس لقسم الشئون العسكرية يسمى Chief Military Editor ومحرر عسكرى وناقد حربى ومعقب على الأخبار العسكرية ومندوب أو مخبر عسكرى ومراسل حربى أو مراسلين حربيين .

المحـــرر العسكرى

Military Editor

هو المحرر العلمى الحربى الذى يقوم بترجمة وتبسيط المعلومات الحربية والعسكرية والخطط والنظريات الحربية والاكتشافات إلى لغة سهلة سليمة يفهمها القارئ العادى والجندى المحدود المعلومات .

النـــاقد الحربى

Military Critic

هو الذى يقوم بنقد الخطط الحربية والشئون العسكرية فى الجريدة وليس هناك ما يمنع من أن يقوم بهذا العمل المحرر

العسكرى إذا كانت خبرته وسعته فى المحيط الحربى لها اعتبارها أو كان صاحب عقلية عسكرية لها وزنها وقيمتها عند أولى الشأن من رجال الحرب .

المعقب على الأخبار العسكرية

Military Commentator

يتولى التعقيب على الأخبار العسكرية متخصص عسكرى ذو خبرة، وقد لا يكون التعقيب نقداً وإنما تعليقاً على مجريات الأمور العسكرية ، وهو عادة يكتب جزءاً من عمود فى الصحيفة يخصص لهذا الغرض وهو ما يسمى فى الخارج Columnist .

المندوب أو المخبر العسكرى

Miltary Reporter

هو مندوب الجريدة فى وزارة الحربية أو القيادة العامة أو الدوائر العسكرية الأخرى، وهو المخبر الذى يداوم على الاتصال بالقوات العسكرية وإدارة الشئون العامة للقوات المسلحة لنقل الأخبار التى تخص هذه الجهات إلى الجريدة وهو يمارس هذا العمل بموافقة السلطات العسكرية العليا ، وهو الذى يقوم بعمل الريبورتاجات عن استعراضات القوات المسلحة ومناوراتها السنوية وحفلاتها المختلفة .

المراسل الحربى

Military Correspondent

هو المندوب الذى يرسل إلى ميدان القتال فى مهمة خاصة أثناء الحرب ، وهذه الوظيفة لا توجد إلا فى حالة الحرب ، وهى موضوع هذا الكتاب .

وهذا النظام لا تتبعه أغلب الصحف إلا فى وقت الحرب عندما تكون الشئون العسكرية هى أهم ما يشغل الرأى العام فتميل بعض الصحف لأن يكون المندوب العسكرى والمراسل الحربى ضمن قسم الأخبار الخارجية خصوصاً إذا كان المندوب العسكرى أو المراسل الحربى متجولا فى ميدان القتال ، وتضع بعض الصحف المعلق العسكرى والمحرر العسكرى فى قسم خاص يطلق عليه « المعلقون » وهو يشمل المعلق السياسى والفنى والاقتصادى والعسكرى وفى وقت السلم تكتفى أغلب الصحف بأن يكون لها محرر عسكرى ومندوب بالقوات المسلحة .

ومن المستحسن أن توكل هذه الوظائف والأعمال إلى من جمع بين الثقافتين الصحفية والحربية ، ويؤدى هذا العمل بكفاءة كل من ضباط الاحتياط والضباط الذين انتهت خدمتهم العاملة وأحيلوا إلى المعاش .

ولما كان العمل الذى يقوم به المراسل الحربى من أهم الأعمال الصحفية فى وقت الحرب وجدت أنه من الأفضل أن أبدأ بإخراج هذا الكتاب عن المراسل الحربى ليسد فراغًا فى المكتبة العسكرية والمكتبة الصحفية .

إن الإلمام بأعمال المراسلين الحربيين أصبح أمرًا ضروريًّا فى الوقت الحاضر للمدنيين والعسكريين على السواء ، فالرجل المدنى الذى يكلف بالقيام بمهمة كهذه وثيقة الصلة بالقوات المسلحة يجب أن يعرف كل ما يتعلق بها من مهام حتى لا يقع فى أخطاء تسبب له متاعب جمة عندما يعمل فى المحيط العسكرى ، كما أن العسكريين الذين يتعاملون مع الصحفيين الذين يقومون بهذه المهمة يجب أن يلموا إلمامًا تامًّا بكيفية التعامل مع المراسلين الحربيين فى الميدان .

لذا حاولت فى هذا الكتاب أن أوضح — على قدر الإمكان — المعلومات الضرورية التى يجب أن يعرفها المدنيون من رجال الصحافة والعسكريون من رجال الحرب .

تطور مهمة المراسل الحربى

« إن دور المراسلين الحربيين جزء من هيئة أركان حربى »
أيزنهاور

عرفت مصر « الصحافة العسكرية » منذ خمسة آلاف عام تقريباً قبل أن تعرفها أية دولة فى العالم ، وكانت الصحف العسكرية فى عهد الفراعنة تنقش على الحجر من وجهين وتوزع شهريًّا على قادة الجيش وطليعة الحكام ، وكانت مجموع نسخها تصل إلى المائة ، وقد عثر على بعض هذه الصحف وقد حلّيت هامتها بصورة الفرعون الأكبر « مينا » ومن حوله لفيف من الأسرى قطعت رءوسهم ووضعت بين أقدامهم ، واشتملت بعض موادها على أنباء المعارك وذكريات القادة وأحداث الجنود، ولم ينسوا أن يبرزوا فيها لونـًا من ألوان التعبير الرمزى الذى تنتهجه اليوم صحافة القرن العشرين ، بأن رسموا ثورًا ينطح قلعة ، كناية عن انتصار الملك على أعدائه ، وكان قادة الجيش فى عهد الأسرة السادسة القديمة يقومون بمهمة المراسل الحربى ، ومثل هذا المراسل الحربى لم يكن يسجل مقالاته على الورق لأن الورق لم يكن قد استخدم بعد ، وإنما

سجلها كأسلافه على الحجر فى طائفة من النقوش التى خلفها على أشتات من الآثار .

ومن أهم النقوش تلك التى كانت فى عهد الملك « مرن رع » و « تحتمس الثالث » والتى كانت تدوّن على القبور بأسلوب روعى فيه الدقة والإيجاز ، وأى زهو يداخل المرء وهو يتنقّل بين جدران معبد مدينة « هابو » فى العاصمة المصرية القديمة « طيبة » فيسترجع فى ذاكرته معارك « رمسيس الثالث » كأنها حدثت بالأمس القريب . إن جدران هذا المعبد تحمل وصفاً لتلك الحروب الغابرة التى صارت اليوم ذكرى نعيش على أمجادها السوالف ، مثلما يعيش الابن على تراث آبائه وأجداده .

ولقد كانت معاهدة الصلح والصداقة التى وقعها رمسيس بعد معركة « كادش » مع أعدائه الحيثيين وسجلها على الأطلال بكافة نصوصها أقدم معاهدة عرفها التاريخ منذ الفجر البعيد .

ولم يكن هذا النشاط الصحفى وقفاً على أسرة أو حاكم دون حاكم فقد كانت نهجاً يقتدى به الملوك والقادة ، فبطون المعابد وجدران القلاع فى طيبة وممفيس وهليوبوليس وأبيدوس تحكى قصص انتصاراتهم مثلما تفعل الآن الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية .

ولو قدّر لأجدادنا الأوائل الذين مررنا عليهم دون أن نذكرهم ، أن تخلد آثارهم من بعدهم ولم يأكلها العدم فصارت اليوم خرابًا أو أحجارًا ، وطالعنا الصورة الأصلية التى أخذ عنها الملوك الأحداث الذين تهيأ لنا أن نتجوّل فى معابدهم ونقفوا أثرهم لسرنا مع التطور الذى لازم أفكارهم ولردمنا الفجوة التى تفصل بيننا وبينهم ، لقد جعلوا النقوش تنطق والرسوم تتحرك والكلمات ترتعش ، ومن دراسة النقوش واقتفاء الرسوم والإصغاء للكلمات يتتبع المؤرخ بوضوح أدوار المعارك كأنه يشاهدها اليوم فى إحدى دور السينما ، وكانت النتيجة لأعمال المراسلين الحربيين فى ذلك الوقت هى ما سجلوه فى صحف ذلك العهد التى كانت تسجل على البردى والجلد والطين .

صحف من طين

عثر فى مدينة « نينوى » عاصمة دولة آشور التى عاصرت الأسرات المصرية من الثانية والعشرين إلى السادسة والعشرين على ما يسمى « مطبوعات الجيش » وهى عبارة عن منشورات وتقارير ضمن الألواح الطينية المجففة ، وقد ألقت هذه الصحف ضوءًا وهاجًا على عصر الملك « آشور بانيبال » وغزوه لمصر ،

كما عددت تفاصيل الحروب الآشورية وأساليبها ، فضلا عن الرسائل التى تبودلت بين قادتها وملوكها .

البردى والجلد

لم يغفل المصريون عندما تقدم الزمن بهم أن يستخدموا البردى والجلد فى نشر أفكارهم وآرائهم ، فأعدوا نشرات دورية من البردى وأخرى شهرية من الجلد توزع على ذوى الشأن والحيثية من رجال الدولة ، وقد احتوت نسخ من هذه الصحف والمجلات أنباء على درجة قصوى من الأهمية تتناول أحداث الحرب ومقدرة الجيش وتنقلات القادة .

إن مثل هذه المواد التى نشرت من مئات السنين تماثل إن لم تطابق مايبعث به المراسلون الحربيون لصحفهم فى عصرنا المتقدم .

وهذا ما يؤكد لنا أن الصحافة العسكرية بصفة عامة والمراسل الحربى بصفة خاصة من الموضوعات القديمة التى لا يخامرنا أدنى شك فى أنها ليست حديثة العهد كما يتوهم البعض أو يعلق بأذهان الآخرين ، فهى وليدة قرون وقرون ، وقد أدركت أهدافها وأغراضها أقدم الأمم حضارة وإن كانت بصورة أو بأخرى — تتفاوت عما هى عليه اليوم فى عصر الذرة .

تختلف الصحف بعضها عن بعض فى أى الأقسام يلتحق المندوبون العسكريون ، هل يلحقون بقسم الأخبار الخارجية ، أم بقسم التحرير ، أو يكون لهم قسم خاص للشئون العسكرية كما ذكرنا ، وذلك لأن طبيعة هذه المهمة الصحفية تتحدد عندما يقع حادث عسكرى هام يستدعى ندب مندوب خارجى إلى مسرح الحادث .

حرب القرم
(١٨٥٣ ـ ١٨٥٥)

مهمة الأخبار العسكرية وغيرها ترجع إلى قرن مضى من الزمان ، عندما بدأت حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٥) وقد أرسلت الصحف الإنجليزية مراسلين لكى يوافوها بأنباء هذه الحملة ، وكانت هذه الحملة أول ما عرف من تاريخ هذا النوع من المهام الصحفية ، ثم توالت الحروب وتوالى إرسال المندوبين ، ولم تكن السلطات العسكرية تعترف بهم ، بل كانت فى كثير من الأحيان تنظر إليهم نظرة ريب شديدة بوصفهم جواسيس أو يسهل أن يؤثر عليهم جواسيس الأعداء، واقتضى هذا التفكير أن لا تقدم لهم السلطات العسكرية أية تسهيلات من أى نوع .

الحرب الأهليـــة الأمريكية
(١٨٦١ — ١٨٦٤)

لقد كانت الحرب الأهلية الأمريكية أول حرب ظهر فيها المراسلون الحربيون بالمعنى الصحيح وقاموا بنقل الأخبار العسكرية بالوسيلة المتوفرة آنذاك ، وقد جاء فى تاريخ الـ « A. P. » (الأسوشيتدبرس) الكثير من الموضوعات التى تدور حول نقل الأخبار العسكرية ونشرها ورقابتها العسكرية التى استخدمت لأول مرة فى هذه الحرب .

كان الموقف متوترًا بين الشماليين والجنوبيين ، ولم تبدأ الحرب من واشنطن ولكن على بعد عدة أميال إلى الجنوب ، وكانت الساعة الرابعة والنصف من صباح ١٢ من أبريل عام ١٨٦١ حينما شاهد مندوب «الأسوشيتدبرس » فى « شارلستون » قنبلة تنطلق عبر الميناء إلى قلعة الشماليين « فورت سومتر » وبعد مضى ثانية أجابت القلعة بإلقاء طلقاتها عبر الماء ، وأرسل أول برقية عن الصدام المسلح وأبلغ عن تسليم القلعة بعد ذلك بمدة ٣٤ ساعة وكتب « بنيت » فى نيويورك افتتاحية محررة فى سطر واحد « لقد بدأت الحرب الأهلية » .

ولم يكن « كريج » مدير الأسوشيتدبرس لديه أية خبرة سابقة بطريقة جمع أنباء التحركات العسكرية ، وكان عليه أن يتعلم ذلك بطريق التجربة والخطأ ، وكان عدد المخبرين الصحفيين المدربين قليلا ، وكانوا قد اختيروا على أساس قدرتهم على استعمال جهاز التلغراف ، ولكن المواقع الحربية لم تكن تجرى فى أفنية مكاتب البرق .

وأعلن « جو برايت » عن الأسوشيتدبرس أن مهمته هى نقل الحقائق والوقائع كما هى وليس له أن يعلق عليها أو يتخذ أى الجانبين فى الصراع ، وعلى الجرائد التى يبيعها أنباءه أن تحررها بالطريقة التى تريدها .

وأخذ « كريج » ينظم مجموعة المراسلين الحربيين لمصاحبة الجيوش الشمالية فى الميدان ، وكان المرء يشاهد فى الميدان مجموعة من الشبان بعضهم حليق وبعضهم مطلق لحيته و...، كان كل منهم يحمل مهمات الميدان وهى مسدس ومنظار مكبر ودفتر صغير وبطانية وأوعية طعامه وحصان وكانت تتراوح مرتباتهم بين ١٠ ، ٢٥ دولاراً فى الأسبوع ، أما المراسلون المهمون فى واشنطون ولويز فيل فكانوا يتقاضون ٣٥ دولاراً .

وبدأ المراسلون الخاصون يوقعون بأسماء مستعارة أو يبدأونها من مراسل الأسوشيتدبرس وكانت البرقيات فى العادة مقتضبة تذكر الوقائع باختصار على أن تتبعها القصة كاملة من شاهد عيان بعد يوم أو أكثر ، وغالباً ما كان المندوبون فى الجبهة الشرقية يجدون أنه من الأنسب أن يستقلوا القطار بعد المعركة مباشرة ويكتبوا قصتهم أثناء الطريق إلى نيويورك أو أى مدينة يوجد بها مكاتب برق ، وكانوا فى بعض الأحيان يرسلون قصصهم عن طريق رسل يركبون الخيل يهرعون بها عدة أميال حتى يصلوا إلى أقرب مكتب للبرق .

أما فى الجبهة الغربية ، فكانوا يعتمدون على سعاة البريد الحربى أو مكاتب البريد لنقل القدر الضئيل من الأنباء التى تسمح بها المخابرات الحربية .

وفى عام ١٨٦٢ بدأت عربة غريبة الشكل يجرها جوادان تتبع الجيش فى تقدمه ، وكان فيها « ماتيورب برادى » الذى كان يحمل فى العربة غرفته السوداء بجمع أنباء المعارك المصورة ، وقد اضطر إلى ذلك لأن التصوير الفوتوغرافى فى ذلك الوقت كان يستلزم تحميض الصور بعد لقطها بمدة خمس دقائق على الأكثر ، وللأسف لم تظهر تلك الصور فى الصحف إذ ذاك ،

لأن تلك الأخيرة لم يكن لديها استعداد لطبعها .

وكان المراسلون فى ذلك الوقت العصيب حريصين على السبق الصحفى لدرجة أنهم لم يكونوا ليكتفوا بمحاولاتهم للحصول على أحدث الأنباء ، بل كانوا يحاولون أن يستبقوا الحوادث بإرسال أنباء التحركات المتوقعة ، وبذلك كانوا يخدمون القوات الجنوبية المعادية ، فقد ثبت أن قصصهم كانت تقدم لرئاسة جيش الجنوبيين تقارير كاملة عن تحركات خصومهم والاطلاع على خططهم ، وحتى على خرائطهم الحربية ، فى حين أن الموقف فى الجنوب كان على عكس ذلك ، فكانت هناك وكالة رسمية تجمع أنباء الحرب وتعرضها على السلطات المختصة التى تنتقى منها ما ينشر فى الجرائد وتمنع نشر ما تعتبره أسراراً حربية .

ولم يقف خطر المراسلين عند هذا الحد ، بل إن الكثيرين منهم بلغت بهم الحماسة درجة كبيرة حتى إنهم كانوا يعلقون على الأنباء تعليقات خاطئة واعتبروا أنفسهم خبراء فى الاستراتيجية العسكرية ، فراحوا ينتقدون أى ضابط يبدى فى الميدان آراء لا تتفق وآراءهم مما أثار حفيظة القائد « وليم شيرمان » الذى لم يكن يخفى احتقاره لهؤلاء المراسلين ، فأجاب هؤلاء بالتغالى

فى السخرية منه لدرجة أن أحدهم وصفه بقوله : « لشيرمان تصرفات الهنود الحمر » وحينما وبخه القائد على ذلك ، أعلن فى جريدته اعتذاره . . . . للهنود الحمر .

وثار الصحفيون لأن « شيرمان » يمنع عنهم الأنباء ، فقد كان يعطيها لاثنين فقط من المراسلين الذين يثق بهم ، وهما « تايلر » مندوب الأسوشيتدبرس و « هنرى فيلارد » وكان شيرمان مهموماً دائماً لأنه شعر بأن الحرب ستطول وستكون مدمرة ، فأخذ المراسلون يعلقون على منظره المهموم فى أنبائهم ويصفونه بأنه متعب عقلياً ، ووصلت تلك الأنباء إلى السلطات فى واشنطن ، فأعفت « شيرمان » من منصبه ولم ترحمه الصحافة — حتى بعد ذلك — فكتبت مقالا فى ١١ من ديسمبر عام ١٨٦١ فى جريدة « سنسناتى كوميرشيال » بعنوان الجنرال « وليم ت شيرمان » مجنون ، وعاد شيرمان بعد عدة شهور ليتبوأ مركزه كأكبر شخصية عسكرية فى تلك الحـــرب ، ولكنه لم يغتفر أبداً للصحافة قصة جنونه الكاذبة ، لدرجة أنه عندما أبلغ بعد عامين بأن ثلاثة من المراسلين يعتبرون مفقودين فى المعركة ، قال بسخرية مريرة — شامتاً فيهم — « حسناً ، ستصلنا البرقيات فى الصباح من الجحيم » .

ورغم أن رجال « الأسوشيتدبرس » لم يكن لهم أى دخل فى تلك المعركة الصحفية ، إلا أنهم قاسوا مع جميع المراسلين من جراء معاملة الضباط الجـــافة والعدائية لهم حتى نهاية الحرب ، فقد ضوعفت الصعوبات التى وضعت فى طريقهم ، وأشيع عن جميع المراسلين أنهم لا يتوخون الصدق فى أنبائهم .

حروب السودان

وفى حروب السودان ظهر المراسلون الحربيون بكثرة فرافق حملة « هكس » فرانك باور (Frank Power) مراسل جريدة « التيمس » (Times) وقد أصيب بالدوسنطاريا وتخلف عند الدويم واستمر فى مرافقة الحملة « أودونوفان » (O. Donovan) مراسل جريدة « الديلى نيوز » (Daily News) وقتل فى معركة سنكات عام ١٨٨٣ .

أما فرانك باور فقد قتل أثناء حصار غردون فى الخرطوم عام ١٨٨٣ وبعد وفاته نشر أخوه رسائله .

وفى عام ١٨٨٤ ظهر مع الحملة مراسل حربى فرنسى يدعى « أوليفربين » (Oliver Pain) وقد تمكن من التسلل إلى معسكرات المهدى ولكنه مات أثناء الزحف من الأبيض إلى الخرطوم .

وفى حملة النيل عام ١٨٨٤ — ١٨٨٥ ظهر مراسل حربى لجريدة « الديلى نيوز » (Daily News) يسمى « بيرز » (Pearse) الذى اشترك أيضاً فى حملة « دنقلة » .

وفى عام ١٨٩٦ ظهر فى حملة « دنقلة » واسترجاع السودان مراسل آخر علاوة على « بيرز » يسمى « نايت» (Knight C.T.) وكان مراسلا لجريدة التيمس ومراسل أمريكى اسمه « جاريت» (Garett) وقد مات فى وادى حلفا عام١٨٩٦ وكان مراسلا لجريدة « نيويورك هيرالد » (New York Herald) .

وقد اشترك « تشرشل » فى هذه الحملة مراسلا لجريدة « مورننج بوست » (Morning Post) رغم معارضة « كتشنر » فى تعيينه وإصراره على العمل دون مرتب أو تعويض فى حالة الإصابة أو القتل ، وقد قبل « تشرشل » هذه الشروط وسافر إلى هناك وحضر معركة « أم درمان » آخر معركة فى التاريخ للهجوم بالحربة الذى قامت به «الفرقة ٢١ للحراب» (Lancer).

حرب البوير

(١٨٩٨ — ١٩٠٢)

اشترك فى الحرب « ونستون تشرشل » كمراسل ، وقبل أن يمضى شهرين فى جنوب أفريقيا أسر ، ولكنه فرّ من الأسر ،

وكانت قصة هربه أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، وكان يمثل جريدة « مورننج بوست » (Morning Post) مرة أخرى .

الحرب الإيطالية الطرابلسية

(١٩١١ – ١٩١٢)

ظهر المراسلون الحربيون بشكل واضح فى هذه الحرب ، ومن أشهر المراسلين الذين اشتركوا فى هذه الحرب « بنيت » Benett وجرانت مراسل « الديلى ميرور » . ورافق الحملة أيضاً صحفى إنجليزى يدعى « فرانسيس ماكيولا » (Frances Macula) وكان مراسلا لعدة صحف إنجليزية وأمريكية ، كما رافقها مراسل حربى ألمانى يدعى « فون جوتنبرج » ومراسل نمساوى يدعى « هرمان دنول » ولم تقتصر كتاباتهم على الأنباء العسكرية بل تعدتها إلى ذكر فظائع الإيطاليين ضد السكان .

حرب البلقان

(١٩١٣)

كتب اللورد « برايس » المحرر الأول لجريدة « الديلى ميل » والصحفى المشهور يصف أول مهمة عسكرية قام بها ، وكانت أثناء حرب البلقان ، قال إنها اقتضت أن يحمل معه إلى الميدان

حملة كاملة من البغال والجياد والخدم والخيام وطباخ ومترجم ، وقال إنه شحن هذه المهمات فى عربتين من عربات السكة الحديد ، فإذا تخيلنا كيف يمكن أن يتحرك صحفى بمثل هذا الحمل ، لعلمنا كم كانت الصعاب الشاقة تعترض مهمة المندوب العسكرى فى ذلك الوقت .

الحرب العالمية الأولى
(١٩١٤ — ١٩١٨)

ولما جاءت الحرب العالمية الأولى لم يتغير الموقف بالنسبة للمندوبين العسكريين بل رفض « كتشنر » أن يسمح لهم بالوصول إلى ميادين القتال ، ولكن بعد وفاته تغير الموقف قليلا ، فما كادت الحرب تنتهى حتى ظهر هؤلاء المندوبون فى أكثر جبهات القتال من الجانبين ، وربما كان لتأييد السلطات الأمريكية العسكرية دخل فى هذا السماح بعد المنع البات .

الحرب العالمية الثانية
(١٩٣٩ — ١٩٤٥)

وقدرت الحكومات بعد هذا أن طبيعة الحروب الحديثة تقتضى أن تكون الجبهة الداخلية سليمة متماسكة لا تفككها الشائعات الكاذبة ، وأنه لا سبيل لتحقيق هذا الغرض إلا

بإتاحة الفرص لعدد من الصحفيين كى يصاحبوا حملات القتال ويدرب هؤلاء تدريبا خاصا بحيث تأمن السلطات العسكرية جانبهم ويتمكنوا فى نفس الوقت من تغذية الصحف بالأنباء الصحيحة التى تقوى الجبهة الداخلية ولا تفيد العدو فى شىء ، ولهذا ما أن جاءت الحرب العالمية الثانية حتى كان أمر المندوبين العسكريين من المسائل المقررة ذات النظام الثابت ، وشهد الجميع بفائدتها تلك الفائدة التى لا يتطرق إليها أى شك ، وقد قال الرئيس الأمريكى « أيزنهاور » حينما كان قائدا لجبهة الحلفاء : « إن دور المراسلين الحربيين جزء من هيئة أركان حربى » ، وقبل معركة العلمين جمع «مونتجمرى» الصحفيين قبل المعركة بثلاثة أيام وعزلهم عن الاتصال الخارجى بالعالم وشرح لهم تفاصيل هذه المعركة التى كان يتوقف عليها مصيره ومصير الشرق الأوسط بأجمعه .

الحرب الكورية
(١٩٥١)

وفى الحرب الكورية ظهرت طوائف المراسلين العسكريين بأعداد كبيرة وصلوا إلى ٢٠٠ فى وقت من الأوقات على صغر هذه الحرب ، وللمرة الأولى ظهرت فتاة صحفية فى هذا الميدان

تؤدى نفس المهمة التى يؤديها غيرها من المراسلين الرجال ، وفقد وجرح فى أثناء العمليات عشرات من هؤلاء الرجال المندوبين ولم تكن بينهم هذه الفتاة .

هذه لمحة سريعة عن تاريخ المراسلين العسكريين فى الخارج ، نستطيع أن نتبين منها أن المراسل العسكرى أمين على جيش بلاده وأنه مزوّد بكل الوسائل التى تكفل له أداء مهمته من حرية إلى اتصال مباشر بضباط الشئون العامة فى جبهات القتال إلى مواصلات سريعة إلى تهيئة وسيلة للإقامة على النحو الذى يتهيأ فى ميادين القتال .

ولنسأل الآن ، ما هو مركز مصر ومركز الصحافة المصرية من هذا النوع من النشاط الصحفى ؟ فقد حدث فى الخمسين سنة الأخيرة حربان عالميتان ولم يظهر لنا مراسل حربى واحد فى جبهات القتال على الرغم من أن القتال كان فى الحرب العالمية الأولى على حدودنا الشرقية وفى الحرب الثانية على حدودنا الغربية .

وحدثت فى الحبشة عام ١٩٣٦ حرب هامة تأثر بها الشرق الأوسط كله عندما غزا « موسولينى » القطر الشقيق ، ولو أن المندوبين من كل مكان من أطراف الأرض ظهروا فيها إلا أنه

لم يظهر على مسرح الحوادث مصرى واحد وإن كانت بعض الصحف المصرية فى ذلك الوقت دأبت على نشر رسائل شابتها المبالغة الشديدة ، وكانت تصنع فى المكاتب ، حتى لقد قدرت إحدى الصحف عدد القتلى من الجيش الإيطالى بثلاثة أمثال الجيش الإيطالى كله ، وقبل الحرب العالمية الأخيرة فكرت وزارة الحربية المصرية فى إنشاء نظام للمراسلين الحربيين المصريين ، وكان هذا تفكيراً سليما فقد عنيت باختيار عدد من الصحفيين وألبستهم ملابس عسكرية ودربتهم تدريباً خاصًّا ولكن ما لبث هذا النظام أن ألغى بمجرد قيام الحرب ، مع أن الحاجة كانت تقضى بأن يستمر هذا النظام ، فكان ميدان ليبيا مثلا يغص بالمندوبين من كل مكان ولم يظهر بينهم مصرى واحد ، وذلك اعتماداً من الصحف على نشرات الأنباء البرقية التابعة للدول الحلفاء وبعض المقتطفات من محطات الإذاعة .

وأغلب الكتب العسكرية أو المراجع التاريخية فى الحروب كذلك فى السياسة تعتمد فى مادتها على مصادر كثيرة منها المراسلين الحربيين الذين ظهروا بشكل واضح وبكثرة فى الحرب العالمية الثانية بالذات علاوة على أنباء الإذاعة والصحف والتصريحات الرسمية للقادة .

الاعتداء الثلاثى الغاشم على مصر
(٢٩ أكتوبر — ١٠ نوفمبر سنة ١٩٥٦)

قام بعض الصحفيين المصريين بالعمل فى ميدان القتال فى منطقة القنال وبور سعيد كمراسلين حربيين .

كذا ظهر مراسل حربى رافق حملة الغزو الغادرة على مصر هبط مع قوات المظلات من الجو فى مطار « الجميل » ببور سعيد وكتب يصف المعركة ، وهو مراسل جريدة « الديلى ميرور » الإنجليزية واسمه « بيتر وودز » وكان أول مراسل هبط مع الجنود البريطانيين ، وهو قطعاً إما من جنود المظلات أو درّب على هذا العمل للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، وكان يكتب من غرفة العمليات الجراحية التى كانت نوافذها تتطاير تحت شظايا القنابل .

ولا يمكن تعداد ما قام به المراسلون الحربيون فى الحروب المختلفة ، ولا ذكر أسمائهم ، فمنهم من اشتهر ووصل إلى القمة فى حياته الخاصة مثل « تشرشل » الذى كان مراسلا حربياً فى حرب السودان وجنوب أفريقيا .

وقد ظهر فى الحرب العالمية الثانية مراسل جوى كتب

الكثير فى وصف المعارك والغارات الجوية ، وهو « لوسيان هبارد » الذى له صفحة مجيدة فى تاريخ الحرب عن فلسفة فذة لقائد ممتاز هو الكولونيل « كارلسون » والمغيرون على طريقة « العمل معاً » وما كتبه « جون ستانبيلك » وهو روائى شهير ومراسل حربى وبحرى يصف الحياة على ظهر ناقلة جنود عبر فيها المحيط إلى إنجلترا .

وما كتبه « جون هيرس » عن آخر معارك المدمرة « بورى » وهو عبارة عن التحام مدمرة أمريكية بغواصة ألمانية ، وقد تلقى « جون هيرس » علومه فى جامعتى «بيلك» و «كامبردج» وقبل أن يبلغ الثلاثين صار مراسلا لمجلتى « تايم » و « لايف » أى قبل اشتغاله مراسلا حربياً بست سنوات ، وقد اشتهر بعد نشوب الحرب بتصويره الرائع للمعارك التى تقع فى كلتا الجبهتين الكبيرتين ، ومن أروع الأعمال التى قام بها مراسل حربى هو ما كتبه « ألكسندر كليفورد » المراسل الحربى الشهير الذى ألف كتاب « ثلاثة ضد رومل » ، « رومل ثعلب الصحراء » الذى نشرته جميع صحف العالم .

كذا الأعمال التى قام بها « بوليا كوف » المعلم السياسى الذى رافق فرقة الجنرال « جالتسكى » وكان مراسلا حربياً

بجريدة « كرسنا يازيفذدا » وكان هذا المراسل ممن حاربوا الفنلنديين الوطنيين وأنعم عليه بنيشان العلم الأحمر ، ورغم أنه كان جريحًا فى مؤخرة « الفاشيست » ، إلا أنه كان يؤدى مهمته التى كلفته بها القيادة العامة ، وكان يكتب يوميا لجريدته ، وقد كتب هذا المراسل عن معارك الجنرال « جالتسكى » فى أوائل الحرب عندما اشتبكت مع المصفحات الألمانية وأرغمتها على التقهقر وكبدتها خسائر تقدر بحوالى ٢٦٥ عربة بنيران المدفعية .

وكتب عن حصار الألمان للقوات الروسية ، وكيف أمكن الجنرال « جالتسكى » من فك حصار الثلثين من جنوده المحاصرين بعد أن كبد العدو خسائر فادحة ثم كتب عن الحرب بين أدغال وغابات « بيبلوروس » السوفيتية وكيف حارب جنود السوفييت بلا هوادة ليل نهار حتى أوقعوا فى قلوب عدوهم الرعب وأنزلوا بكتائب الفاشيست الخسائر الفادحة فى الأرواح علاوة على شجاعة الجيش الأحمر فى محاربة الألمان .

وتعتبر كتابات هذا المراسل الحربى الروسى من أحسن الموضوعات التى كتبها مراسل حربى فى الحرب العالمية الثانية .

ومن أشهر المراسلين والمعلقين على الأنباء الحربية « جون جنتر » وهو كاتب مشهور ومؤلف زار مناطق القتال فى أفريقيا

وأوروبا وأضاف برحلته هذه فصلا جديداً إلى سجل الحوادث العالمية ، وقد استطاع مع شهرته الصحفية أن ينال شهرة واسعة بتعليقاته على الأنباء فى الصحف والراديو ، ومن أهم ما كتبه وصفه « جزيرة اسنشن » وهى الصخرة العاتية فى جنوب الأطلنطى والتى قالت عنها التقارير الحربية التى كتبت فى وصف هذه الجزيرة إنها صخرة عاتية لو حاول الغرب أن يهبط إليها لاندقت ساقه ، وما كتبه المستر « ديك » عن قصة قائد أمريكى لطائرة مقاتلة .

ومن أشهر المراسلين والمعلقين الحربيين المعاصرين معلق حربى أمريكى مشهور هو « هانس بلدوين » الناقد الحربى لجريدة « نيويورك تايمز » وقد زار مصر فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وفى أثناء هذه الزيارة زار الخطوط الأمامية فى غزة .

هذه كلمات مختصرة عن تطور مهمة المراسلين الحربيين على مر العصور .

قواعد وتعليمات للمراسلين الحربيين

« فى كل العلاقات التى تسود بين الجيش وممثلى
الصحف فى الميدان لابد من الاعتراف بالمبدأ الذى
اتفق عليه بأن للمراسل الحربى المعتمد الحق فى أن
يعامل معاملة الضباط فى كل الأحوال إلى أن يصدر
منه ما يدعو إلى عدم جدارته بهذه الثقة »

هناك قواعد عامة تطبقها القوات العسكرية فى مختلف الدول على المراسل الحربى فى الميدان كى يتمكن من أداء واجبه ، وهى قواعد يجب على كل من يعمل فى محيط الصحافة العسكرية الإلمام بها قبل أن يصبح مراسلاحربياً .

الخدمة العسكرية الإجبارية

التصريح بمرافقة القوات المسلحة فى الميدان كممثل للصحافة لا يعفى صاحبه من الخضوع للخدمة العسكرية الإجبارية أو لأية خدمة حربية أخرى ولا تلتزم الدولة بأية التزامات للفرد الممنوح له التصريح ولا للصحيفة أو الجريدة أو الوكالة أو أية هيئة أخرى يمثلها الفرد إلا فى حدود ما هو مفصل فى القوانين التى تصدرها ، وكل مندوب صحفى يطلب للخدمة العسكرية الإجبارية يترك عمله كمندوب صحفى فوراً .

الالتزامات المفروضة على
المراسل الحربى

عندما يصرح لمندوبى الصحف بمرافقة القوات المسلحة فى الميدان أو لمندوبى الإذاعة أو لشركات الأنباء ، عليهم أن يعرفوا الالتزامات التى تفرض عليهم فى مثل هذه الظروف وهى تتلخص فى الآتى :

● الامتثال لكل القوانين التى تطبق من وقت لآخر على ممثلى الصحافة الذين يرافقون القوات فى الميدان .

● الإذعان إلى القواعد التى يضعها والأوامر التى يصدرها القائد العام للقوات المسلحة بواسطة مدير الشئون العامة للنشرات العامة ومدير المخابرات الحربية للنشرات العسكرية .

● الامتثال لأى أوامر تصدر من سلطة عليا والإذعان لما تقضى به قوانين الجيش أو قوانين البحرية أو القوات الجوية والتى تطبق على كل شخص حائز لدرجة ضابط مع الخضوع لقانون الأحكام العسكرية المعمول به .

● يجب اجتناب كل الأعمال التى تضر بسلامة القوات المسلحة للدولة أو رفاهية الجنود أو روحهم المعنوية أو أية قوة

متحالفة أو متعاونة معها .

● لا يجوز للمراسل الحربى لأى دولة أن يلتحق بقوات أى دولة أخرى بصفته مندوبًا صحفيًا إلا بموافقة دولته ويكون ذلك من اختصاص وزير الحربية .

التصريح بمرافقة القوات العسكرية في الميدان

الموافقة على مرافقة مندوبى الصحافة لقوة عسكرية فى الميدان من اختصاص وزارة الحربية وتصدر هذه الموافقة عادة بعد أخذ رأى القيادة العامة للقوات المسلحة وإدارة المخابرات العامة بعد التشاور مع إدارة الجريدة أو غيرها من هيئات الإدارة المختصة ونقابة الصحفيين وكل شخص تعطى له رخصة مندوب صحفى بالميدان تعطى له صورة من القوانين التى سيعامل طبقاً لها ويوقع عليها .

خسائر المراسلين الحربيين

خسائر المراسلين الحربيين فى ميدان القتال تعامل معاملة الضباط من حيث التصرف والإخلاء وتخطر بها وزارة الحربية التى تبلغها إلى نقابة الصحفيين أو الهيئة الصحفية المختصة ،

كما يعالج المراسلون الحربيون طبياً نفس المعالجة التى يحصل عليها الضباط أثناء مرضهم أو إصابتهم بالقدر الذى تسمح به الظروف والأحوال فى الميدان .

شكاوى المراسلين الحربيين

المراسل الحربى الذى يرى أن له وجهاً للشكوى يعرض شكواه على مدير الشئون العامة أو من ينوب عنه الذى عليه أن يحقق مبدئيا فى الشكوى وإذا رأى بعد ذلك أن الأمر يحتاج إلى عرضها على سلطة أعلى قام بعرضها وإذا كانت الشكوى من الأمور الهامة جاز تحويلها إلى وزارة الحربية للمخابرة مع إدارة الجريدة أو الوكالة أو نقابة الصحفيين أو أى هيئة أخرى تكون مختصة .

كيفية التنقل والعمل فى ميدان القتال

يمنح المراسلون الحربيون الأماكن التى يتيسر وجودها فى معدات النقل أو فى مواصلات القوات البحرية أو الجوية أو قطارات الجنود ، غير أنه لا يجوز بحال من الأحوال قبول طلبات تعويض عن التأخير أو فقد متاع حتى إذا دعت الظروف إلى إنزال المندوب الصحفى من وسيلة النقل أو من

القطار قبل إتمام سفريته ، وفى مقابل ذلك تدفع الأجور العادية ما لم ينص على غير ذلك ، وإذا كان مصرحاً لهم بالسفر بمعدات نقل الجيش فى أية صورة كانت بما فيها الطائرات ، يطلب إليهم أن يوقعوا على استمارات استخدام هذه الوسائل ، وطلب ذلك يكون مبكراً لعمل حساب حجز المحلات لهم قبل السفر بمدة كافية ويسمح لهم عادة بحمل أمتعة فى الميدان تختلف باختلاف الظروف قد تصل إلى مائة كيلوجرام فى العادة .

متى يكون المراسل الحربى
عرضة للوقف أو الحجز

مندوبو الصحافة مكلفون بإبراز رخصهم وتصريحات مرورهم متى طلب منهم ذلك أى ضابط أو ضابط صف أو جندى يكون مشرفاً على نقطة أو حرساً أو داورية أو متى طلب منهم ذلك البوليس الحربى فى الميدان ، والمندوب الصحفى الذى لا يبرز رخصته أو تصريح مروره — متى طلب منه ذلك على الوجه السابق بيانه — يكون عرضة للوقف أو الحجز ، وفى مثل هذه الحالة يجب التبليغ عنه فى الحال من قبل السلطات العليا المحلية إلى مدير الشئون العامة أو من ينوب عنه ، فيباشر على الفور اتخاذ التدابير اللازمة للتحقق من شخصيته ، كما يجب

على المندوبين الصحفيين أن ينفذوا على الفور أية تعليمات تصدر إليهم من قبل أى شخص من الأشخاص السالف ذكرهم أثناء قيامهم بواجباتهم ، وإذا كان لدى المراسل الحربى أو المندوب الصحفى أى وجه للشكوى فى هذا الخصوص فيجب عليه أن يقدمها — فيما بعد — إلى مدير الشئون العامة أو من ينوب عنه .

الضباط كمراسلين حربيين

من المبادئ المقررة فى نظام المراسلين الصحفيين فى العالم أنه لا يسمح لأى ضابط فى الجيش العامل أو الاحتياطى أو الإقليمى أو الحرس الوطنى وكل من يشغل وظيفة ضابط بالقوات المسلحة بمختلف فروعها وأسلحتها وما يتبعها من القوات المتطوعة مادام يستولى على ماهية كاملة ولا لأى شخص يشغل وظيفة رسمية مهما كانت بالحكومة بأن يرافق أية قوة فى الميدان بصفته مندوباً صحفياً . أما الضباط المتقاعدون الذين يعملون كمندوبين للصحف فلا يصح لهم أن يذكروا رتبهم العسكرية فى مكاتباتهم للصحف .

سجل المراسلين الحربيين

تسجل أسماء المراسلين الحربيين وتقيد رخصهم بسجلات خاصة بكل من إدارة الشئون العامة والمخابرات الحربية ومصلحة

الاستعلامات وتسحب هذه الرخص إذا رأى ذلك القائد العام لقوات الميدان .

المدة التى يمكثها المراسل الحربى فى الميدان

يبقى المراسل الحربى أقل زمن ممكن مع أى قوة بالميدان ، حسبما تحدده القيادة العامة للقوات المسلحة ولا يجوز للمراسل الحربى أن يستغنى عن رخصته إلا بموافقة القائد العام لقوات الميدان ، وفى حالة سحب الرخصة أو الموافقة على الاستغناء عنها ، يرحل المندوب الصحفى من مسرح العمليات بأسرع فرصة تسمح بها ضرورات الخدمة ، على أنه للقائد العام بالميدان أن يحجز مثل هذا المراسل فى حدود الساحة التى تحصل فيها الرقابة طوال المدة التى يراها مناسبة ، كما له أن يعين الطريق التى يسلكها ذلك المندوب فى العودة إلى بلده .

معسكرات الصحفيين

السيطرة على المراسلين الحربيين من اختصاص مدير الشئون العامة ، وهو يعتبر القائد العسكرى للمراسلين الحربيين ، وهو أو من يمثله ، توجه إليه كل المخاطبات الخاصة بالشئون

الرسمية لهم ، ويتولى الإشراف على معسكرات الصحفيين متى كان من الضرورى وجود معسكرات من هذا القبيل ، وهو مسئول عن حفظ النظام وكل التدابير الإدارية التى لها اتصال بمعسكر الصحفيين.

الزى الرسمى للمراسلين الحربيين

يرتدى المراسلون الحربيون المعتمدون الزى الرسمى الذى يأمر به وزير الحربية ، وهو عبارة عن ملابس تشبه ملابس الميدان للقوات التى يعملون معها دون علامات الرتب ، ومحظور عليهم ارتداء الملابس المدنية أو العادية أثناء تواجدهم فى ميدان القتال ، كما أنه محظور عليهم حمل الأسلحة فى مسرح الحرب.

ولا يجوز للمندوب الصحفى — بأى حال من الأحوال — أن يثير مناقشة مع أى شخص من الأشخاص السالف ذكرهم ، وهم المفروض عليهم أنهم يعملون بناء على التعليمات التى يتلقونها من السلطات العليا ، كما لا يجوز للمراسل الحربى أن يزور الساحات الأمامية أو الخلفية فى ميادين القتال إلا إذا كان مصحوباً بضابط مرشد أو إذا كان حاصلا على إذن كتابى صادر من مدير الشئون العامة أو من ينوب عنه ، وذلك الإذن لا بد أن يبين فى وضوح وجلاء المناطق المراد زيارتها ، كما لا بد من إبرازه عند الطلب بنفس الشروط الخاصة بالرخص .

بداية التراخيص ونهايته

الرخصة التى تمنح للمراسل الحربى يتسلمها من الجهة الرسمية المختصة وهى عادة إما إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة أو مصلحة الاستعلامات وهى لا تبيح له إلا الذهاب إلى القاعدة « قاعدة العمليات الحربية » وهناك يتلقى التعليمات من مدير الشئون العامة أو من ينوب عنه ، ولا يسمح له أن يكون مراسلا حربياً إلا بعد موافقة مدير المخابرات الحربية بالتشكيل .

وبعد انتهاء العمليات الحربية يقدم القائد العام لقوات الميدان تقريراً إلى وزير الحربية عن كل مراسل حربى اشترك فى العمليات الحربية وكل من سمح له بالاستقالة من عمله كمراسل حربى أو سحبت منه رخصته قبل انتهاء الحملة ، وهذه التقارير تحفظ بإدارة الشئون العامة مع سجلات المندوبين الصحفيين الذين منحوا ترخيصاً للعمل بالميدان

التأمين على حياة المراسلين الحربيين

جرى العرف أن الجريدة أو وكالة الأنباء التى يعمل المراسل الحربى لحسابها فى الميدان تقوم بالتأمين على حياة المراسل الحربى ضد أخطار الحرب قبل قيامه بعمله كذا يتقاضى المراسل الحربى فى مثل هذه المهمة راتباً مضاعفاً على الأقل بالنسبة لما يتقاضاه فى الظروف العادية .

كيف يحصل المراسلون الحربيون على مادتهم

« المراسل الحربى أمين على جيش بلاده »

يحصل المراسلون الحربيون على مادتهم من النشرات العامة التى تصدرها القيادة العامة لقوات الميدان ، وتقوم بتوزيعها إدارة الشئون العامة على الصحف بالقاعدة أو مندوبو الشئون العامة بالتشكيلات على المراسلين الحربيين ، ومن المؤتمرات الصحفية التى تعقدها القيادة العامة للقوات المسلحة سواء فى القاعدة أو القيادة العامة لقوات الميدان فى ميدان القتال ، ويمكن لهم زيارة الجنود فى الميدان ، وهم أحرار فى الذهاب حيث يكونون فى منطقة القتال طالما هم مصحوبون بضابط من إدارة الشئون العامة إذا سمحت حالة العمليات الحربية بذلك .

وغالباً ما يضع القادة ثقتهم فى المراسلين الحربيين بأقصى درجة ممكنة عالمين بأنها ثقة فى موضعها وأنهم سيحترمونها فيطلعونهم على كل شىء فيما عدا الأسرار التى يتحتم كتمها ، مثل الخطط الحربية والنوايا والأسلحة الحديثة والتكتيكات الجديدة .

للمراسلين الحربين نفس المنزلة الرسمية للضباط ، وهم خاضعون للقانون العسكرى كالضباط تماماً ، على أنه ليست

لهم سلطة الضباط التنفيذية ، كما لهم الحرية فى التحدث مع الجنود أينما أرادوا بشرط موافقة الضابط المرشد أو أى ضابط آخر يكون موجوداً مع أولئك الجنود ، ويطلب إليهم الامتناع عن المناقشة مع الجنود فى الشئون السياسية وعن التحدث مع الجنود القائمين بالعمل أو القائمين بالحراسة ، وعن المناقشة فى الموضوعات السرية .

الموضوعات الممنوع الإشارة إليها فى تقارير المراسلين الحربيين

هناك موضوعات ممنوع الإشارة إليها يجب أن يعرفها المراسلون الحربيون ، ومن المستحيل وضع إيضاحات مرشدة مستديمة عن هذه المادة ، وذلك لأن الكشف الذى يوضع لبيانها قد يتأثر بتطورات الموقف فى حالات معينة ، وفى نفس الوقت ، يمكن تحديد أهم الأشياء التى لا يجب أن يذكر شىء عنها فى تقارير المراسلين الحربيين منها :

- الأسلحة التى تتألف منها تشكيلات الجنود وأماكنها .
- تفصيلات التحركات العسكرية بالبر والبحر والجو .
- أوامر العمليات الحربية بأنواعها .
- الخطط والعمليات المزمع إجراؤها .

● الخسائر والإصابات .

● أسماء الأماكن والتشكيلات والوحدات ، ولا مانع من ذكر وحدات مثل ، مدفعية مشاة فرسان . . . إلخ .

وبوجه عام يجب ألا ينشر أو يوصف أى موقع أو مواقع محتلة أو ستحتل تكون لها قيمة عند العدو ، ولا يذكر شىء عن وصف الاستحكامات أو التحدث عنها .

وعلى أى حال هناك بعض قواعد لإرشاد ممثلى الصحافة وهى قابلة للتغيير عن الموضوعات التى يجب عدم الإشارة إليها بدلا من أن تعرض على الرقيب الحربى وتكون عرضة للمنع وتعطيل أعمالهم الصحفية منها :

● تفاصيل المعارك — المصطلحات والرموز العسكرية — المقالات المحرفة — نقد الأشخاص — الخسائر — أسماء الضباط .

● إذاعة أى أخبار عن أسلحة جديدة أو أسلوب تكتيكى حديث .

● يجب ألا تنشر الصور أو الرسومات والخرائط إلا إذا ووفق عليها بواسطة المخابرات الحربية بعد أن تختم طبعات الصور المصدق عليها ويوقع على ظهرها الضابط المسئول عن رقابة الصور فى الفرع المختص سواء فى القوات البرية أو البحرية أو الجوية .

● لا يجوز أن ينشر أى مقال فيه آراء شخصية بها أى محاولة للتكهن بالحوادث الحربية المستقبلة .

● لا يجب الإشارة إلى الاصطلاحات الكودية أو المعانى الخفية أو شيء يسبب اليأس أو الفزع للقوات المحاربة أو المدنيين .

ولا يمكن أن يحدد بالضبط الموضوعات التى يجب أن يراعيها الصحفيون عند كتاباتهم لأخبارهم فهذه دائمة التغيير تختلف من ظرف إلى ظرف ومن حرب إلى حرب وتصدر فى وقتها حسب مقتضيات الأمور والأحوال ، ومهما كانت التعليمات الصادرة إلى الصحف لتلافى نشر الأخبار غير المرغوب فى نشرها فإن وجود الرقيب العسكرى يجعلهم يتجاوزون عن اتباع التعليمات اعتماداً منهم على أن قلم الرقيب هو الذى سيحدد الموضوعات التى لا يجب نشرها .

ولا يصح الاعتقاد بأن المسئولية تقع وحدها على الرقيب فقط ، بل هى مسئولية مشتركة بين الرقيب والناشر .

كيفية نشر الأنباء العسكرية بالصحف

أوضحت كيف يحصل المراسلون الحربيون على مادتهم ، أما كيفية توصيل هذه المعلومات للصحف فيمكن إجمالها فيما يلى :

● كل الأنباء المراد نشرها بالصحف أو إذاعتها بالراديو

أو التليفزيون تقدم إلى مدير الشئون العامة أو من ينوب عنه الذى يرسلها بدوره إلى المخابرات الحربية بالتشكيل الذى يتبعه قسم للرقابة ، وهى تحرر عادة من ثلاث نسخ ، وبعد مراقبتها تعاد منها نسختان فى الحال إلى مدير الشئون العامة أو من ينوب عنه فيرسلها بأول وسيلة تتيسر من وسائل النقل ، إما بوسائل مواصلات الجيش أو بطريق الجو — إن وجد — أو بأى وسيلة خاصة للمواصلات تتوفر للصحافة أو تكون خاصة بها .

● الرسومات الكروكية والصور الفوتوغرافية والأفلام والشرائط المسجلة لا يسمح لمندوبى الصحف بأخذها إلا بإذن ، وإذا أعطى لهم الإذن ، يحظر عليهم إرسالها للنشر فى أية صحيفة أو وكالة أنباء أو أية هيئة غير التى يمثلونها .

● الإذن بأخذ صور فوتوغرافية أو كروكية أو أفلام يسحب من صاحبه إذا رأى القائد العام لقوات الميدان ذلك ، وإذا أخذت فهى على أى حال تكون خاضعة للرقابة .

● يجب تسليم الصور الكروكية والفوتوغرافية وكذا السلبيات والأفلام إلى الضابط المنوط بالصحافة فى الميدان الذى عليه أن يتخذ التدابير اللازمة لمرورها على الرقيب ثم إرسالها إلى عناوينها الخاصة .

● المكاتبات الخصوصية التى يرسلها مندوبو الصحف

تخضع للرقابة بنفس الطريقة التى تراقب بها المكاتبات الخصوصية التى يرسلها الضباط والجنود فى ميدان القتال إلى ذويهم وهى على أى حال ترسل عن طريق وحدة بريد الميدان .

الإقرار الذى يقدمه المراسل الحربى
قبل مباشرته عمله فى الميدان

قبل أن يباشر المراسل الحربى عمله فى الميدان يقدم إقراراً يتضمن أنه اطلع على القوانين الخاصة بمندوبى الصحافة المرافقين للجنود فى الميدان وأنه يتعهد بالإذعان لكل القوانين التى تطبق من وقت لآخر فى الميدان على مندوبى الصحف ولكل الأوامر التى يصدرها رئيس هيئة أركان الحرب العامة بواسطة رئيس مراقبى الميدان أو من ينوب عنه، وكل القوانين العسكرية التى تطبق على الضباط فى الميدان، وأن يمتنع عن سلوك أى طريق أو عمل أى شىء فيه مضرة بسلامة القوات المسلحة أو برفاهيتهم أو بقواهم المعنوية أو جنود أية دولة محالفة أو متعاونة ، كذا يتعهد بعدم الالتحاق بجنود أية دولة أخرى بغير إذن من وزارة الحربية بصفته صحفيا أو بأية صفة أخرى مدة دوام الحرب .

ويوقع المراسل الحربى على هذا الإقرار من نسختين ترسل إحداهما إلى مدير المخابرات أو من ينوب عنه للقوات المختصة

وتحفظ الأخرى بوزارة الحربية فى إدارة الشئون العامة .

ويمكن ابتكار نموذج يحوى هذه البيانات حسب مقتضيات الظروف والأحوال عندما تدعو الحاجة إليه .

المراسل الحربى الفنى أو المتخصص

« المراسل الحربى الرسام هو فنان الحرب »

تطورت الفنون الحربية وأصبح المراسل الحربى العادى غير قادر على الإلمام بجميع أسلحة الحرب وفنونها وتكتيكاتها ، وأصبحت القوات البرية فى حاجة إلى مراسل متخصص يفهم خصائصها من مشاة إلى مدرعات إلى مدفعية ثقيلة ومتوسطة وإلى مهندسين عسكريين بالقدر الذى يستطيع معه أن يعرف كيفية الإشارة إليها فى كتاباته ، وتبسيط هذه المعلومات للقراء من مدنيين وعسكريين .

المراسل الحربى الجوى

كما أن القوات الجوية تقدمت تقدماً كبيراً ، فالمراسل الحربى الجوى لابد وأن يلم بخصائص الطائرات المقاتلة وقاذفات القنابل الثقيلة والمتوسطة والطائرات النفاثة وناقلات الجنود والقوات

المنقولة والهابطة بالمظلات والتصوير الجوى بالقدر الذى يمكنه من تتبع العمليات الجوية وطريقة مساعدتها للقوات البحرية والبرية وضرب الأهداف ونقل المعدات والتصوير الجوى، وكذا الإلمام بمواقع الطائرات وأراضى النزول وغيرها من المعلومات التى يحتاج إليها عندما يحتاج الأمر لوصف غارة جوية أو معركة فى الجو.

المراسل الحربى البحرى

أما المراسل الحربى البحرى فأصبح عمله صعباً ، فهو لا بد وأن يلم بطريقة العمل فى البحرية وأنواع الأساطيل البحرية والمدمرات والغواصات وكاسحات الألغام وحاملات الطائرات وغيرها ، وكيفية عملها والتسليح الموجود بها وكيفية تعاونها مع القوات الأخرى فى العمليات المشتركة بين القوات البحرية والبرية والجوية .

المراسل الحربى الفنى

ولا تقتصر وظيفة المراسل الحربى على القوات الثلاثة فقط ، بل قد يكون هناك مراسل حربى للحرب الكيميائية وحرب الميكروبات والحرب الذرية والهيدروجينية ، وهذا لا يمنع أن يكون المراسل الحربى العادى ملما إلماماً عاما بمعلومات عن

جميع الأسلحة فى الجيش والبحرية والطيران تمكنه من الكتابة العامة وتفهم النشرات والبلاغات الرسمية التى قد تعطى له من القيادة العامة بالميدان .

المراسل الحربى الرسام

لا يقتصر عمل المراسل الحربى على نقل الأخبار العسكرية من ميدان القتال إلى الصحف فى القاعدة لنشرها على الجمهور ، بل ظهر فى الحرب العالمية الثانية نوع آخر من المراسلين الحربيين الذين يرافقون القوات العسكرية وهو المراسل الحربى الرسام ، أو كما يسمونه « فنان الحرب » .

وقد ظهر هذا النوع من المراسلين للمرة الأولى فى حرب السودان ، فقد ظهر ممثل لجريدة « الديلى نيوز » اسمه « فيتالى » وهو رسام جرافيك ، وقد مات المراسل الحربى الذى كان معه فى معركة « دنقلة » أما هو فقد نجا بأعجوبة وعمل جريدة للسودان تكلم فيها عن حوادث غوردون وعن نفسه كمراسل وكتابه ملىء بالصور .

وقد اشتهر فى الحرب العالمية الثانية فنان حرب آخر هو الكابتن « اليوزباشى » « إدوارد بادون » وقد تخصص « إدوارد » قبل التحاقه بالجيش فى الفنون الجميلة والرسم وكان أول من

انضم إلى الحملة البريطانية فى فرنسا مع « بارنت فريد مان » و « إدوارد أرديزون » وقد أبدع فى تصوير كثير من مناظر الجيش وشخصياته بالريشة والماء والألوان ، وقد تحرك مع الحملة البريطانية خلال عام ١٩٤٠ ، وعند الانسحاب ظل إلى آخر لحظة يرسم مناظره ، وكان أروع ما عمله هو رسمه لميناء « دنكرك » نفسها .

وعاد سالماً إلى إنجلترا ، وبعد شهور قليلة ذهب إلى الشرق الأوسط ليلتحق بالجيش المحارب هناك ، ومكث حوالى سنتين عمل خلالهما كثيراً من اللوحات الجميلة الجذابة التى تتعلق بالحرب فى كل من مصر وليبيا والسودان والحبشة وأريتريا وسوريا والعراق والمملكة العربية السعودية ، وعاد إلى وطنه فى صيف عام ١٩٤٢ ، ولكن عودته إلى وطنه لم تكن طبيعية فقد كانت الرحلة العادية فى ذلك الوقت تستغرق شهرين حول رأس الرجاء الصالح ، إلا أنه تعرّض للضرب بالطوربيد أثناء وجوده بالمركب التى تقله فى جنوب الأطلنطى وأخذته قوات « فيشى » الفرنسية إلى « كازابلانكا » وأنقذته بعد خمسة أيام من ضرب المركب التى كان يركبها بالطوربيد فى قارب صغير ، وقد خسر فى هذه الرحلة جميع ملابسه وبعض الهدايا التى كان يحملها من

الشرق كالطرابيش و بعض أغطية الرأس الأخرى ، وللأسف الشديد أنه فقد فى هذه الرحلة جميع اللوحات التى رسمها خلال رحلاته هذه .

ولم يعد إلى وطنه إلا بعد أن غزت القوات الأمريكية « كازابلانكا » وفى الواقع أن الأعمال التى كان يقوم بها « إدوارد باودن » هى عبارة عن أعمال الترفيه والذكريات للجنود والضباط ، إلا أن هذا العمل كثيراً ما ينشر فى الصحف ليعبر عن معانٍ خاصة أو لنشر صور لبعض القادة .

ولا يشترط فى المراسل الحربى الرسام أن يكون ضابطاً مجنداً ومكلفاً بخدمة عسكرية خاصة كما كان « إدوارد باودن » بل يجوز لأى فنان أو رسام يرغب فى مرافقة القوات المسلحة فى الميدان أن يؤدى هذا العمل طالما تتوفر فيه الشروط التى تنطبق على المراسل الحربى الصحفى ، أما المدنيون من الرسامين والفنانين فلا بد لهم من الحصول على تصريح لاعتماد نشر هذه الصور والرسوم قبل السماح بإرسالها للصحف أو المجلات سواء كانت هذه الصحف عسكرية أو مدنية .

وعادة إذا توفر بين الضباط من يقوم بهذا العمل فقد يترك للضباط على أن تتولى إدارة الشئون العامة إمداد الصحف بهذه الصور والرسوم .

الملحق العسكرى كمراسل حربى

لقد أدرك كبار القادة — من زمن بعيد — أن نجاحهم فى الحروب رهن بقيمة ما يصل إليهم من المعلومات عن أعدائهم وصحتها ، ومن أجل هذا كان الاهتمام بأخبار الدول المجاورة ومشروعاتها الحربية وحال قواتها المسلحة أمراً واضحاً جلياً فى كل العصور ، فإذا نشبت الحرب أديرت العمليات الحربية وفقاً للمعلومات التى وصلت للدول من عيونها وعملائها السريين الذين تطلق عليهم اسم « مخبرين » إذا كانوا لها ، وتدعوهم « جواسيس » إذا كانوا عليها ، وليس مغالياً إذن من يقول إن تاريخ الحروب ليس إلا تاريخ الجاسوسية ، فإذا وضعت الحرب أوزارها وكان السلم، استمر نشاط هؤلاء العيون المنبثين للدولة فى بلاد جيرانها أو أصدقائها المتربصين أو المحتمين لكى يقوموا بموالاة التحرى والتقصى والاستعلام والاستخبار فى جميع المسائل ، سياسية أو اقتصادية أو حربية أو سيكولوجية أو طبوغرافية ، ويوافوا بها دولتهم أولا بأول لكى تكون على تمام الأهبة أو على الأقل لا تؤخذ على غرة ، وها نحن نقرأ فى أنباء كل يوم تلك المحاولات التى تبذل فى سبيل الكشف عن سر

الأسلحة الذرية والهيدروجينية والأشعة الكونية والصواريخ الموجهة والاحتياطات التي تتخذ لإحباطها من جانب آخر ، وهي حرب متصلة بين العملاء السريين من الجانبين لا تتكشف لها إلا في صورة بعض الضحايا الذين يقبض عليهم بين آن وآخر .

ولما كان العلم العسكري يتجدد ويتقدم ، فإن الحروب تتطور دائماً ويتسع معها ميدان المخابرات العسكرية وتصبح واجبات المراسل الحربي أكثر تعقيداً بصوره مستمرة ، فلا عجب إذا كانت الحرب العالمية الثانية قد ضاعفت عددهم وأبرزت بأجلى بيان الحاجة الماسة للمعلومات الدقيقة المفصلة التي تمت إلى الاستعلامات العسكرية بصلة ، فواجب المراسل الحربي جمع المعلومات العسكرية مع ما يلابسها من المعلومات السياسية والاقتصادية .

ومن أهم مصادر المعلومات التي تنقل إلى الدول سواء للنشر أو للعلم فقط في وقت الحرب « الملحقون العسكريون المحايدون » فلقد كان الملحقون العسكريون الأجانب في لندن أبان الحرب العالمية الثانية ينقسمون إلى قسمين : المحايدون والحلفاء .

الملحقون العسكريون المحايدون

وكان القسم الأول يشمل تركيا وسويسرا والسويد ومصر وأسبانيا والبرتغال والأرجنتين ، فلما تقرر زيارة ميادين القتال

فى نورماندى عام ١٩٤٤ عقب الغزو بقليل سافر المحايدون جميعاً دون الملحق العسكرى الأرجنتينى ، فلما احتج على هذا الاستثناء لم يحصل على جواب ، فرجع إلى وزيره المفوض الذى قدم احتجاجه إلى وزارة الخارجية البريطانية ثم طلب أن يستدعى الضابط إلى بلاده عندما وجد أن الاعتذار ليس فيه الترضية الكافية ، وتفسير هذه المسألة — على ما أعلم — هى أنه لم تكن للأرجنتين علاقات طيبة بالولايات المتحدة فى ذلك الوقت ، وكان الملحقون العسكريون المحايدون يرتدون دائماً الملابس المدنية إلا عند دعوتهم لزيارة منشأة أو منطقة عسكرية أو إذا طلب إليهم ذلك لمناسبة معينة .

الملحقون العسكريون الحلفاء

أما الملحقون العسكريون الحلفاء ، مثل الملحق العسكرى الروسى أو الأمريكى أو البولونى أو التشيكوسلوفاكى أو البرازيلى أو العراقى أو الإيرانى أو الهولندى أو البلجيكى أو اليوغوسلافى أو الفرنسى أو غيرهم ، فقد كانوا دائماً فى ملابسهم العسكرية وكانوا يقومون بدور أكثر نشاطاً من غيرهم ويصادفون تسهيلات أوسع مدى .

ولقد زاد عدد الملحقين العسكريين الحلفاء فى لندن أضعافاً

مضاعفة إلى جانب ما لهم من البعثات الدائمة والمؤقتة ، ويكفى أن أقول إن الملحق العسكرى الأمريكى ومساعديه كانوا أكثر عدداً من كل ملحقى الدول الأخرى محايدين ومحاربين مجتمعين .

رقابة الحقائب الدبلوماسية

وكان نشاط الملحقين المحايدين ، كما أسلفت ، محدوداً ، فهم لا ينتقلون من لندن إلى الشمال أو الجنوب إلا بعد الرجوع إلى السلطات صاحبة الشأن ، أى قسم الاتصال بإدارة المخابرات العسكرية ، وذلك لأن التعليمات التى صدرت فى ذلك الوقت كانت تنص على ذلك فهى تقول بعد الديباجة :

« توفيراً لسبل الراحة فى هذا الوقت الذى تقل فيه الراحة فى الانتقال ولكى يتمكن الملحق العسكرى من التوجه إلى المكان الذى يبغيه فى سهولة ويسر ، نرجو الاتصال بنا فى حالة انتقالكم من لندن . . . إلخ » .

ولقد أخضعت الحكومة الحقائب الدبلوماسية للرقابة قبل الغزو ثم أعادت حرية التراسل إلى ما كانت عليه بعد ذلك بوقت قصير .

السبق والصدق

أما القاهرة فلم تشهد ملحقين عسكريين أجانب إلا فى

نهاية الحرب ، فلقد اعتمدت الولايات المتحدة لها ملحقاً عسكريا هو « بونار فيللرز » وكان لبرقيته عن سقوط طبرق عام ١٩٤٢ أثر مدوّ استرعى الإعجاب للسبق والصدق ، فقد كان « تشرشل » يحادث الرئيس « روزفلت » عن موقف «طبرق» وما يعلقه عليها من آمال فى الثبات ، وإذا بالرئيس الأمريكى يفاجئه بالخبر الذى لم يكن قد وصل إلى مسامعه بعد ، ولعل هذا ما حدا بالولايات المتحدة إلى النظر بعين الاهتمام إلى تزويد الشرق الأوسط فى هذا الحين بالمراقبين العسكريين وبالملحقين العسكريين ، كذلك اتسعت أعمالهم وكثر نشاطهم فأصبح لهم ملحق بحرى وجوى وعسكرى ولهؤلاء مساعدون كثيرون خاصون فى جميع الفروع .

الملحق العسكرى المحايد

لقد أوضحت لنا تجارب الحرب بصورة جلية أن العامل الأساسى للمحافظة على سلامة الدولة المحايدة وحماية مصالحها هو فى وقوفها على نوايا الدول المحاربة ، فإنه ينبغى أن تحاط علماً كاملا بالمعلومات العسكرية كى تكون فى مأمن من المفاجأة وتعمل على تقرير الدفاع الوطنى بأوسع معانيه .

وعناصر الدفاع تشمل إبرام المحالفات وتنظيم القوات المسلحة ووضع خطط التسليح وتنظيمها وتصميم المشروعات الاقتصادية والقيام بالمباحث العلمية والفنية وتهيئة الأمة سيكولوجيا.

والملحق العسكرى المعتمد لدى دولة محاربة فى موقف يمكنه من استقاء المعلومات عن المبتكرات الجديدة التى يجرى تطبيقها تكتيكيا وفنيا ، كما يستطيع أن يقدر كفاية القوات المقاتلة لدى الطرفين المتحاربين واحتمالات القدر حتى يكفل لدولته إصدار القرارات السديدة لوقاية مصالحها ومؤازرة الجانب الذى تكون فيه مصلحتها إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

ولكن الدولة المحاربة قد لا تسمح للملحق العسكرى المحايد بالوصول إلى مقر القيادة العليا أو تتبع القتال فى الميدان ، إذ أن لها مطلق الحرية فى هذا الشأن ، وقد يتناول قرار الإباحة والمنع ملحقى الدول كافة أو بعضهم .

ومجمل القول أن المعاملة التى يلقاها الملحق العسكرى المحايد لدى الدولة المحاربة تختلف اختلافاً بيناً فى كل دولة عنها فى الدولة الأخرى ، ومرجعها إلى ظروف القتال وروح التفاهم بين الدولة المحايدة والدولة المشتبكة فى القتال ، ولا مراء فى أن لشخصية الملحق العسكرى أثر ملحوظ فى نوع المعاملة التى يلقاها ، وعلى

أى حال فهذه المهمة التى يقوم بها الملحق العسكرى هى نفس مهمة المراسل الحربى من حيث الأداء والحصول على المعلومات والاستفادة منها سواء فى النشرات السرية العسكرية أو الصحف العسكرية العادية أو الصحف العامة .

المعلومات العسكرية التى يجب أن يعرفها المراسل الحربى

« ثقافة الأفراد هى الفلسفة العليا للحرب الحديثة »
ايدل هارت

تنقسم الصحافة العسكرية إلى قسمين :

القسم الأول :

يشمل المجلات والصحف والنشرات العسكرية التى تصدرها القوات المسلحة .

القسم الثانى :

يشمل كل ما يتعلق بالأخبار العسكرية التى تنشر فى الصحف المدنية أو فى الصحف التى تصدرها هيئات عسكرية تجمع فيها بين المعلومات العامة والمعلومات العسكرية .

والصحافة العسكرية لا تصبح صحافة متخصصة إلا إذا

كانت جميع المعلومات التى تشملها هذه الصحف معلومات عسكرية علمية فنية بحتة، وهذا لا يمنع أن تنشر هذه المعلومات الفنية البحتة فى صحف غير متخصصة كما تنشر صفحات الأدب والفنون بالجرائد اليومية .

إذن فالصحافة لا تقتصر على المعلومات التى تنشرها صحف القوات المسلحة على اختلاف أسلحتها ووحداتها بل يمكن أن تنشرها الصحف العامة فى صفحات خاصة أو على أنهر خاصة أو فى مساحات محددة من هذه الصحف ، وعلى أى حال لا يمكن نشر المعلومات العسكرية البحتة على عامة الشعب لأنها مادة علمية[1] فمن الناحية الصحفية تخضع هذه المادة لقواعد نشر العلوم فى الصحف العامة ، فاللغة التى يستعملها العلماء فى أبحاثهم وتجاربهم والنتائج التى يصلون إليها لا تهم القارئ العادى فى قليل أو كثير إذا نقلتها الصحيفة كما هى لأنها لغة علمية بحتة وأرقام لا يعرفها إلا العلماء من القراء .

وما يقال فى هذا يقال فى الصحافة العسكرية التى مادتها الأساسية الفنون الحربية وعلم الحرب .

(٢) ولما كان القارئ لا يقبل إلا على قراءة ما يفهمه ، نجد فى كل صحيفة خبيراً فى شئون العلم يترجم أقوال العلماء ونتائج

أبحاثهم ودراساتهم إلى لغة بسيطة مفهومة حتى يستطيع القارئ أن يفهم تطورات العلم وأثرها على حياته ، وإقبال القراء على أخبار العلوم وتقدمها يزداد بشكل ملحوظ كل يوم لأن العلم أصبح الآن يسيطر على كل صغيرة وكبيرة فى الحياة .

وأنواع الأخبار العلمية كثيرة ، والحديث عنها يتطلب صفحات متعددة فميدان العلم واسع ، ويعتبر مصدراً غزيراً للأخبار وما يتبع فى هذه العلوم كعلم الصحة والهندسة والاكتشافات وغيرها يتبع فى العلم العسكرى ، والعلوم يمكن توسيع قائمتها لتصبح دائرة معارف صغيرة ، ومع ذلك سوف تظل الدائرة ناقصة ، ففى كل يوم تظهر تطورات علمية جديدة وخاصة فى الطب والطيران والراديو والحرب ، خصوصاً التجارب العلمية السرية أو العامة أو الاستعداد لعملية العنصر الرئيسى فيها سر ويحمل اسماً جديداً أو إذاعة أنباء الاكتشافات المفاجئة لأشياء كان الإنسان يبحث عنها منذ سنوات ، وهذه الموضوعات يجب ألا يكتب عنها إلا بعد أن تراجع بوساطة أكثر من خبير وعالم حجة فى الموضوع ، وليس هذا معناه أنها موضوعات معرفة ، وليكن معروفاً أن ما يبدو اليوم مستحيلا قد يصبح غداً أمراً ممكناً جداً ، ولكن الاكتشافات العلمية لم تعد تأتى الآن

وليدة صدفة أو إلهام ، فقد أصبحت نتيجة لبحث علمى قد يستغرق عشرات السنين .

ومن هنا ظهرت أهمية المحرر العلمى فى الصحيفة الذى أساس مهمته ترجمة المعلومات العلمية وتبسيطها إلى لغة سهلة يفهمها القارئ العادى وذلك بالنسبة لنشر الأنباء والمعلومات العسكرية والتى أرى أن يكون للصحف اليومية والمجلات الأسبوعية محرر عسكرى للشئون العسكرية ، والمحرر العسكرى كالمحرر العلمى الذى تكون وظيفته ترجمة وتبسيط المعلومات العلمية والعسكرية والخطط والنظريات الحربية والاكتشافات إلى لغة سهلة سلسة يفهمها القارئ العادى والجندى المحدود المعلومات ، وهذا لا يمنع أن يتخصص وينقد ويعلق على الدروس المستفادة من المعارك الكبرى فى التاريخ وشخصية القادة العظام واستخدام الأسلحة الجديدة والخطط الحربية المستقبلة ، وهو على أى حال يجب أن يكون عقلية عسكرية لها اعتبارها ووزنها وقيمتها عند أولى الشأن من رجال الحرب وأن القواعد العامة التى يجب أن يلاحظها المحرر العسكرى سواء فى الصحافة العسكرية المتخصصة التى لا تتعرض إلا لشئون الحرب أو فى الصحافة العامة التى تنشر أبواباً أو صفحات أو أنهر للمعلومات العسكرية هى

نفس القواعد التى تنطبق على المحرر العلمى فى الصحف الأخرى وهى بعينها التى يجب أن يلاحظها المراسل الحربى ، وتتلخص فى :

● لا تحسن الظن بمعلومات القارئ ولكن لا تقلل من ذكائه .

● لا تظن أن هذا الخبر مثلا قديم على القارئ لأنه ليس جديداً عليك فهناك كثيرون لا يزالون يعيشون فى القرن التاسع عشر وربما الثامن عشر .

● لا تخرج عن دائرة الحياة الإنسانية فالقارئ آدمى .

● لا تنس أن القارئ يقاطعك كل عشرة سطور ليسأل ، لماذا ؟ ولأى سبب ؟ فإذا لم تجب له على تلك الأسئلة فلن يكمل قراءة الموضوع .

● لا تعتقد أنك تجعل الموضوع أكثر جاذبية لو حشوته بخرافات أو أشياء خيالية أو نكات أو ألفاظ المبالغة .

● لا تقل . . . هذا كشف هام إلا إذا كنت قادراً على تقديم البرهان ، وإن كنت قادراً على ذلك فلست فى حاجة إلى كتابة هذه العبارة .

ولا يتوقع محررو الصحف أن يكون المخبرون علماء ، بل يريدون منهم أن يكونوا على معرفة بالقواعد العامة وقادرين على تفهم المعنى العام لأى اختراع أو كشف أو نظرية ، وهذا

يتطلب دراسة بسيطة وتجربة طويلة ، وهذا ما ينطبق أيضاً على المراسلين الحربيين والمحررين العسكريين ويجب على المراسل الحربى أن يلم بكثير من المعلومات التى تؤهله للقيام بوظيفته إذ أن مادة الكتابة العسكرية يجب أن يكون لها أساس متين من المعرفة العسكرية أو مايسمونه(Back Ground) وبصفة إجمالية يجب أن يلمّ المراسل الحربى بالآتى :

● المنشئات الحربية لأى دولة غالباً ما تكون معقدة ، ومع هذا يجب أن يكون المراسل الحربى ملمـاً بها جميعها ، وتنصب معرفته على الموضوعات الآتية :

التنظيم العام للجيش — وزارة الحربية والبحرية والطيران والقيادة العليا وهيئة أركان الحرب .

ليس فقط فى البلد التى يعمل فيها بل فى جميع الدول التى تتبع تنظيمـاً مختلفـاً فى تنظيم قواتها العسكرية .

● تنظيم الأسلحة والإدارات والمصالح المختلفة والوحدات ومحطاتها وتحركاتها .

● الأساطيل البحرية وقطعها المختلفة وحمولتها وتوزيعها وتسليحها وسرعتها .

● القوات الجوية ، القاذفات والمقاتلات وناقلات الجنود ،

طرازها وسرعتها وتجهيزاتها ومدى طيرانها وتنظيم السلاح الجوى وحالته المعنوية ومقدرته الفنية وكفاية ضباطه ومؤهلات الرتب الأخرى.

● الطيران الشراعي ، التعاون الجوى ، المطارات ومدى إعدادها للطيران الليلى والأراضى الصالحة للنزول .

● نظام التجنيد والمدارس العسكرية المختلفة .

● التشكيلات المختلفة بالجيش العامل والاحتياطى والأسلحة المعاونة .

● معدات القتال بأنواعها والمهمات والتسليحات الإجماعية والفردية وأسلحة الحرب المختلفة والتحسينات التى أدخلت عليها .

● الناحية الإدارية فى الجيش والبحرية والطيران .

● قوة الروح المعنوية فى الجيش والبحرية والطيران .

● كفاية كبار القادة وهيئة أركان الحرب ، وترجمة حياتهم والمناصب التى يشغلونها ومقدرتهم الفنية .

● تحويل المنشآت الصناعية إلى مصانع حربية — التحضيرات لتعبئة القوات المسلحة « وسائل النقل بالسكك الحديدية — الطرق » المقدرة على التوزيع الاستراتيجى .

● الدفاعات الأرضية وتسليحها « التحصينات الدائمة ونصف الدائمة » .

● السكك الحديدية والطرق الاستراتيجية — الموانى البحرية الحربية — الترسانات والاحتياطات المتخذة للدفاع الجوى الإيجابى والسلبى .

● المخترعات العلمية والاكتشافات التى يمكن أن يستفاد منها فى الحرب والتحسينات فى صناعات الحرب .

● الجغرافية العسكرية للبلاد وحالتها الصحية والاجتماعية والنفسية .

● الأبحاث الخاصة بوسائل الدفاع ضد الذرة والقنبلة الهيدروجينية والأشعة الكونية والصواريخ الموجهة .

وأرى اطلاع المراسل الحربى على النشرات الرسمية لوزارات الدفاع الوطنى المختلفة والكتب العسكرية الحديثة والمجلات والمراجع العسكرية والقوانين ، كل هذه الوسائل تزوده بدلائل قيمة عن التنظيم العام للجيش وعن التغييرات التى تحدث أولا بأول .

كما أن دراسة المجلات العسكرية لها عظيم الفائدة ، ففيها يجد معلومات كثيرة تسترعى اهتمامه ، وكثيراً ما يكون كتاب هذه المقالات قد أفادوا من خدمتهم خبرة ويريدون توجيه النظر إلى ملاحظات لهم عن تطبيق الأنظمة الحالية ويقترحون حلولا جديدة لمسائل معينة .

إن كل المجلات العسكرية وأكثر اللوائح فى أكثر الدول فى العالم تباع للجمهور ويمكن دراستها فى سهولة ويسر .

وعلى المراسل الحربى أن لا يتقيد بدراسة المطبوعات الرسمية فحسب فالصحف لها أهميتها إذ قد تحوى عناصر كثيرة تكمل معلوماته ، فأخبار التعيينات والترقيات أو على الأقل الصور الفوتوغرافية يمكن منها التعرف على ضابط معين ومراقبته فى حالة إرساله فى مهمة خاصة . والأخبار التى تطلع بها الصحف قد تعطى بيانات مفيدة عن بعض الأسلحة والعتاد أو الوحدات الجديدة ، والصور التى تظهر فى المناورات والاستعراضات لأول مرة.

وعلى ذلك فالدراسة الدقيقة للصحف أمر له أهمية عظمى ، بيد أنها تتطلب القارئ اللبيب الدقيق المتمرن على هذا العمل الشاق الذى لا يدع شيئاً يفلت منه لأن أقل إشارة قد يكون لها أهمية حربية خاصة .

وقد أخذت الصحافة المصرية بمبدأ تعيين محرر للشئون العسكرية ، وكانت أسبق الصحف إلى هذا العمل هى دار أخبار اليوم ، فقد اهتمت الدار بالجيش المصرى وشئونه ، خصوصاً بعد حرب فلسطين ، وعينت فى عدة مناسبات محررين للشئون العسكرية ، وأرسلت الصحف بعض مندوبيها

إلى منطقة القنال أثناء الاعتداء الثلاثى الغاشم على الأراضى المصرية فى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٦ للقيام بمهمة المراسل الحربى وهى خطوة طيبة فى سبيل إدخال هذا النظام فى الصحافة المصرية .

وإذا كنا نحاول اليوم أن نضع قواعد أو إرشادات لمن يعمل فى محيط الصحافة العسكرية ، فلابدّ لهذه القواعد والإرشادات أن تكون كاملة شاملة لكل ما يتعلق بالشئون العسكرية فى الصحافة ، إذ أن الصحفى الذى يعمل اليوم مراسلا حربيًّا سيرقى حتماً ليكون ناقداً حربيًّا أو على الأقل محرراً عسكريًّا أو معقباً على الأخبار العسكرية أو قد يتولى رئاسة القسم العسكرى فى صحيفة كبرى أو يصبح عضواً بمجلس تحريرها للشئون العسكرية ، لذا فالمعلومات التى نضعها فى هذا الكتاب ليست مقصورة على المراسل الحربى بل هى أساس لكل من يعمل فى الصحافة العسكرية — محرراً أو ناقداً أو معقباً على الأخبار العسكرية .

المدارس العسكرية الدولية

إن عمل الناقد أو المعقب العسكرى فى وقت السلم والحرب هو من الأعمال الصحفية الهامة التى تتطلب إلماماً تاماً بالفنون الحربية ودراية تامة بأساليب الحرب ، وعمل هؤلاء جميعاً فى وقت الحرب هو مكمل لعمل المراسل الحربى الذى يوافى صحيفته بأنباء جبهة القتال التى يعمل فيها ، وفى الواقع أن التعليق على الأخبار العسكرية عمل شاق ، لأن سيف الرقابة العسكرية على الصحف مصلت دائماً على كل ما يكتب ويرسم وينشر ويصوّر من الموضوعات العسكرية للنشر بالصحف .

وقد قام بأعمال المراسل والناقد والمعقب العسكرى فئة كبيرة من أعلام الفكر العسكريين فى جميع أنحاء العالم ، فإن أخبار الحرب والأخبار العسكرية بصفة عامة والتعليق عليها على تفاوت ألوانها وأحجامها فى مختلف المراحل ومن شتى الزوايا ، ونقل الصور المختلفة للأفكار والمفكرين بين رجال الحرب جدير بالنشر على الناس حتى لا تظل مغمورة وراء الطائرات والدبابات والمدافع ،ولا بد لمن يقوم بهذا العمل سواء فى الصحف العسكرية أو الصحف المدنية من العسكريين أو المدنيين الذين تخصصوا

فيه حتى يمكنهم أن ينقلوا إلى القوات العسكرية أو الجبهة الداخلية صورة صحيحة عما يجرى فى ميدان القتال بطريقة سهلة ومبسطة يفهمها الجميع على السواء ، وتاريخ الصحافة والأدب والتأليف والترجمة والنشر ملىء بما كتبه وأخرجه المراسلون والنقاد والمعقبون من كتابات تعتبر خلاصة ما أخرج وما كتب فى الصحافة العسكرية ، ومن أكبر الشخصيات التى تعلقت بهذا العمل وانتجت فى مضماره الكثير من الآراء القيمة هو الكابتن « ليدل هارت » الذى تجاوز نقده وتعليقه دائرة الصحف إلى المؤلفات والمحاضرات وانتقد خطط كبار القادة وأرخ للحروب وأصبحت نظريته تدرس فى كل مكان .

المدرسة الإنجليزية

« ليدل هارت »

يعتبر « باسيل هنرى ليدل هارت » من أشهر المعلقين العسكريين فى العالم وهو يوزباشي سابق فى مشاة الجيش البريطانى بزغ نجمه فى الحرب العالمية الأولى وقدر له أن يكتسب شهرة واسعة فى المحيط العسكرى العالمى واعتبره الكثيرون أكبر قادة الفكر العسكرى الحديث حتى لقد أطلق عليه كبار

العسكريين لقب « كلاوزفيتز القرن العشرين » .

وبالرغم مما يبدو من حداثة رتبته فقد تمكن من الحصول على شهرة واسعة وأصبح ذا نفوذ كبير على الأفكار العسكرية الحديثة وترجمت مؤلفاته ونشرت فى جميع دول العالم الكبرى .

وليدل هارت رجل واسع الاطلاع غزير العلم تمكن بفضل خبرته ودراساته المتعددة أن يلقى ضوءاً جديداً على دراسة الحرب يمكن تمييزه بوضوح خلال كتاباته المتعددة وإنتاجه الغزير ، وهو يعتبر مؤسس المدرسة الإنجليزية المعاصرة تلك المدرسة التى كانت وليدة تعاليم « مارلبورو » وهو يتعمق فى البحث ويعود إلى الماضى القريب والبعيد ليخرج إلى أبناء جيله دروساً قيمة أمكنه استخلاصها من المعارك القديمة عن أفكار القادة وتطور العمليات واستخدام الأسلحة وتطورها على مر العصور ، ثم يتناول هذه الدروس والأفكار القديمة بالبحث وينظر إليها نظرة رجل ذى قدرة على التفكير بوضوح والفحص بتمعن والاستنتاج السليم حتى يتمكن فى النهاية من الاستفادة منها استفادة كاملة يستطيع تطبيقها تطبيقاً مناسباً وفق المواقف والإمكانيات والأسلحة الحديثة ثم يخرج بأفكار وتعاليم جديدة تلائم المستقبل كما يراه ، ثم تمر الأيام وتثبت الوقائع والأحداث

سلامة تفكيره وصحة آرائه وسعة خياله ومقدرته الفذة على التقدير الصحيح .

عين « ليدل هارت » فى وظيفة المحرر العسكرى بجريدة « الديلى تلغراف » منذ عام ١٩٢٤ وظل بها حتى عام ١٩٣٥ حيث أصبح المحرر والمستشار العسكرى بجريدة « التيمس » . وقد اكتسب « ليدل هارت » المزيد من المعرفة والاطلاع طوال هذه الفترة وكتب عدداً كبيراً من الكتب والمؤلفات العسكرية ، وكان أكثر هذه المؤلفات يبحث فى كيفية استخدام الحملة الميكانيكية فى الجيوش الحديثة ومستقبل القوات المدرعة ، وقد أدى اتجاهه إلى هذه الناحية من البحث إلى توطيد صلاته بالجنرال « فولر » المشهور بأبحاثه عن الحروب الميكانيكية ، والتقت آراؤهما فى عدة نواح ، ونشرت آراء « ليدل هارت » ومؤلفاته فى أكثر من مكان وذاعت شهرته ولاقت أفكاره قبولا وتجاوباً خارج بلاده خصوصاً فى الجيش الألمانى الذى كان يزداد قوة واتساعاً فى ذلك الوقت ، وفى عام ١٩٣٧ أصبح « ليدل هارت » مستشاراً لوزير الحربية ، وفى هذا الوقت كتب مذكرة ضمنها آراءه ومقترحاته عن تسليح الجيش وتدريبه ، ولاقت هذه المقترحات معارضة شديدة خصوصاً من هيئة أركان

حرب الإمبراطورية ، وبالرغم من ذلك تم تنفيذ الكثير منها في الفترة التي تلت ذلك حتى عام ١٩٣٩ .

وفي عام ١٩٤١ بدأ في كتابة تعليقاته في جريدة « الديلي ميل » عن الحرب العالمية الثانية التي كانت قائمة في ذلك الوقت .

وعين بعد ذلك محرراً عسكرياً لدائرة المعارف البريطانية ، لقد استطاع « ليدل هارت » بفضل غزارة علمه وسعة اطلاعه ومقدرته الفذة على البحث والاستنتاج أن يصل إلى مكانة مرموقة بين قادة الفكر العسكري الحديث ، ولقد أشاد كثير من القادة بقيمة نظريات « ليدل هارت » وتعاليمه ، فيقول « روميل » :

« كان في استطاعة البريطانيين أن يتجنبوا الكوارث والهزائم التي حلت بهم بدراسة النظريات الحديثة التي نادى بها كل من « ليدل هارت » والجنرال « فولر » قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ومحاولة تطبيقها تطبيقاً صحيحاً .

ويعتبر « جودريان » منشئ المدرعات الألمانية نفسه تلميذاً لليدل هارت ، وأيد ذلك في مذكراته التي نشرت عام ١٩٥٠ بعد نهاية الحرب إذ استهلها بقوله :

« إلى ليدل هارت أستاذي الأول في تكتيكات واستراتيجية

القوات المدرّعة لأبين له نجاح الآراء التى تنادى بها مدرسته » .

وفى عام ١٩٣٩ قال الكولونيل « كانييف » الذى قضى مدة طويلة فى رئاسة الجيش الألمانى شارحاً الجهود الكبيرة التى يبذلها الجنرال « جودريان » لتجهيز وحداته المدرعة .

« إن الجنرال جودريان يعتقد أن ليدل هارت صاحب أكبر عقلية مرنة فى العالم ، ولذلك فقد أمر بترجمة جميع مؤلفاته ودرسها دراسة وافية وأدرك فى النهاية مدى قيمتها ، ثم أقنع المسئولين فى برلين باتباع النظريات والتعاليم التى ينادى بها » .

ولقيمة هذا الرجل وأهمية أفكاره وآرائه ومدى نفوذها على الفكر العسكرى الحديث لا نستبعد أن يشيد أحد كتاب الأجيال القادمة بأحد قادة الفكر العسكرى النابهين من بنى جيله فيصفه بأنه « ليدل هارت القرن الحادى والعشرين » .

وقد قضت مدرسة « ليدل هارت » الحديثة على المدرسة الإنجليزية البحرية التى تأثر بها « تشرشل » وهى التى عرفت بمدرسة « ماهان » فى فنون الحرب البحرية واستراتيجيتها وهى دراسة كلاسيكية ، كذا على المدرسة الإنجليزية البرية التى أظهرها السير « جون فورتسكيو » ومن بعده الجنرال « ويفل » .

المدرسة الفرنسية

« نابليون » و « فوش »

يعتبر «نابليون بونابرت » مؤسس المدرسة العسكرية الفرنسية ، والحقيقة التى لا مراء فيها أنه أحد فلتات التاريخ ، فإنه لم يحدث لرجل أن أثر فى دنيا الحروب وتحكم فى مصير بلده وجيله وتدخل إلى مدى بعيد فى مصائر الأجيال التى جاءت بعده كما حدث من « نابليون » .

وقد آمن « نابليون » بالصحافة العسكرية يستخدمها فى معاركه ، فكان يلقى المنشورات قبل قذائف المدافع ، وقد حدث ذلك فى إيطاليا ولومبارديا عندما قال للسكان إنه جاء ليخلصهم من الذل والعار ، فكان لها فعل السحر .

إن « نابليون » كان يعرف كيف يسيطر على الناس من ناحية مراعاة شعورهم وإذكاء أسباب الاقتناع ، ولكن ليس بأسلوب الخضوع ، لقد استطاع « بونابرت » بسن القلم أن يثبت الانتصارات التى أحرزها بحد السيف ، وكان « نابليون » قائداً عظيماً وخطيباً بارعاً وكاتباً مجيداً خرج من مسرح الحرب والسياسة ودخل ساحة التاريخ الذى شهد بأنه أكبر عبقرية

عسكرية ومن أروع ما كتبه مذكراته فى « سانت هيلانة » التى نفى إليها وقضى فيها بقية حياته ، نذكر منها هذه الكلمات:

« نحن شهداء مبادئ خالدة يبكى حظنا الملايين من الخلق ، ويتأوه الوطن لمصابنا ، ولو كنت مت وأنا فى أوج عظمتى لبقيت إلى الأبد لغزاً لا يحل » .

ويعتبر المارشال « فوش » المؤسس الثانى للمدرسة العسكرية الفرنسية ، وهو أحد أساطين العسكريين الذين ظهروا فى أوائل القرن الذى نعيش فيه ، وقد كتب عدة نظريات قيمة لها فائدة لكل من يعمل فى المحيط الحربى ضابطاً كان أم ناقداً ، باحثاً أم معقباً على الأخبار العسكرية .

ولفوش عدة نظريات قيمة ، أهمها رأيه فى المعركة ، وهو يقول فى ذلك :

« لكى نحصل على الغرض من المعركة لا بد من أن نحقق غرضاً واحداً ، ألا وهو تدمير قوات العدو النظامية » .

والمعركة اليوم هى وسيلة التفاهم فى زمن الحرب ، بل هى الوسيلة الوحيدة التى تستخدم وقتئذ ، ولا غرو أن نعتبرها بعد ذلك بمثابة الغرض النهائى لأى عملية استراتيجية .

لم يكن « فوش » بالبحاثة الاستراتيجى ، ولكنه حصر

تفكيره دائماً فى شىء واحد ، وهو الناحية التكتيكية ، وأكبر مثل على ذلك هو أنه نظر إلى المعركة على أنها ضرورة أساسية حتمية لتحقيق أى غرض استراتيجى ولكن الحقيقة أنه قد يمكننا أن نحقق أغراضنا الاستراتيجية دون أن نخوض معركة حقيقيــة ، فإذا صمم « فوش » على تدمير قوات العدو فإنما يعنى أنه يجب أن يتم ذلك فى أى تصادم يحدث فى الميدان، وهو يقول فى ذلك إنه لا يمكن تحطيم قوات العدو فى معركة دفاعية ، فهى لا تمكن أى قوة من احتلال الأراضى التى استولى عليها العدو . وهذا يعتبر الدليل الوحيد من الناحية الظاهرية على النصر — ومن ثم فالمعركة الدفاعية لا يمكن أن تؤدى إلى النصر ، وعلى ذلك فأى معركة دفاعية لا بد وأن يعقبها عملية هجومية لاستعادة الأراضى التى فقدناها ، وإلا لن تقوم قواتنا باقتحام مواقع العدو .

وهذا حديث معقول ، فقد تبدأ الدولة الحرب بمعارك دفاعية لأن ظروفها تحتم عليها ذلك ، بل قد تلجأ إلى أن تقترن عملياتها الدفاعية بعمليات انسحاب تبعا لخطة موضوعة ، ويكون الانسحاب حينئذ صورة من صور الدفاع والانسحاب لا يحصل على النصر فى النهاية ، فإن كان الدفاع هو أقوى وجه من أوجه

المعركة ، فإن الهجوم هو حد السيف الذى يفصل فى النتيجة النهائية ، فالغرض من الدفاع تدمير قوّات العدو ومعداته وأسلحته ، لماذا ؟ لنحصل على التفوق المناسب لقيامنا بعمليات هجومية ناجحة .

وهذا الحديث يجعلنا نتساءل ما دام الأمر كذلك فلم لاتفتتح كل دولة الحرب بعمليات دفاعية ثم يتلو ذلك عمليات هجومية للحصول على الغرض النهائى من الحرب ؟

وهذا معقول ، ولكن أنى لنا بالظروف التى تمكننا من ذلك ؟ فهناك استحالة مادية من الناحية النظرية لأنه لو صح ذلك ما كان هناك اعتداء وما كانت هناك حرب ، وتتدخل أيضاً عدة ظروف أخرى من أهمها رقعة الدولة ومساحة مسرح العمليات ، فإن كانت روسيا تستخدم هذه الطريقة على الدوام فإنما مرجع ذلك إلى طبيعة أرضها وتجمعها الاستراتيجى ، فإن النتيجة التى تحصل عليها من أى معركة دفاعية بما فيها عمليات الانسحاب الاستراتيجى تتناسب تناسباً طردياً مع العمق الاستراتيجى الذى ييسره مسرح العمليات أما إذا كانت الدولة تفتقر إلى هذا العمق الاستراتيجى كألمانيا مثلا — فنجدها تميل دائماً إلى الناحية التعرضية أى إلى الهجوم من مبدأ الأمر.

ثم لفوش عدة نظريات فى القيادة وكيفية تحطيم عزيمة العدو والمناورة والاستراتيجى ، وقد صحح « فوش » من نظرياته المحدودة التى سبق له أن عرضها فى كتابه الأول ، ونجده يخرج بالاستنتاجات الآتية من الحرب السبعينية :

– ضرورة إعطاء الاستراتيجى غرضاً معنوياً ، ولو فى مؤخرة رأس القائد ولو أن « فوش » جاء بعد جيل واحد بعد أن صقلته تجربة الحرب الحديثة بأسلحتها وخاصة الطيران ، لا بد أنه يغير رأيه ويرى ضرورة وضع هذا الغرض فى المقدمة .

– بالرغم من أن هزيمة الجيوش الفرنسية فى « ميتز » و « سيدان » كانت كاملة إلا أن ذلك لم يحقق السلم المنشود أى أن التغلب على الجيوش النظامية ليس إجراء كافياً للحصول على السلم المشرف وبذلك يعود إلى رأس جامبتا بخصوص الأمة المسلحة ويرى فى باقى عناصر الأمة وسيلة لإصلاح هزيمة الجيش المنهزم .

– ورأى فوش أيضاً أنه كان من الأجدر بالقادة الفرنسيين التقليل من أهمية التمسك بباريس كما رأى ضرورة عدم التمادى فى أن تتوقف سلامة فرنسا بأجمعها على سلامة باريس ثم ينتهى من حديثه قائلا إن المناطق الصناعية كذا المناطق الزراعية

والموانى الهامة ستصبح الأغراض الهامة فى الحروب المستقبلة بدلاً من العواصم ، ولعل « فوش » بهذا القول كان يعنى ما يعنيه الاستخدام الاستراتيجى للقوات الجوية فى الأيام الحالية .

ـ إن الغرض السياسى لا بد أن يؤثر على اتجاه العمليات الحربية ، وما دام الألمان قد حددوا غرضهم فى الاستيلاء على باريس فكان من الواجب أن تنصب مناوراتهم على عزل الجيوش الفرنسية عنها لا دفعها إلى الوراء فى اتجاهها .

هذا أهم ما كتبه « فوش » من نظريات عسكرية قيمة .

والمأخذ الوحيد عليها قصر تطبيقاتها على حرب واحدة هى الحرب السبعينية ولو أنه أخذ لها أمثلة عديدة من حروب مختلفة خاصة الحرب الأهلية الأمريكية لأمكنه أن يلمع بطريقة أفضل وبأفكار أكثر حيوية وأكثر جدة .

المدرسة العسكرية الألمانيـــة

« كلاوزفيتز »

إذا كنا قد تحدثنا عن « ليدل هارت » مؤسس المدرسة الإنجليزية المعاصرة وعن « نابليون » و « فوش » مؤسسى المدرسة العسكرية الفرنسية فلا بد لنـــا من أن نتحدث عن أستاذ

المدرسة العسكرية الألمانية وهو « كلاوزفيتز » الذى يرجع الكثيرون من الكتاب العسكريين اليوم إلى فقرات كثيرة من مؤلفاته كمراجع للبحث يستندون إليها للدفاع عن مبدأ خاص أو أصل عام من أصول الحرب وهو يعتبر — مهما تباين الناس فى تقدير مؤلفاته — أستاذ المدرسة العسكرية الألمانية ، هذه المدرسة التى يمكن أن يقال إن لها أنصاراً كثيرين من ناحية التفكير الثقافى بين كبار العسكريين وصغارهم فى كل دول العالم ، وهؤلاء الأنصار رغم هوايتهم الأممية ينقلون الكثير مما فى دراساتهم عن أصولها الألمانية المنقولة عن « كلاوزفيتز » ، وهذا هو الشيء الذى يجعل لمؤلفات « كلاوزفيتز » قيمتها الكبيرة .
ومع هذا فإننا لا ننكر أننا قد نستطيع القول — عندما ننظر إلى دراسات « كلاوزفيتز » نظرات عابرة بأن فى هذه الدراسات بعض الإبهام والغموض ، لا سيا التعاليم التى يمكن أن تطبق فى ضوء صورة الحرب البرقية التى كانت جيوش العالم تتقاتل على أساس أصولها المستحدثة حتى الأمس القريب . وعلة هذا الإبهام والغموض أن « كلاوزفيتز » لم يتبسط فى كتبه لتكون تعاليمه في مستوي القارئ العادي بل لعله كان يكتب لطائفة خاصة من الناس ، وهذا أمر يبدو واضحاً فى كتابات بعض

أساطين الاستراتيجية الذين سبقوا « كلاوزفيتز » أمثـال « فيجيتس » و « دى ساكس » و « فردريك الأكبر » .

والشيء الذى يجعل الكثيرين يعرضون عن مطالعة كتابات « كلاوزفيتز » قراءة ودرساً وبحثاً هو أنه من الضرورى أن يدرس « كلاوزفيتز » فى ضوء دراسة حياة الرجل نفسه وفى ضوء دراسة العصر الذى عاش فيه . . . ثم فى ضوء ما وصل إلى أيدينا من تعاليم نابليون العسكرية التى أجمل فيها تعاليمه للحرب ، وهى مسألة تبدو بدورها مجهدة غير مستطاعة لهواة الاستراتيجية الذين يقرأون دائماً مثل هذه المؤلفات العميقة التفكير قراءة عابرة كل ما يعنيهم منها هو الخروج ببضعة سطور تصلح للاستناد إليها كمراجع فى المحاضرات والمؤلفات العسكرية .

وقد جنح بعض الناس إلى الإقلال من أهمية مؤلفات « كلاوزفيتز » على أساس أن الرجل هو واضع أسس التخطيط للاستراتيجية الألمانية ، وما دامت ألمانيا قد هزمت فإن الأصل غير حرى بالدرس ولا قمين بالمراجعة .

والواقع أن ألمانيا قد هزمت فى كل ميادين الحرب فى أوروبا وأفريقيا ما فى هذا شك ، وقد وقع المارشال « كيتل » رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية الأكبر منذ فجر الحرب حتى بداية

الهزيمة فى الغرب ميثاق التسليم للحلفاء فى ظهر التاسع من مايو سنة ١٩٤٥ وكان التسليم بلا قيد ولا شرط .

ولكن ألمانيا قد هزمت بالأمس كما هزمت مرة أخرى من قبل فى ذات القرن لأنها أخطأت تقدير موارد الحلفاء الذين لا يستطيعون فى بداية أى حرب تثيرها ألمانيا البروسية إلا أن يقفوا موقف الدفاع حتى يحسنوا حشد مواردهم لتغيير اتجاه المد . . .

هزمت ألمانيا لأن استراتيجييها المدنيين لم يحسنوا العمل لا مع الوقت ولا ضد هذا العامل الخطير ، ثم لأن السياسيين الألمان لم يقدروا أن الجنس البشرى — وإن مجد القوة وأحبها وأعجب بها — لا يقر الطغيان ولا يحتمل نير المظالم والمذابح التى توجه لنشر الرعب والمخاوف بين الأهلين العزّل من كل سلاح اللهم إلا مشاعر المقت والكراهية التى تملأ قلوب الأفراد ولا يلبث الناس أن يقوموا بدور فى الصراع لا يمكن القول بأنه دور سلبى .

كان هذا هو سبب هزيمة ألمانيا فى الأمسين — القريب والبعيد — ولا يمكن أن يكون معنى هزيمة ألمانيا أن أصول الحرب الألمانية فاسدة ولا أن القادة الألمان حمقى لم يكونوا يصلحون

للدور الذى احتملوا عبأه ، كما يقول بعض كتاب هذا العصر فهذا حديث ماجن لا أصل له . . . واو قدّر لأى من « روميل » أو « كيسلرنج » أو « جودريان » أو « بوك » أو « ليست » أو غيرهم أن يكون فى صفوف الحلفاء لجاءوا بالعجائب.

ولكن العقلية البروسية وأسلوب آلة الحرب الألمانية هما علة فشل كل هؤلاء القادة فى النهاية عندما يقف عامل الوقت فى الجانب المضاد . . .

ولهذا فإنى أومن الإيمان كله بأنه يجب أن تدرس معارك هؤلاء القادة دراسة بحث وأن يكون هذا الدرس لا بالوقوف فى خطوط الحلفاء بل أن تدرس مراكز قيادتهم مع تقدير الموقف الإدارى الذى كان كل منهم يواجهه وفى هذه الدراسة نفع كبير لكل من يعمل فى محيط الصحافة العسكرية مراسلا كان أم ناقداً ولا سيما إذا كانت الدراسة عميقة تصل إلى عقلياتهم وأخيلتهم ، وعلى هذا القياس ندرس قادة الحلفاء ، فندرس تعاليم الحرب البرقية والتدابير التى جاءت لمواجهتها . . . ولكنا لا نستطيع هذه الدراسة ولا تلك إلا إذا درسنا على التخصيص تعاليم الحرب التى جاء بها الألمان منذ أكثر من قرن من الزمان فإن لهذه الدراسة مكاناً رحباً فى كل دول العالم الغربى

ولا نستطيع أن ندرس أصول الحرب الألمانية إلا بدراسة أبعد التعاليم التى سبقت « فون كيتل » و « فون شليفن » وحتى « فون مولتكه الكبير » هذه التعاليم التى جاء بها « كلاوزفيتز » الرجل الذى عاصر « نابليون » و « بلوخر » و « شارنهورست » تلك التعاليم التى جمعت أبرز الأصول وأقواها والتى لم يغير أصولها وقواعدها تطور صور القتال وتطور صور الاستخدام التكتيكى للوحدات المقاتلة تبعاً لتطور الأسلحة وتبعاً لايجاد الآلة ذات الاحتراق الداخلى التى تسير على شرائط وتحصن بدروع من الصلب وتبعاً لإيجاد المدفعية التى تطير فوق السحاب فتنقل مسرح الحرب لمئات من الأميال ولا يمكن أن تكون هذه الدراسة وقفاً على العسكريين وحدهم فإن الحرب عندما تجىء تؤثر فى حياة الناس عامة بل كما يقول « والترميلز » إنها تهدد بل تقلب الأوضاع فى هذا المجتمع ولا توجد أى ناحية فيه لا تتأثر فتتعدل وتتغير تماماً بسبب الحرب .

والحرب ليست عملا من صنع الله . . . بل تنشأ من أعمال يعملها الأفراد والجماعات والأمم . . . أو يفشلون فى عملها . . . فهى إما وليدة السياسة القومية أو وليدة النقص فى هــذه السياسة ، والناس يقولون إنه من الحماقة أن تترك سياسة الحرب

للعسكريين وحدهم أو السياسيين وحدهم أو حتى للاثنين معاً فهى واجب الأمة كلها بممثليها لا بأفرادها ، فإن مثل هذه السياسة لا تترك للمناقشات العامة وإن كان نجاحها يتوقف على إصرار كل فرد فيها وعزيمته وإنتاجه ، وقد كان بعض الناس يقولون إن الجهل بالمسائل العسكرية يعاون على كراهية الحرب . . . هذه الكراهية التى مكنت فى عصور سابقة من إيجاد أناس يعملون للسلم فى كل مكان ، ولكن هذا لم يعد مستطاعاً اليوم به بل إن الإلمام بالمسائل العسكرية قوة تضمن حياة الناس فى أمن وسلام .

وهذه الدراسة هى التى مكنت من إيجاد طبقة من الاستراتيجيين المدنيين أمثال « واشنجتون » و « لينكولن » و « لويد جورج » و « كليمنصو » و « ويلسن » و « تشرشل » و « روزفلت » وطائفة من المؤرخين ورجال الاقتصاد والصناعة أمثال « أثيناو » أو الصحفيين أمثال « تروتسكر » و « بريستلى » ورجال الثورات السياسية أمثال « ماركس » و « إنجلز » . .

ولا يمكن أن تدرس أصول الاستراتيجية للعصر الحديث دون الرجوع إلى أصولها التى جاءت عنها والاستراتيجية التى وضع أصولها « كلاوزفيتز » فى تعاليمه هى المرجع الذى يجب

أن يقرأه كل فرد اليوم مدنيا كان أم عسكريا .

إن المسائل العسكرية فى ضوء الظروف الحديثة تتصل اتصالا وثيقاً بالمسائل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ومن الصعب أن يتحدث أفراد عن الاستراتيجية العسكرية وحدها، لقد كان نجاح « هتلر » فى غزو « روسيا » عام ١٩٤١ يرجع إلى هذه الحقيقة، بل ومن الضرورى أن ندرك بأن كبار الزعماء فى أوربا كانوا حتى سقوط فرنسا يفكرون فى أسلوب القرن السابع عشر عندما كان من الممكن أن توضع السياسة والحرب والاستراتيجية والتكتيك فى درجات منفصلة بعضها عن بعض ، ولكن فى عصرنا الذى نعيش فيه ، وبالتبعية فى العصر الذرى سيجىء بعد هذا لا يمكن . . . ولن يمكن الفصل بين السياسة والاستراتيجية . إن الحرب تفرض نفسها على كل الناس ... وما دامت تهم كل الناس فمن الضرورى أن يعرف هؤلاء أولا أنها تهمهم وتهتم بهم، ففى السلم والحرب على السواء يجب أن يتفهموها . . .

والنظريات الثلاث الرئيسية فى تعاليم « كلاوزفيتز » والتى عاد « فوش » فكررها هى :

● نظرية الحرب المطلقة والتى أدى تطورها إلى إيجاد الأمم المسلحة .

● نظرية ضرورة الاحتشاد ضد العدو الأساسى الذى يجب تدمير قواته أولا .

● نظرية أن القوات المسلحة هى التى تكون الهدف الحقيقى وأن المعركة هى الوسيلة لإدراك هذا الغرض .

وبدراسة هذه النظريات من الناحية الاستراتيجية والتكتيكية وفى ضوء العصر الذى جاء فيه الكاتب والصورة التى استطاع أن يخرج بها من دراسة الأصول والأوضاع فى ذلك العصر وفى العمليات الحربية التى كانت فى أيامه وسبقته ، وإذا كنا لا نزال ندرس أصول الاستراتيجية التى جاء بها « فيجيتس» و «ساكس» و « فردريك الأكبر » لنخرج منها بصورة التطبيق المتغيرة الأصول للحرب الثابتة وندرس أيضاً معارك « هانيبال » و « إسكندر » و « قيصر » لدراسة الأصول التكتيكية التى فيها ، فليس أقل من أن ندرس الأصول والتعاليم التى جاء بها « كلاوزفيتز » وهو رجل مهما اختلفت الآراء فى تقدير قيمته وتعاليمه بالنسبة للعصر الذى نعيش فيه ، فإنه بالصورة التى نقلها عن « نابليون » وبالتجارب التى اكتسبها من المعارك التى خاض غمارها ، ثم بالموهبة الشخصية التى كانت كامنة فيه ، يعتبر دون جدل سيد الأصول والتعالم التى ندرسها اليوم والتى سنظل

ندرسها إلى أن توجد فى العالم شخصية أخرى تقلب الأوضاع والأصول وتوجد وسيلة أخرى للقتال غير الجنود الذين يسيرون على أقدامهم أو يمتطون الآلات ذات الاحتراق الداخلى أو يهبطون من الجو بالمظلات وإلى أن يجيء هذا القائد العسكرى النابغة ، ينبغى أن نلم بتعاليم « كلاوزفيتز » لأنها تراث يستحق كل عناية وتقدير . . .

المدرسة الروسية

« سوفاروف »

يعتبر « سوفاروف » فيلسوف روسيا العسكرى كمثل « كلاوزفيتز » بالنسبة للجندية البروسية ، فهو المسئول الأول عن التوجيه الأساسى للجندية الروسية بل يعتبر أنه هو الذى كان يوجه التكتيكات الروسية فى ضوء الحرب البرقية بين عامى ١٩٤١ و ١٩٤٥ بالرغم من أنه ووري التراب قبل أربعين سنة من بدئها .

كان « سوفاروف » لا يعرف السياسة ، كان جنديا عاش من أجل الحرب ومات فى أوج المجد ، ولكنه للأسف مات فى فراشه مريضاً ، وكم كان يود أن يموت فى الميدان ، وهى ميتة

لم يهنأ بها لا « ويلنجتون » ولا « نابليون » ولا « فردريك » ولا « كلاوزفيتز » ولا حتى « الإسكندر » و « هانيبال » .

كان « سوفاروف » معروفاً لكل جندى يقاتل فى صفوف الجيش العامل ويستطيع كل منهم أن يقص شيئاً عن أعماله ، وعلى الأخص معركته الأخيرة التى سار فيها من ممر « سانت جوتارد » فى جبال الألب حتى عبر الراين الشمالى فى ثمانية أيام طوال بقى ساعاتها كلها متيقظاً يرد كل هجوم عنيف للفرنسيين الذين يقودهم « مسينا » ولا هدف لهم إلا تدمير الروس .

ولكن « سوفاروف » بالنسبة للعالم كل شيء غير هذا ، رجل يجب أن يدرس تاريخه وأن تفهم تعاليمه المبسطة للجندى الفرد لأن هذه الدراسة وحدها هى التى تمكننا من أن نعرف العقلية الروسية والجندية الروسية لأن « سوفاروف » هو الذى أوجد المدرسة الروسية فى القتال .

عاش « ألكسندر فاسيليفتش سوفاروف » فى ذات الوقت الذى قامت فيه الثورة الأمريكية للاستقلال .

فهو من جيل قد مضى وانتهى وراح أهله كصورة قديمة فى سجلات التاريخ فيما عدا ما قد يكون لهم من آثار وأعمال ، ولكن « سوفاروف » بقى إلى أكثر من هذا فى أعين الروس

سيد الرجال فى الجندية بغير منازع ، ويعتبرونه جامعاً لأبرز ما فى « هانيبال » و « قيصر » و « فردريك » و « نابليون » .

و إذا كان لنا أن نقول إن الروس يعدونه أقوى شخصية عسكرية فى التاريخ القديم والحديث على السواء ، فمن الضرورى أن نذكر دائماً أن « سوفاروف » هو الأنموذج الصحيح لكل قائد روسى موفق ، وعندما سلم « فون باولوس » الألمانى فى « ستالينجراد » فإنه سلم لروح « سوفاروف » كما سلم للقائد الروسى المحلى فى ميدان القتال ، لأن روح « سوفاروف » نفسها كانت تشد أزر القائد الروسى الذى يقف من « فون باولوس » موقف الخصومة فى القتال .

و « سوفاروف » جندى بالطبيعة ، درس هذه الصناعة منذ أول نشأته حتى يمكن القول بأنه يكاد يكون قد ولد فى صفوف الجند ، وفى الإحدى وسبعين سنة التى عاشها منذ مولده فى عام ١٧٢٩ حتى وفاته فى عام ١٨٠٠ اجتاز كل درجات السلم العسكرى ، كان فرداً عادياً ثم شاويشاً حتى وصل إلى فيلدمارشال وفى الخمسين سنة التى قضاها فى الجندية حصل على انتصارات لم يحصل عليها قائد آخر فى التاريخ .

وإذا نظرنا إلى المجموعة الكبيرة من القادة الروس أمثال

« تيموشينكو » و « روكوسوفسكى » و « كونييف » و « زوكوف » فإن هؤلاء لم تصهرهم التجارب المأخوذة عن « كلاو زفيتز » ولا « فردريك » ولا حتى « نابليون » بقدر ما صهرتهم التجارب التى أخذوها عن « سوفاروف » ، وقد أنشأت « روسيا » فى سنى الحرب عدة مدارس عسكرية لإعداد الضباط الأحداث وسميت باسم «مدارس سوفاروف للطلبة الضباط ، والروس يقولون إن طالباً يجتاز باب هذا المعهد حاملا إجازته كضابط لا يخطئ النجاح أبداً ، وتتحدث الصحف الروسية بأحاديث من قلم « سوفاروف » وإذا قالت «فعل سوفاروف هذا » كان هذا فصل الخطاب ، فلا جدال بعد ذلك ، وهكذا بقى سوفاروف نصب أعين الروس دائماً بالرغم من أن شهرته فى دول الغرب طغت عليها بسرعة شهرة نابليون نفسه .

لقد راح البولنديون ينشرون أن « سوفاروف » الذى بعثت به روسيا لا يمكن أن يكون هو القائد الكبير ، بل لعله أخاه أو عمه ، ولكنه كان هو « سوفاروف » نفسه ، وقد جاء وهو فى الرابعة والستين ، كما كان يجىء دائماً وهو فى عنفوان الشباب ، فقد كان يسير فى سرعة تتفاوت بين عشرين وخمسة وعشرين ميلا فى اليوم الواحد .

وقد حدث الاشتباك الأول فى الحادى عشر من سبتمبر ، وفى الثالث من نوفمبر افتتحت قلعة « براجا » التى تغطى « وارسو » وانتهت الحرب ورقى « سوفاروف » إلى رتبة فيلد مارشال .

لقد بات أكبر معجزة عرفها التاريخ لقائد عسكرى . . . فإن العالم لم يتوقع من رجل فى مثل سنه أن يتقدم على رأس جنده فى مثل هذا السير العنيف المجهد ، صحيح إن المصريين الأولين وجنود إسبارطة القدامى كانوا يهيأون هم وضباطهم وقادتهم على السير لمسافة عشرين ميلا فى اليوم الواحد ، ولكنهم كانوا يدربون لهذا المستوى فى « سير الاقتراب » لا فى السير المصحوب بالقتال ، ولقد كان « سوفاروف » يستأهل منا الإعجاب ، لهذا كان لزاماً على « سوفاروف » أن لا يترك تعاليمه هذه تفنى ولا أن يتركها غير مسجلة ولا مسطورة على الأقل لنفع الجيل الذى سيجىء بعده ، فهو لم يكن ليفكر إلى أبعد من هذا ، فلم يكن يؤمن لنفسه بالخلود ، والمدرسة التى سبقته لم يخلد منها أحد .

وسيطرت الفكرة على القائد الشيخ . . . فبدأ التحرير والكتابة . . . مقدراً البيئة التى يكتب لها .

لم يكن « سوفاروف » ذا ثقافة كبيرة فى العلوم والمعارف

العامة . . . ولم يكن كاتباً مجيداً ولا خطيباً طلق اللسان ، ولكنه كان كاتباً عنيف الأسلوب قوى العبارات صريحاً فيما يكتب إلى غاية حدود الصراحة مع قدرة على النقد اللاذع وقد درس حياة كبار القادة الذين سبقوه ، وكان يعرف تفاصيل بناء ودفاع كل حصن قوى هام فى أوربا ، كما كان يعرف صفات كل العسكريين الأوربيين الذين يمكن أن يقف اتجاههم فى الميدان ودراسة صفات القادة الذين يقفون فى الجانب المضاد منه ، وقد أثبتت الأيام أهميته . . . ذلك لأن لكل قائد خصائصه فى تفكيره وعمله ، وتأثيره بالجو المحيط به ، وتعنى بذلك إدارات المخابرات الحربية فى كل الأمم الأخرى دون أن تترك ناحية من النواحى العامة أو الخاصة بغير درس ، وبذلك تستطيع أن تقدم عند قيام الحرب دراسات وافية عن هؤلاء القادة للانتفاع بها فى إدراك توجيهاتهم ومراميهم ، على أن هذا لا يحول دون أن يعنى القادة أنفسهم بدراسة شخصيات القادة الذين يواجهونهم فى الميدان والأسلحة التى تحت قيادتهم .

مات « سوفاروف » فى الوقت الذى عاد فيه « نابليون » من مصر ، وفى غمرة مجد « نابليون » وانتصاراته ، باتت أعمال « سوفاروف » قليلة الأهمية وقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة

للروس ، فالروس لا يعتبرون « نابليون » أكثر من رجل منحته الفرص بعض الحظ ، ولعله صورة أخرى لشارل الثانى ، كان يحسن أن لا يجرب حظه على الطريق إلى موسكو .

ولهذا بقى « سوفاروف » فى نظر الروس الجندى الأول فى العالم كله ولم يكتبوا على قبره أكثر من ثلاث كلمات بسيطة لها معناها وهى :

هنا يرقد « سوفاروف » .

حقاً يرقد « سوفاروف » فى ذلك القبر فى أطراف مدينة بطرسبرج ، ولكن الصحيح أيضاً أن « سوفاروف » لا يشغل ذلك القبر وحده ، بل إنه يشغل آلاف القبور التى خلفها الروس وراءهم من الفوجلا إلى برلين فى تقدمهم السريع لتقويض النازية فى أوربا .

لقد كان الروس يخوضون غمار كل معركة وهم يضعون نصب أعينهم كل تعاليم « سوفاروف » وكان القادة الروس يرسمون الخطط لقتال الألمان وهم يرقبون على الصورات أمامهم وجه « سوفاروف » يرشدهم ويوجههم ، ولهذا كان « سوفاروف » فى الحقيقة هو الذى هزم الألمان ودمر قواتهم .

إن كل الذين يقفون فى مكان القيادة من كل الرتب حتى

رتبة الشاويش الأقدم للفصيلة المشاة يعرفون أن الجيش الروسى اليوم إنما يتبع تعاليم « سوفاروف » حتى تلك غير المسطورة فى كتابه عن تعاليم الجنود صناعة القتال .

وغرف المحاضرات فى المدارس العسكرية لا تجد أمامك على الحائط سوى النجمة الفضية يتوسطها رسم المنجلة والمطرقة وصورة باهتة اللون هى صورة « سوفاروف » مؤسس المدرسة العسكرية الروسية .

إن فى دراسة تعاليم « سوفاروف » الحربية فائدة كبرى لكل من يعمل فى محيط الصحافة العسكرية .

المدارس العسكرية الأخرى

وإن هناك من يعتبر دراسة بعض المعارك التى خاضها قواد عظام مجدهم التاريخ كأنها مدارس عسكرية لدولهم ، وإن كنت أخالف هذا الرأى لأنهم لم يضعوا نظريات أو مبادئ نتيجة لهذه المعارك ، إلا أنى أذكره هنا للفائدة .

هناك من يعتبر الجنرال « روبرت لى » الأمريكى أحد أبطال الحرب الأهلية الأمريكية صاحب مدرسة خاصة ، وكذلك الجنرال « جرانت » الذى كان فى الجانب الآخر ضد

هذا القائد فى هذه الحرب ـ كذا هناك من يعتبر « أيزنهاور » صاحب مدرسة عسكرية خاصة خصوصاً وأنه صاحب فكرة غزو شمال أفريقيا وغرب أوروبا « نورماندى » وهو الذى وضع استراتيجية هاتين الحملتين التى كان لهما الأثر الأكبر فى إنهاء الحرب العالمية الثانية فى الميدان الأوربى والإفريقى .

وهناك من يعتبر « جرازيانى » مؤسس المدرسة العسكرية الإيطالية لأنه هو الذى وضع استراتيجية وتكتيكات استخدام العمليات الحربية فى الصحراء بالعربات المصفحة الخفيفة .

هذه فكرة بسيطة عن أساتذة المدارس العسكرية الدولية ونظرياتهم لكى تكون مفتاحاً للتعمق فى دراسة هذه المدارس والنظريات للإلمام بتفاصيلها .

مذكرات القادة والصحافة العسكرية

تعتبر المذكرات التى يكتبها القادة أثناء العمليات الحربية أو بعد نهاية الحرب ، من أعظم الأعمال التى تصلح للنشر سواء بالصحف المدنية أو بالصحف العسكرية ، وقد كتب كثير من القادة العظام فى التاريخ مذكرات عن المعارك التى خاضوها .

ومن أجمل ما كتب فى هذا الموضوع مذكرات « روميل »

أعظم قائد أظهرته الحرب العالمية الثانية ، وهو علاوة على ذلك من أعلام الفكر العسكرى وكاتب بارع وقائد عظيم ، وقد حلل « ليدل هارت » شخصية « روميل » أصدق تحليل فكتب عنها يقول :

« كأن روميل رب السيف والقلم ، ولم ير التاريخ قبله قائداً سجل وقائعه وفتوحاته بمثل تلك القوة والحيوية » .

ولم يسبق أن رسم قائد آخر صورة واضحة المعالم دقيقة التفاصيل لعملياته الحربية وفلسفته فى القيادة كما فعل « روميل » بل إن قائداً آخر لم يستطع قط أن يفجر بالقلم فى نفس القارئ ذلك الإحساس بهول الحرب الخاطفة أو يثير فيه تلك النشوة بجمال فرق « البانزر » أثناء سيرها .

وقد بلغ من سيطرته على اللغة ودقته فى الوصف وخياله الواسع أن جعل القارئ يشعر بالسرعة فى الحركة وفى اتخاذ القرارات الحاسمة ، إن « روميل » يجعل القارئ معه فى عربته الحربية .

والسمة البارزة فى كبار القواد أنهم فى الغالب كتاب غير مجيدين ، فهم إذ تنقصهم البراعة الأدبية فى وصف معاركهم ، يكتنف الغموض تفكيرهم ، وعندما يسردون أفعالهم لا يحفلون بتوضيح أسباب قيامهم بتلك الأفعال أو كيفية تنفيذها ، ومع

أن « نابليون » كان قائداً وكاتباً ، فإن تعمده تشويه الحقائق وعدم النزاهة فى سرد الوقائع قلل من الضجة التاريخية لمذكراته ، وشأن « نابليون » فى ذلك شأن « قيصر » فلم تكن كتاباته تغلب عليها الصنعة والزخرف فقط بل كان يقصد بها الدعاية ، أما كتابات « روميل » فموضوعية إلى حد يلفت النظر ، وتصويرية أيضاً ، فقد كان يكتب عن إدراك تام بمكانه من التاريخ شأنه فى ذلك شأن جميع صناع التاريخ .

وقد كان « روميل » فى مذكراته قوى الحجة بحيث يستطيع الصعود أمام أعنف النقاد والباحثين ، وقد يكون فيها بضعة أخطاء فيما يتعلق بالوقائع ، ولكن هذه الأخطاء أقل جدا مما امتلأت به مثيلاتها من المذكرات الخاصة التى صدرت بعد الحرب ، وفى مذكرات « روميل » بعض التفسيرات التى تصلح موضوعاً للجدل ، ولكنها على أى حال تخلو من التشويه المتعمد الذى يقصد به الإشادة بالمؤلف أو بوطنه مما يكثر فى أدب الحروب ، لقد ظل « روميل » طوال الحرب العالمية الثانية يأمل أن يضع كتاباً يكون من الدقة والوضوح بحيث يضارع العمليات الحربية نفسها .

وهكذا ظل يضع مذكرات عن هذا المشروع — وهى

المذكرات التى ضمنها قصته عندما أتيحت له الفرصة .

ولكن الوت عاجله بناء على أمر « هتلر » ، فلم يستطع أن يكمل مشروعه ، ومع ذلك فإن مذكراته تعد كتاباً فريداً لأنها تتميز بالتركيز الدرامى وفيها من التعليقات التى تضفى عليها الجمال والرواء مما يجعل لها أهمية خاصة .

وسوف تلاقى مذكرات « روميل » كثيراً من الصعاب أثارته حول شخصيته وزواياه مختلف الجهات تبعاً لأهوائها .

فقد كتب « روميل » هذه المذكرات قبل أن يخطر له أى احتمال عن أى جدل قد يثار حولها خارج ألمانيا ، وقبل أن يستطيع تحويرها بحيث تصلح ردا على ما يثار حوله ، كما أن خطاباته إلى زوجته تتسم بطابع فريد وصراحة عجيبة ، وإذا علمنا أن تلك الرسائل كانت لا تخضع للرقابة أمكننا أن نستشف منها عن قرب صورة واضحة لفكر « روميل » والحوافز التى تدفعه إلى العمل ، وقد تختلف الصورة وفقاً لاختلاف وجهات النظر ، ولكن شخصية « روميل » ستظل واضحة المعالم بارزة الأثر .

وهذه المذكرات من وجهة نظر الصحافة العسكرية عمل صحفى ممتاز . . . وهى من وجهة نظر المراسلين الحربيين أقصى

ما يطمع أن يحصل عليه مراسل حربى فى الميدان لأنه العمل الذى سيخرج به عن الروتين المألوف لنشر الأخبار العسكرية المراقبة ولروميل كلمات مأثوره وآراء مجيدة فى الفن العسكرى منها قوله :

« القيادة العليا للمحور كانت مكونة من فلاسفة حرب لا رجال ميدان ، فهناك فرق بين الجندى كمحارب فعلا والجندى الجامعى الذى درس نظريات الحرب ولكنه لم يمارسها أو يسعى إلى تحقيقها بنفسه ، فقد لا يكون رجل الأعمال فى ثقافة أستاذ الاقتصاد الذى يعالج الحقائق من الناحية النظرية ، وعلى الرغم من خصب أفكاره فإنه لا يهتم بتحقيقها ويكتفى بالرضا عنها كل الرضا » .

ومن أجمل ما قاله وهو يعبر عن شعور القائد عند الهزيمة :

« الموتى أسعد حالا منا ، لأن آلامهم قد انتهت ولم يصبحوا يشعرون بشىء ، فقد انتهى كل شىء بالنسبة لهم ، ولم تعد الآلام تؤثر فيهم » .

وأما عن رأيه فى القواد الإنجليز فإنه يقول :

« إنهم كانوا يتبعون الخطط التى كان يرسمها من سبقهم من القواد الذين أصبحوا الآن فى ذمة التاريخ ، لأن العقلية

البريطانية اشتهرت وتمسكت أبداً بالمحافظة على تراث السلف ، وإن الضابط الوحيد الذى أظهر نوعاً من العبقرية الحربية هو الجنرال « ويفل » ، أما « مونتجمرى» فهو قائد حسن الحظ ، إن أعظم أخطاء البريطانيين فى الحرب كثرة تغييرهم لقوادهم الكبار مما يضطر الضابط الكبير دائماً إلى دراسة مشروعات وخطط القادة السابقين ، كان القواد البريطانيون أفذاذاً ولكنهم كانوا يقصون عن مناصبهم قبل أن تتاح لهم فرصة إظهار كفايتهم ، أما عن القواد الأمريكيين فقد أظهر إعجابه بإلمامهم لفن الحرب الحديثة بسرعة ، ويعزى ذلك إلى روحهم العملية وعدم اكتراثهم بالتقاليد والنظريات البالية .

هذا بعض ما جاء بمذكرات « روميل » وهى تثبت حقاً أن مذكرات القادة التى يعدونها فى ميدان القتال تصلح أن تكون عملا عظيما من ناحية النشر الحربى والصحافة خصوصاً إذا كان كاتبها قائداً بارعاً وأديباً موهوبا وصاحب مدرسة عسكرية حديثة مثل « روميل » .

شخصيات هامة فى مجال النشر الحربى

إذا كنا قد تحدثنا عن « ليدل هارت » و « نابليون » و « فوش » و « كلاوزفيتز » و « سوفاروف » و « روميل » قادة المدارس العسكرية الدولية ، نجد أنه من الواجب أن نذكر بعض الشخصيات الهامة فى مجال النشر الحربى ممن كان لهم أثر فعال فى الثقافة العسكرية والكتابة الحربية التى هى عماد الصحافة العسكرية لتكون مرجعاً لكل من يعمل فى الصحافة العسكرية وهم على سبيل المثال لا الحصر :

« مونتجومرى »

سيظل المارشال «مونتجومرى» أبد التاريخ منقذاً للإمبراطورية البريطانية وعلما من أعلام الحرب مقرونا اسمه باسم الجيش الثامن ومعارك شمال إفريقيا، وهو أيضاً باحث وكاتب عسكرى بالإضافة إلى أنه قائد عبقرى ، فقد كتب بحثاً مطولا عن الحرب العالمية الثانية ضمنه آراءه الشخصية فى موضوع تلك الحرب وأشكالها ومراحلها ، وقد نشرت المجلات العسكرية العالمية هذا البحث نظراً لأهميته وقيمة صاحبه ، ومن أهم ما جاء بهذا البحث ، قذف القنابل الذرية من الجو لا يكفى لإحراز النصر

إذ يجب أن يسير استخدام الطاقة الذرية جنباً إلى جنب مع العمليات البرية ، ثم تكلم عن الحرب البحرية والحرب البرية والحرب الجوية المستقبلة ، وكلها موضوعات قيمة للغاية ، ويختم المارشال بحثه فيقول إن القوة الجوية تشكل فى الطريق الذى يتألف من الأسلحة الثلاثة المقاتلة العامل الهام فى الحرب والسلاح الحاسم فى المعركة الفاصلة .

« تشرشل »

إنه خطيب ومؤلف وزعيم ، درايته بالسياسة الدولية لا تبارى ، وقد بقى كذلك لنصف قرن من الزمان ، احتاج لثلاث محاولات حتى نجح فى امتحان الدخول للالتحاق بكلية « سندهرست » العسكرية ، وترقى لرتبة ضابط فى عام ١٨٩٥ ، وقد نشأ ميالا للمدفعية حتى إنه قضى إجازته السنوية الأولى يقاتل مع الإسبان فى كوبا ممكنا الإسبانيين للاستعمار فهو استعمارى حتى لغير بريطانيا ، وفى عام ١٨٩٩ ترك الجيش ليذهب للبرلمان ولكنه فشل فى الانتخابات فتحول إلى الصحافة ليعمل كمراسل حربى ، وذهب إلى إفريقيا ليكتب عن حرب التحرير التى أثارها « البوير » وقبل أن يمر به شهران هناك أسر ولكنه فر من الأسر ، وقصة هربه أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة .

هو الذى حثّ الوزارة الإنجليزية على محاولة اجتياح «الدردنيل» فى الحرب ضد تركيا وانتهت الحملة بالفشل وأطاحت بتشرشل من مقعد الوزارة ليذهب إلى ميدان القتال بفرنسا يحمل رتبة « ليفتنانت كولونيل » ليكون قائداً لكتيبة « الفوزيليزر السادسة » وبقى خمسة شهور يقاتل فى خنادق فرنسا .

وفى عام ١٩١٧ استدعى للوزارة كوزير للذخائر ، فلما انتهت الحرب كان وزيراً للحربية والطيران ، ومن مركزه هذا كان يوجه قوات الحلفاء التى أرسلت إلى روسيا للقتال ضد الشيوعية فى أول ظهورها ، وفى اليوم الثالث من إعلان الحرب عينه « تشمبرلن » وزيراً للحربية وفى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ كان « تشرشل » رئيسا للوزارة لأول مرة .

فى خطبته الأولى قال لأعضاء المجلس :

« ليس لدىّ ما أمنحه إلا الدم والعرق والدموع » .

كان «تشرشل» هو الذى يرسم استراتيجية حملة غزو شمال إفريقيا عام ١٩٤٢ ، ومرة ثانية كان هو الذى رجح غزو أوربا من نورماندى بدلا من الهجوم على قلعة هتلر عن طريق البلقان .

فلما انتهت الحرب أخرجه الإنجليز هو والمحافظين من الوزارة والحكم ، لأن « تشرشل » لا يصلح إلا للحروب ،

وحتى عام ١٩٥١ كان قد أكمل خمسة مجلدات من كتابه « ذكريات عن الحرب العالمية الثانية » .

« إيدن »

خدم فى الحرب العالمية الأولى فى هيئة أركان حرب الجنرال « بلومر » وكانت فتوته توضح صلابة معدته مع قدرة على الاحتمال وهذا مما يندر وجوده فى بنى الإنسان ويمكن تشبيهه بالجمال التى تجوب الصحارى ليل نهار متحملة المشاق والصعاب ، ولهذا فإنه عندما جرح فى الهجوم الألمانى الأخير عام ١٩١٨ كان قد وصل إلى رتبة اليوزباشى وهو فى الحادية والعشرين من عمره فمركزه فى الجيش لم يكن كبيراً .

ولما انتهت الحرب عاد لإكمال دراسته فى أكسفورد ، ولكن السياسة كانت تسيطر على حواسه وكانت على غير أساس متين حتى إنه ختم حياته بفشله الذريع فى هجومه الغادر على مدينة « بور سعيد » ولا أقول على جمهورية مصر لأنها أكبر من أن تحفل بمثل هذا السياسى الفاشل .

ولم يصل إلى مركزه هذا إلا بعد أن اختير عضواً لمجلس العموم عن دائرة « وارويك » .

« أيزنهاور »

عرف « أيزنهاور » كيف يسوس سياسيين أمثال الرئيس « روزفلت » و « تشرشل » و « دى جول » وعسكريين أمثال « برنارد مونتجومرى » و « جورج باتون » و « مارك كلارك » وغير هؤلاء وهؤلاء . . .

وعمل بعض الوقت فى كتابة دليل سياسى للآثار الحربية فى أوربا ، ولوقت آخر عمل كياور للجنرال « ماك آرثر » فى الفليبين ، وعندما بدأت الحرب عام ١٩٣٩ كان ضابطاً برتبة البكباشى .

وأيزنهاور شخصية محبوبة . . . شخصية تجعلك تطمئن إليها وترتضى صداقتها ، وهو يحب المجتمعات ، محدّث لبق يكثر من المطالعة حتى كأنه يأكل الكتب بنهم ، يجيد الخطابة والكتابة .

« ترومان »

هو الرجل الذى صنع دولة إسرائيل كشوكة فى بناء الشرق الأوسط وقد خدم فى المدفعية فى الحرب العالمية الأولى حتى وصل لرتبة « ميجور » وعمل فى مصرفين من مصارف مدينة « كنساس »

واشترك في تحرير جريدة « كنساس سيتى ستار » .

وهو الذى أمر بإلقاء القنبلة الذرية على اليابان فى صيف عام ١٩٤٥ فبدأت مرحلة من الذعر فى العالم كله نشأت مع ميلاد العصر الذرى .

كان السبب فى إنشاء حلف شمال الأطلنطى الذى قسم العالم إلى معسكرين غداة إعلانه .

وكان هو الذى أرسل فى ٢٧ يونيو سنة ١٩٥٠ الجنود الأمريكيين إلى كوريا الجنوبية مع بعض فصائل وكتائب من بعض الأمم لتحارب كلها باسم الأمم المتحدة .

يقرأ كثيراً من كتب التاريخ ... وقد تعلم البيان وهو صبى .

« ستالين »

سيطر على الصحافة والعلم والفن . . . وجمع كل السلطات فى يده وكان من الناحية الرسمية رئيس الوزراء ولكنه فى الواقع كان الرجل الفرد الذى يملك كل شىء ويحكم كل شىء .

استطاع أن يوجه بنفسه استراتيجية الجيش الأحمر ، ولهذا جعل من نفسه مرشالا عام١٩٤٣ ثم قائداً عاماً للقوات فى عام ١٩٤٥ ، لم يكن من الممكن أن ينتصر الحلفاء على ألمانيا فى عام ١٩٤٥ لولا « ستالين » .

يقرأ بكثرة ، خشى الناس أن يقوده طمعه للسيادة على العالم إلى إثارة حرب عالمية ثالثة ، ولكنه مات وبات اسماً فى سجل التاريخ ، وغداة موته قال الناس ، إن بداية الحرب قد بعدت عما كان بعشرة أعوام .

عمل على إعداد جريدة « برافدا » كلسان حال للمقاومة السرية للحزب الشيوعى .

« مالينكوف »

فى عام ١٩١٧ كان يدرس بالمدارس العالية ولكنه ترك دراسته وانضم إلى القوات البلشفية .

وفى عام ١٩٢٠ انضم للحزب الشيوعى وعين قوميسيراً سياسيًا فى كتيبة مشاة ثم ارتقى ليكون قوميسيراً لآلاى ثم للواء مشاة ، وفى ثلاث سنوات كان قوميسيرا لكل الجبهة الشرقية التركستانية .

ثم ترك الجيش ليدخل المدرسة الفنية العليا فى موسكو ، وكانت تقاريره الدراسية ممتازة ، كما كانت التقارير التى كتبت عنه كرئيس لخلية الحزب الشيوعى فى المدرسة ، ومن أجل هذا اختاره ستالين سكرتيراً خاصًا له .

وفى الاحتفال بالذكرى الثانية والثلاثين للثورة كان « مالينكوف » وحده خطيب الحفل ، قال إن الحرب العالمية

الأولى جاءت بالانتصار لثورة أكتوبر الاشتراكية في هذه البلاد .

وجاءت الحرب العالمية الثانية بالنظم الديموقراطية الشعبية وسط أوربا وجنوب شرق آسيا والانتصار للشعب الصيني العظيم .

فهل هناك من شك في أن الحرب العالمية الثالثة ستكون مقبرة للرأسمالية .

ومع هذا فإن الكثيرين ينتظرون تبدلا للسياسة الروسية للاقتراب من الغرب وحل مشكلات العالم على أساس إنهاء الحرب الباردة التي هي الطابع الواضح للقرن الذي نعيش فيه .

« شبيلوف »

كان وزيراً لخارجية الاتحاد السوفييتي ، وقد خدم مع « خروشيشيف » في الحرب العالمية الثانية في « أوكرانيا » حتى وصل إلى رتبة « ميجر جنرال » .

وفي عام ١٩٥٢ عين رئيساً لتحرير جريدة « برافدا » الروسية ثم استمر بها حتى عين وزيراً للخارجية عام ١٩٥٦ وله نشاط صحفي وعسكري كبير .

« دي جول »

استراتيجي من طراز ممتاز ، تنبأ في كتابه الذي نشر قبل

الحرب العالمية الثانية بعنوان « جيش المستقبل » بالكثير مما حدث في الحرب الأخيرة وعلى الأخص مسألة تطويق خط ماجينو والدوران من حوله وعندما نشر كتابه سخرت منه القيادة الفرنسية يومذاك ، ولكن هيئة أركان الحرب الألمانية لم تسخر منه بل راحت تدرس الكتاب بعناية وطبقت كل ما جاء فيه عملياً .

« أندريه مالريه »

كاتب ومقاتل ، يعيش فى منزل جميل فى غابة بولونيا من أعمال باريس ومع هذا فإنه يحتفظ دائماً فى أدراج مكتبه إلى جوار أقلامه وأوراقه بمسدس ملىء بالطلقات .

عمل « مالريه » مع جماعة الكومينتاج ، وبات عضواً ضمن الاثنى عشر عضواً الذين كانوا يتولون أمر الثورة ، ولكنه فى عام ١٩٢٧ ترك الصين بعد ما اعتبره « شيانج كاى شيك » خائناً لمبادئها .

وقامت الحرب الأهلية فى إسبانيا فاشترك فيها وجرح ، ولكنه فى هذه الحرب بدأت شكوكه فى الشيوعية وأهدافها بالرغم من أنه فى عام ١٩٣٣ قال علانية :

« لو قامت الحرب فيجب أن نعرف بأن لا وطن لنا إلا روسيا السوفييتية » .

وفى عام ١٩٣٩ أخفقت كل معتقداته فى روسيا وفى الشيوعية .

اشترك فى الحرب العالمية الثانية كجندى فى الدبابات وجرح ووقع أسيراً فى قبضة الألمان ثم فرّ ليرجع إلى إسبانيا ، ومنها تسرّب حيث عمل فى قوات المقاومة ضد الاحتلال النازى تحت إمرة الكولونيل « بيرجير » الذى كان يقوم بحرب العصابات ضد القوات الألمانية ويشرف على عمليات نسف الخطوط الحديدية .

انضم لقوات « دى جول » ثم عمل وزيراً للاستعلامات فى حكومته التى لم تعش طويلا .

ولكن الحروب والثورات لم تحل دون كتاباته ، بل إن كل كتبه إنما تستند إلى الصور التى تمر به فى هذه المعارك التى يشترك فيها والتى تولد فيه شتى الأحاسيس الإنسانية التى يحسن تصويرها كفنان .

ويعمل « مالريه » مديراً للدعاية لحزب دى جول ومستشاراً له وهو يؤمن بأن فرنسا لا تستطيع الحياة ومقاومة التهديد الشيوعى إلا باتباع السياسة التى رسمها « دى جول » .

« دى وايت دالاس »

« دى وايت دالاس » محرر مجلة « ريدرز ديجست » الذى يقرأ مجلته كل شهر سبعون مليوناً من الناس فى كل أقطار العالم ، ويقرأها هؤلاء فى الطبعة الأمريكية وفى ست عشرة طبعة أخرى متباينة اللغات .

ويقصون أنه فى ربيع عام ١٩٥١ تحول الرجل الذى كان يتولى الدعاية للعصابات الحمراء فى الهند الصينية فانضم إلى الجبهة المضادة للشيوعية إثر قراءته لمقال عن حقيقة الشيوعية فى الطبعة الفرنسية لريدرز ديجست .

وعاون ذلك المقال الذى ظهر فى الطبعة الإيطالية فى هزيمة الشيوعيين الإيطاليين فى انتخابات عام ١٩٥١ .

وكل قوة لريدرز ديجست إنما ترجع إلى « دى وايت دالاس » نفسه وإلى اللمسات التى مكن بها من شعبية المجلة وانتشارها وتأثيرها فى جمهور القراء .

منعته الحرب العالمية الأولى من تنفيذ فكرته ، كان مرتبطاً بوعد مع المشاة وجرح فى « فردون » فلما سرّح من الجيش بدأ يحاول تلخيص المقالات دون أن يبدّل آراء الكاتب أو حتى من أسلوبه .

« آرثر هايس سولزبرجر »

إن « النيويورك تايمز » تقدم كل الحقائق عن كل مايحدث فى العالم .

وراء هذه الجريدة القوية يقف رجل واحد هو « آرثر هايس سولزبرجر » .

تزوّج عام ١٩١٧ عندما كان ضابطاً فى الجيش الأمريكى برتبة الملازم الثانى فلما سرّح « آرثر » من الجيش فى عام ١٩١٩ راح يعمل مع صهره « أوكس » كمساعد للمدير المالى .

تولى هو الإدارة للتحرير والنشر بسبب واحد هو أن « أوكس » أمر بهذا فى وصيته التى تركها وراءه .

الغريب أن « النيويورك تايمز » تصدر نصف مليون نسخة فى أيام الأسبوع العادية ومليون نسخة فى أيام الآحاد .

« إيليا إيهرنبرج »

للرجل قيمة كبيرة فى الميدان الداخلى ، وكانت كتاباته أثناء الحرب العالمية الثانية من العوامل التى أبقت القوى المعنوية فى الجبهة الداخلية متماسكة لم تتصدّع ، وحتى اليوم عندما يكتب عن أعقد المشكلات التى تواجه روسيا السوفيتية .

وفى فجر الحرب العالمية الأولى عمل مراسلا للجريدة الروسية « أنباء البورصة » التى كانت تصدر فى « بتروغراد » فلما بدأت الثورة عام ١٩١٧ عاد إلى روسيا وانضم للشيوعيين ، ولكن خروجهم على الكنيسة أقلق مضجعه .

ذهب إلى إسبانيا أثناء الحرب الأهلية وكتب هناك عدداً من القصص الطويلة .

« أرنولد تويبنى »

ساهم فى تحرير مجلة « الأمة » ونشر كتابيه « أوربا الجديدة » و « القومية والحرب » فى عام ١٩١٥ ، وفى عام ١٩١٥ عمل فى قسم المخابرات بوزارة الخارجية .

يقضى صباح كل يوم فى إعداد التاريخ السياسى للحرب العالمية الثانية ، ويقضى أمسياته مطالعاً بصوت عال لزوجته .

* * *

هؤلاء وإن كانوا لم يمارسوا النقد والتعليق على الأخبار العسكرية بصفة ثابتة منتظمة ، إلا أن لهم أثراً كبيراً فيما قاموا به من أعمال فى المحيط العسكرى العالمى جديرة بالبحث والاطلاع وفى الإلمام بتاريخهم وما كتبوا فائدة تعود على كل من يعمل فى محيط الصحافة العسكرية مراسلا أو كاتباً أو معلقاً أو ناقداً للشئون العسكرية .

المكتبة العسكرية

يجب على كل من يعملون فى المحيط الحربى سواء القادة فى الخدمة العاملة أم الذين يمارسون الشئون العسكرية على الورق فى الصحف العسكرية أو فى الصحف المدنية أن تكون لهم مكتبة تحوى المؤلفات التى تساعدهم فى هذا المحيط .

وجميع القادة العظام فى التاريخ – سواء من كتب منهم مذكرات شخصية أو من نشر مؤلفات عسكرية أو كتب للصحف أبحاثاً عسكرية كانت لهم مكتباتهم الخاصة التى تحوى كتباً قيمة فى شتى الفنون الحربية فى جميع اللغات .

ومن أكبر المكتبات العسكرية « مكتبة المارشال سمطس » إذ جاء فى كتاب ابنه أن مكتبة والده تحوى سبعين مجلداً ضخماً عن الحرب فى أفريقيا والحروب العالمية خصوصاً الحرب العالمية الأولى .

وبديهى أن من يعمل فى النقد والتعليق على الأنباء العسكرية والمعارك الحربية لا غنى له عن مكتبة عسكرية دسمة يجد فيها معارك التاريخ الحاسمة وتاريخ حياة القادة والدروس المستفادة منها وتطور الفنون والاختراعات الحربية .

ائتمان الصحفيين على الأسرار العسكرية

« يجب أن يكون المراسل الحربى متبعاً بدقة
عهد الشرف الصحفى الذى تحتمه عليه ممارسته مهنته
وأن يكون له من ضميره وتقديره للأمور رقيباً على
ما يكتب للصالح العام »

ثبت فى جميع الظروف التى مرت بها الدول سواء فى الحرب أو فى الأزمات الداخلية أن الرقابة العسكرية أمر لا بد منه ، حيث لا يمكن أن تترك الدولة أسرار قواتها العسكرية وتفاصيلها للصحفيين ، فائتمان الصحفيين على الأسرار العسكرية لا يزال أمراً صعباً ، فالرقابة العسكرية أهون وأخف من أن يترك الحبل على الغارب فيؤدى ذلك إلى الأضرار بأمن الدولة وسلامتها .

لقد ظلت حرية الصحافة – منذ ولدت على مر الزمن – العقدة بين الصحفى والقارئ والحاكم ، أن كلا من هؤلاء وقف أمامها إما خاضعاً لها أو معتدياً عليها ، والكل فى كلتا الحالتين يتصورها على غير حقيقتها حتى أصبحت هذه الحرية مصدر قلق وحيرة للحاكم والمحكوم وباعث هم للصحافة ورجالها .

ويقول علماء الصحافة :

« الواجب أن تكون الصحافة حرة لا رقيب عليها من جانب الحاكم ، وأن هذا شرط أساسى لعملها ، إلا أنه يجب ألا تتعارض هذه الحرية وصالح الوطن وألا تكون أداة لعرقلة نهضته وتقدمه ، كما يجب ألا تقف هذه الحرية فى سبيل حركة الشعب الوطنية والقومية » .

ونظراً لأن موضوع الرقابة العسكرية على الصحف له علاقة تامة بعمل المراسلين الحربيين ، كذا مدى علمهم بالأسرار العسكرية ، رأيت أنه من الضرورى أن نبحث موضوع الرقابة على الصحف لصلته الوثيقة بكل من يعمل فى محيط الصحافة العسكرية والنشر الحربى .

أول حادثة للرقابة العسكرية

كانت أول حادثة للرقابة العسكرية على الصحف فى الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٤) وقد حدث عندما منع القائد العام للقوات الشمالية فى هذه الحرب نشر أى خبر عن الهزيمة .

فقد حدث أن تقابل الجيشان المتحاربان فى « بول ران »

فى ٢١ يولية وبدا الموقف كما لو كان انتصار الشماليين أصبح محققاً ، فأرسلت أول برقية عن طريق العدائين والبرق إلى واشنطن تزف نبأ النصر ، وبعد بضع ساعات وصل إلى « جوبرايت » أحد مندوبيه منهوكاً من السفر ليخبره فى التاسعة مساء أن النصر قد انقلب إلى هزيمة ، ويصف له كيف تحطم الجيش الشمالى فى تلك الموقعة ، وكتب « جوبرايت » القصة وأرسلها إلى مكتب البرق ، وفى الصباح ذهل إذ رأى جميع الجرائد لا تتحدث إلا عن الخبر « البايت» أى القديم ، ألا وهو النصر ، أما بقية القصة فلم تشر إليها بحرف واحد ، وثار « جوبرايت » ولكنه سرعان ما علم أنه بمجرد أن سمع « دنفيلد سكوت » القائد العام للقوات الشمالية عن الانحدار فى تلك المعركة أرسل عداء مخصوصاً على حصان إلى مكتب البرق ومعه أمر بمنع نقل أى خبر عن الهزيمة ، وعلى ذلك فلم تنقل شركة البرق حرفاً واحداً من القصة التى بعث بها « جوبرايت » وكانت تلك أول حادثة عن الرقابة الرسمية على الأنباء .

وقبل أن تبدأ معارك الربيع أذاع « أدوين م . ستانتون » وزير الحرب الجديد البيان التالى :

« إن جميع الجرائد التى تنشرَ الأنباء الحربية ، كيفما

كانت وسيلة حصولها عليها ، ولم تحصل على تصريح من السلطات الرسمية بنشرها ستمنع من الحصول على أى إعلام من البرق ومن إرسال مطبوعاتها بالسكك الحديدية » .

وكان يقصد بهذا البيان الجرائد التى تفشى الأسرار العسكرية للأعداء ، وأثار هذا البيان معارضة عنيفة ، فاضطر فى اليوم التالى لتعديل بيانه قائلا :

« يمكن نشر الوقائع المنتهية التى لا تشير إلى تفاصيل عن القوات المسلحة أو إلى تصريحات عن عدد جيوش الولايات المتحدة ومواقعها وقوتها العسكرية » .

واستمر المحررون فى ثورتهم ، ولكن « ستانتون » لم يتزحزح عن موقفه وزج بأحد المراسلين فى السجن .

وفى يونيو عام ١٨٦٣ وصل أحد مراسلى « جوبرايت » إليه بعد سفر طويل متعب من « مارى لاند الغربية » لينبئ أن الجنرال « روبرت أ . لى » يزحف شمالا فى اتجاه بنسلفانيا على رأس ٨٠,٠٠٠ جندى فأسرع « جوبرايت » بكتابة الخبر وعرضه على الرقيب الذى رفض نشره ، فسأله « جوبرايت » ولكن لماذا ؟ . . . . فقال « لأنه يقدم معلومات للعدو » . فصمت « جوبرايت » برهة وقال « أترى العدو لا يعلم ماذا

يفعله جيشه ؟ ؟ ثم أليس من المهم إعلام أهالى بنسلفانيا ونيويورك بالخطر الذى يتهددهم ؟ » فأجاز الرقيب نشر الخبر على أن يسبق بعبارة « يقال إن . . . »

ورغم مجهودات الرقابة ، فقد كانت هناك أنباء كاذبة أو خاطئة كثيرة تنشر ، وأخيراً قرر « ستانتون » أن تصدر وزارة الحربية كل ليلة بلاغاً حربياً ، كان المفروض أنه موجه إلى الجنرال « جول أ . ديكس » فى نيويورك ولكنه فى الواقع كان موجهاً إلى « الأسوشيتدبرس » .

ومع أن الرقابة من ألد أعداء الصحافة التى تحاول دائماً أن تتخلص منها وتنادى برفعها لكى تتخلص من القيود التى تفرضها عليها والتى تعرقلها عن أداء رسالتها المثلى ، فإننا نعلم أن هفوة واحدة تقع من الصحف قد تؤدى إلى أضرار جسيمة للقوات المسلحة أو قد تؤدى إلى تصدع الجبهة الداخلية أو قد يستفيد العدو منها استفادة بالغة ، كل هذا جعل الرقابة العسكرية على الصحف أثناء الحرب أمراً طبيعياً ينطبق أيضاً على الإذاعة والسينما والتليفزيون والبريد والرسائل البرقية وغيرها من وسائل النشر .

وقد تعرضت مصر للرقابة العسكرية فى ظروف كثيرة أهمها فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ولا يمكن اعتبار أن الصحافة

نالت حريتها ، فمنذ الحرب العالمية الأولى وهى تحت الرقابة ، وفى الفترات المتقطعة القصيرة التى كانت ترفع فيها الرقابة خلال هذه المدة الطويلة كانت الصحف تتعرض لما هو أشد من الرقابة وهو مراقبة البوليس السياسى للمطابع ومحاولة معرفة ما يدور داخل الصحف نفسها وتسرب الجواسيس داخل دورها ومصادرة الصحيفة قبل خروجها من المطبعة وبعد انتهاء طبع جميع الكميات المطلوبة ، كل هذه الإجراءات الإدارية الشاذة كانت أشد عنفاً من الرقابة .

الرقابة التلقائية

لا يمكن القول بأن الصحافة قد نعمت بحريتها كاملة فى أى عهد من العهود إلا أن الحرب تنتج كبتاً تطوعياً للصحفيين خصوصاً المراسلين الحربيين ، وميلا قوياً لعدم نشر ما يمس أمن الدولة وسلامتها ، وأبرز مثل على ذلك — حادث الباخرة البريطانية« الملايا » التى ضربت بالطوربيد ووصلت إلى نيويورك فى ٦ أبريل عام ١٩٤١ ورست على رصيف جزيرة « ستاتن » وكان هناك ألوف من الجماهير إذ أن وصول المركب وافق يوم الزعف وشاهدوا هم والقنصلية الألمانية منظراً كاملا لحصيرة حديدية

تغطى فتحة كبيرة فى جانب الباخرة التى أصابها طوربيد ألمانى وعلم بوصولها آخرون من الجماهير يعدون بالآلاف عندما شاهدوا فى بارات برودواى ومانهاتن بحارتها بقبعاتهم المكتوب عليها بأحرف مذهبة « ملايا » باخرة صاحب الجلالة، وكان بحارتها الفخورون بباخرتهم بطلة البحار وصاحبة الغارة العظيمة على جنوا فى فبراير ١٩٤١ يصرحون لمراسلى الصحف أنه قد أصابهم طوربيد وهم فى قافلة حراسة فى شمال الأطلنطى فى ليلة ٢٠ مارس وكانت هذه على الأقل قصتهم ، وقد تمسكوا بها ، ويمكن تقدير عدد الذين عرفوا بوصول الباخرة « الملايا » على الأقل بنصف مليون شخص فى مدينة لا ينقصها الجواسيس النازيون ولا رقابة على برقياتهم .

وفى صباح اليوم التالى صدرت جريدة الديلى نيوز التى تنادى بالعزلة الواسعة الانتشار فى « مانهاتن » وفى صور صفحتها الأولى صورة فخمة ملتقطة من الجو وبعناوين بارزة مع وصف كامل لحادثة « الملايا » المصابة، أما جريدة « الهيرالد تريبيون » الموالية لإنجلترا فقد كتبت القصة وأرفقت بها صورة قديمة وصمتت جرائد مانهاتن الأخرى، فقد استجابوا لطلب وزير الحربية فى ٢٤ مارس لرقابة تطوعية على الأنباء والصور والإذاعات المتعلقة

بالبواخر البريطانية التى تأتى لهذا البلد للتصليح أو التركيب أو إعادتها إلى ما كانت عليه وفقاً لشروط قانون الإعارة والتأجير.

ويبدو أن عذرهم كان مبالغاً فيه ، إذ أنه وفقاً لما كانت عليه الحال — وقرار إنجلترا فيما بعد — كان البريطانيون أنفسهم هم الذين أخرجوا مسرحية وصول الملايا إلى نيويورك للترويج لقانون الإعارة والتأجير .

وورد فى اليوم التالى رد فعل عجيب من واشنطن فقد أصدر وزير الحربية قراراً هاماً مدح فيه الجرائد واتحادات الصحافة والإذاعة التى قتلت قصة الملايا ولام الجرائد التى نشرتها وصرح — وهو لا زال معتقداً — بأن هذا النوع من الأعلام ذو قيمة عسكرية لا تقدر بالنسبة للألمان ، وفى رأيه أن الصحافة الأمريكية الحريصة على الروح الرياضية يجب أن تمتنع عن إعطاء أى إعلام بخصوص هذه البواخر لصالح أعداء بريطانيا وردت جريدة النيوز والتايمز هيرالد وبعض الصحف الأخرى بأن وصول الباخرة « الملايا» كان خبراً جديراً بالنشر ولم يك سراً ، وأضافوا — تحت رأى هيئة التحرير — بأنه فى الظروف الحالية إذا ترك تقدير نشر أو عدم نشر مثل هذه القصة للحكم الفردى لكل جريدة فسيؤدى ذلك إلى عدم إرضاء أحد عن

النشر ، لأنه إذا اتهمت السلطات جريدة بأن حكمها الشخصى خاطئ فستتعرض تلك الجريدة فى الحال للنقد وهجوم الرأى العام ، ولذا تقترح جريدتنا النيوز والتايمز هيرالد بكل احترام ، على الحكومة بأن تنفذ رقابة رسمية وأن تصدر قرارات حاسمة وليس مجرد طلبات بالنسبة لما ينشر وما لا ينشر ، وعندئذ فقط ينجلى ذلك الموقف المائع .

وقد ذكر الجنرال « ريكاردسون » مدير مكتب العلاقات العامة للجيش الأمريكى وذو الأفق الواسع بصدد الرقابة العسكرية :

« إن الاتجاه فى وزارة الحرب نحو الرقابة هو أنه لن يكون هناك رقابة حتى فى زمن الحرب وسيضيق نطاق الرقابة فى ساحات القتال وهى مسئولية قائد الميدان وحده . »

وقد نادى « نوكس » وزير البحرية الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية برقابة تطوعية ، وأيده الرئيس « روزفلت » قائلا إنها نجحت فى الحرب الماضية ، وهذه الرقابة قد تكون أفيد من الرقابة الرسمية التى قد تتخطى حدودهد وتقيد حرية الرأى ، فقد قال نائب ألمانى أمام « الرايخستاغ » بعد الحرب العالمية الأولى :

« إن الرقابة العسكرية أضرت عسكرياً أكثر من كل ما كان يمكن أن تفعله الصحف الألمانية فيما لو كانت الرقابة قد رفعت كلية » .

إن الرقابة على الصحف لا تقطع أو تؤخر تسرب الأنباء للعدو ، فالعدو لا يعتمد بدرجة كبيرة فى أنبائه على الصحافة ، وهذا ما يثبت أن الرقابة التلقائية أفيد بكثير من الرقابة العسكرية التى تنفذ بقانون له قوة الجاذبية ، وتميل نحو الرقابة السياسية وتصبح وسيلة لكبت نقد العجز وعدم المقدرة فى الدوائر الرسمية .

إن المبدأ الذى يجب أن يسود ونتمسك بشدة به هو أن :

« تقتصر الرقابة العسكرية على الأسرار العسكرية فقط ، أما الرقابة للأسباب الأخرى كالصالح العام مثلا ، ذلك المخرج السهل كالحرص على الروح المعنوية ، فهو يعتبر تدخلا مباشراً وغير محتمل فى عمل الصحافة الحرة » .

الرقيب الحربى

لا تميل الدول إلى أن تطلع الصحفيين على أسرار الأزمات الداخلية ولا تفاصيل القوات العسكرية ، هذه الأشياء التى تعتمد اعتماداً كلياً على السرية والتكتم حتى لا تتسرب المعلومات

إلى غير الأمناء عليها فيلتقطها الأعداء والجواسيس وتسبب أضراراً بليغة فتضطر إلى فرض الرقابة العسكرية ، ولو أن هذه الرقابة التى تفرض لحماية الأسرار العسكرية قد تساء وتستغل لكبت الحريات وللأغراض الخاصة والانتقام من الخصوم ، إلا أنها أهون وأخف من أن يترك الحبل على الغارب ليؤدى ذلك إلى الإضرار بأمن الدولة وسلامتها .

وهذه الرقابة ليست مقصورة على الأنباء بالصحف ، بل هى أيضاً تشمل الرقابة على الإذاعة وكل ما ينشر بها ، كذلك الرقابة على المطبوعات فهى لا تقل أهمية وخطراً عن الرقابة على الصحف .

وكانت الرقابة على المطبوعات فى خلال الحرب العالمية الثانية عبارة عن أمرين :

الأول : فحص المواد المكتوبة أو المطبوعة وحذف مايعترض عليه وما يحظر نشره فيها .

الثانى : الحصول على المعلومات الهامة التى تساعد على مواصلة الحرب والواقع أن للرقابة على المطبوعات غرضين هامين هما :

- حرمان العدو من المعلومات التى يستفيد منها .
- التمهيد لاستغلال المعلومات القيمة التى تفيد جهود الدولة

فى الحرب .

أما إنشاء الرقابة بين القوات المسلحة وتنفيذها فأمرها هين نسبياً ، فالرقابة العسكرية تعنى أساساً بالخطابات التى يكتبها أفراد القوات المسلحة والأنباء التى يحررها المراسلون الصحفيون ، ولا ينتظر اكتساب معلومات ذات قيمة من هذا المصدر ، فإن أهم ما تعنى به الرقابة العسكرية هو حذف أجزاء الرسائل التى تحتوى على معلومات عن العمليات الحربية المزمع القيام بها وتحركات القوات وأوصافها ونتائج عمليات العدو الحربية .

أما مراقبة مطبوعات ومراسلات المدنيين فهى عمل أخطر شأناً ، وذلك لأن السيطرة على المدنيين لن تكون مستحكمة الأطراف وروح النظام والطاعة بينهم متراخ ، ومراسلاتهم كبيرة الحجم تستلزم وجود طائفة كبيرة من المراقبين للاضطلاع بمراقبتها .

ولا تقتصر الرقابة العسكرية على ذلك بل هى أيضاً تشمل الرقابة على التلغرافات الواردة والصادرة من الدولة ، وكذلك على الأفلام التى تعرض على الجنود فى ميادين القتال للترفيه ولتقوية الروح المعنوية والتى تعرض بدور السينما للمدنيين حتى تبقى الجبهة الداخلية متماسكة سليمة .

والرقابة العسكرية فى الميدان يقوم بها ضباط من المخابرات

الحربية يلحقون بالتشكيلات العسكرية المختلفة ويزودون بالمعلومات اللازمة لقيامهم بعملهم ، ولا يوكل هذا العمل إلى المدنيين .

ويتلقى هؤلاء الضباط من إدارة المخابرات الحربية التعليمات عن كيفية تنفيذ الرقابة على جميع وسائل النشر والمطبوعات حسب سير العمليات الحربية فى جميع جبهات القتال ، ولن أشرح هنا كيف يعمل الرقباء فى الميدان لأن هذا العمل من الأعمال الفنية العسكرية والتى لا يجوز نشرها أو كتابتها لغير الذين يشغلون وظائف رسمية فى القوات المسلحة تجيز لهم ذلك .

أما الرقابة على الصحف والإذاعة والأفلام والبرق فتخضع جميعها لرقيب عام يضع له مساعدين فى جميع دور النشر بمعدل واحد أو أكثر فى كل دار صحفية يتلقى تعليماته من الرقيب العام ، ويجوز أن تخول له سلطات محدودة فى النشر ، وفى أغلب الأحيان يكون هؤلاء الرقباء من العسكريين خصوصاً فى وقت الحرب حتى يمكنهم أن يقدروا قيمة المعلومات العسكرية التى يجب ألا تذاع أو تنشر ، ويجوز فى بعض الأحيان أن يتولى هذا العمل رقباء مدنيون بعد تزويدهم بتعليمات تمكنهم

من أداء هذا الواجب .

ويخصص عادة رقيب للإذاعة يراجع جميع البرامج التى ستذاع ويوافق عليها لإذاعتها ، كذا جميع الأحاديث ونشرات الأخبار ، وهو يتلقى تعليماته أيضاً من الرقيب العام .

أما الأفلام فتفحص بواسطة مراقبة الأفلام التى ترى الأفلام قبل عرضها وتكتب تقريراً بصلاحيتها للعرض أو عدمه .

كذلك يوضع رقيب فى وكالات الأنباء وفى كل من مصلحتى البريد والتلغرافات لمراقبة الخطابات والتلغرافات والإذن بتسليمها للمرسل إليهم ، كذا تنفذ الرقابة على التليفونات التى يحتمل أن تحمل أسلاكها معلومات تفيد القوات المسلحة .

ويجب على المراسلين الحربيين أن يلموا إلماماً تاماً بالقواعد الخاصة بإرشاد ممثلى الصحافة لتجنب الموضوعات التى يجب عدم الإشارة إليها بدلا من أن تعرض على الرقيب وتكون عرضة للمنع وتعطيل أعمالهم الصحفية ، ومهما كانت التعليمات الصادرة إلى الصحف والمراسلين لتلافى نشر الأخبار غير المرغوب فى نشرها فإن وجود الرقيب يجعلهم يتجاوزون عن اتباع التعليمات اعتماداً منهم على أن قلم الرقيب هو الذى سيحدد الموضوعات التي لا يجب نشرها ولا يصح الاعتقاد بأن المسئولية تقع

وحدها على الرقيب فقط بل هى مسئولية مشتركة بين الرقيب والناشر .

من هنا يتضح مدى ما يقاسيه ويعانيه الرقيب من مجهود كبير لمراجعة جميع النسخ والبروفات والصور والخرائط حتى يأذن بنشرها إذ يجب أن يكون الصحفى متبعاً بدقة عهد الشرف الصحفى الذى تحتمه عليه ممارسته مهنته وأن يكون له من ضميره وتقـــديره للأمور رقيباً على ما يكتب للصالح العام .

الرقابة بالتشريع

فى وقت السلم لا توجد عادة رقابة على الصحف إلا فى ظروف الأحكام العرفية للمحافظة على أمن الدولة وسلامتها ، ومع ذلك أمكن علاج موضوع نشر الأخبار العسكرية بالتشريع دون فرض رقابة عسكرية ، فقد صدر قانون لتكملة نص المادة « ٤٥ » من دستور ١٦ يناير ١٩٥٦ تقول :

« حرية الصحافة والطباعة والنشر مكفولة وفقاً لصالح الشعب وفى حدود القانون » .

وهـــذا القانون المكمل للمادة « ٤٥ » ينص على الآتى :

« نشر الأخبار العسكرية وما يتعلق بها لا يجوز إلا بتصريح من وزير الحربية » .

هذا ما يجب أن يعرفه المراسلون الحربيون عن عمل الرقيب الحربى بالنسبة لنشر الأنباء العسكرية ومراقبتها .

ومن ألطف الأنباء فى الرقابة على الصحف ما حدث إبان الحرب العالمية الأخيرة عندما منعت الرقابة الأمريكية أحد الصحفيين من نشر مقال عن بحرية الولايات المتحدة لأن المقال يتضمن أسراراً عسكرية خطيرة ، ولكن الصحفى أثبت أن جميع المعلومات المنشورة فى المقال منشورة فى دائرة المعارف البريطانية التى توزع فى جميع أنحاء العالم ومنها ألمانيا وإيطاليا ، وكان الصحفى قد دبر هذه المكيدة ليثبت تعسف الرقابة .

ومن أغرب ما حدث فى تاريخ الرقابة ما قيل من أن « نابليون » أرغم الصحف على دفع مرتبات الرقباء الذين فرضهم عليها ، وكان الرقيب يتقاضى مرتباً حدده نابليون بـ ٤٨٠ جنيهاً .

ومن أحسن ما قيل فى الرقابة على الصحف قول البابا « إسكندر السادس » ، وهو من أوائل الروّاد فى الرقابة على

الصحف ، ينصح تلاميذه من أن الرقابة هى فن الكشف عن النوايا السيئة والمضللة .

والرقيب النموذجى هو الذى يكشف النوايا السيئة فى أى مقال — حتى لو لم يقصد الكاتب أية نية سيئة إطلاقاً .

شعار الرقيب ينبغى أن يكون « قص » فمهما قصصت من من المقال فإن الباقى يعتبر شيئاً كثيراً وأطول من اللازم ، ومهما قصصت من أخبار الجريدة فإنه يتبقى لديها أشياء أخرى كثيرة .

عندما يجد الرقيب كلمة لا تعجبه فليحذف الجملة كلها ، وعندما يشعر بأن فى المقال نوايا سيئة مستترة دون أن يهتدى إلى كلمة بالذات فينبغى عليه أن يحذف المقال كله .

من هذا يتضح أن ائتمان الصحفيين على الأسرار العسكرية لا زال أمراً صعباً — وأن الرقابة العسكرية فى وقت الحرب إجراء ضرورى لأمن الدولة وسلامتها .

الصفات الواجب توافرها فى المراسل الحربى

« شعار المراسل الحربى : الشعور بالواجب
والضمير الحى والإحساس بالشرف الرفيع »

يجب أن يكون المراسل الحربى ذا شخصية تحوز القبول وتوحى بالثقة إليه والاطمئنان إلى سماعه ، وهى غاية لا يصل إليها إلا من توافرت فيه صفات معينة فى النواحى الجسمية والنفسية والذهنية والخلقية .

فينبغى على المراسل الحربى أن يجمع إلى جانب لباقة المظهر لباقة الحديث ، وإلى دماثة الخلق سماحة الطبع ، وإلى رشاقة الجسم بشاشة الوجه ، حتى يشعر القوم الذين يتقدم إليهم أنه يكن لهم الود ، بينما يظل الواجب الأول له الولاء إلى أبعد حد ، وكم من مراسل حربى مهد سبيله بابتسامة تلازم شفتيه يأسر بها القلوب ويفتح أقفال الصدور .

ولا شك أنه إذا كان يعرف كيف يقود سيارة أو يمتطى جواداً أو يكتب على الآلة الكاتبة ، يكون نجاحه فى مهمته أكثر يسراً ، لأن المناسبات التى تعرض له قد تحتم عليه أن يقود

سيارة أو يكتب بنفسه أو يعتلى صهوة جواد . أما ممارسة الألعاب الرياضية فهى تمهد له سبيل التعرف إلى شخصيات من الخير أن يتعرف إليها دون أن يبدو أنه يقوم بدور المستعلم ، والرياضة من أهم وسائل الاتصال الشخصى وأسماها فضلا عن مزاياها الصحية . أما الصفات النفسية فأولاها أن يكون ذا شخصية قابلة للتطبع والتكيف ، فإذا انتقل فجأة إلى عالم عسكرى أجنبى ، وجب عليه أن يألف الوسط فى كل الظروف وأن يكون لطيف المعاشرة، حسن المخالطة ، متزناً ، ذا فطنة نافذة و بداهة موفقة ، كما أن الحياة التى يحياها خارج بلاده أحياناً قد تتطلب كثيراً من الصفات الذهنية ، فينبغى أن يكون مثابراً على الاطلاع ذكياً متحفظاً مستنيراً مرناً دقيقاً متتبعاً للتطورات العسكرية التى تجرى فى جيش بلاده وفى جيوش العالم بوجه عام إذا أمكن .

وإذا لم يكن المراسل الحربى ملماً بلغة أجنبية فلن يحالفه التوفيق فى النهوض بواجباته إلا بالقدر المحدود ، فعليه أن لا يدخر جهداً ولا وقتاً حتى يتعلم لغة البلاد التى سيعمل فيها بطلاقة تامة ، وعن أن تمتد معرفته إلى اللغة العامية ومصطلحاتها والقاعدة التى يجب أن يضعها المرء نصب عينيه ، هى أن إتقان أى لغة أجنبية لا يتم إلا بممارسة التكلم بها كثيراً فى غير تهيب من

التورط فى الأخطاء .

يجب أن يكون المراسل الحربى على درجة ثقافية كبيرة يستطيع بها أن يستوعب فى سرعة وحسن إدراك ميزات الجيوش الأجنبية الرئيسية ، وأن يشترك فى النقاش العسكرى مع ولاة الأمور الذين يخالطهم .

كما يجب عليه أن يكون دقيق الملاحظة ، وهو فى ذلك كالشرطى أو المخبر الصحفى الذى يجب أن يكون يقظاً ليل نهار يلاحظ ويسجل كل ما حوله مما له مساس بعمله فإن تقديره للمنشئات العسكرية فى البلد الأجنبي ليقاس طبقاً لمدى معرفته بنفس المنشئات المماثلة فى بلاده .

يجب أن تتوافر لدى المراسل الحربى قوة الملاحظة فى نظرته للأشخاص والأشياء ، مع القدرة على الإعراب عنها كتابة فى وضوح وجلاء ، وأن يكون ذا ذاكرة تعى الأرقام وتختزن الحقائق ، فإن القدرة على الملاحظة الدقيقة لا غنى عنها ، كما أن الدقة فى حفظ ما يودع منها فى الذاكرة عظيم الأهمية ، وفائدة التقارير تقوم على دقتها التى لم يمسها التحوير والتغيير ، فلكى تسمع وتحفظ ثم تؤدى أو تدوّن ما سمعت من محادثات هامة ، يتطلب ذلك مرانة ذهنية ممتازة . ولا بد للمراسل الحربى

أن يعرف كيف يستعمل الكاميرا والفلاش حتّى لا يسحب وراءه فى الميدان مصوراً خاصاً لكى يصوّر مناظر الجبهة التى سيسمح بنشرها فى الصحف فالصور نوع من الأخبار ، والصورة أياً كان نوعها تعتبر خبراً بصرف النظر عما يكتب تحتها ، فقد تكون تعبيرية موضحة يفهم منها كل شىء فوراً ، حتّى إن الرقباء العسكريين فى الحرب يشطبون كثيراً من هذه الصور ولا يسمحون بنشرها .

ومن الأنباء الطريفة فى ذلك ما منعت الرقابة الفرنسية نشره وكان عبارة عن رسم لشمامة ناقصة كتب تحتها « مسيو س » أرادت مجلة لى كليبس نشره ، فلما سأل رئيس التحرير عن السر فى منع النشر ، قال الرقيب إن شكل الشمامة يشبه الرقيب العام .

كما أمرت الرقابة الفرنسية فى عام ١٨٧٣ بحذف كل ما يكتب تحت الرسوم الكاريكاتورية فى مجلة اليستراسيد الفرنسية ، فلم تجد المجلة وكل موضوعاتها رسومات إلا أن تنشر الرسومات وتعلن من مكافأة مالية لكل من يفهم معنى الرسم ، وما كانت الصحيفة تريد كتابته تحته .

والمفروض أن المراسل الحربى أساساً يقوم بمهمة نقل

الأخبار العسكرية إلى خارج جبهة القتال إلى المدنيين الذين لا يعلمون من المعلومات العسكرية الفنية غير القشور ، لذا لا بد من تدريب المراسلين الحربيين قبل قيامهم بمهمتهم حتى يمكنهم أن يلموا بالتنظيمات الأساسية وبطريقة العمل فى الميدان حتى يمكنهم أن يعرفوا مع من يتعاملون وكيف يحصلون على وسائل تنقلهم وإعاشتهم فى الميدان ، كذا كيفية تدوين رسائلهم ومراقبتها وإرسالها للجهات التى يمثلونها والتصرف فى حالة الإصابة أو الوقوع فى الأسر فى أيدى الأعداء ، كذا كيفية الوقاية أثناء التحرك وفى الغارات الجوية وكيفية السير بالبوصلة فى حالة فقد الاتجاه .

وعلى أى حال يستحسن أن يكون المراسل الحربى من بين الضباط المتقاعدين فى سن مبكرة أو من ضباط الاحتياط الذين ليسوا فى الخدمة وقت الحرب أو من غير المتوقع استدعاؤهم للقيام بمهمة حربية قريبة ، فهم أفيد على أى حال من تدريب مدنيين لهذا الغرض ، ولو أن المدنيين سيمتازوا فى هذه الحالة إذا كانت لهم الرغبة فى ذلك بوجود الروح الصحفية وإلمامهم بمهمة الصحفى على وجه أفضل من ناحية الحاسة الصحفية لانتقاء الأخبار وصياغتها بما يتفق والذوق المدنى الذى سيشبع رغبة

القارئ، وسيعمل على إرضا الجبهة الداخلية، لأن الكتابة العسكرية مادة جامدة قد لا يهضمها القراء من المدنيين ، وأعتقد أن الثورة المصرية لا بد وأنها ستخرج إلى حيز الوجود مشروع إدخال نظام المراسلين الحربيين فى الصحافة المصرية ، وفى هذه الحالة يمكن الاستعانة بالأفراد الذين جمعوا بين الثقافة الحربية والثقافة الصحفية فى قسم الصحافة بالجامعة .

وعموماً يجب أن يكون المراسل الحربى لائقاً للقيام بعمله وضبط النفس الذى يحفظ له هدوء نفسه ومسلكه ويعصمه من إغراء الغيظ والضعف ، ويجب أن يتصف بالشجاعة المعنوية والمادية ، فقد تحدث له حالات يجازف فيها بمحبة الناس به وبمركزه فى صحيفته ، وليكن شعاره دائماً :

« أنا لا يبهرنى شيء ولا أرهب شيئا »

وثمت صفات يجب التحلى بها كالشعور السامى بالواجب والضمير الحى والإخلاص والوفاء والإحساس بالشرف الرفيع .

الخاتمة

« عقول الرجال على أسنة أقلامهم قبل أن تكون على أسنة رماحهم »

نشأت الصحافة العسكرية مع ميلاد الجيوش ، وليس بين أعلام القادة أو أبطال الحرب من يستطيع أن يتغافل عن أثر الصحافة وفعلها السحرى فى التوجيه والمعرفة ، فهى إلى جانب نشر الموضوعات العسكرية تنشر أحداث السياسة الدولية وأنباء المعارف المبتكرة والمكتشفات الحديثة .

وإذا أردنا أن نعرف تقدير القادة العظام فى التاريخ للصحافة ، فحسبنا أن نذكر قول رجل من رجال ألمانيا رفعته مكانته إلى منصب رئاسة الدولة بعد أن بلغ منصب قيادة الجيش ، هذا الرجل هو الفيلد مارشال « هندنبرج » إذ قال لضباطه فى معرض الحديث عن الأعداء :

« لا أريد منكم أية معلومات عنهم ، فقط أرونى صحفهم ومجلاتهم ، أحكم على رجالهم ومعداتهم . »

وإذا كنت قد أوضحت فى هذا الكتاب الواجبات الأساسية للمراسل الحربى الذى يعمل فى ميدان القتال أثناء الحرب وما

يتعلق بمهمته لا أود أن أغفل أثر الحرب على الصحافة ومن يعمل فيها بوجه عام إذ أن الصحافة تتأثر تأثراً كبيراً بالحروب التى تحتم توجيه المجهودات الإنتاجية إلى النواحى الحربية ، وإن انشغال القوات المسلحة بالعمليات الحربية قد لا يتيح للجنود الفرصة الكافية لقراءة المجلات العسكرية سواء كانت فنية أو عامة ، ولذلك تتجه الصحف العسكرية أيام الحرب إلى تخفيض عدد صفحاتها ، بل وتقلل طبعاتها وتوزيعها ، لا سيما إذا كانت خاصة بالقوات المحاربة عبر البحار ، ويرجع ذلك إلى صعوبة الشحن وشغل السفن بنقل المواد الحربية كالذخائر والمؤن والمعدات ولانشغال محرريها بالعمليات الحربية .

وكما أثرت الحرب فى الإنتاج الأدبى لكبار الكتاب فى العالم ، كذلك أثرت فى نوع الصحف التى تصدرها إدارات الشئون العامة للجيوش ، ولا يقصد بهذه الصحف جنسيات معينة من الجنود أو تكون وقفاً على قطر دون آخر ، ولكنها تحرر للجنود عامة وتوزع حيثما تحتشد الجيوش فى أى ميدان من ميادين القتال ، ولذلك تكون نادرة التوزيع فى بريطانيا وأمريكا ، فهى لا تهم القراء هناك ، ولكنها توزع فى الشرقين الأدنى والأوسط حيث يتجمع الجنود .

وأن هذه الصحف لا علاقة لها بالدعاية ، فإن إدارات الشئون العامة التى تقوم بإصدار نشرات وكتيبات خاصة للدعاية تصوّر فيها ضعف روح العدو المعنوية أو افتقاره إلى المواد اللازمة للمجهود الحربى . . . إلخ .

أما الصحف التى توزع على الجنود فهى تقدم لهم خدمات جليلة ، كأن تلخص لهم الأنباء المختلفة عن الأقاليم التى جاءوا منها وأخبار عائلاتهم ومدنهم التى خلفوها وراءهم ، كما أنها تنقل — فى نفس الوقت — للمدنيين أخبار أبنائهم الجنود وصوراً من حياتهم وتضحياتهم فى الميدان ، وهكذا تتخلى تلك الصحف العسكرية عن روحها العسكرية الخالصة .

بينما نجد الصحف العادية المدنية تنقلب إلى صحف شبه عسكرية فتترك الأنباء العادية وتملأ صفحاتها بأخبار المعارك الدائرة ونقد الخطط العسكرية والتعليق على الأنباء والانتصارات والهزائم ، ومن هنا بدأت أهمية المراسل الحربى وخطورة مركزه ، فهو الصحفى الذى توفده الجريدة إلى الخطوط الأمامية ليوافيها بأخبار الجبهة .

وهنا أيضاً يبرز عمل الرقابة العسكرية وأهميته القصوى ، فهى التى تحمى الجيش من تسرّب الأنباء العسكرية إلى

الصحف التى يفيد منها العدو الذى يحاول دائماً أن يحصل على نسخ منها بأى وسيلة .

وأن للحرب تأثيراً آخر على الصحف المدنية لا سيما إذا كانت تصدر فى دولة مشتركة فى الحرب ، فإن عدد صفحاتها يقل ، وتبعاً لذلك يقل عدد الموضوعات التى يمكنها أن تعالجها .

ولقد أصابت الحرب العالمية الثانية الجرائد بضربتين ، أما الضربة الأولى فهى انخفاض الدخل ، فإن الحرب تؤدى إلى ارتفاع الأسعار ، ولقد ارتفعت أجور العمال وأسعار المواد الخام ارتفاعاً عظيماً ، ولم تكن محاولات الحكومة لتثبيت بعض الأسعار كافية لإيقاف ارتفاع تكاليف الإنتاج لتعود إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، ولم يكن ميل الأسعار الصعودى مما يدعو إلى الانقباض كالخسارة فى دخل الإعلانات التى تعتمد عليها الصحف اعتماداً كبيراً .

كانت الحرب العالمية الثانية حرباً شاملة اختلفت عن أى حرب سابقة فقد حولت صناعات كاملة مدنية إلى مصانع لعمل الذخائر ولوازم الإمدادات والتموين ، وأن مصانع « كريزلر » للسيارات التى كانت تصنع عربات « بلايموث » و « دى سوتو » و « دودج » و « كريزلر » وتنفق الملايين على

الإعلانات سنويا ، أصبحت فى وقت الحرب تقوم بعمل الدبابات التى لا تحتاج إلى إعلانات لأن سوقها — وهو الجيش — فى غير حاجة إلى ما يلفت نظره إليها ، والمصانع التى كانت تنتج عربات « بونتياك » أصبحت تنتج المدافع ، وهكذا تحولت صناعة السيارات إلى إنتاج للمجهود الحربى .

وتوقفت مصانع المطاط عن عمل الإطارات للمدنيين ، فأصبح الشخص فى حاجة إلى الحصول على ترخيص من الحكومة ليشترى إطاراً من المطاط ، ولم يكن يعطى هذا الترخيص إلا للمدنيين الذين يؤدون خدمات لازمة للمجهود الحربى ، والدولة فى حاجة إلى تسيير عرباتهم لهذه الغاية ، أما من عداهم فعليهم إما أن يسيروا على الأقدام أو أن يحصلوا على عربات قديمة مستصلحة إذا تمكنوا من إقناع ذوى الأمر المحليين بحاجتهم الفعلية إليها ، أما الأشخاص العاديون فلا يمكنهم الحصول على الإطارات المطاط بتاتاً .

وهكذا أصبحت مصانع « فايرستون » و « جوديير » ومطاط الولايات المتحدة فى غير حاجة إلى الصفحات الكاملة التى كانوا ينشرون فيها إعلاناتهم بالجرائد كى يعلنوا للجمهور أنهم لا يستطيعون أن يبيعوا لهم الإطارات .

وهكذا أخذت المصانع المدنية تتحوّل الواحد فى أثر الآخر إلى الصناعات الحربية ، وكثير من الشركات التى سمح لها بالاستمرار فى الصناعات المدنية فرضت عليها قيود شديدة للحد من إنتاجها كنتيجة لظروف الحرب القاسية مما جعل البضاعة المعروضة للبيع للجمهور تقل لدرجة أنه لم تعد هناك حاجة للإعلان عنها ، وقد بلغت قيود الحرب التى أعلنتها الحكومة حدًّا كبيراً لدرجة أنها منعت بيع البنطلونات ذات الثنيات السفلى ، فإن بضع السنتيمترات من القماش التى تحتاجها هذه الثنية أصبحت أكثر قيمة من أن تستعمل كمجرد حلية للبنطلون ، ومع ذلك لم تكن الأسعار المرتفعة والدخل المنخفض إلا ضربة واحدة من الضربات التى أصابت الجرائد .

أما الضربة الثانية فكانت على صورة ضغط على المخبرين الصحفيين ، ففى الشهور التى سبقت إعلان الولايات المتحدة للحرب تمسك المحررون بشدة بتلك الحكمة القديمة ألا وهى حكمة « الموضوعية » (Subjective) والحياد وقد حصلت الـ A.P. وU.P. من أوروبا على قصة إحدى المعارك الحربية وهى قصة حكومة قد مزقت جيش أعدائها تمزيقاً ، وقد تكون تلك القصة صحيحة ١٠٠٪ أو تكون أكثر قليلا من مجرد أمنية ،

وقد وضع المحررون تلك القصة تحت عنوان « قال شخص ما » بدلا من أن تكتب على أنها حدثت فعلا ، وهكذا أصبحت العناوين الكبرى تشمل ألفاظ « برلين تدّعى » أو « موسكو تقول » بدلا من أن تذكر قصص المعارك على أنها حقائق لا شك فيها .

ولكن بمجرد دخول الولايات المتحدة الحرب انقشعت « الموضوعية » فقد كان مما يناقض الوطنية أن تخفف حكاية غرق سفينة يابانية إذا كتبت بعنوان « واشنطن تقول » ، وكذلك ألغيت العبارات التى تورّط الرجال الرسميون فى حكومات الحلفاء واعتبر المحررون تعليقات موسكو أو لندن أو هونج كونج صحيحة وصادقة دائماً ، ولم يعد أحد يدرى إلى أى مدى يمكن أن تذهب الجرائد فى تعضيدها لأعمال حكوماتها الحربية ، وأخذ بعض المحررين يتساءلون عما إذا كان يجب عليهم أن ينشروا قصة تدل على قسوة النازيين ، رغم أنها قد تكون حقيقية وقد لا تكون ، وذلك كى يساعدوا على إقناع الخبراء الأمريكيين بخطر أعدائهم ، وذهب بعض المحررين إلى أنه يجب على رئيس التحرير أن يقول بصراحة إن القصة وردت من مصادر لا تميل إلى النازيين ، ومن المرجح أنه بولغ فيها قليلا ، ومن

ثم ينشرها فى مكاد داخلى غير ظاهر ، وربما تمضى سنوات طوال والصحفيون لا يزالوان يتجادلون حول المدى الذى تذهب إليه الصحف فى قبول ادعاءات حكوماتها أثناء الحرب بغير مناقشة ، وقد أثر هذا الموقف على المخبرين الصحفيين تأثيراً مباشراً فكان « توم » محرر « التلجراف » يلقى جانباً بألفاظ « يقال » أو « جاءنا » التى تبعث على التشكك فى مصدرها مفترضاً أن هذا التشكيك لا داعى له وقت الحرب ، فأخذ المحررون يكتبون حكاياتهم الحربية دون أن ينسبوها إلى أى من الرجال الرسميين ، لا سيما المواضيع التى كانت فى غير صالح الحلفاء ، فبدلا من أن يقولوا مثلا « قال جونسون المستشار الصحفى : إن الرئيس التزم مكتبه أربعة أيام فقط من العشرين يوم عمل الأخيرة » فيتجاوزون عن عبارة « قال جونسون » ويترك هذا الخبر كما لو كان أمراً واقعياً أكثر منه ادعاء ، ولم يستطع بعض المخبرين الصحفيين أن يفرقوا بين بلاغات واشنطن الرسمية عما فعلة الجيش الأمريكى فيما وراء البحار والأحاديث التى يأخذونها من الساسة المحليين ، وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك حرب داخلية بين المحررين ورؤساء التحرير ، فبينما كان هؤلاء الأخيرين يميلون إلى إفساح المجال لأخبار رجال حكومات

الحلفاء ونشر بياناتهم كوقائع ، إذا بالأولين يتمسكون « بالموضوعية والحياد » فيما يتعلق بالمسائل الخارجة عن نطاق الحرب .

وقد كان لقصص الفظاعة والوحشية التى يرتكبها جنود الأعداء أثر كبير فى دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى .

ولقد دلت الأبحاث التى تمت على الموضوعات التى نشرتها الصحف على أن قصص الفظاعة الفعلية كانت قليلة أو نادرة ، ولكن الأخبار التى نشرت الجرائد جانبها الفظيع كانت كثيرة جداً ، فنجد مثلا أن أحد المحررين قد حصل على خطابات أحد الجنود الأمريكيين التى كان يرسلها لوالدته ، فقام بنشرها فى جريدته وقدمها للقراء على أنها حقيقة ما يحدث فى الميدان وليس على أنها مجرد وجهة نظر شخصية لأحد الجنود قد تكون صادقة أو مبالغا فيها .

ونشر محرر آخر فقرة من خطاب أحد الجنود جاء فيها :

« وقامت الجيوش الألمانية بصلب أسرى الحرب على الأشجار ومزقت أجسامهم بالسونكيات . . . » وغير هذا من الأعمال الوحشية التى لا يمكن للقارئ العادى تصديقها لو لم

يورد المحرر فى نهاية الخبر اسم الجندى وعنوانه . وأن طريقة عرض الخبر بهذه الصورة فى أيام الحرب العصيبة ليدعو القارئ إلى تصديقه والسخط على وحشية المحور ، ولكن ذلك الخبر لم يكن يمثل الحقيقة تمثيلا صادقاً ، إذ أن ما جاء فى الخطاب فعلا كان :

« لقد سمعنا أن الألمان يصلبون أسرى الحرب ، ومع أنى لم أر شيئاً من هذا بنفسى ، إلا أننى سمعت أن فرقة أخرى وجدت جندياً مصلوباً فى أحد المناطق الحربية التى كنا فقدناها منذ بضعة أيام . . . »

وواضح جداً أن ماجاء فى الخطاب مختلف كل الاختلاف فى مدلوله عما جاء فى الخبر الذى نشر ولم يكن ذلك على سبيل التضليل ، ولكنه مجرّد مبالغة من بعض المحررين لجأوا إليها أثناء الحرب لضمان تأثير أخبارهم على القراء .

كانت الجاسوسية والطابور الخامس من أهم أسلحة المحور فى الحرب الماضية ، لذلك كان على الجرائد أن تكون شديدة الاحتراس فى معالجة كل ما يتعلق بالجاسوسية ، فقد كانت أقل شبهة تلصق بأحد الأفراد تثير له متاعب لا حدّ لها ، رغم أن رجال الأمن الأمريكيين كانوا على جانب كبير من

الحرص والمهارة والدقة ، إلا أن نشر أخبار غير صحيحة أو مغرضة عن أى شخص يمت اسم عائلته إلى جنسية أصبحت بغيضة بسبب الحرب يكفى كى يكون سبباً فى متاعب كبيرة له .

وكان من نتائج الكتابة اليومية عن أنباء الحرب أن اتجه المحررون إلى استعمال الألفاظ الحربية بإفراط فى الرسائل الواردة من أوربا وآسيا ، بل إن هذه الألفاظ قد اقتبست من حكايات لا علاقة لها بالحرب مما يؤدى إلى أخطاء فى فهمها ، وكانت على الأقل تدل على ذوق غير سليم ، فمثلا كتب أحد المحررين :

« لقد قامت كنيسة الجنوب التذكارية فى الليلة الماضية بهجوم شامل ، عندما اجتمع أعضاؤها لاقتناص ٨٥٠٠ دولاراً كى يطفئوا بها ديون الكنيسة » .

واستعمل المحررون لفظ « نسفت » فى وصف المحال التجارية التى أفلست ، وأطلقوا على الساسة الذين يحملون على منافسيهم بشدة لفظ « أغاروا » وسموا كل جماعة من ثلاثة أو أكثر أنهم « تجمع » .

ولقد فهم بعض المحررين أن الحرب يجب أن تطغى أنباؤها على كل ما عداها لدرجة أنهم لم يعودوا يقيمون أى وزن لشئون الحياة العادية ، ولم يكن ذلك التصرف منهم حكيماً ، فإن الحياة

المدنية ستظل دائماً كبيرة الأهمية ، فهى الحلقة التى تصل بين السلم الحرب ، بل على الصحافة أن تقوم بواجبها فى تمهيد السبيل للجنود أن يعودوا إلى حياتهم المدنية العادية دون أن يشعروا بفارق كبير بين حياة الحرب وحياتهم اليومية ، ولذلك أصدر أحد رؤساء التحرير أمراً للمحررين بأن يعتنوا بالأخبار المحلية التى كانت أيام السلم تنشر تحت عناوين صغيرة فى الصفحات الداخلية وذلك بأن يضعوها فى الصفحات الأولى تحت « مانشيتات » عناوين كبيرة .

وإنى إذ أختتم هذا الكتاب عن هذا العمل الصحفى العسكرى ، لا يفوتنى أن أنوه بفضل الحركة الفكرية فى الجيش التى كان لها الفضل الأكبر رغم حداثتها فى ظهور ألوان شتى من التراث الحربى ، هذه الحركة التى واجهت كثيراً من صعاب الظروف والأفراد .

إن وثبة الجيش الكبرى التى أثرت فى نظم الحكم وفى مجرى المعيشة إن هى إلا نتيجة للمدى الذى بلغه المستوى الفكرى بين رجال الجيش وتبادل المعرفة على أوسع نطاق وتلاقى المشاعر والآراء .

لم يكن الكتاب العسكريون إلا قلة بين رجال الحرب ، ومن هنا لا بد من أن يتكرر اسم الواحد منهم فى أكثر من كتاب وأكثر من بحث ، وإن كان هذا لا يحول دون الاعتراف

بأن هذه الفئة القليلة من الأقلام التى تفاوتت مقدرتها وتنوّعت أساليبها وبلغت بينها روح المنافسة مبلغاً مثيراً قد حملت العبء على جسامته وسط مدّ التقدّم وجزر الرجعية ، ورفعت لواء نشر المعرفة بين الصفوف رغم ما أحاط أصحابها من الظروف المحدودة والإمكانيات المتواضعة .

إن فضل هؤلاء يحمد لهم ويتضاعف كلما ذكرنا أنهم بذلوا من أنفسهم وأموالهم ، بل من حياتهم وقوّتهم ، قدراً كبيراً فى دفع جمهورهم إلى القراءة والحضّ على الثقافة ، وقد ظلت بضع أسماء تكاد لاتتغير تتولى حركة النشر الحربى حتى ظنّ البعض – بحق أو بغير حق – أنه لون من الاحتكار ، وظل لفيف معين من القرّاء وليس كافة القراء يتابع هذه الحركة ويفيد من تلك الجهود نزولا على خطوات عمله أو خطوات حياته .

وما لبثت سمة أخرى أن تلاشت وهى الامتياز الذى أفضى إليه التفرّغ الطويل والموهبة الكامنة مما كان يرفع بعض المفكرين العسكريين إلى درجة « الأساتذة » ويهبط بالقراء إلى مصاف « الطلبة » وانفتح الباب على مصراعيه .

ومع ذلك لا تزال المكتبة العسكرية فى حاجة ماسة إلى

ملء فراغها الشاغر بصورة كاملة من صور الإنتاج المنظم فى جميع أنواع الكتابة العسكرية ، وأودّ قبل أن أنتهى من هذه الخاتمة أن أتمهل قليلا لأفكر فيما إذا كان من الممكن أن ينجح الكتاب العسكريون الأفذاذ كالقادة فى ميادين القتال ، فى الواقع أن الناس يحتفظون فى تقديرهم للكتّاب العسكريين الأفذاذ الذين ينشأون فى صفوف القوات العاملة ثم ينصرفون إلى التأليف والتحرير ، وهم لهذا وإن كانوا لا يشكون فى قدرتهم العلمية يشكون فى قدرتهم العملية . ولكنى أقول إن كثيراً من أساطين الكتاب العسكريين الذين نشأوا بين صفوف القوات المسلحة فترة طويلة إذا امتازوا بسرعة الخاطر وصائب التقدير والنشاط والشعور بالواقع واللياقة البدنية ، يمكنهم الانتقال بأفكارهم العسكرية إلى مرحلة التنفيذ العملى بنجاح يعادل نجاحهم فى صياغتها .

وإنى حينما أنتهى من هذا الكتاب أشعر بمتعة نفسية لا تعادلها متعة وأتمنى أن تخرج الثورة – التى عشت فيها أسعد لحظات حياتى – مشروع المراسلين الحربيين إلى حيز الوجود وأن يكون رأس الحربة فى الثورة الفكرية التى تعتمد على الرأس والقلب والقلم .

فهرست

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨

مكتبة الثقافة الشعبية

مجموعة جديدة تقدمها دار المعارف إلى العالم العربى
لا يستغنى عنها القراء على مختلف درجات ثقافتهم

ظهر منها :

١ — لمحات من تاريخ العالم بقلم جواهر لال نهرو
ترجمة الدكتور عبد العزيز عتيق

٢ — العمال والأجور بقلم جورج صول
ترجمة الأستاذ ماهر نسيم

٣ — الصين المتحررة بقلم نخبة من كتابها
ترجمة الأستاذ أحمد مصطفى

٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط ثمن الكتاب ١٥ قرشاً

دار المعارف بمصر

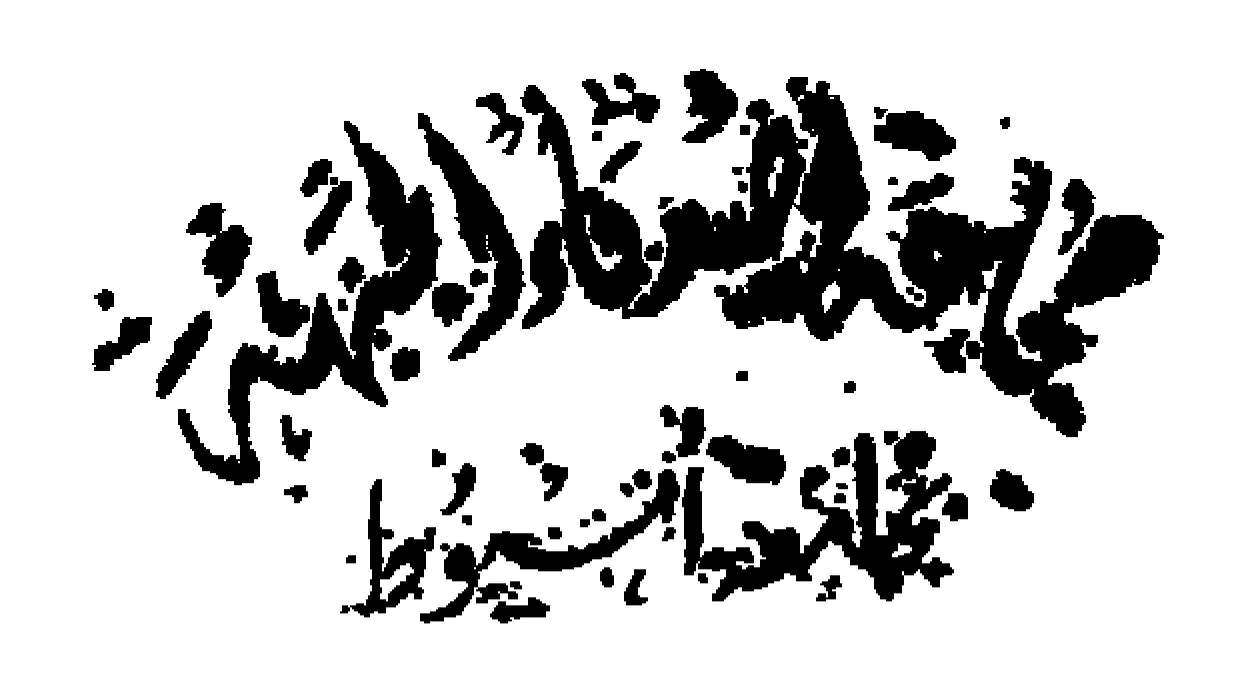
ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة

اقرأ

الدكتور محمد جمال الدين الفندي

الغبار الذري

دار المعارف بمصر



الغبار الذرّي

الدكتور محمد جمال الدين الفندى

الغبار الذرّى

اقرأ ١٨٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٨٥ – مايو سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

إهداء

إلى كل مؤمن بالسلام ، كافر بالحرب

جمال الفندى

تمهيد

من أهم ما لفت نظر الناس وشغل بالهم فى هذه السنين تلك الظواهر الحيوية والتقلبات الجوية غير العادية التى نشاهدها أو نسمع عنها ، وما تقلبات الجو وغوائله عامة بجديدة على بنى البشر ، ومنذ فجر المدنية والإنسان يحاول إرجاع ما يصادفه منها إلى المخترعات ! فلم يتردد بعض الناس عندما ظهر اللاسلكى وانتشرت أمواجه فى الجو من الادعاء بأن تلك الأمواج « الجهنمية» كانت هى السبب فيما أعقب انتشارهامن فيضانات الهند التى قتلت الملايين وتركت نحو ٤٥ مليوناً بدون ملجأ ! وقد عزاها البعض ظلماً وبهتاناً إلى الطائرات وتحليقها فى الفضاء ! . . . وهانحن أولاء اليوم نلمس طائفة من التغيرات فى طبيعة الجو ، ممثلة فى ثورة الطبيعة فى كل مكان ، وها نحن أولاء نرجع ذلك مرة أخرى إلى المخترعات ممثلة فى التجارب الذرية ... فما نصيب ذلك من الصحة ؟ . . . الإجابة عن هذا السؤال من أسس كتابى هذا ، أقدمها فى أبسط صورة علمية ممكنة كثقافة عامة .

ولا يقتصر الكتاب على ذلك ، بل هو فى الواقع فى مرتبة التقرير العلمى المفصل عن نتائج تجارب الأسلحة الذرية التى تجرى فى هذا العصر ، ولا يقف البحث عند حدود الوصف الخاص أو العام ، بل فيه كثير من الحقائق والأرقام ، مما لم ينشر على العالم العربى بعد .

ولقد فصلت تأثير الغبار الذرى فى كافة مراحل ترسبه ، ثم بينت أهوال الانفجار على أبعاد مختلفة تنويراً للأذهان ليعرف الناس حقيقة ذلك الشر المستطير ، كما جلى الكتاب بكثير من الصور والرسوم لزيادة الإيضاح عند اللزوم .

ولما كان ترسب الغبار الذرى هو أعظم نتائج هذه التجارب خطراً وأبعدها أثراً ، فقد انصب البحث فى أغلب نواحيه على « المطر الذرى » وتأثيره على الأحياء ثم على جو الأرض الذى قدمت له بمقدمة طويلة .

ونصيحتى للقارئ أن يعاود تلاوة ما يفوته تتبعه من آن لآخر كلما سار قدماً فى مطالعته ، فإنه بذلك تتفتح له المعانى ويسهل التتبع ، وهكذا يستطيع دائماً أن يترك إلى حين أى جزء يستعصى عليه .

يوليو ١٩٥٧ — المؤلف

جمال الفندى

مقدمة

عندما بدأت بحث هذا الموضوع وأخذت أجمع المعلومات اللازمة وأرتب البيانات المطلوبة كنت أسمع من آن لآخر من يقول : يا للعجب . . . ؟ حتى الجو تأثر بالذرة ؟ ! . . . يا له من حديث خرافة !

وكنت أعرف أن محاولات سبقت لبعض الباحثين فى هذا الصدد ، فى إنجلترا على وجه التحديد ، وقد احتفظوا بالنتائج التى وصلوا إليها كسر من أسرارهم ، ولكنى كنت ألمس أهمية الموضوع من نواح عديدة وأنه يثير اهتمام الجمهور ، وأن الحكم النهائى فيه يتطلب المزيد من الأرصاد والدراسة خلال فترات طويلة من الزمن . وكنت ألمس أيضاً أن معلوماتنا عن نتائج التجارب الذرية محدودة وغامضة .

وليس من شك أن أغلب ما على الأرض من كائنات قد تأثر فعلا بدرجات متفاوتة بالتجارب الذرية وانتشار الغبار الذرى ، فما بال الأجواء ومسالك الهواء لا تتأثر بدورها ، والتجارب الذرية كلها أو جلها لا تجرى إلا فى الجو ، والغبار الذرى لا يتناثر إلا فيه ! ؟ إن التأثير المقصود والذى نعنيه هو

فى أجلى معانيه حدوث بعض الظواهر غير المألوفة أو غير العادية ، ولا يلزم أن تكون هذه الظواهر نتيجة مباشرة لإجراء التجارب الذرية ، بل قد تكون من نتائجها غير المباشرة ، فكم من مرة نجد النتائج غير المباشرة لظاهرة من الظواهر من الأهمية لدرجة أنها تفوق بكثير حدود تأثيراتها المباشرة . . .
وما لنا نذهب بعيداً وهاهى ذى الطبيعة تسوق لنا مثلا رائعاً حين تجعل التأثيرات المباشرة لأضواء الشمس وحرارتها فى جو الأرض لا قيمة لها إذا قورنت بتأثيراتها غير المباشرة ، فإن من المعروف أن الإشعاع الشمسى يكاد يخترق جو الأرض دون أن يخلف وراءه من الطاقة ما يكفى لتولد أقل العواصف عنفاً أو أصغرها أثراً فى الجو ، أى دون أن تمتص مكونات الهواء منه سوى النزر اليسير . ويصل أغلب إشعاع الشمس إلى سطح الأرض ، اليابس منه والماء ، حيث يتم امتصاص كميات وفيرة منه وحيث تبدأ قصة جديدة فى سبيل تسخين جو الأرض وإمداده بالطاقات أو القوى اللازمة لتولد كافة ظواهر الجو ودفع تيارات الهواء فى مسالكها . ومعنى ذلك أن المصدر الفعلى للطاقة فى جو الأرض هو سطحها وليست هى الشمس مما يفسر لنا كيف تنخفض الحرارة عموماً كلما ارتفعنا فى الجو واقتربنا نسبياً من الشمس !

مصادر الطاقة فى جو الارض

ليس من مصدر طبيعى للطاقة فى جو الأرض سوى الإشعاع الشمسى غير المباشر . وتحتوى أشعة الشمس المباشرة قبل دخولها جو الأرض وتأثرها به على نسب متباينة من الطاقات الأثيرية ذات الموجات المختلفة الطول والصفات ، إلا أنه يمكن حصر السواد الأعظم منها فى حزمة أو طائفة من الأشعة تحدها موجتان طول الأولى منهما نحو ٠,١٧ ميكرون* ، أى فى الأشعة فوق البنفسجية ، وطول الثانية نحو ٤ ميكرون ، أى فى الأشعة الحرارية المعروفة علميا باسم تحت الحمراء . وتقدر نسب الطاقة فى إشعاع الشمس هذا ، أى مقدار ما يفد منها لكل ١٠٠ وحدة ، على النحو الآتى :

١ — حوالى ٩ ٪ أشعة فوق البنفسجية ، وهى حزمة تنحصر أطوال أمواجها بين ٠,١٧ ميكرون ونحو ٠,٣٣ ميكرون . وهذه هى أقصر الأمواج التى ترسلها الشمس ، وهى لا تميزها الأعين ، كما يتعذر عليها الوصول إلى سطح

* الميكرون وحدة لقياس الأطوال الصغيرة ويساوى جزءاً من عشرة آلاف جزء من السنتيمتر الطولى الواحد .

الأرض إلا إذا كان الجو نقيا صافياً خالياً من الأتربة . ولهذه الأشعة أثر فعال فى حفظ الصحة ومداواة الكثير من المرضى بالسل والكساح ، ولذا ينصحون بعمل حمامات الشمس بعيداً عن المدن فى مصحات الجبال العالية أو على سواحل البحار حيث الجو النقى . وهذه الأشعة هى التى تكسب الجسم اللون البرنزى الجميل المعروف والمألوف بعد أخذ حمامات الشمس .

٢ ــ حوالى ٣٨ ٪ أشعة مرئية (ضوء) ، وهى تكون حزمة من الإشعاعات تنحصر أطوال أمواجها بين ٣٤ , ٠ ميكرون ونحو ٠,٨ ميكرون ، وهى مصدر النور فى سماء الأرض ، ويمكن أن تمتصها الأجسام المادية المعتمة حيث تتحول إلى طاقة حرارية .

٣ ــ حوالى ٥٣ ٪ أشعة حرارية (تحت الحمراء) ، وهى التى نشعر بوطأتها المباشرة عندما نتعرض لأشعة الشمس لأنها ترفع من درجة حرارة الأجسام .

وتبلغ قيمة الإشعاع الشمسى على كل سنتيمتر مربع خارج جو الأرض فى المتوسط نحو سعرين حراريين فى الدقيقة الواحدة . والسعر الحرارى هو كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة جرام واحد من الماء درجة واحدة سنتيجراد ، وعلى

ذلك فإن جراماً واحداً من الماء يغطى مساحة قدرها سنتيمتراً مربعاً خارج جو الأرض ترتفع درجة حرارته بمعدل درجتين سنتيجراد فى الدقيقة تحت تأثير الإشعاع الشمسى . ويطلق العلماء على هذا القدر من الطاقة اسم « الثابت الشمسى » ، ذلك لأن التغير فى قيمته غير دائم خلال فترات طويلة .

ويتناقص الإشعاع الشمسى بعض الشىء بدخوله جو الأرض لأسباب عديدة أهمها الامتصاص ، أى حجز بعض الأشعة واستهلاكها فى الجو حيث تتحول إلى طاقة حرارية ، وتختلف قدرة الغازات المكونة للهواء الجوى على الامتصاص ، إلا أن أهم الغازات التى تقوم بهذه العملية هى الأكسجين والأوزون ثم بخار الماء .

ويمتص الأكسجين من الإشعاع الشمسى المباشر عند اختراقه طبقات الجو العليا كثيراً من الطاقة فوق البنفسجية فى حزمة امتصاص تمتد من ١٧ , ٠ ميكرون إلى ٢ , ٠ ميكرون ، وتعرف حزمة الامتصاص هذه باسم « حزمة امتصاص شومان ». وتتحول الطاقة فوق البنفسجية بعد امتصاصها إلى طاقة حرارية هى من ألزم ما يكون لثبوت درجات الحرارة فى الجو العلوى وخاصة على أبعاد أكبر من ١٠٠ كيلومتر ، إذ تعوض ما تفقده تلك الطبقات من حرارة عن طريق التبريد بالإشعاع

إلى الفضاء .

أما الأوزون فهو يمتص بغزارة كثيراً من الأشعة فوق البنفسجية فى حزمة امتصاص أو مجموعة أمواج تعرف علميا باسم « حزمة هارتلى » وتحدها موجتان طول الأولى ٠,٢ ميكرون وطول الثانية نحو ٠,٣٢ ميكرون . ويشتد امتصاص غاز الأوزون الذى فى الجو عند الموجة التى طولها ٠,٢٥ ميكرون . ولامتصاص الأوزون فى حزمة هارتلى هذه علاقة وثيقة باختفاء الإشعاع الشمسى قرب الموجة ٠,٢٩ ميكرون . ولما كان الأوزون يتواجد بكثرة على ارتفاعات تمتد من ١٥ إلى ٤٠ كيلومتراً فإن هذا الامتصاص يسبب تسخين الجو فى تلك الطبقات المرتفعة ويعوضها النقص فى الحرارة بسبب الإشعاع إلى الفضاء أيضاً .

وفى المتوسط يمتص غاز الأكسجين وغاز الأوزون فى أعالى الجو نحو ١٪ و ٢٪ من طاقة الإشعاع الشمسى يوميا ، وهى تكفى لحفظ الحالة الحرارية لتلك الطبقات المرتفعة على ما هى عليه وتعوضها النقص الذى ينتج بفقد حرارتها للفضاء كما سبق .

أما فى طبقات الجو القريبة من سطح الأرض حيث يقل ورود الطاقة فوق البنفسجية نسبيا لامتصاص أغلبها فى

الطبقات العليا فلا يلعب غاز الأكسجين ولا غاز الأوزون أى دور فى عمليات الامتصاص ، والذى يقوم بهذا الدور هو بخار الماء الذى يكثر تواجده فى طبقات الجو السفلى القريبة أو الملامسة لمصادر المياه على الأرض . ولبخار الماء سلسلة من حزم الامتصاص فى كل من الطيف المرئى والطيف الحرارى . وتتوقف مقادير الطاقة الممتصة على كمية بخار الماء العالق فى الهواء ، وهى تتغير بتغير الزمان والمكان ، ويشتد الامتصاص كلما كثرت كميات بخار الماء والعكس بالعكس ، وقد قدر أنه فى المتوسط يمتص بخار الماء العالق فى الجو السفلى نحواً من ٦ ٪ إلى ٨ ٪ من الإشعاع الشمسى المباشر . . وعلى ذلك إذا حسبنا مقدار الامتصاص الذى تحدثه غازات الجو نجد أنه لا يتعدى فى مجموعه نحو ٨ ٪ إلى ١٠ ٪ من الإشعاع الشمسى .

وعندما ندخل أيضاً حساب الامتصاص الذى تحدثه المواد الغريبة أو الشوائب التى تعلق فى الجو من آن لآخر مثل الأتربة التى تذروها الرياح والغبار الذى تثيره البراكين والعواصف ، معتمدين على القياسات الدقيقة لهذه العوامل فى هذا العصر ، وجدنا أنها بعد أخذ متوسطاتها على الأرض لا تمتص أكثر من ٢ ٪ من طاقة الإشعاع الشمسى ، ومعنى

ذلك أن مجموع ما يفقد بكافة مكونات الجو فى جميع طبقاته لا يتعدى فى المتوسط ١٠ ٪ إلى ١٢ ٪ من الإشعاع المباشر ، أى أنه بصرف النظر عما تعكسه أجسام السحب التى تسبح فى جو الأرض أو ما ترده إلى الفضاء ، فإن الإشعاع الشمسى يكاد بأكمله يخترق جو الأرض دون أن يفقد بعامل الامتصاص أكثر من ١٢ ٪ من قيمته الأصلية ، والتأثير أو التسخين المباشر للإشعاع الشمسى بمفرده إذن لا يلعب دوراً يذكر فى النشاط الجوى ، ولا يتعدى أثره حفظ التوازن الحرارى فى الطبقات العليا .

وتعكس السحب المنعقدة فى الجو وترد إلى الفضاء الكونى الفسيح جزءاً كبيراً من إشعاعات الشمس . وقد وجد — بأخذ متوسطات كميات السحب فى كافة أرجاء الأرض على اختلاف ارتفاعاتها وتباين أنواعها طول العام — أن السحاب يغطى فى المتوسط نحو ٥٤ ٪ من السماء ، وهو بذلك يرد بواسطة الانعكاس إلى الفضاء نحو ٢٤ ٪ من الإشعاع الشمسى .

بقى أن نعرف ما يحدث لطاقة الشمس التى تصل إلى سطح الأرض بعد أن تتناقص قيمتها الأصلية فى الجو بجميع العوامل التى ذكرناها . ومن الطبيعى أن يعكس أو يرد بعض الإشعاع عند سطح الأرض بينما يمتص الباقى ويستخدم أو يستنفد فى

تسخين سطح الأرض ورفع ردجة حرارته وفى عمليات البخر أو تحويل الماء إلى بخار* من الأسطح المائية . وطبيعى أن تختلف قوة سطح الأرض فى رد ما يفد إليها من إشعاع بواسطة الانعكاس تبعاً لاختلاف طبيعة هذا السطح ، ولكن قدر أن متوسط ما يرده سطح الأرض بأجمعه من الإشعاع الساقط عليه لا يتعدى ٣ ٪ ، أما الجزء الباقى فيمتص بأسره .

ويستنفد اليابس ما يمتصه من الأشعة أو يستفيد منها ويمتصها خلال قشرة رفيعة بسبب عدم شفافيته ، ولهذا ترتفع درجة حرارة سطح اليابس سريعاً أثناء النهار ، كما ترتفع درجة الحرارة داخل القارات خلال الصيف بمقدار كبير . أما فى حالات الأسطح المائية فإن الإشعاع الشمسى يمكنه ، نظراً لشفافية الماء ، أن ينفذ خلال طبقات سميكة نسبيا من المياه قبل أن يتم امتصاصه ، هذا إلى جانب ما يستنفد من الطاقة فى التبخير ، ولذلك لا ترتفع درجة الحرارة على البحار والمحيطات أثناء الصيف بنفس القدر الذى يرصد داخل القارات المتاخمة أو التى على نفس خط العرض ، ويكون للأهوية المقبلة من البحار طابع الاعتدال .

---

* يلزم لتبخير جرام واحد من ماء البحر فى المتوسط نحو ٦٠٠ سعر من الحرارة .

وعندما ترتفع درجة حرارة سطح الأرض (اليابس أو الماء) بامتصاص الإشعاع الشمسى كما ذكرنا تبدأ قصة جديدة فى تسخين الهواء الجوى ومده بالطاقة الحرارية اللازمة لتوليد النشاط فيه ، وتتضمن هذه القصة الطرق غير المباشرة للاستفادة من الإشعاع الشمسى ، مثل التوصيل الحرارى ، والحركة غير الانسيابية ، وتيارات الحمل ، ثم عمليات التكاثف .

والتوصيل الحرارى ظاهرة طبيعية تشاهد عندما يلامس جسم مادى ساخن جسما آخر أبرد منه ، فإن الحرارة تسرى من الجسم الساخن إلى الجسم البارد تماماً كما تنساب المياه من الأماكن العالية إلى الأماكن المنخفضة . ويعمل التوصيل الحرارى على تسخين الهواء الملامس أو الملاصق لسطح الأرض مباشرة ، ويقتصر تأثيره على طبقة رقيقة جدا ، كما أنه فى العادة لا يكون بدرجة واحدة على مساحات واسعة ، وذلك نظراً لاختلاف طبيعة أجزاء سطح الأرض وعدم التجانس فيها . فالهواء الذى على الصخور والرمال مثلا ترتفع حرارته أثناء النهار بدرجة أكبر بكثير من الهواء الذى على المزارع أو الترع والقنوات أو البحيرات .

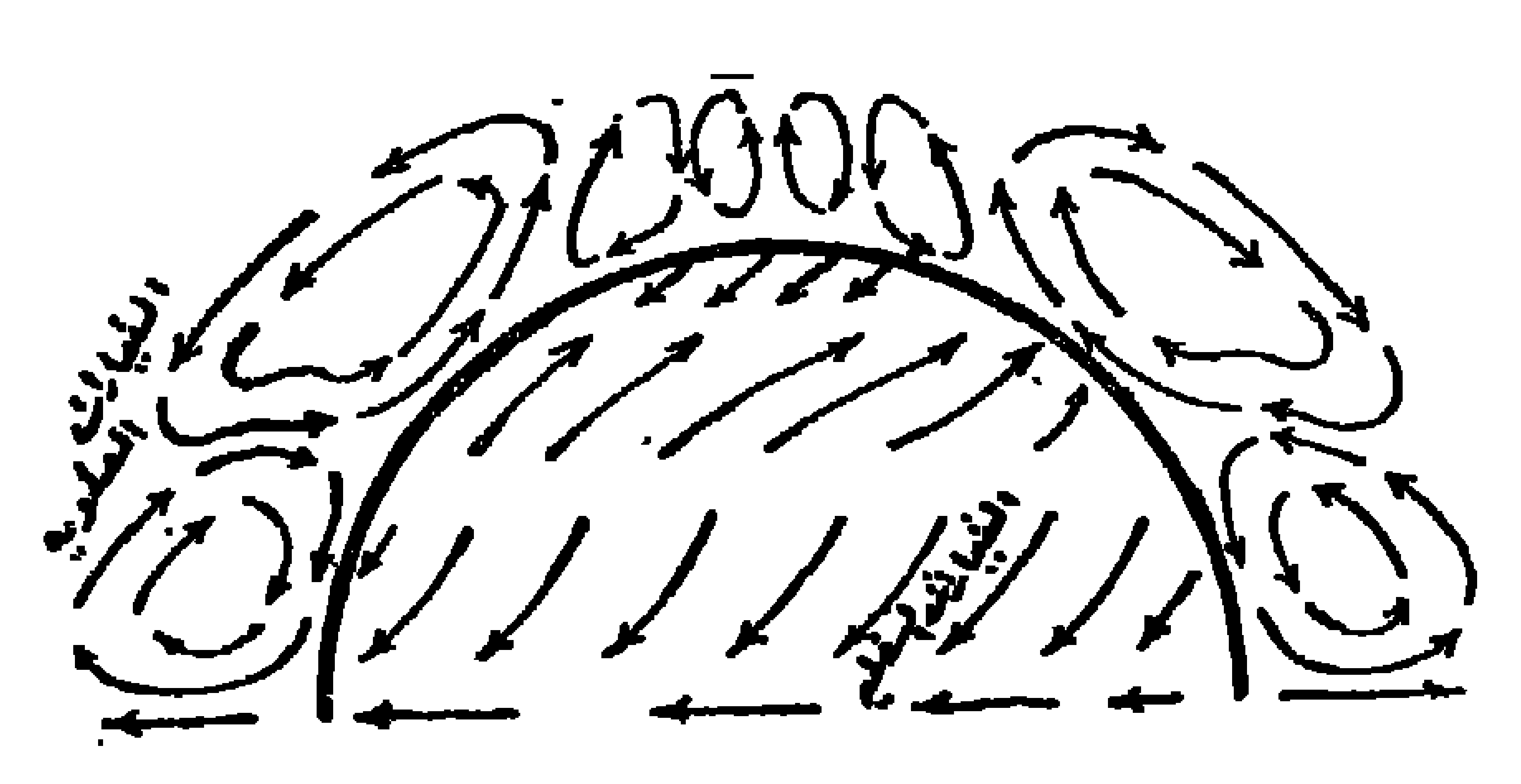
أما حركة الهواء غير الانسيابية فسببها المألوف أن التيارات التى تهب على مساحة واسعة بسرعة غير خفيفة لا تظل أجزاؤها

حافظة مستواها ، أى أن هذه الأهوية لا تنساب فى مستويات أفقية ، بل تصعد أجزاء منها وتهبط أخرى فى نفس الوقت محدثة حركة مزجية وخاصة فى الأجزاء التى تعترضها العقبات السطحية ، أو التى لا تستقر بسبب التغيرات السريعة فى حركة أو سرعة الهواء فى الطبقات السطحية ، أو بسبب إضافة أبخرة المياه ، وبخار الماء أقل كثافة أو أقل وزناً من الهواء ، وكذلك الهواء الرطب أخف من الهواء الجاف وهو يصعد فى الجو لخفته . وهكذا نجد أن هناك حركة رأسية إلى جانب الحركة الأفقية للهواء تعمل دائبة على نقل الحرارة والرطوبة والأتربة ونحوها إلى ارتفاعات كبيرة نسبيا فوق السطح قد تصل إلى أكثر من ٣ كيلومترات ، وتعرف هذه الحركة المزجية باسم الحركة غير الانسيابيةنظراً لكونها لا تتخذ شكل تيار معين .

هكذا تتمخض الحركة غير الانسيابية فى الجو عن نزح حرارة سطح الأرض والحرارة التى تكتسبها طبقات الهواء الملامس له بالتوصيل الحرارى ونزح أبخرة المياه التى فيه إلى أعلى . ويساعد على تنشيط هذه الظاهرة ازدياد سرعة الهواء ، واختلاف طبيعة أجزاء سطح الأرض ، ووجود الدوامات والمرتفعات ومنها أمواج البحر . أما إذا صعد الهواء على هيئة تيار مستمر

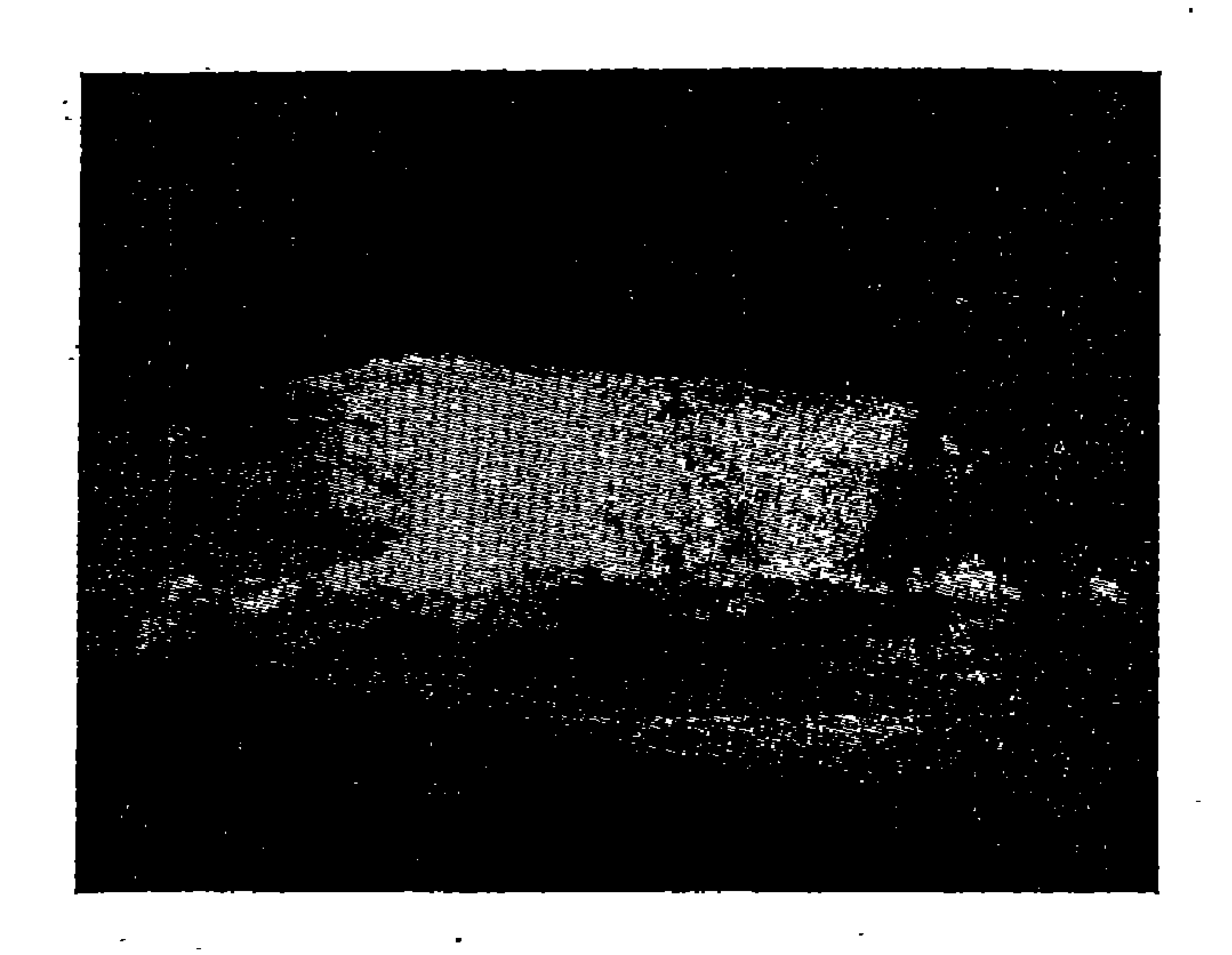
فإنه يطلق عليه اسم « تيار الحمل » لأنه يحمل الأهوية التى تحتوى على مزيد من الحرارة والأبخرة إلى طبقات عالية .

وعندما يصعد الهواء الرطب إلى أعلى يبرد وتتكاثف أبخرة المياه التى فيه بالبرودة ، وتتحول إلى نقط من الماء أو بلورات من الثلج تكون السحب والأمطار ، بينما تنطلق الحرارة الكامنة للبخر فى تلك المناطق العالية التى تتكون فيها السحب فتزيد من طاقتها اللازمة لإحداث النشاط الجوى ، ويمكن أن تنتقل هذه الطاقة بعد ذلك إلى كثير من بقاع الأرض بواسطة تيارات الهواء أو دورة الرياح الممثلة فى شكل (١) . وأعم أسباب تيارات الحمل صعود الهواء الساخن الرطب فوق أهوية أبرد أو على قمم الجبال ، وعندما تتوفر أبخرة المياه وتنطلق الحرارة الكامنة



(شكل ١) دورة الرياح العامة

للبخر منها يستمر الهواء الصاعد فى الارتفاع بعنف وتلك هى مقدمات عواصف الرعد والمطر الغزير كما فى شكل (٢) .



(شكل ٢) ابتداء تكوين عاصفة الرعد

وقد قدر فست ، العالم الجرمانى ، أن متوسط ما يكسبه الجو من الطاقة بعمليات التكاثف هذه يعادل نحو ٠٨٦ , ٠ سعر لكل سنتيمتر مربع فى الدقيقة ، وهذه القيمة تعادل نحو ٦,٢ × ١٠^٢٠ سعر فى اليوم الكامل بجو الأرض بأسره ، أو نحو ٢ × ١٠^٢٣ سعر فى المتوسط للعام ، وهى كمية من

الطاقة تكفى لإحداث سائر ظواهر الجو المعروفة ولدفع الرياح فى دورتها العامة . ولما كان البخر إنما يبلغ أشده وعنفوانه فى المناطق الحارة فإنه من الطبيعى أن يكتسب الجزء الأكبر من هذه الطاقة من المحيطات فى المناطق الحارة .

وقد وجد المؤلف بالقياس والحساب أن متوسط ما يكتسبه الجو من الطاقة فى عمليات البخر من سطح شرق البحر المتوسط فى منطقة المياه المصرية يعادل فى العام الكامل نحو ٣٨٨٠٠ سعر لكل سنتيمتر مربع ، أى نحو ٠,٠٧٥ سعر لكل سنتيمتر مربع فى الدقيقة الواحدة ، وهى قيمة تقل قليلا عن المتوسط العام لسطح الأرض الذى حسبه فست ، وذلك لأن أكبر كميات البخر إنما تحدث فوق المحيطات . والآن وقد أخذنا فكرة سليمة عن مقادير الطاقة التى تمد بها الطبيعة جو الأرض لتوليد النشاط فيه يجدر بنا أن نعرف شيئاً عن التغيرات أو التقلبات الجوية .

كيف يتغير الجو فى مكان معين

تتكون طبقات الهواء التى نعيش فيها (إلى ارتفاع نحو ١٥ كيلومتراً) من عدد وفير من الأهوية ، أو ما يسميه العلميون الكتل الهوائية ، المختلفة الصفات والطبيعة من حيث الحرارة والرطوبة والسحب ونحوها . وقد أمكن فعلا تقسيم جو الأرض السفلى إلى مجموعات مميزة من الأهوية أطلق على كل منها اسم كتلة هوائية ، والمقصود منها جزء ضخم من الجو السفلى له صفات طبيعية معينة ، وتتجانس بين أرجائه درجات الحرارة والرطوبة والسحب إلى حد كبير .

والمهيمن على تولد هذه الكتل الهوائية وتميزها بخواص طبيعية معينة هو طول مكث كل منها فى مصدر رئيسى معين . والمقصود بالمصدر الرئيسى جزء متسع من سطح الأرض — سواء اليابس منه أو الماء — تتجانس أجزاؤه وتحدده صفات خاصة ، مثل الصحراء الكبرى ومثل سهول سيبيريا ومثل البحر الأبيض المتوسط وهكذا . . . فإن الهواء السائد على كل من هذه البقاع مدة كافية لا يلبث أن يكتسب صفاتها ويتحلى

بمميزاتها خلال الطبقات السطحية على الأقل ، وخاصة من حيث درجة الحرارة والرطوبة وكميات الأتربة العالقة ونحوها من الصفات البارزة ، وبذلك يصبح لكل مصدر رئيسى كتله الهوائية الخاصة .

وعندما تزاح هذه الكتل أو تنتقل بتأثير دورات الرياح من مصادرها إلى بقاع أخرى تحمل معها خواصها ، ورغم أنه قد يعترى بعض أجزائها شيء من التبديل أو التحوير أثناء تحركها ، وخاصة عند سطح الأرض مباشرة ، إلا أن الجزء الأكبر منها ، ولا سيما الطبقات البعيدة نوعاً عن سطح الأرض ، يظل حافظاً لخصائصه الأصلية . ويمكن تقسيم كتل الهواء الجوى تبعاً لمصادرها إلى قسمين رئيسيين هما : (١) الكتل القطبية ، ومصدرها المناطق القطبية ثم (٢) الكتل الاستوائية ، ومصدرها المناطق الحارة . كما يمكن أيضاً تقسيم كل من القسمين المذكورين إلى فرعين تبعاً لطبيعة أو نوع سطح المصدر الرئيسى ، بمعنى أنه إما أن تكون الكتلة الهوائية « بحرية » ، وهى ما كان سطح مصدرها من الماء ، وإما أن تكون الكتلة الهوائية « قارية » ، وهى ما كان سطح مصدرها يابساً . ويبين الجدول الأقسام الرئيسية لكتل الهواء وأهم صفاتها المميزة .

العنصر الجوى	قطبى		استوائى	
	قارى	بحرى	قارى	بحرى
درجة الحرارة	منخفضة جداً	منخفضة	مرتفعة جداً	مرتفعة
الرطوبة	منخفضة	متوسطة	منخفضة جداً	مرتفعة جداً
كية الغبار	منخفضة	منخفضة جداً	عالية جداً	متوسطة
المطــر	—	رخات	—	رذاذ أو مطر متواصل
الرياح (فى نصف الكرة الشمالى)	شمالية	شمالية عادة	جنوبية عادة	جنوبية عادة

ويتغير الجو فى أى مكان من وقت لآخر غالباً لمجرد إحلال كتلة الهواء السائدة عليه بأخرى تبعاً لدورة الرياح . فقد يكون الجو فى يوم من أيام ربيع مصر حارا مرهقاً لأن كتلة من الهواء القارى الاستوائى تسود البلاد مقبلة من السودان أو من جزيرة العرب أو من الصحراء الكبرى ، ثم يعقب ذلك يوم بارد منعش يمتد تأثيره من شمال الوادى إلى جنوبه تدريجيا بسبب إزاحة الكتلة الحارة وحلول أخرى باردة منعشة وممطرة أحياناً من منطقة البحر المتوسط أو من أوروبا . والمعروف أن جو مصر لا تعتريه تغيرات ملموسة خلال الصيف ، وعلة ذلك تجانس الكتل الهوائية التى تهب عليه طوال هذا الموسم

إلى حد كبير ، فيما عدا بعض الفوارق الصغيرة نسبيا فى درجات الحرارة والرطوبة .

ولكل إقليم أجواؤه الخاصة على مدار السنة ، ولهذه الأجواء اليد العليا فى توزيع عالمى الحيوان والنبات على الأرض . وقد استطاع الإنسان بوعيه وسعة حيلته أن يذلل كثيراً من العوائق الجوية وأن يستوطن بذلك مناطق من الأرض ما كان فى مقدوره أن يقيم فيها لولا علمه ، وأول ما استخدم الإنسان فى سبيل ذلك كان باتخاذه المساكن التى تقيه شر القيظ والزمهرير على السواء ، ثم اتخاذه وسائل الدفء المختلفة من نار ودثار . ورغم ذلك فإن سلطان الجو ما برح معقود اللواء على أهل الأرض ، فهو الذى يجبرهم على الأخذ بغذاء أو لباس خاص تبعاً للحالة الجوية . وإلى تأثير الجو واختلافه يرجع السبب المباشر لتنوع أجناس البشر واختلاف ألوانهم وسحنهم ، فبصرف النظر عن الجنس الأصفر الذى يسكن المناطق الممتدة من القطب الشمالى إلى جزر الملايو عند خط الاستواء ، نجد أن هناك فروقاً ظاهرة بين الإسكيمو الذين يعيشون فى ثلوج القطب والشعوب البيضاء التى تستهدف لهبوب رياح المناطق المعتدلة الممطرة والعرب السمر المنتشرين من حوض البحر المتوسط إلى صحارى الرياح التجارية الجافة والأجناس

السوداء المتغلغلة فى الغابات الاستوائية ، والأقزام عموماً ، سواء منهم من يعيش بين ثلوج القطب أو فى ظلال الغابات ، يرجع قصر أجسامهم إلى ندرة وصول أشعة الشمس إليهم .

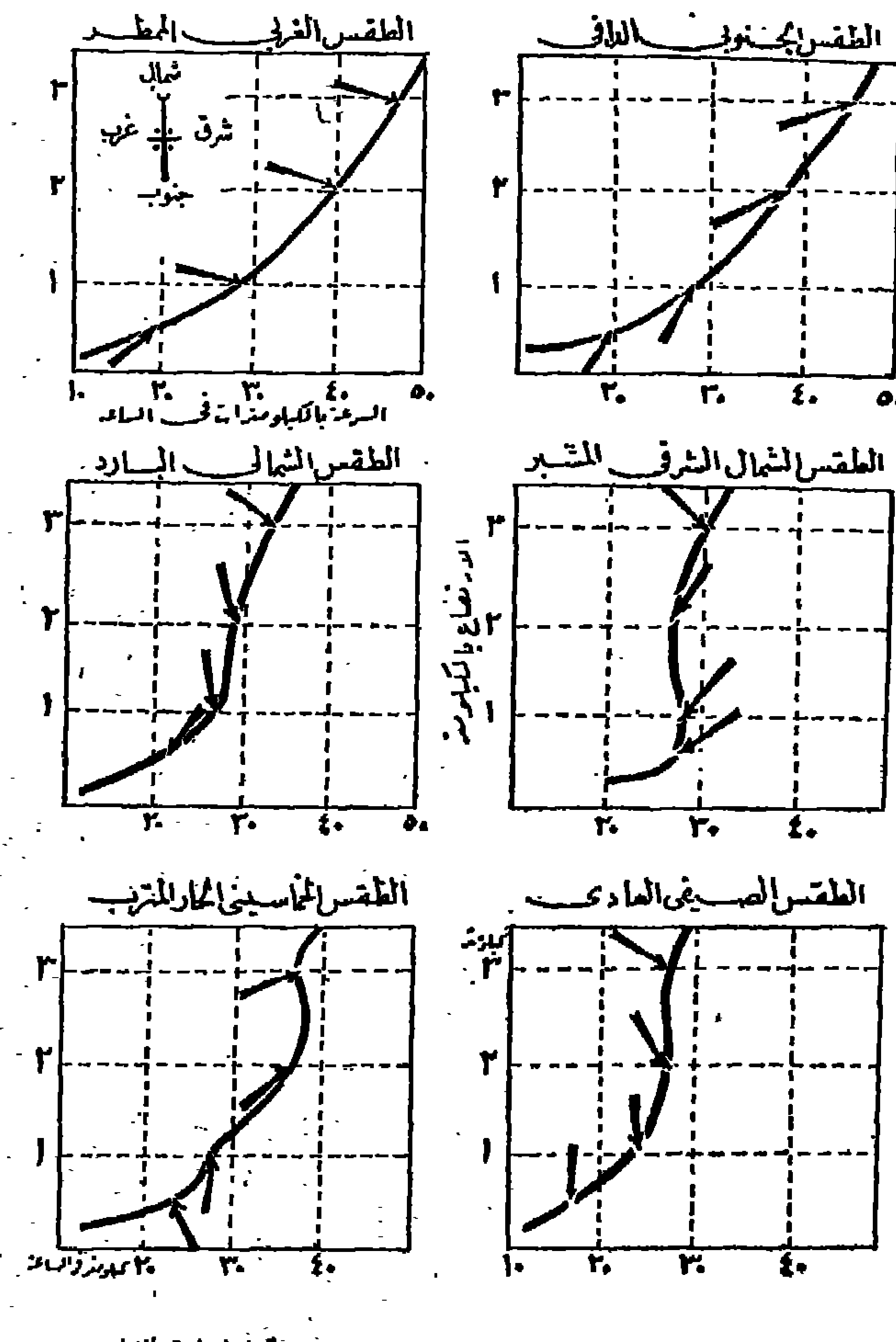
وللجو تأثيره الملموس على طبائع البشر وعاداتهم ، فمثلا الأجواء الباردة المتقلبة تولد النشاط وتدفع الناس إلى العمل ، بينما المناخ الاستوائى يدعو إلى الكسل وخصوصاً إذا توفر الرزق وكثر ، ودنت قطوف الشجر ! ويعتبر بعض العلماء أصلح الأجواء للإنسان وأكثرها موافقة له ليبلغ الإنتاج البشرى حده الأعلى ما تراوحت فيه الحرارة بين ١٥ و ٢٥ درجة سنتيجراد مع رطوبة متوسطة أو حتى مرتفعة قليلا بحيث تكون الرياح معتدلة والشمس ساطعة . ومثل هذا الجو هو المناخ المثالى الذى ينشط الإنسان وتقل فيه الأمراض ، ومن أمثلة هذه البقاع تقريباً شمال مصر من أكتوبر إلى مارس باستثناء فترات البرد ثم الخماسين أو الرياح القبلية ، ومن أروع الأمثلة زيلندة الجديدة ثم ساحل كاليفورنيا حيث الربيع دائم ، ويحلم بعض العلماء فى الحصول على مثل هذا الجو فى كثير من البقاع المحلية باستخدام الطاقة الذرية فى بقاع أخرى . . . وهذا الموضوع من أهم مواد الدراسة الحديثة .

وفى العادة لا ينجح المهاجرون فى هجرتهم ولا يستقر لهم

مقام إلا إذا كانت هجرتهم إلى مناطق لها أجواء تشابه أجواء الأقاليم التى نزحوا منها . فسكان إسبانيا مثلا ينجحون فى البرازيل وفى الأرجنتين ، بينما يعانى الأوروبيون كثيراً من الصعوبات فى أفريقيا . والرجل الأبيض عموماً لا يستطيع استعمار المناطق الحارة بسهولة ، وهو فيها لا يصبح كسولا فحسب بل ينخفض مستوى نشاطه أحياناً عن السكان الأصليين!

مجمل القول أن قد استتب جو كل إقليم فى الأرض على وتيرة خاصة* اعتادها أهل هذا الإقليم على مر السنين ، فإذا تغيرت هذه الوتيرة ، أو جدت عليها ظاهرة جوية غير مألوفة ، يعتبر هذا ولا شك أعجوبة من الأعاجيب أو نوعاً من شواذ الجو التى يعزوها العلم إلى تدخل عامل غريب غير معروف فى جو الأرض . ويبين شكل (٣) أهم معالم الجو فى مصر الوسطى — منطقة القاهرة — وكتل الهواء ممثلة باتجاهات الرياح على مدار السنة ، غير أن الطبيعة قد تسوق بعض الحالات الشاذة التى تثير الاهتمام كثيراً إذا عمت وخصوصاً هذه الحالات فى جو الأرض بأسره .

* يعبر عن ذلك علميا بكلمة مناخ ، وقوامه متوسطات عناصر الجو فى الإقليم لمدة طويلة ، مثل متوسطات درجة الحرارة والرطوبة وإشعاع الشمس والرياح والأمطار والسحب . . .

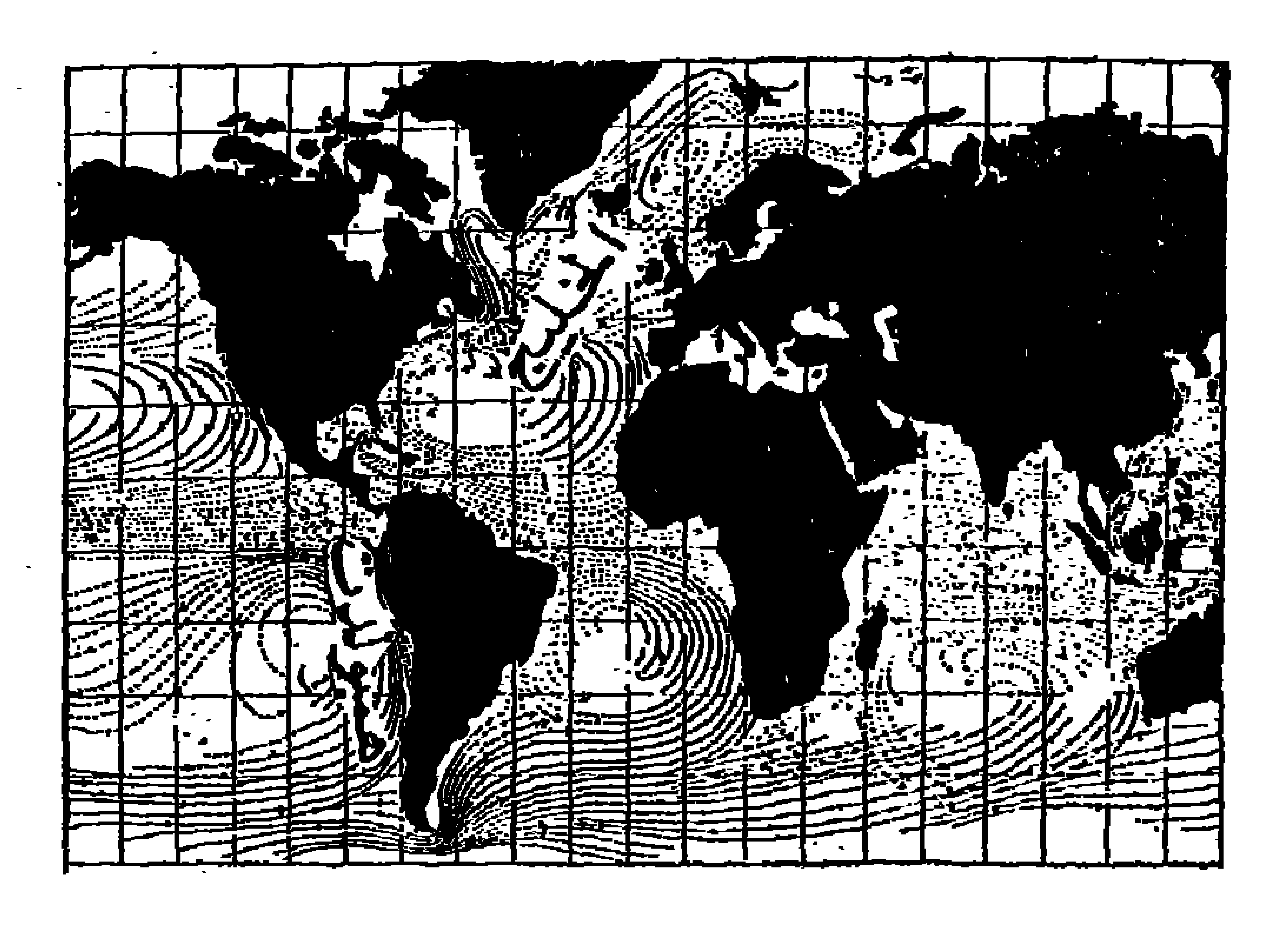


(شكل ٣) اتجاهات الرياح ومتوسطات سرعتها لمنطقة القاهرة

أمثلة من الطبيعة نفسها

لم تحرمنا الطبيعة أيضاً ، وهى معلمنا الأول ، من بعض الأمثلة الرائعة فى الشذوذ الجوى لأسباب معروفة طارئة ، فقد حدثت تغيرات فجائية وغير عادية فى جو بعض البقاع لمجرد اختلافات طرأت فى تيارات مياه المحيطات ، فمن المعروف أن مياه البحار والمحيطات السطحية تتحرك فى صورة تيارات تتبع فى سيرها نظاماً يشابه نظام التيارات الهوائية على الأرض إلى حد كبير . وتقوم هذه التيارات المائية بتوصيل الحرارة التى تكتسبها المحيطات من الإشعاع الشمسى فى أماكن وفرتها وغزارتها بين المدارين إلى أماكن شحتها قرب القطبين ، كما تقوم تيارات أخرى بتوصيل برودة القطبين إلى المناطق الدافئة . ومن أشهر التيارات المائية الدافئة تيار الخليج الذى يتم دورته فى شمال الأطلسى ويجلب معه الدفء الجميل إلى أوروبا والنرويج . ومن التيارات الباردة تيار همبولدت الجنوبى الذى يجرى بمحاذاة

الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية ويجلب معه البرودة إلى أقصى الشمال — راجع شكل (٤) الذى يمثل جانباً من



شكل (٤) التيارات المائية

التيارات المائية العامة — ولما كان حجم معين من الماء إذا ارتفعت درجة حرارته درجة واحدة يحتاج من الطاقة الحرارية ما يعادل ٣٠٠٠ ضعف ما يحتاجه حجم مكافئ له من الهواء لترتفع درجة حرارته درجة واحدة أيضاً ، فإننا نتوقع أن مثل هذه التيارات عندما تجود بجزء صغير من حرارتها يكفى ذلك الجزء

لرفع درجة حرارة كميات وفيرة جدا من الهواء .

ويسبب تيار الهمبولدت البارد برودة الجو وجفافه أو انعدام الأمطار تقريباً فى الجزء الغربى من شاطئ بيرو وشمال شيلى . وقد توقف هذا التيار عن سيره فى شهر مارس عام ١٩٢٥ لسبب غير مفهوم ، فارتفعت فجأة درجة حرارة ماء البحر عن معدلها بما زاد على ٥ درجات سنتجراد ، وكثر البخر وتغيرت أحوال الجو تغيراً عجيباً لم يألفه أهل تلك البقاع ، وتكونت السحب الثقال وانهمرت منها الأمطار بغزارة ، ودهش الأهالى لسماع هدير الرعد الذى لم يسبق أن سمعوه من قبل !! وقد اكتسحت السيول التى صحبت المطر الغزير مدينة كلاو من أعمال الأرجنتين ، كما بلغت كمية الهطول ٢٢٥ ملليمتراً فى يوم واحد ، وهو رقم كبير يفوق حد الخيال لمثل تلك الأرجاء ، بل ولأغلب بقاع الأرض المطيرة !

وفى العادة يرجع سبب كثرة الأمطار أو ندرتها وتباين توزيعها على طول العام فى البلاد المختلفة إلى عوامل كثيرة أهمها :

١ — نظام الدورة العامة للرياح .

٢ — التباين بين درجة حرارة المكان ودرجة حرارة الجهة التى تمده بالرياح .

٣ — الارتفاع عن سطح البحر ، أو المجاورة للجبال أو للبحار .

٤ — تعرض المكان لهبوب الرياح الممطرة ، أو الرطبة عموماً .

٥ — توفر نويات التكاثف ، وسيأتى تفصيلها لأنها هى التى تهمنا من بين كل هذه العوامل .

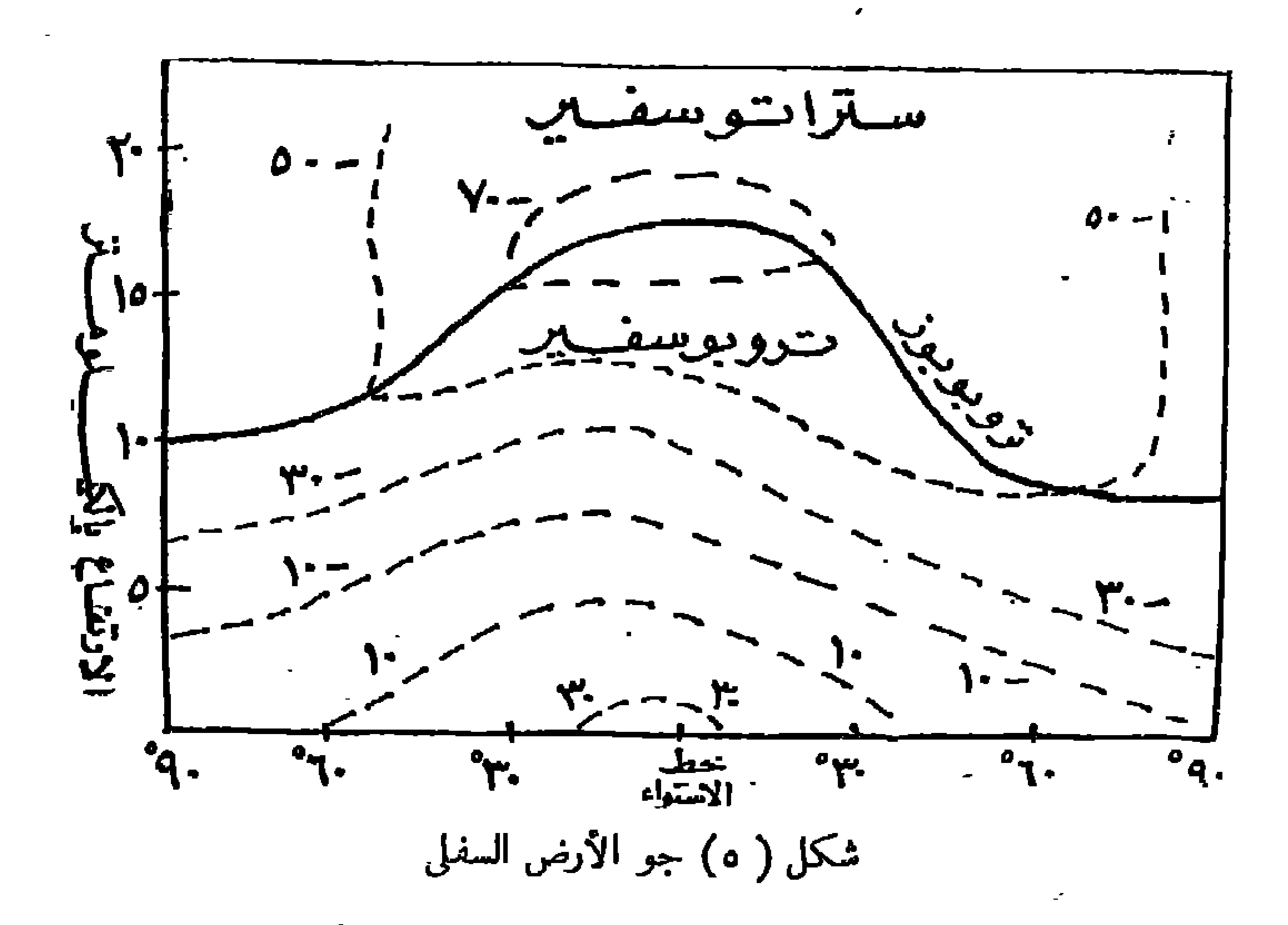
والمثال الثانى الذى ساقته الطبيعة ولكن فى قالب مختلف هو ما تبع انفجار بركان كراكتوا فى ٣٠ يونيو عام ١٩٠٨ من سيول وفيضانات عقب أمطار غزيرة عمت كثيراً من أرجاء الأرض . ولقد أضاف ذلك البركان إلى الجو من الطاقة والرماد كميات عظيمة غير عادية فى هذا العصر .

ومن المعروف أن الطبيعة نفسها لا تبقى جو أى إقليم على وتيرة واحدة أبد الدهر ، بل إن العادة أن يتذبذب الجو بمدى واسع يبلغ عشرات أو حتى مئات السنين ، وقد لوحظ أن بعض هذه الذبذبات يتمشى مع دورات النشاط الشمسى أو البقع الشمسية ، وهى دومات هائلة جدا تظهر على سطح الشمس ، وتكثر فى بعض السنين وتقل فى أخرى . ومهما يكن من شىء فإن هذه التغيرات الدورية فى جو الأرض إنما تتبع فى أغلب الأحيان التغيرات الطارئة فى قيمة الثابت الشمسى ، أى فى حدود

من الطاقة لا تتعدى التغيرات المرصودة فى قيم الإشعاع التى ذكرناها . وهناك إلى جانب التغيرات الدورية المنتظمة تغيرات أخرى غير دورية لا رابط لها ولا منظم ، ولا يمكن تحديد أزمانها أو أسبابها، رغم أن منها ما قد يكون فى غاية الأهمية أحياناً . ومثل هذا « الشذوذ الجوى كما يسميه البعض » يدخل فى نطاق الإحصاء الجوى أو حساب المتوسطات الجوية ، إلا أنه من القلة وندرة الحدوث بحيث لا يؤثر كثيراً أو قليلا على تلك المتوسطات .

طبقات الجو

يمتد جو أرضنا إلى علو يزيد على ١٠٠٠ كيلومتر ، وفى الواقع لا يمكن تحديد الارتفاع الذى ينعدم عنده الهواء الجوى تماماً ، ولهذا لا يمكن تحديد ارتفاع قمة الجو ، ولكن الذى يهمنا من هذا الموضوع هو الجو السفلى الذى يمتد من سطح الأرض إلى ارتفاع نحو ٨٠ كيلومتراً — وهو ارتفاع يفوق بكثير ارتفاع الطبقات التى يمكن أن يتسرب إليها أو ينتشر فيها الغبار الذرى — وينقسم هذا الجو السفلى بطبيعة تكوينه وتبعاً لتوزيع عناصر الجو فيه إلى طبقتين يفصلهما سطح وهمى ، وتسمى الطبقة السفلى باسم التروپوسفير — شكل (٥) — وهى موطن العواصف وتقلبات الجو كلها ، ومنطقة تكوين أهم السحب وأعمها ، ومنها ينزل المطر والبرد والثلج ، وهى مهد تغيرات الحرارة والرياح ، وفيها تثار الرمال والأتربة ونحوها . . . وتسمى الطبقة العليا باسم الستراتوسفير أو الطخرورية ، وفيها ينساب الهواء فى مسالكه انسياباً حرا طليقاً ، وهى وإن كانت تستجيب بعض الشىء لما يحدث



شكل (٥) جو الأرض السفلى

من تقلبات جوية فى طبقة التروپوسفير ، وخاصة من حيث شفافيتها لإمكان تسرب أبخرة المياه والأتربة إليها من أسفل ، إلا أنها ليست موطناً للعواصف ولا مصدراً لها . وتبلغ كثافة الأوزون فيها أقصاها كما يتكون فيها سحاب خاص مرتفع يظهر عادة بعد الغروب يعرف لدى المشتغلين بالرصد الجوى باسم سحاب اللؤلؤ .

وفى العادة تنخفض درجة الحرارة مع الارتفاع فى الجو خلال طبقة التروپوسفير حتى تصل إلى السطح الوهمى الفاصل

بينها وبين طبقة الستراتوسفير ، ويطلق عليه اسم التروپوپوز، حيث تثبت درجة الحرارة أو تزداد مع الارتفاع : ولهذا يعرف البعض التروپوپوز بأنه المستوى الذى تصل إليه درجة الحرارة أقل قيمة لها فى الجو . ويختلف ارتفاعه كما فى شكل (٥) من نحو ٩ كيلومترات عند القطبين إلى نحو ١٨ كيلو متراً عند خط الاستواء ، أى أى طبقة التروبوسفير يزداد سمكها من نحو ٩ كيلومترت عند القطبين إلى نحو ١٨ كيلو متراً عند خط الاستواء .

وعندما يخترق الغبار الذرى سطح التروپوپوز يضيف إلى طبقة الستراتوسفير كميات وفيرة من الذرات الدقيقة التى يمكن أن تظل سابحة سنين عديدة . وفيما يلى بيان بسرعة تساقط ذرات* الغبار المختلف الحجوم وهو يهبط بتأثير جذب الأرض ، بفرض أن الهواء لا يتحرك وأن مادة الغبار لا تعدو صخور الأرض العادية ، وبديهى أن الذرات التى تقل أنصاف أقطارها عن ٠,١ ميكرون تكاد لا تسقط وتظل تسبح مدة طويلة ، إلا إذا تدخلت عوامل أخرى وعملت على إسقاطها إلى

* محسوبة من معادلة ستوكس بعد تنقيح مناسب للضغط ومجال جذب الأرض .

سطح الأرض . ومهما يكن من شيء فإن هذا الجدول يعطينا فكرة واضحة عن سرعة تساقط المطر الذرى المختلف الحجوم، كما يبين أن من مكونات هذا المطر ما قد يستغرق هطوله عدة سنين .

نصف القطر (ميكرون)	سرعة التساقط (سنتيمتر فى الثانية)	سرعة التساقط (متر فى اليوم)
٠,١	٠,٠٠٠٧	٠,٦
٠,٥	٠,٠٠٩٥	٣,٢
١,٠	٠,٠٣٤٦	٣٠,—
٢,٥	٠,٢٠٣٥	١٧٦,—
٥,٠	٠, ٧٩٧	٦٩٠,—

الغبار الجوى

الغبار الجوى هو مجموعة الحبيبات أو الجسيمات الصغيرة الصلبة المنتشرة فى الهواء ، سواء كان أصلها معدنيا (من صخور الأرض والسماوات ومعادنهما) أو حيوانيا أو نباتياً (من بقايا الأحياء) . وتختلف درجة تركيز الغبار الجوى — أو عدد الجسيمات العالقة فى كل سنتيمتر مكعب واحد من الهواء — ومتوسط حجمه وطبيعته اختلافاً كبيراً بتغير الزمان والمكان ، أو بتغير الكتل الهوائية ، وتصل درجة التركيز أدناها فى كتل الهواء القطبية عموماً حيث لا تتعدى عدة حبيبات لكل سنتيمتر مكعب من الهواء العادى ، كما تصل أكبر قيمة لها فى الهواء الاستوائى القارى ، وقد تربو على عشرات الآلاف ومئاتها فى زوابع التراب والرمال فى المناطق الصحراوية عموماً . وأهم مصادر الغبار الجوى فى هذا العصر هى :

١ — المساحيق والرمال الدقيقة التى تثيرها الرياح من الصحارى والوديان ونحوها .

٢ — حبيبات أصلها حيوانى أو نباتى ، وخاصة من المناطق

المنزرعة أو من الغابات أو حتى من شواطئ البحار .

٣ ـ ما ينتج من احتراق النيازك والشهب فى أعالى الجو . وتتحول أغلب مادة هذه الأجسام إلى رماد بسبب الحرارات العالية التى تتولد من جراء احتكاكها بالهواء وهى تندفع فيه بسرعة عظيمة .

٤ ـ ما تقذفه البراكين من جوفها من أتربة ورماد وجسيمات مفتتة أو فى صورة أبخرة وغازات .

٥ ـ الأتربة والرماد الذرى الناتج من تجارب الأسلحة الذرية أو الانشطار النووى عموماً .

وتتميز الأسلحة الذرية والبراكين بأن فى مقدورها أحياناً أن تقذف بالرماد إلى ارتفاعات شاهقة قد تزيد على ٢٠ كيلومتراً ، وبذلك يدخل الغبار إلى طبقة الستراتوسفير ويظل يتساقط منها ببطء شديد ، وقد تحجز هذه الأتربة كثيراً من الإشعاعات الشمسية وتمنعها من الوصول إلى سطح الأرض . والمعتقد أن وفرة البراكين فى القدم وكثرة ما أثارته من رماد وأتربة فى جو الأرض كان هو السبب فى ظهور عصور البرد المعروفة بالعصور الجليدية المتتالية كلما نشطت تلك البراكين .

وفى عصرنا الحاضر تكون الصحارى أهم مصادر الغبار

الجوى الطبيعى ، وكثيراً ما تجرف الرياح العابرة الرمال والأتربة من هذه المناطق وتحملها آلاف الكيلومترات قبل أن تترسب فى أماكن نائية . وقد يتساقط هذا الغبار مع الأمطار فيكسبها اللون البنى أو الأحمر . وتجرف زوابع الرمال من صحارى شمال أفريقيا عموماً عشرات الملايين من أطنان الرمال كل عام وتقذف بها إلى البحر الأبيض المتوسط وأوروبا ، وقد تصل هذه الأتربة شمالا إلى مناطق بحر البلطيق وبحر الشمال .

وقد أجرى المؤلف بمعرفته ، توطئة لدراسة الموضوع الذى نحن بصدده ، عدة قياسات للغبار الجوى فى مصر بأجهزة خاصة خلال الأعوام ١٩٥١ — ١٩٥٥ ، وذلك لتحديد حجمه ودرجات تركيزه ونوعه . وقد قسمت الأجواء المحتوية على غبار وأتربة بدرجة ملحوظة إلى ثلاثة أقسام هى :

١ — الشابورة الترابية ، وقوامها شوائب قليلة التركيز صغيرة الحجم تسبق الأجواء الساخنة وتميزها ؛ وفيها متوسط قطر الحبيبة نصف ميكرون ودرجة التركيز بين ١٥٠ و ٢٠٠ حبيبة لكل سنتيمتر مكعب من الهواء .

٢ — الرمال المثارة (وهى التى تصحب الرياح الشديدة) ، فإن من أهم آثار الرياح الشديدة فى مناطقنا الصحراوية إثارة

الرمال ، وفيها متوسط قطر الحبيبة ١,٣ ميكرون ودرجة التركيز بين ٢٥٠ و ٣٠٠ حبيبة لكل سنتيمتر مكعب من الهواء .

٣ ــ عواصف التراب (وخلالها يهبط مدى الرؤية إلى أقل من ١٠٠٠ متر وقد يصل إلى عدة أمتار فقط) ، وفيها متوسط قطر الحبيبة ٣ ميكرون ودرجة التركيز بين ٤٠٠ و ٥٠٠ حبيبة للسنتيمتر المكعب من الهواء . وقد تزداد درجة التركيز عن ذلك كثيراً فى حالات العواصف الشديدة فتصل إلى ١٠٠٠٠ وأكثر . ويعطى شكل (٦) بعض الأشكال الطبيعية للغبار الجوى كما يبدو تحت المجهر . وتمثل المجموعة (ا) ذرات الشابورة الترابية ، والمجموعة (ب) ذرات الرمال المثارة أما المجموعة (حـ) فهى تعطى السواد الأعظم من ذرات الغبار الجوى فى حالات العواصف .

3μ < d < 4.5μ | 2μ < d < 3μ | 1μ < d < 2μ

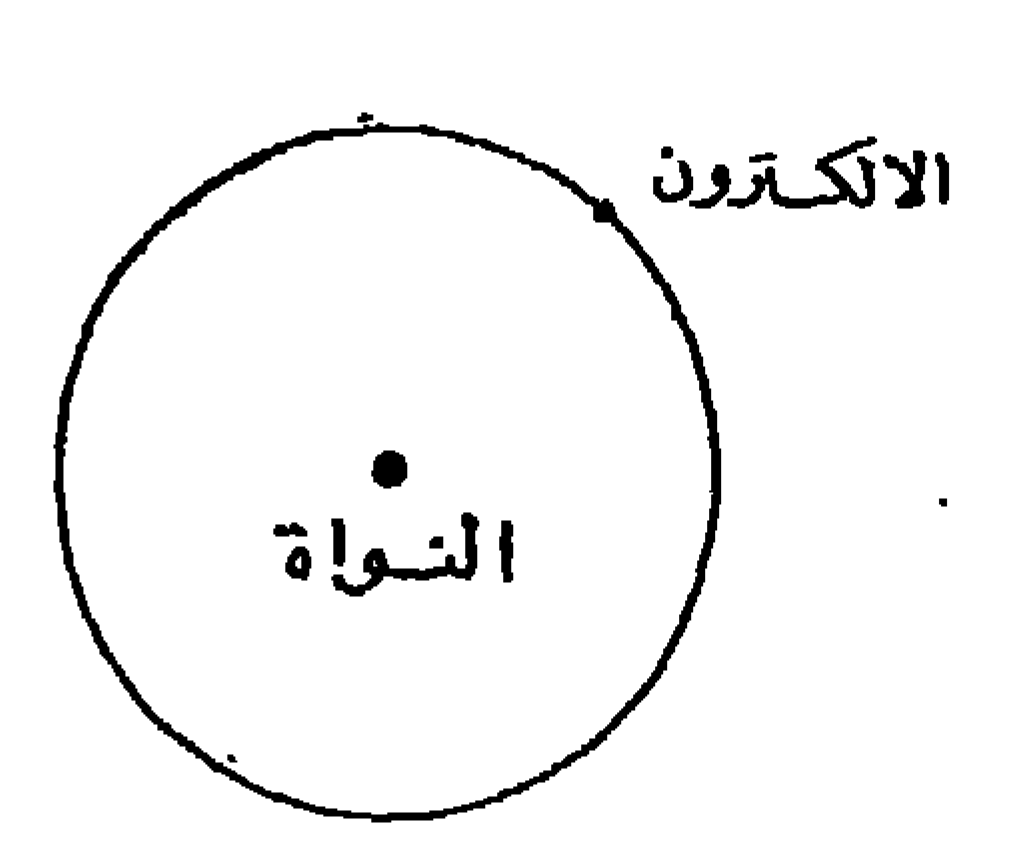
حـ | ب | ا

شكل (٦) ذرات الغبار الجوى المختلف الحجوم

عود إلى صميم الذرة

من الجلى والواضح أن أهم ما طرأ على جو الأرض فى هذا العصر هو إضافة الغبار الذرى إليه ، وقوامه مجموعات لا حصر لها من الدقائق المشعة المختلفة الحجم والصفات ، منها ما يرجع أساسه إلى سلسلة الانشطارات الذرية فى مادة القنبلة نفسها ، ومنها أتربة يثيرها الانفجار من قشرة الأرض ، أو أتربة كانت تعلق فى الهواء بطبيعتها ثم اكتسبت خاصية الإشعاع باندماجها فى عملية التفجير واختلاطها بالذرات والإشعاعات أثناء التجربة .

وأبسط الذرات تركيباً ذرة الإيدروجين ، إذ تتكون من نواة يدور من حولها كهرب سالب هو الألكترون كما فى شكل (٧). يظل فى فلكه تحت قوة جذب النواة له . ويبلغ نصف قطر هذا الفلك من ١٠ آلاف إلى ١٠٠ ألف ضعف نصف قطر كل من



شكل (٧) ذرة إيدروجين مكبرة مئات ملايين المرات .

الألكترون أو النواة على السواء . وهناك تركيبات للمواد المختلفة أكثر تعقيداً من ذلك بكثير ، من حيث عدد الكهارب وتركيب النواة . . . ولكن الصفة المشتركة هي أن عدد الشحنات السالبة (الألكترونات) يساوي الشحنة الموجبة فى النواة بحيث إن مجموع الشحنات الكهربائية لمكونات الذرة يساوى صفراً .

ومن الجائز والممكن أن يفصل كهرب أو أكثر من الذرة ، فتنقسم بذلك إلى جزءين أحدهما سالب التكهرب والآخر موجبه ويطلق عليها اسم الأيونات ، وأبسط الأيونات الموجبة بطبيعة الحال هي نواة الأيدروجين ، وتسمى العملية كلها عملية التأين . وأعم الأجهزة التى يتم فيها التأين وأقربها إلى مخيلاتنا اللافتات الكهربائية ، وهى تلك الأنابيب المخلخلة والمستخدمة فى الإعلانات ، مثل أنابيب النيون وينتج الوهج من تصادم الكهارب السالبة المتحركة بسرعة بذرات الغاز الذى بالأنبوبة ، ويسبب هذا التصادم مع بعض ذرات الغاز إضافة طاقة إليها تنطلق فى صورة ضوء هو الوهج ، أما الذرات الأخرى فإنها تتأين ، أى تتحول إلى مركبات كهربائية كما سبق .

وليست الذرات هى أصغر الأجزاء التى يمكن أن تنقسم إليها المواد المختلفة وهى محتفظة بكافة خصائصها ، بل إن

أصغر أجزاء المادة التى نعرفها والتى يمكن أن نراها بوضوح تحت المجهر أو الميكرسكوب يتكون من عدد وفير من لبنات صغيرة هى وحدات المادة وتسمى الجزئيات ، فأصغر نقط الماء مثلا يتكون من عدد لا يقل عن ١٠٠ جزيء من الماء . وما الجزيء بدوره إلا مجموعة من الذرات المتماسكة بقوى يمكن أن يطلق عليها اسم القوى الكيمائية ، ذلك لأنه يمكن أن تفصل هذه الذرات بالطرق الكيمائية فقط ، كما أنها يمكن أن تبنى بنفس الطرق لتكون المركبات الكيميائية والمخاليط ونحوها . وما القوى أو الطاقات الكيميائية ببعيدة عن متناول أيدينا فنحن نستغلها كل يوم فى عمليات الاحتراق المختلفة ، وهى تستغل أيضاً فى الحروب ممثلة فى تفجير البارود والديناميت .

ولعل أول فكرة للتعبير عن الطاقة كانت تلك التى استخدمها العلماء لتقدير مجالات الجاذبية ، كالتعبير عن الطاقة اللازمة لرفع كتلة معينة من مستوى إلى آخر ، ثم لزم التعبير عن طاقة الحركة والطاقة الكهربائية والطاقة الحرارية . . . ثم الطاقة الذرية .

وتتحول أغلب هذه الطاقات إلى بعضها البعض ، فمثلا التيار الكهربائى الذى يمثل الطاقة الكهربائية التى يمكن أن تصعق الأجسام الحية أو تحرقها حرقاً عند مرورها فيها ،

يمكن أن تتحول إلى طاقة ضوئية تبدد ظلمات الليل باستخدام المصابيح الكهربائية ، كما يمكن أن نحولها إلى طاقة حركة باستخدام المحركات الكهربائية (الموتور) ؛ أو إلى طاقة حرارية فى الغلايات والسخانات الكهربائية . . . وهكذا . وهناك وحدات للطاقة تستخدم فى قياسها أو تقديرها ، تماماً كما أن هناك مثلا وحدات لتقدير الأزمان أو الأوزان ونحوها ، كلها اخترعها الإنسان واتخذها سبيلا لتعبيراته العلمية* .

---

* الطاقة على أى وجه من وجوهها أو أى صورة من صورها لا يمكن استحداثها أو إعدامها ، ولكن يمكن تحويلها من صورة إلى أخرى . وعلى ذلك فالطاقة تمثل القوة المخزونة التى تمكن أن تؤدى بها الأعمال أو نقضى بها الأشغال ، فمثلا إذا رفعنا جسما كتلته ك جرام فى مجال جذب الأرض الذى تمثله فى الثانية العجلة حـ سنتيمتر فى الثانية خلال الارتفاع ع سنتيمتر يكون :

الشغل الميكانيكى المبذول أو الطاقة المبذولة = القوة المحركة × المسافة = ك . حـ . ع وحدة شغل ، وقد أطلق على هذه الوحدة اسم أرج ، وعليه يكون الأرج كما تعرفه المعادلة السابقة هو الشغل المبذول عندما تكون كل من ك ، حـ ، ع تساوى الواحد الصحيح .

والشغل الميكانيكى الذى يلزم بذله لإحداث سعر واحد من الحرارة ثبت بالتجربة أنه يعادل أو يكافىء ٤,٢ × ١٠^٧ أرج ، وتساوى هذه القيمة أيضاً ٤,٢ وحدة أكبر يقال لها جول .

وكل نحو ٦١٠ سعر حرارى تعادل كية من الكهرباء قدرها كيلووات فى الساعة ، ويبلغ ثمن الكيلووات ساعة عند تقدير حساب الاستهلاك الكهربائى فى إنارة المنازل نحو ٢٥ أو ٣٠ مليما فى المتوسط .

ويلوح أن أول من بحث عن المواد المشعة هو هـ . بكرل عام ١٨٩٦ ، ثم ثبت أن هذه المواد تؤين الهواء وتؤثر على الألواح الفوتوغرافية ، كما أنها تنبعث منها طاقات حرارية ولها تأثيرات كيميائية . والسبب الحقيقى فى مثل هذه التأثيرات ليس هو مجرد وجود المواد المشعة ، ولكن هو تحول الوسط المادى إلى مواد أخرى أقل منها فى الطاقة الوضعية لذراتها ، وفى بعض الأحيان عندما تعود الذرة الجديدة إلى حالة الاستقرار تطلق إشعاعاً كهربائيا له طاقة كبيرة وتحصل بواسطته على بعض الظواهر ، ويتكون الإشعاع الناشئ من انحلال النواة من ثلاث فصائل لكل فصيلة مميزاتها الخاصة هى :

١ ـــ أشعة ألفا : وهى تنفذ بضع سنتيمترات فى الهواء ، أو بضع أجزاء من الألف جزء من السنتيمتر خلال الألومنيوم ، وبعدها تنعدم قدرتها على إحداث التأين ـــ ومكونات هذه الأشعة عبارة عن نواة ذرة الهليوم تتحرك بسرعة تقدر بنحو $\frac{١}{٣٠}$ من سرعة الضوء (أى نحو عشرة آلاف كيلومتر فى الثانية) .

٢ ـــ أشعة بيتا : وهى أكثر نفاذاً من سابقتها ، وتختلف قدرتها على النفاذ باختلاف المواد المولدة لها ، وهى عبارة عن كهارب تخرج بسرعات تقرب من سرعة الضوء .

٣ ـــ أشعة جاما : هى أكثر الإشعاعات نفاذاً ، وهى

طاقة أثيرية على غرار الضوء والأشعة فوق البنفسجية إلا أن أطوال موجاتها قصيرة جدا، تتراوح بين ١٠–^٨ إلى ١٠–^١٢ من السنتيمتر .

وفى عام ١٩٣٤ وجدت ابنة مدام كورى أن مادة الألومينيوم أو الماجنيزيوم – وهما عنصران لا يشعان وليس لهما نشاط إشعاعى – اكتسبت خاصية الإشعاع بعد تعرضها لأشعة ألفا الصادرة من مادة البولونيوم المشع ، وخرج منها أشعة محملة بالكهربائية الموجبة ، ولذا سمى الجسيم المكون لوحدة هذه الأشعة (البوزترون) وهو الألكترون موجب التكهرب !

وكان المعروف قبل هذا الكشف أنه إذا تعرضت مادة البيليريوم لأشعة ألفا المنبعثة من الراديوم فإن البيليريوم يصبح مادة مشعة تشع جسيمات غير مكهربة ولكن وزنها كوزن نواة الأيدروجين ، وقد أطلق عليها اسم (نيوترونات) . وحيث إن هذه الجسيمات غير مشحونة فإنها أكثر نفاذاً فى الأجسام من غيرها من الجسيمات المشحونة لعدم إعاقة الحركة .

وفى غضون عام ١٩٣٩ ثبت بالتجربة أنه لو تعرضت مادة اليورانيوم لهذه النيوترونات انشطرت أو انفلقت ذرات معينة من اليورانيوم كل ذرة إلى ذرتين صغيرتين تحمل كل واحدة منهما طاقة كبيرة ، والذرة الناتجة الصغيرة لكبر طاقتها

الكامنة تطلق نيوترونات تؤثر على بعض ما جاورها من ذرات اليورانيوم فتشطرها أو تفلقها . . . وهكذا تستمر بل تتضاعف سلسلة الانشطار بينما تنطلق طاقة من الإشعاع والحرارة تفوق حد الوصف .

وفى الواقع وجد أن التفاعل السابق لا يتم كما وصفناه إلا إذا تعرضت المادة إلى مصدر دائم من النيوترونات ، أما إذا عزلت عن هذا المصدر فإن التفاعل غالباً ما يتوقف من تلقاء نفسه فى الحال إلا إذا بلغ حجم مادة اليورانيوم قدراً معيناً (يعادل وزنه بضعة كيلوجرامات) ، فإذا توفر هذا القدر وبدأ الانشطار ثم أبعد مصدر النيوترونات يستمر الانشطار أو التفاعل نتيجة للتسلسل سابق الذكر ، ويظل منطلقاً بقوة هائلة وعنف عظيم جدا حتى يأتى على آخر المادة . وهذا القدر أو الحجم وما يتبعه من سلسلة التفاعل هو أساس القنبلة الذرية . والمفهوم أنه يجهز هذا الحجم من اليوارنيوم على نصفين لا يلتقيان ليكونا الحجم اللازم إلا عند إطلاق القنبلة من عقالها حتى يؤمن جانبها . ومثل هذه القنابل يمكن أن تغطى من الطاقة ما تعادل عدة آلاف الأطنان من الديناميت .

أما الفكرة فى القنبلة الأيدروجنية ونحوها مما هو أشد فتكاً وتدميراً فهى استخدام كميات أعظم من المادة لتنتهى فى سلسلة

إفنائها بتوليد مقادير أعظم من الطاقة والحرارة . أما المادة فهى غالباً أيدريد الليثيوم (أى الليثيوم والأيدروجين) ، وهى تحتاج لإشعالها إلى درجات عالية جدا من الحرارة ، لا تتوفر عمليا إلا بشعلة ذرية من النوع السابق شرحه . وميزة هذه القنابل أو هذا السلاح إمكان إطلاق طاقات لا قبل لأهل الأرض بها ، تصل إلى آلاف أضعاف الطاقة التى تصحب انفجار القنبلة الذرية . وكثيراً ما يطلق العلماء على هذه القنابل التى لا تبقى ولا تذر اسم « القنابل الحرارية النووية » أو ذوات ملايين الأطنان (ميجاطن) من الديناميت ، أما القنابل الذرية فقد يسمونها ذوات الكيلوطن !

حول الإشعاع الذرى

منذ سنين عديدة ، فى فجر العصر الذرى ، والبحوث تجرى فى كثير من بقاع الأرض للوقوف على مدى أضرار الإشعاع والغبار الذرى ، وشملت هذه البحوث والدراسات أهم برامج لجان الطاقة الذرية فى بعض الأمم ، كما تخصص لها بعض العلماء من المشتغلين بعلوم الحياة وا لجو فكرسوا أنفسهم للوقوف على مدى تأثير هذه العوامل الفتاكة على الأرض وما عليها من أحياء .

واهتمت الشعوب كلها بهذه الدراسات وتطلعت إلى نتائجها ، وكان يثيرها من آن لآخر تلك السلسلة من التجارب التى تجريها بعض الدول بدعوى اختبار الأسلحة الذرية ، ولفترة من الزمن انصب البحث على آثار الإشعاعات الفتاكة والغبار الذرى على عالمى الأحياء من حيوان ونبات ، ثم تناول التأثير على الجو ، ورغم أنه خلال هـــذه الدراسات تم تحليل كميات وفيرة من تربة الأرض والماء والمطر وعينات عديدة من النبات والحيوان والأغذية المختلفة وأنسجة كثير

من أجسام البشر من مختلف بقاع الأرض ، إلا أن هذه البحوث لم يعرها الجمهور من الانتباه ذلك القدر الذى أعاره لتقلبات الجو فى السنين الأخيرة ، ولهذا لم يتم نشرها مفصلة . وتدل القرائن تماماً على أن جميع هذه المسائل تستحق الكثير من العناية والاهتمام ، وعلى أن هناك بعض الإشعاعات لا تزال غامضة التأثير والتكوين .

وسنرى كيف يتوقف مدى انتشار الغبار الذرى ومعدل تساقطه من الجو إلى الأرض إلى حد كبير على نوع السلاح الذرى الذى يجرب ، وعلى طبيعة مكان إجراء التجربة وبعد الانفجار عن سطح الأرض . وعلى ذلك فإن نتائج كل تجربة تجرى وما يتبعها من إشعاعات وغبار وحرارات وأمواج تنتشر فى جو الأرض كلها عمليات تختلف من حالة إلى أخرى . وعلى وجه العموم من الغبار الذرى ما يتساقط سريعاً ومحليا بسبب حجومه وأوزانه الكبيرة ، ومنه ما يتساقط مع المطر على أبعاد نائية من مكان التجربة ، كما أن منه ما قد يدخل طبقة الستراتوسفير ويبقى عالقاً فى الجو سنين عديدة ، ومنه ما يثير النشاط الإشعاعى فى غبار الجو العادى .

ويشمل النوعان الثانى والثالث أهم أنواع الغبار الذي عندما يتساقط ينجم عنه ترسب عدة عناصر مشعة فوق أغلب

سطح الأرض ، ومن هذه العناصر سترانشيوم ٩٠ ، الذى يعرف عنه أنه إذا تواجد بكميات كافية يمكن أن يسبب الأورام الخبيثة والسرطان وأمراض الدم والأعضاب المستعصية ، كما أنه قد يؤثر على الوراثة . ومهما يكن من شىء فإن هناك عناصر أخرى مشعة ثبت تأثيرها القوى على الوراثة ! . . . ويقال إن جيلا من الحشرات والميكروبات ثم الفيروسات* الفتاكة فى طريقه إلى الظهور وتثبيت أقدامه على سطح الأرض وفى جوها من جراء ذلك أيضاً !!! وعلى رأسها جميعاً الأنفلونزا !

وبينما نجد أن الإشعاعات الذرية يمكن أن تحدث تغييرات جوهرية فى الجنس (وفى الخلايا الحاملة لخواص الوراثة ونحوها) فإنه يبدو أنه فى الأحوال العادية تتواجد أغلب هذه الأسباب خارج نطاق تأثير الإشعاعات . وقد وجد أن السترانشيوم ذو النشاط الإشعاعى له ميل خاص للاستقرار فى عظام الأحياء ويسبب تأثيره السام القوى الإصابة بالأنيميا والسرطان بأنواعه ، إلا أنه ضعيف التأثير على الخلايا الوراثية . وهناك عوامل طبيعية تعمل على تقليل كميات هذه المادة الخطرة ، كما أن الجسم البشرى لا يمتص أكثر من $\frac{١}{١٢}$ إلى $\frac{١}{٣٠}$ من

---

* ذرات لا ترى بالمجهر ، ما بين المادة الحية وغير الحية ، منها مجموعات كيميائية معقدة يساعد النشاط الذرى على تكوينها .

السترانشيوم الذرى الذى ترسب فى التربة ، ويمكن للماء الذى يجرى على بعد عدة سنتيمترات تحت سطح الأرض أن يكون خالياً من هذه المادة تماماً .

وهناك حالات جوية خاصة تتميز بطبيعتها بإمكان توفر الغبار الذرى فيها وعظم تركيز النشاط الإشعاعى بها عند إجراء التجارب ، أو لمجرد تسرب الإشعاعات الذرية إليها ، وأهم هذه الحالات الأجواء المتربة ، مثل الشابورة والرمال المثارة والعواصف الترابية ، فالغبار الجوى معرض لحمل الإشعاع الذرى ، ويمكن أن تلتصق به النويات المشعة . وما الغبار الذرى نفسه كما قلنا إلا مجموعة ضخمة معقدة من الجسيمات المشعة المختلفة فى هيئة ذرات وسحب ورماد وأبخرة سابحة ، تشترك فى تكوينها كافة الأجسام الداخلة فى صنع الجهاز النووى المتفجر ، وما يحيط به أو ما يجاوره من مادة عند انطلاقه . ولهذا السبب تعتبر الأجواء المتربة عموماً من أسوأ وأخطر الأجواء المحلية لإنشاء الوحدات الذرية .

وتوصف الوحدات الذرية بأنها ينحصر فيها الإشعاع الذرى فى حيز معين ، ولا ينطلق حرا كما فى تجارب الأسلحة الذرية . وعندما لا يتعدى انتشار الإشعاع الذرى حيزاً معيناً باستخدام الحواجز الخاصة فإن تأثيره ينحصر فى هذا الحيز أو ما يجاوره مباشرة ، أما إذا تسرب الإشعاع إلى الجو أو المياه

أو سطح الأرض بطريقة من الطرق أو لسبب من الأسباب ، فإن احتمالات تأثر الأحياء بهذه الإشعاعات تمتد إلى مسافات كبيرة ، ولما كان الجو المحلى ومكوناته أكثر الأوساط الناقلة للإشعاع من حيث الحركة ، وفى استطاعته نقل الإشعاعات بسرعة وتوزيعها على مساحات واسعة ، فإن الدراسة الجوية التى ترتبط بهذا الموضوع من الأهمية بمكان وترتبط ارتباطاً تاماً بالمسائل المتعلقة بالصحة وسلامة السكان .

وقد تكون المواد المتسربة فى هيئة غاز ، أو ذرات صغيرة مختلفة الأحجام ، كما أنها قد تتسرب إلى الجو باستمرار فى صورة إضافات صغيرة ، أو قد تنطلق بكميات هائلة نتيجة انفجار مفاجئ . وأحياناً تتسرب المواد المشعة فى درجات عالية من الحرارة ، وترتفع إلى مئات الأمتار قبل أن يتم انتشارها فى الجو ، فتكون أشبه شيء بالسحابة الذرية أو الانخفاض الذرى .

ومن اللازم تحديد الخواص الطبيعية للمواد المشعة المتسربة قبل أن يتم موضوع بحث تناثرها وانتشارها فى الجو ، كما أنه يجب أيضاً أن نعرف حجوم الذرات المنطلقة ، ويدخل فى إتمام هذه الدراسات قياس التوزيع الرأسى لدرجة الحرارة والرياح والتغيرات اليومية التى تطرأ عليها ، حتى يمكن معرفة

مدى الحركة غير الانسيابية ونشاطها المحلى . وكلما زادت سرعة الرياح كلما تبع ذلك ازدياد سرعة الانتشار فى الجو وتوزيع المواد المشعة على مساحات واسعة نسبياً ، فيقل تركيزها.

وعلى العموم يمكن أن نلمس أنه حيث تتركز الإشعاعات الذرية تكون معرفة سرعة الرياح واتجاهها من الأهمية بمكان ، ولهذا السبب يلزم دائماً تحديد أو وضع الافتراضات المختلفة التى تثيرها مسائل الرياح والغبار الجوى والنشاط الإشعاعى . ويدخل فى هذه الدراسات موضوع الكتل الهوائية المحلية وخصائصها وخاصة من حيث الرطوبة وكميات الأتربة العالقة بها واتجاهات تحركاتها إلى غير ذلك من الدراسات الجوية التى تتعلق بالوحدات الذرية والتى لا غنى عنها فى تأمين حياة السكان والبلاد عند إنشاء هذه الوحدات .

وقد دلت البحوث والتحليلات على أن الجرعات التى خصت عظام الأطفال من إشعاعات السترانشيوم المشع فى الوقت الحاضر — فجر العصر الذرى — تعادل أو لا تزيد عما ينتج من زيادة الإشعاع فى الطبيعة على ارتفاع ١٠٠ متر أو نحو ٣٠٠ قدم بالنسبة لقيمتها عند سطح البحر ، أو نحو $\frac{١}{١٦}$ من جرعة الإشعاع الطبيعى على ارتفاع ١٧٠٠ متر أو نحو ٥٠٠٠ قدم ، فمن المعروف أن النشاط الإشعاعى فى الجو

يوجد لأسباب طبيعية وأنه يزداد بالارتفاع عن سطح الأرض . وتعادل الإضافات الصناعية من جراء التجارب الذرية فى المتوسط حتى الآن نحو ١/٢٠٠ أو أكثر بقليل من الجرعة المقدرة لحدوث الخطر الحقيقى .

الأشعة الكونية والتأين الطبيعى فى الجو

فى عام ١٨٩٩ أعلن ولسون العالم الإنجليزى ثم ألستر وجيته العالمان الألمانيان اكتشافاً عد خطيراً فى ذلك الوقت ، فقد وجدوا أن جو الأرض بطبيعته ، أو من تلقاء نفسه ، يمكن أن يعد فى حالة تأين ، إلا أن درجة التأين هذه صغيرة وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، وخاصة باختلاف الارتفاع فوق سطح البحر . وفى العادة يكفى التأين الطبيعى فى الجو « أو عدد الجسيمات المشحونة بالكهربائية السالبة أو الموجبة التى تتولد فيه »

شكل (٨) كرة من النحاس معزولة ومشحونة بالكهربائية الموجبة تجذب إليها الكهارب السالبة التى تسبب تعادلها تدريجيا

لتفـــريغ أو معادلة شحنة كهربائية لجسم معزول بمعدل نحو ٥٪ فى الدقيقة من الشحنة العالقة عليه، أى أن الشحنة التى تفرغ فعلا تقل كلما نقصت شحنة الجسم المعزول ، ويمثل شكل (٨) هذه الظاهرة بفرض أن شحنة الجسم موجبة .

ومنذ ذلك الوقت بدأت البحوث حول هذا الموضوع فى أوروبا عامة وفى ألمانيا خاصة ، وانصب الاهتمام على قياس قيمة التأين ومدى التغيرات اليومية والسنوية فى هذه القيمة ، ولكن ظل سبب التأين فى الجو والتفسير العلمى له غير واضح ولا جلى ، وقامت عدة افتراضات أهمها :

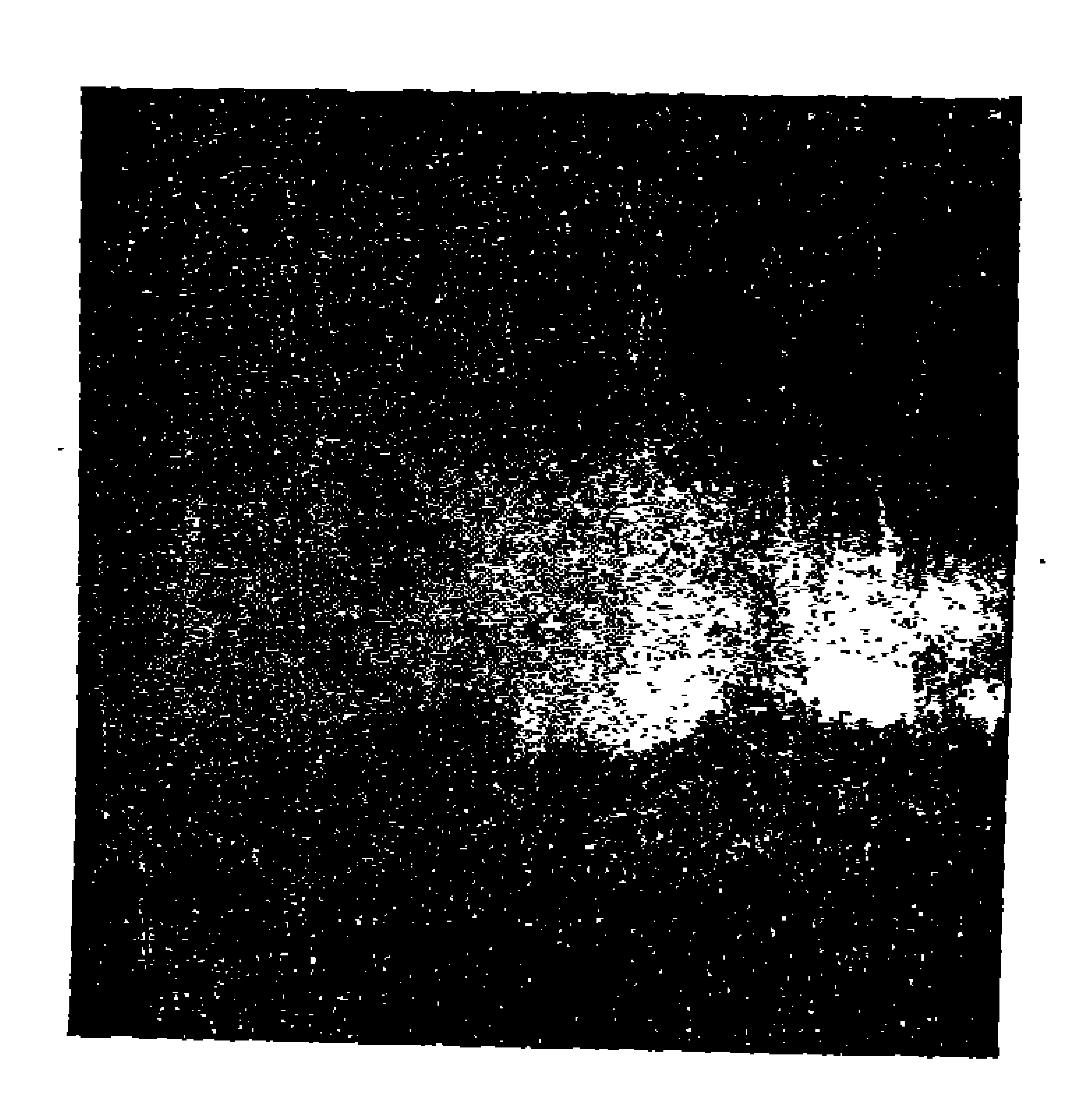
١ — إمكان قيام مواد الصخور المشعة الموجودة فى القشرة الأرضية بهذه المهمة ، ولكن لم يكن خافياً أن كميات هذه المواد لا يمكن أن تكفى لإنجاز التأين المشاهد فى الجو .

٢ — كان من المعروف أن الغازات الملتهبة يمكن أن تتأين ، فساد الاعتقاد أو الرأى القائل بأن الأيونات التى تشاهد فى جو الأرض هى مجرد أيونات متخلفة فى درجات حرارة طبقات الجو العادية، وأنها بذلك تزداد بازدياد درجة الحرارة .

٣ — كان من المعروف أن أشعة إكس أو الأشعة فوق البنفسجية يمكن أن تقوم بهذه المهمة وتفسر لنا الظاهرة ولو فى حدود معينة ، ولكن الشمس لا ترسل أشعة إكس بالمعنى

المعروف ، كما أن التأثيرات المختلفة لإشعاعاتها وطاقاتها التى ترسلها كل يوم كانت مجالا كبيراً للشكوك .

٤ — قدمت بعض التقارير التى قالت بأن التفريغات الكهربائية فى الجو المخلخل (أى المفرغ) المتأين العلوى التى تسبب ظاهرة الفجر القطبى أو الأورورا — شكل (٩) — كانت تصل إلى سطح الأرض فى خطوط العرض الكبيرة ، ولهذا اعتقد بعض العلماء أن التأين المشاهد فى الطبقات السطحية من الجو يمكن أن يعزى سببه إلى نفس أسباب التأين فى الجو



شكل (٩) أحد أشكال الفجر القطبى أو التفريغ الكهربائى فى الجو العلوى المخلخل المتأين (قوس من الأشعة الخضراء تتدلى منه ستائر قرمزية)

العلوى ، وإن نشاط الأورورا أو الفجر القطبى معناه ازدياد التاين فى طبقات الجو القريبة من سطح الأرض .

ولكى يدرس العلماء التأثيرات المباشرة لنشاط الفجر القطبى ثم للطاقة الشمسية شرعوا فى أخذ أرصادهم فى مناطق القطب الشمالى ، حيث يرى الفجر القطبى وحيث يدوم ضياء الشمس زهاء ستة أشهر متتالية فى فصل الصيف ثم يختفى وراء الأفق زهاء ستة أشهر أخرى فى الشتاء ، وبذلك سهلت المقارنة بين كميات التأين لمعرفة مدى تأثير تلك العوامل .

ولكى يحددوا تأثير درجات الحرارة على عمليات التأين فى الجو عملت قياسات لمعدل التأين فى كثير من بلدان أوروبا فى نفس الوقت الذى كانت تؤخذ فيه الأرصاد عند القطب ، ثم قارنوا بين كميات الأيونات التى تواجدت فى درجات الحرارة المنخفضة بالقرب من القطب مع مثيلاتها التى تواجدت فى درجات الحرارة المرتفعة نسبيا فى أوروبا ، ومن ثم أمكن إعداد معلومات ونتائج فى غاية الوضوح ، وأعلنوا أنه ليس لضوء الشمس ولا لدرجات حرارة الهواء ولا للفجر القطبى وملابساته أى تأثير على التأين فى الجو !

وبفضل عمليات الرصد العديدة هذه أمكن الجزم أيضاً بأن هناك فى المتوسط معامل ثابت يكاد فى المتوسط لا يتغير للتأين فى الجو ، وأن التغير فى قيمة هذه المعامل يتوقف على

مدى نشاط عملية اتحاد الأيونات الموجبة بالسالبة مرة أخرى ، وهذه العملية بدورها تتوقف على درجة شفافية الهواء أو خلوه من الشوائب ، وأهمها الأتربة والرمال المثارة . وعلى كل حال فإن عدد الأيونات التى تبقى فعلا فى الهواء هى محصلة عدد الأيونات التى تتولد فى الثانية وعدد الأيونات التى تتحد وتعود إلى جزئيات هواء عادية فى نفس الوقت ، كما أن ازدياد أو نقص معدل تولد الأيونات يتوقف على نشاط أو خمول السبب المباشر لعملية التأين فى الجو .

ومن النتائج التى توصل إليها أثناء البحث والتنقيب أن الهواء الآتى من بقاع يابسة يحتوى على كميات من المواد المشعة رغم صغرها قد تعادل أحياناً عشرة أمثال ما تحتوية كتل الهواء المقبل من البحر ، وهذا بطبيعة الحال لما تضيفه القشرة اليابسة إلى الهواء من المواد المشعة ، ولكن هواء البحر ما برح يحتوى على نسبة معينة أيضاً !

وأهم عناصر قشرة الأرض ذات النشاط الإشعاعى عنصر الراديوم ثم عنصر الثوريوم ، وينطلق منهما على التوالى نتيجة الانشطار الذرى غاز (الرادون) وغاز (الثورون) ، وهى غازات مشعة يمكن تعيين كثافاتها ونسب توزيعها فى الجو عن طريق الأحوال الجوية ، ثم باستخدام وسائل طبيعية ،

فيمكن مثلا جمعها بطرق كهربائية ، وقد قدر أنها تسبب نصف قيمة التأين الذى يشاهد فى طبقات الجو السطحية .
وبالرغم من أن التغيرات الطارئة على قيم هذه الغازات حسب تولدها فى الطبيعة فى مكان ما تتوقف على التقلبات الجوية والتغير فى الكتل الهوائية ، فإن العلماء أغفلوا هذه الناحية من البحث لسبب من الأسباب ، ولا يزال الموضوع بكراً ، ولا يزال الباب مفتوحاً على مصراعيه للباحثين ! !

وتقل كميات الرادون سريعاً بالارتفاع عن سطح الأرض ، فتصل إلى نحو نصف قيمتها فقط على بعد نحو ألف متر أو أقل . ولما كان التوزيع الرأسى لهذا الغاز فى أى مكان يتوقف على نشاط الحركة غير الانسيابية للهواء فى هذا المكان ، شأنه فى ذلك شأن سائر عناصر الجو الأخرى ، كما يمكن قياسه بكل دقة ، فإن مثل هذه الأرصاد والدراسات تعلمنا الكثير من خبايا الحركة غير الانسيابية ، كما تتيح لنا فرصة دراسة مواضيع جوية أخرى هامة .

وقد افترض بعض العلماء أن الأيونات ذات النشاط الإشعاعى تعمل فى الجو بمثابة نويات للتكاثف ، أو محطات تتجمع عليها جزئيات بخار الماء العالق فى الهواء لتكون نقطاً من الماء أو بلورات من الثلج داخل السحب ، فهى بذلك

أشبه شيء بالمصائد ! وافترض البعض الآخر أن هذه الأيونات ذات النشاط الإشعاعى لها ميزة قدح الزناد لشحن السحب بالكهربائية الجوية ، ولنمو سائر المكونات نموا ينتهى بتساقطها أو هطولها .

وفى نفس الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه البحوث آثر فريق آخر من العلماء المضى فى البحث والتفكير عن مصدر آخر للتأين ، فاستخدم إناء مقفل من المعدن جدرانه من صفائح الزنك النقى الخالص الخالى من المواد المشعة ، وعندما يتأين جزىء من الهواء الذى فى الإناء ينتج عن هذا التأين انفصال جسيم موجب التكهرب وآخر سالب التكهرب ، وهكذا تكون الأيونات الناتجة زوجية العدد ، وفى العادة يعبر عن معدل التأين بعدد أزواج الجسيمات الكهربائية التى تتولد فى كل سنتيمتر مكعب فى الثانية ، أى بعد الأيونات مأخوذة زوجاً زوجاً .

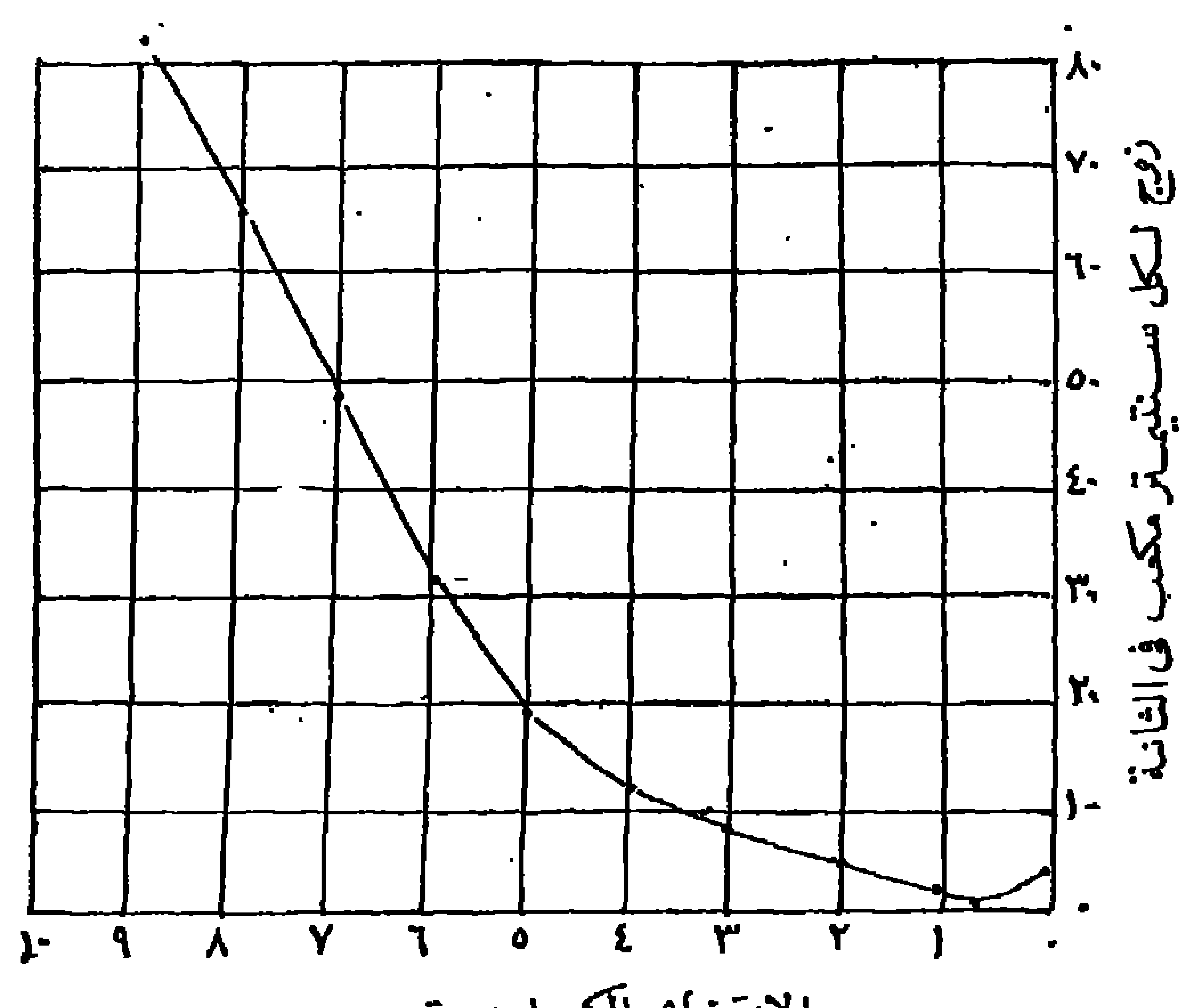
وعندما فحصت محتويات هذا الإناء المقفل أولا بأول وجد أن معدل التأين يتغير قيمته بتغير الزمان والمكان ، واستدل على أن السبب المباشر لعملية التأين فى الجو هو وجود أشعة معينة بعضها يخرج من مادة الأرض بينما يقبل البعض الآخر من الفضاء ، وفى مستطاعها كلها إنجاز عمليات

التأين . وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يحاط الإناء بجدران سميكة من المعدن لتمنع تأثير مواد الأرض المشعة ونفاذ أى إشعاع من إشعاعاتها إلى الداخل ، وعندما فحصت محتويات الإناء وجد أن العوامل الخارجية قل تأثيرها جدا ، ولكن ظل التأين قائماً بمعدل صغير جدا ، قدر بأدق الأجهزة وأكثرها حساسية بما يعادل زوجاً واحداً من الأيونات لكل سنتيمتر مكعب فى الثانية عند سطح البحر !

وتم الظفر العلمى وتكشفت الحقيقة عندما درس العلماء التغيرات الطارئة على معدل التأين مع الارتفاع عن سطح البحر ، وقد استخدموا فى سبيل ذلك عدة وسائل ، كان أجريت القياسات على ارتفاعات مختلفة من برج إيفل بباريس (يرتفع إلى أكثر من ٣٠٠ متر) ، كما استخدمت البالونات للوصول إلى ارتفاعات أكبر بكثير ، وجمعت أول إرصاد للبالونات فى الفترة بين ١٩٠٩ و ١٩١١ ميلادية ، ثم عممت ووصلت أرصادها إلى علو زاد على ١٠ كيلومترات ، أما فى هذا العصر فتستخدم الصواريخ التى ترتفع إلى مئات وآلاف الكيلو مترات ، كما تستخدم الأقمار الصناعية* التى تدور

* انظر كتاب (الصعود إلى المريخ) سلسلة اقرأ عدد أكتوبر ١٩٥٧ .

فى فلكها حول الأرض مدة طويلة وعلى أبعاد شاهقة جدا ، وملخص نتائج هذه الأرصاد كلها أن التأين يقل أولا إلى ارتفاع نحو ٧٥٠ — ١٠٠٠ متر ثم يأخذ بعد ذلك فى التزايد على النحو الممثل فى شكل (١٠) .



شكل (١٠)

التغير فى معدلات التأين مع الارتفاع فى الجو

ولم تكن تلك النتائج متوقعة ولم تكن لتخطر على بال أحد ، وأهم ما دلت عليه أن مواد سطح الأرض وقشرتها التى تتميز

بالنشاط الإشعاعى ليست هى السبب المباشر لتأين جو الأرض، ولكن السبب إنما يوجد فى طبقات الجو العليا ، ويتناقص تأثيره كلما قربنا من سطح الأرض . وعليه استنتج أن تلك الطبقات العليا تمتص نوعاً من الإشعاعات التى تقبل من فضاء الكون الفسيح ويبلغ مدى تأثيرها أضعاف ما لمواد قشرة الأرض المشعة من تأثير .

واحتدم الجدل العلمى حول مصدر هذه الأشعة ، وكثرت التكهنات ، وتعددت النظريات ، وأعيدت التجارب والقياسات فى مشارق الأرض ومغاربها للتأكد من صحة النتائج السابقة ، حتى أيقن العلماء أن الظاهرة كلها ترجع إلى اختراق أشعة فتاكة عظيمة التأثير لطبقات الجو العلوى تقبل من الشمس ومن الفضاء الكونى وسموها (الأشعة الكونية) . ووجد بالقياس أن هذه الأشعة تبلغ شدة نفاذها، أو قيمة أو مدى قدرتها على اختراق الأجسام المادية ، نحو ١٥ مرة بالنسبة لشدة نفاذ إشعاعات مواد قشرة الأرض مجتمعة ، وهى بذلك أشعة فريدة فى نوعها ، ولا يستطيع جو الأرض على عظم سمكه* من امتصاصها كلها بل يصل جزء منها

* يمكن أن يعتبر جو الأرض فى مرتبة طبقة أو حاجز من الزئبق سمكه ٣ أمتار بالنسبة لامتصاص مثل هذه الإشعاعات .

إلى سطح الأرض حيث يسبب التأين بمعدل زوج من الأيونات لكل سنتيمتر مكعب من الهواء فى الثانية على النحو الذى سبق أن ذكرناه .

وتشمل الأشعة الكونية فيما تشمل مجموعة من البروتونات ونويات ذرات الأيدروجين ونويات ذرات بعض العناصر الأخرى التى تتحرك بسرعة خارقة تجعلها تحمل كميات عظيمة جداً من الطاقة ، تصل فى مقاديرها إلى مئات بل آلاف المرات أضعاف الطاقة التى يمكن أن تحملها ما ينطلق من ذرات الأجسام المشعة على الأرض ، وهى بذلك من أكبر القوى الطبيعية التى يمكن أن تحطم ذرات المواد ، ولكن العصر الذرى قلب هذه الأوضاع ، وأصبح الغبار الذرى وما يصحبه من طاقات فى المقام الأول .

طبيعة وكميات الغبار الذرى المترسب

قلنا إن الأسلحة الذرية تولد سحباً وأتربة تصل إلى ارتفاعات تتوقف على مقدار الطاقة المنطلقة ، وعلى طبيعة الوسط الذى يتم فيه الانفجار « مثل الهواء أو القشرة الأرضية أو الماء » . وأغلب الأسلحة التى طاقاتها فى حدود الطاقة المنبعثة من تفجير آلاف أطنان الديناميت يقتصر غبارها على منطقة التروبوسفير ، أما ذوات ملايين الأطنان (المجاطن) فهى من القوة بحيث تستطيع أن ترسل كميات وفيرة من الغبار الذرى إلى طبقة الستراتوسفير . وينتشر الغبار والرماد سريعاً بدورات الرياح كما أنه فى نفس الوقت يأخذ فى الترسب « كمطر ذرى » بطرق مختلفة معقدة وبكميات متباينة . ومن أهم الدراسات والبحوث التى أثيرت فى هذا الشأن المسائل الآتية :

١ — طريقة انتشار الغبار فى الاتجاهين الرأسى والأفقى .

٢ — عوامل ترسب الغبار إلى سطح الأرض ، وأكثر الظروف الملائمة للترسب .

٣ — ترسب الغبـــار من طبقة الستراتوسفير إلى طبقة

التروبوسفير ثم إلى سطح الأرض ، ومعدل هذا الترسب ، خصوصاً وأن من هذا الغبار أنواع يستغرق ترسبها ما يقرب من ١٠ سنوات !

٤ — إزالة الغبار الذرى أو التخلص منه بطريقة من الطرق.

وقد قسم الغبار الذرى من حيث مجرد مجالات ترسبه إلى ثلاثة أنواع هى :

١ — الغبار الذى يتساقط خلال العشرة أو العشرين ساعة التى تلى الانفجار ، وهو بطبيعة الحال غبار حديث التولد عظيم النشاط الإشعاعى ، كما أنه كبير الحجم نسبياً.

٢ — الغبار الذى يترسب خلال المدة الممتدة من عدة أيام إلى عدة أسابيع من تاريخ الانفجار ، ومثل هذا الغبار يمكن أن نطلق عليه اسم « الغبار متوسط العمر » ، ذلك لأنه لا يكون حديث التولد كسابقه وليس هو قديم التكوين بالمعنى الصحيح.

٣ — الغبار القديم ، وهو الذى يبقى عالقاً خلال الفترات الممتدة من عدة شهور إلى عدة سنين ، قد تصل إلى عشرة ، وأغلبه تسببه الانفجارات العنيفة ، كما أنه يتساقط ببطء شديد من أعالى منطقة التروبوسفير أو من منطقة الستراتوسفير كما قلنا.

وأهم العوامل الطبيعية التى تعمل دائبة من تلقاء نفسها

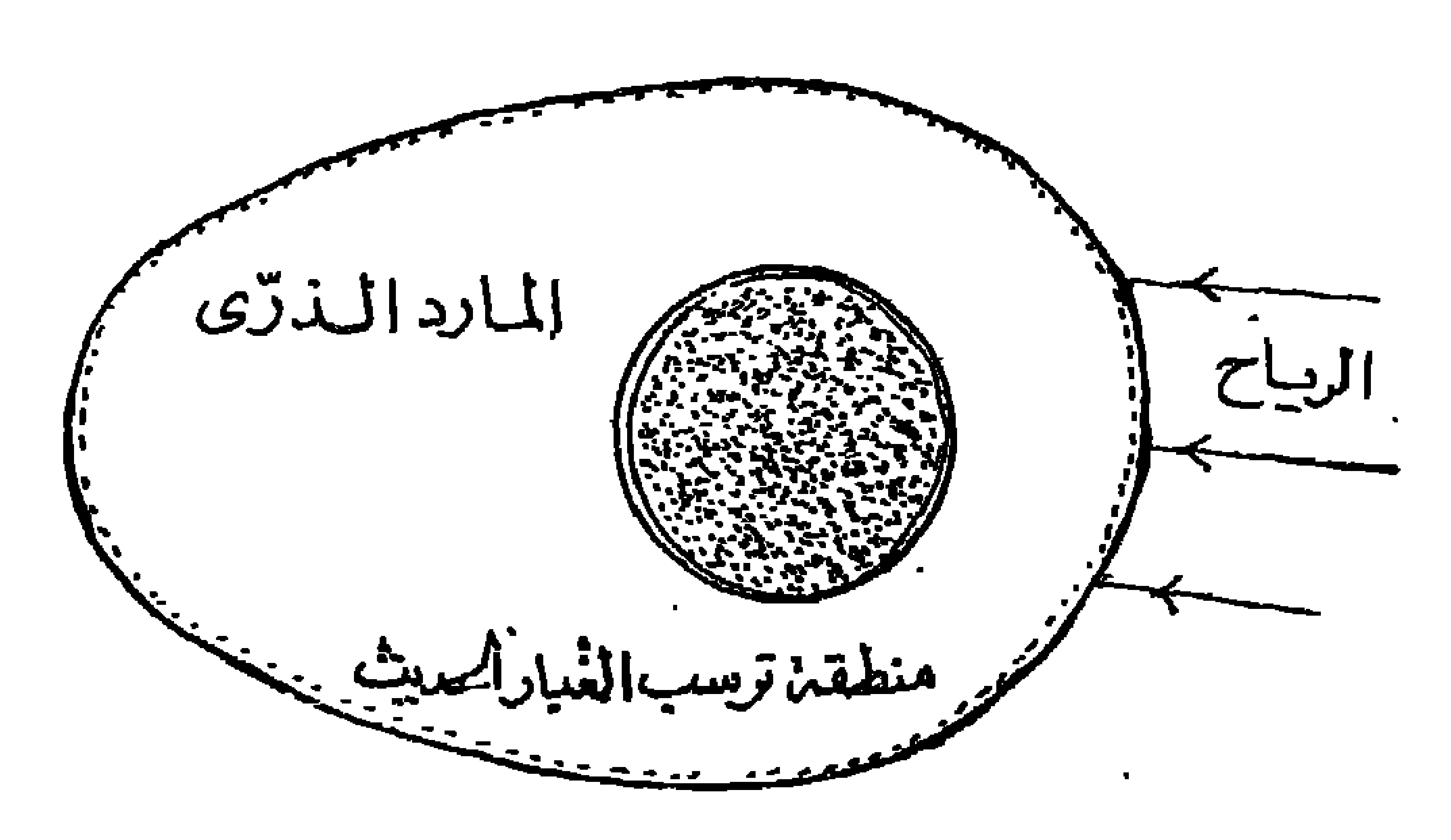
على ترسيب الغبار الذرى هى : (١) جذب الأرض ، فذرات الغبار يمكن أن تتساقط إلى الأرض متأثرة بأوزانها أو جذب الأرض لها تماماً كما تتساقط الأجسام الأخرى . (٢) الهطول بأنواعه ، وخصوصاً الأمطار ، فنقط المطر وحبات البرد وبلورات الثلج والجليد المتميع المتساقط من السماء كلها يمكن أن تحتبس معها كميات من الغبار الذرى والغبار الجوى عموماً بطريقة من الطرق وتسوقها معها إلى سطح الأرض أو البحر أو إلى مجاريها . (٣) الحركة غير الانسيابية فى الجو الطليق الحر ، وتكون هذه الحركة أهم وسائل ترسيب الغبار الذرى القديم نتيجة التبادل المستمر الذى تسببه لشوائب الهواء فى الاتجاه الرأسى ، فهى تحمل بعض محتويات الطبقات السفلى إلى ما يعلوها من طبقات كما أنها فى نفس الوقت تحمل بعض محتويات الطبقات العليا وتردها إلى سطح الأرض . وتأتى أهم الوسائل المستخدمة لقياس الغبار الذرى عن طريق قياس كمياته المترسبة فعلا على سطح الأرض بما فى ذلك سترانشيوم ٩٠ ، أما الكميات التى تتساقط مع أنواع الهطول المختلفة فهى لا تعطى فكرة صحيحة نظراً لتسرب المياه إلى الوديان والمجارى واختلاطها بغيرها ، وهناك أجهزة عديدة مثل « عداد جيجر » وغيره لإمكان قياس التركيز الإشعاعى فى الجو نفسه .

الغبار الذرى الحديث

يترسب هذا الغبار بأجمعه على بعد بضعة مئات الكيلو مترات من مكان الانفجار ، وتختلف كمياته وعينات حباته باختلاف قرب أو بعد السلاح الذرى عن سطح الأرض أثناء عملية الانفجار نفسها ، فإما أن تنطلق القنبلة فى أعالى الجو ، وإما أن تنطلق قريباً من سطح الأرض ، وأما أن يكون الانفجار على سطح الأرض مباشرة * ، وفى هذه الحالة الأخيرة بالذات تهشم وتتمزق وتتبخر كميات لا حصر لها من مادة قشرة الأرض وما عليها (تقدر بآلاف أو بملايين الأطنان !) ، ويصبح بعضها أثراً لعين ، وتختلط هذه المساحيق بمواد القنبلة نفسها وإشعاعاتها المنطلقة وتكون مجموعة ضخمة من الغبار الذرى المشع الذى يصعد إلى السماء فى صورة مارد جبار . وعندما تتوقف السحابة الذرية عن النمو فى الاتجاه الرأسى تكون الدوامات العنيفة المتولدة داخلها قد هدأت

* عندما يراد تدمير مكان بالذات أو محو معالم مساحة برمتها !

أو توقفت بالفعل ، ويستغرق ذلك بعضاً من الوقت تبدأ بعده الجسيمات الكبيرة وذرات الرماد الثقيلة فى الترسب إلى سطح الأرض ، وتتمخض الحوادث والأمور سريعاً عن تكوين مساحة واسعة حول مكان الانفجار تمتد مع خط هبوب الرياح ، وتغطى هذه المساحة كلها بذرات نشطة الإشعاع جدا على النحو الموضح فى شكل (١١) .



شكل (١١) يمثل ترسب الغبار الحديث فى الانفجارات السطحية

وعندما يتم الانفجار بحيث إن الكرة النارية ، أو جسم القنبلة المتفجر والمتوهج من شدة الحرارة ، يتم تلاشيها قبل أن تصل إلى سطح الأرض — كأن تلقى من طائرة على ارتفاع غير

قليل مثلا — لا تكون هناك فرصة كافية لاختلاط مواد القنبلة المشعة بأتربة القشرة الأرضية وأبخرتها ، وقد لا تتاح الفرصة لإثارة تراب الأرض . وعندها يتكون أغلب الغبار الذرى من مواد القنبلة ذاتها ، ويكون فى صورة ذرات دقيقة الحجم جدا وعظيمة النشاط .

وقد رصدت حالات تم فيها الانفجار على أبعاد غير قريبة من سطح الأرض ، ورغم ذلك انبثقت مواد الأرض مندفعة إلى أعلى كأنها تحشر حشراً إلى جسم المارد الذرى ، أو العمود الشامل للأتربة والغازات والأبخرة والإشعاعات والأضواء والحرارة وبالرغم من أن أطناناً عديدة من الرمال وحطام المادة يمكن أن تشترك فى بناء هذا المارد — شكل (١٦) — إلا أن الاختلاط والمزج بين سائر المكونات لا يكتمل كما فى الحالة الأولى ، وتترسب كميات صغيرة نسبياً من المواد ذات النشاط الإشعاعى فى المنطقة كلها . كما يقل الغبار الذرى عموماً ، أو يقل تلوث الجو بالذرات المشعة .

وتدل الأبحاث والتجارب على أنه فى سائر التفجيرات السطحية يترسب نحو ٧٠ ٪ أو ٨٠ ٪ من الذرات المشعة على مساحة تمتد إلى مئات الكيلومترات من مركز الانفجار ، وتزداد هذه النسبة كثيراً إذا تم الانفجار تحت سطح الأرض

رغم أن هناك قنابل نظيفة قليلة الغبار . وتحمل الأهوية المختلفة الشدة والاتجاه الرماد إلى سائر البلاد حيث يمكن أن يترسب من طبقة إلى أخرى قبل أن يستقر على الأرض . ويتناسب زمن ترسب أى نوع من الذرات خلال أى طبقة من طبقات الجو تناسباً عكسياً مع سرعة هبوط الذرات أو معدل سقوطها فيها ، بمعنى أن الذرات الثقيلة تهبط بسرعة كبيرة وتترسب فى أزمنة أقل من الذرات الخفيفة أو الصغيرة ، وعلى ذلك فإن المسافة الأفقية التى يمكن أن تقطعها عينات بالذات من الغبار الذرى أثناء ترسبها من ارتفاع معين يمكن التعبير عنها بتجميع المسافات الأفقية التى يقطعها الغبار أثناء ترسبه فى الطبقات المختلفة التى يتضمنها هذا الارتفاع . أما معدل الترسب لأى ذرة فهو كما قدمنا يتوقف على حجمها وشكلها وكثافتها وارتفاعها ثم على القوى الناجمة من حركة الهواء غير الانسيابية ، مما يستلزم رصد الجو العلوى بكل دقة ، ويتم ذلك باستخدام البالون المذيع الذى يرسل على أمواج لاسلكية معينة قيم الضغوط على ارتفاعات عظيمة وما يناظرها من درجات الحرارة والرطوبة .

والمعتقد أيضاً أن نسب الترسبات المحلية من الغبار الذرى (والغبار الحديث) تزداد كثيراً كلما كان السلاح الذرى

صغيراً ، لأن أغلب المواد التى تتولد من الأسلحة الكبيرة (عظيمة الطاقة) ترتفع إلى مسافات كبيرة ، وقد تصل إلى فوق طبقات تكون السحب ونزول الأمطار .

الغبار الذرى متوسط العمر

بالرغم من أن ترسب الأتربة الذرية الحديثة يتم كله تقريباً بفعل الجاذبية ، وبالرغم من أن الترسب بالجاذبية يستمر نشطاً بعد ذلك خلال عدة أيام ، كما تترسب بفعل الحركة غير الانسيابية كميات لا بأس بها من هذا الغبار ، وخاصة كلما انتشرت السحب الذرية ودفعت بها الرياح فى اتجاهات هبوبها فى الطبقات المختلفة ، فإن العامل الأساسى لترسب الغبار الذرى متوسط العمر هو الهطول بأنواعه . ففى إحدى الاختبارات (قنبلة نيفادا عام ١٩٥٥ مثلا) ترسب أكثر من ٨٠ ٪ من الغبار الذرى متوسط العمر بواسطة المطر الذى أعقب تلك التجربة ، كما أن نحو نصف الغبار الذرى الذى أثارته القنبلة ترسب فى طبقة التروبوسفير فى مدى ٢٢ يوماً من تاريخ إجراء الاختبار أو إطلاق القنبلة .

وقد لوحظ أنه فى بعض حالات المطر الخفيف جمعت عينات من الهطول احتوت من الغبار الذرى ضعف القيمة التى كانت تجمع فى الأيام غير الممطرة ، كما أن كميات الغبار الذرى المجموع ازدادت كلما اشتد تساقط المطر ، وفى المتوسط ترسب من الغبار الذرى فى الأيام الممطرة نحو ٤ إلى أكثر من ١٠ أضعاف ما ترسب منه فى الأيام العادية غير الممطرة ، وهذه الظاهرة هى من الأهمية بمكان ، فكما أننا قد نعزو ازدياد كميات الغبار الذرى المترسب فى الأيام المطيرة لازدياد الهطول يمكن أن نعكس الآية ونعزو ازدياد كميات الهطول ، كلها أو بعض حالات منها على الأقل ، إلى ازدياد تركيز الغبار الذرى فى تلك الحالات ، خصوصاً وأن علاقة طبيعية يمكن أن تقوم على أسس سليمة فى كل من الحالتين ، وسنبين ذلك عند الحديث عن « نويات التكاثف » . ويذكرنا موضوع ترسب الغبار الذرى وما يتبعه من أيونات منتجه بواسطة المطر ، أو ترسب المطر متأثراً بالغبار الذرى وما يتبعه من أيونات منتجة، بمسألة قديمة محورة بعض الشىء لتقريبها للفهم ، فحواها : أيهما أعطى الآخر البيض أم الدجاج؟ ! والمعروف أن الدجاج يعطى البيض كما أن البيض هو الذى يعطى الدجاج أيضاً ! ....

ويتناثر عمود الغبار الذرى وينقسم إلى عدة أجزاء بواسطة

تيارات الهواء فى الطبقات المختلفة ، وينطلق كل جزء فى صورة عدة سحب ذرية يصحبها نشاط عظيم فى كل من الإشعاع والتأين ، وعندما تلائم الأحوال الجوية سقوط المطر مع مرور مثل هذه السحب تبلغ قيم ما يترسب من الغبار الذرى أقصاها ، وقد تصل إلى ٢٠ مرة ضعف ما يترسب إذا لم يتساقط المطر . وهناك إلى جانب هذا كله ترسبات محلية للأتربة الذرية تحدث على المرتفعات والمبانى ونحوها بسبب اعتراضها للغبار واحتكاكها به ، ولهذا تتواجد المواد المشعة فى العصر الذرى بكثرة نسبية على أغصان الشجر وأوراقه والأعمدة والتماثيل والمبانى العالية ونحوها . . .

ترسب الغبار الذرى القديم

تظل بعض أنواع من الغبار الذرى عالقة فى الجو بسبب صغر حجمها والارتفاعات الشاهقة التى تصل إليها ساعة الانفجار . وقد امتد المارد الذرى فى بعض الحالات إلى علو ٨٠٠٠٠ قدم أى نحو ٢٥ كيلومتراً !! نتيجة الانفجارات الذريعة بطبيعة الحال . ويتساقط بعض هذا الغبار تدريجيا من طبقة الستراتوسفير إلى طبقة التروبوسير ببطء حيث يمكن أن يترسب جزء منه بواسطة المطر ، إلا أنه لا يكون فى حالة سحب أو تجمعات كما فى الحالة السابقة ولا يتساقط منه بالأمطار إلا كميات صغيرة نسبياً . وتعمل الحركة غير الانسيابية على تساقط أغلب هذا الغبار ، ويستغرق ذلك عدة شهور ، بل وعدة أعوام ، بل وعشراتها !

وتجرى التجارب الذرية عادة فى المناطق النائية الخالية ، وفى حالة جوية مستقرة ، أى غير ملائمة لتكون العواصف والأنواء ، كما تكون تيارات الهواء فى طبقة الستراتوسفير منتظمة، فهذة التيارات العالية هى التى تعمل على توزيع الغبار الذرى

لدقيق فى الطبقات العليا ، وقد شوهد أنها توزع الغبار على خطوط الطول المختلفة بسرعة أكبر من توزيعها الغبار على خطوط العرض ، كما أن سرعة واتجاه الهواء فى تلك الطبقات عموماً تتغير أيضاً بتغير الارتفاع والمكان والزمان .

ومجمل القول وملخصه أن الغبار الذرى الذى يبقى عالقاً فى الجو ليكون الذرات المتوسطة والقديمة العمر تصل أقطار جسياته إلى أصغر من جزء من عشرة من الميكرون وإلى أصغر من جزء من مائة* من الميكرون على التوالى ، كما تتخلص الطبقات الجوية السفلى من الغبار الذرى بمعدلات سريعة بفعل التكاثف داخل السحب ونزول الأمطار ، وأعظم نتاج الانشطارات الذرية خطراً على وجه العموم هو سترانشيوم ٩٠ الذى قد يظل عالقاً عدة سنين ، وخاصة فى طبقات الجو العلوى (فى طبقة الستراتوسفير أو الطخرورية) حيث يمكن أن يمكث من ٥ إلى ١٥ سنة ، ومعنى ذلك أن أغلب ترسبات الغبار الذرى الذى دخل طبقة الستراتوسفير فى مستهل العصر الذرى لم تتم بعد ، بل ولم تصل إلى معدلاتها الكبيرة بعد ، وقد يكون لها من الأثر ما لا نعرف ! . . .

---

* عندما يقل طول القطر عن ١و٠ ميكرون تصبح عمليات الجمع والقياس ونحوها من الصعوبة بمكان ، وقد تكون مستحيلة .

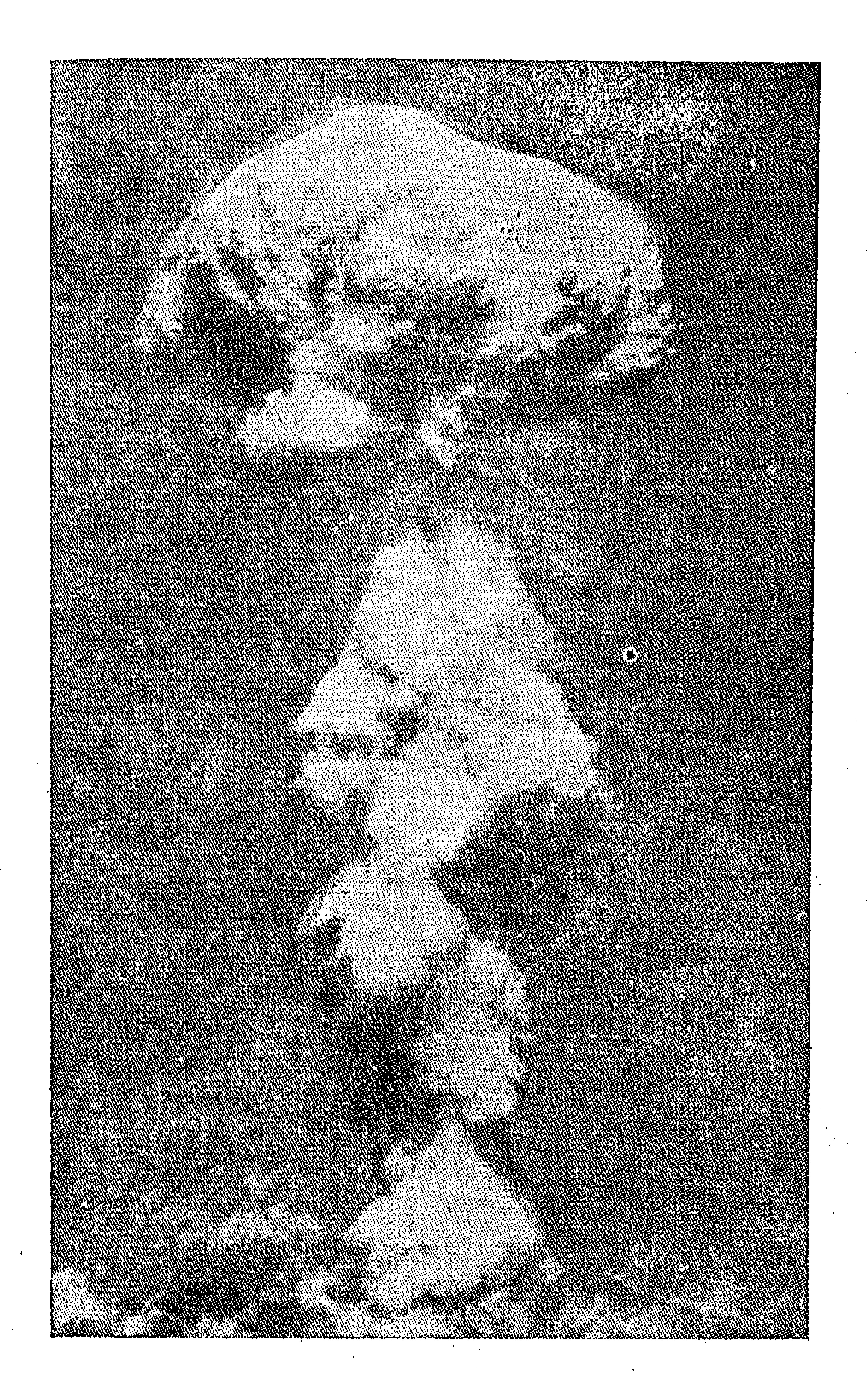
ارتفاع وحجم المارد الذرى

يتضح من كل ما سبق أن مجموع الطاقات التى تولدها القنبلة، والارتفاع عن سطح الأرض الذي يتم عنده الانفجار، هما عاملان أساسيان يتوقف عليهما بناء جسم عمودى الغبار والنار، ومن ثم توزيع الترسبات القريبة والبعيدة، ويحدد الارتفاع الذى تصل إليه قمة العمود مدى المسافات الأفقية التى يمكن أن تسلكها الذرات المشعة المختلفة الحجم والصفات قبل أن تترسب وتستقر على الأرض نهائياً، وهذا عمل من اختصاص رجال الطبيعة الجوية.

وفى بضعة الثوانى الأولى التى تلى الانفجار مباشرة تنمو كرة النار بسرعة عظيمة جدا، ذلك لأنه كلما ازداد داخلها الضغط تمددت سريعاً ليتساوى الضغط فيها بضغط الهواء الجوى الخارجى تقريباً، وتلك خاصية من خواص الضغط فى مثل هذه التغيرات، أما درجة الحرارة فتزيد فى الداخل آلاف الدرجات فوق درجة حرارة الجو الخارجى، وعلى ذلك تقل الكثافة جدا فى كرة النار المتمددة، وينـدفع الهواء إليها مقبلا من

كل مكان ، من أسفل ومن الجوانب ويجبرها على الارتفاع ...
ولكنها لا ترتفع ككتلة من الهواء الساخن أو كفقاعة ساخنة ،
بل يتولد داخلها تيارات حمل شديدة وحركات غير انسيابية
عنيفة ، فيستمر الارتفاع على هيئة حلقات عظيمة من الدخان
— شكل (١٢) — .

وكلما علت قمة المارد الذرى ، وكلما نما هذا العملاق فى
الجو وازداد حجمه وأقبلت إليه الأهوية من أسفل محملة
بما شاءت لها المقادير ، كلما قلت درجة الحرارة فى الداخل
متأثرة بعمليات المزج والخلط وإضافة الهواء البارد من الخارج
ثم بالإشعاع ، فالإشعاع وخاصة الحرارى يفقد المارد كثيراً من
طاقته ، كما أن جسمه (أو عمود الدخان والنار) كلما ارتفع
فى الجو برد من تلقاء نفسه بمعدل كبير ، فالمعروف أن الصعود
فى الجو يتبعه حتما التبريد ، والهواء الجوى عندما يصعد يبرد
ولا يقوى على حمل أبخرة المياه العالقة فيه فتترسب هذه مكونة
السحب والأمطار والهطول بأنواعه تبعاً لحالة الجو السائدة محليا .
وعندما يصل متوسط درجة الحرارة فى الداخل إلى متوسط
مستواها فى الخارج يقف نمو المارد وارتفاعه إلى أعلى ، ولكن
بالرغم من ذلك تظل هناك كميات وفيرة من طاقة الحركة غير
الانسيابية أو المزجية داخل المارد . وفى حالات قنابل ملايين



شكل (١٢) مارد الغبار الذرى

الأطنان يستمر سحب الهواء من أسفل حتى بعد حدوث التوازن الحرارى لمدة تختلف من ١٠ إلى ٢٠ دقيقة ، وتكون النتيجة الحتمية لاستمرار سحب الهواء هذا بواسطة الدوامات الداخلية هو نمو الجسم فى الاتجاهات الأفقية ، وهنا يتعقد شكل المارد أو العمود ، ويصبح تركيبه غامضاً ويتعذر رصده كله وتتبع مجرى الحوادث فيه أو من حوله !

ومن المستحيل دراسة توزيع الغبار الذرى داخل المارد نفسه فى مثل هذه المراحل ، أو رسم صورة حقيقية لمكوناته الأصلية ، إلا أن هذه المكونات يمكن تعيينها نظريا ، وخاصة برصد الترسبات المختلفة بعد انتهاء التجربة بمدة كافية كما رأينا . ومهما يكن من شيء فإن قمة العمود وأعلى أجزاء فيه تسود فيها الذرات الصغيرة والقليلة الكثافة عموماً ، بينما تسارع الجسيمات الثقيلة والكبيرة إلى التساقط فى القاعدة .

ويمكن حساب كميات الغبار الذرى الذي يكون جسم المارد إذا أخذت بعض الرصدات الخاصة فى كل حالة ، مثل ارتفاع الجسم ، والزمن الذى يستغرقه تكونه ، ومساحة مقطعه وهكذا . . . وقد حسب المؤلف قيمة شدة الحركة الدوامية أو عنفها داخل عمود الغبار أو المارد الذى تولد من انفجار قنبلة ذرية على سطح الأرض وانطلاق طاقة

تعادل عدة آلاف أطنان الديناميت واكتمل نموه إلى نحو ١٥ كيلومتراً فى ٥ دقائق فوجدها ٣ × $١٠^{٩}$ وحدة تقريباً .

ولما كانت درجة تركيز الغبار الجوى فى أشد حالات الهبوب عنفاً ، وعندما تبلغ شدة الحركة الدوامية $١٠^{٦}$ هى حسب بحوث المؤلف وسلسلة نشراته عن الغبار الجوى $١٠^{٥}$ لكل سنتيمتر مكعب من الهواء ، فإننا نجد أنه إذا احتفظنا بنفس النسبة تكون درجة تركيز الغبار الذرى فى مثل هذه الحالة هى نحو $١٠^{٨}$ جسيم لكل سنتيمتر مكعب من جسم المارد . وبديهى أن هذا التوزيع يكون منتظماً تقريباً على كل الارتفاعات أثناء نشاط الحركة المزجية ، أى فى أول الفترة .

وإذا اعتبرنا نصف قطر العمود خلال الخمسة دقائق الأولى نحو ٣٥٠ متراً أو أكثر بقليل (وهو رقم لا يختلف عن القيمة التى سنحسبها كثيراً) ، فإن عدد حبات الغبار الذرى المتكون يصل إلى $١٠^{٢٤}$ حبة، أى عشره متبوعة بثلاثة وعشرين من الأصفار على الأقل !!! إن مثل هذه الكمية الضخمة لا يمكن وصفها ولا عدها ، وهى تفوق حد الخيال ، إلا أنها تفسر لنا كيف أثر تعدد التجارب الذرية على الأرض وعلى الجو ولوثهما بإشعاعات وذرات. وأتربة أضرت بالإنسان وما يملك من نبات أو حيوان خلال فترات غيرقصيرة أعقبت تلك التجارب، رغم أنها كلها من صنع البشر قبل كل شىء !!

القنبلة الذرية كمصدر حرارى

كان انفجار أول قنبلة ذرية فى نيومكسكو عام ١٩٤٥ بداية سلسلة من التجارب والحادثات العلمية التى تذكرها أمم الأرض وتجعل منها فاتحة العصر الذرى ، كما تتناولها بالتعليق من وجهات نظر عديدة ، وسنحاول هنا أن نعرف شيئاً عن الانفجار الذرى من وجهة نظر جديدة تشمل الطاقة الحرارية المتولدة وما يصحبها من تيارات الحمل حتى نستطيع إكمال معالجة الموضوع وتكوين صورة سليمة له .

ويتضمن تيار الحمل ارتفاع كتل برمتها من الهواء الساخن إلى أعالى الجو وهبوط أخرى باردة لتحل محلها على النحو الذى سبق ذكره ، وهى تلعب دوراً هاماً فى نقل الحرارة من أمكنة وفرتها على سطح الأرض إلى مناطق شحتها فى الطبقات العليا . وتختلف تيارات الحمل من حيث الشدة والاستمرار باختلاف الكتل الهوائية ، وهى عموماً تشتد كلما كان الفرق فى درجة الحرارة بين الهواء الساخن الصاعد والهواء المحيط به كبيراً .

وفى العادة تحدث تيارات الحمل إثر تسخين أشعة

الشمس لسطح الأرض أثناء النهار على مساحات واسعة ، تقدر بآلاف الكيلو مترات المربعة ، فلا يمكن مشاهدة الحمل فى الطبيعة بشكل ملموس أو واضح* ، ولكن المارد الذرى يعطينا صورة جلية لما قد تكون عليه أشد تيارات الحمل عنفاً على مساحة صغيرة ملموسة ، خصوصاً إذا تتبعنا حركة الكرة النارية ثم انبثاق المارد الذرى من حولها .

وتأتى كل مشاهداتنا وتقديراتنا عن طريق التقارير الرسمية التى تذاع بخصوص ما أجرى من تجارب الأسلحة الذرية ، خصوصاً بمعرفة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك حقائق يقوم عليها البحث هى :

١ ـــ الانفجار الذرى يعادل من حيث القوة فى المتوسط ما ينجم عن انفجار نحو ٢٠ ألف إلى ٣٠ ألف طن من الديناميت (المفرقعات شديدة الانفجار) .

٢ ـــ يمكن أن يصل الرماد الذرى (أو المارد الذرى) إلى علو نحو ٤٠ ألف إلى ٥٠ ألف قدم (تعادل من ١٣ إلى ١٧ كيلومتراً تقريباً) قبل أن يبدأ فى الانتشار الأفقى ويعمل فيه الترسب بأنواعه .

---

* بسبب كبر المساحة من ناحية واختلاط معالم الأهوية الصاعدة والنازلة من ناحية أخرى .

٣ ـ يصل الرماد الذرى إلى هذه الارتفاعات فى الجو فى فترة وجيزة متوسطها خمس دقائق فقط من ابتداء الانفجار .

أما الحقيقة الأولى فيمكن أن يعبر عنها أيضاً بكميات الحرارة أو الطاقة الحرارية المتولدة ، فمن المعروف أن المواد سريعة الانفجار كالديناميت الذى يستخدم فى الحروب تنبعث منها كميات وفيرة من الحرارة ساعة الانفجار تعادل نحو ألف سعر حرارى لكل جرام ، وعلى ذلك فإن كمية الحرارة المنبعثة من القنبلة الذرية العادية يمكن أن تكون فى حدود :

3×10^{13} إلى 2×10^{13} سعر حرارى

أى ٣ أو ٢ متبوعة بثلاثة عشر من الأصفار ! وهى كمية من الحرارة عظيمة جدا تكفى لتبخير كمية من ماء البحر حجمها لا يقل عن ٥٠ ألف متر مكعب . وعلى ذلك فإن بحيرة عادية طولها نحو كيلومترين اثنين ، وعرضها نحو ٢٥٠ متراً ، ومتوسط عمقها نحو ١٠ أمتار يمكن تبخيرها نظريا بأن يفجر فيها أقل من ١٠٠ قنبلة ذرية ، أو قنبلة واحدة أيدروجينية !!

وكما قلنا يكون الضغط داخل كرة النار المتولدة بالانفجار كبيراً جدا ، ولهذا تتمدد الكرة بسرعة فائقة حتى يتساوى الضغط داخلها مع الضغط الجوى الخارجى ، كما أنها تستمر

فى الارتفاع بسبب قلة كثافتها الناتج من ارتفاع درجة حرارتها ، ولا يتوقف نموها الرأسى إلا عند الارتفاع الذى تهبط فيه درجة الحرارة إلى درجة حرارة الهواء الذى من حولها ، وعندها يكتمل نمو المارد الذرى ، الذى يرجع فى أصل تكوينه إلى كرة عظيمة تنمو فى الاتجاه الرأسى بمعدل أكبر بكثير من معدل نموها أفقيا للأسباب التى ذكرناها .

وإذا قدرنا أن وزن المواد المستعرة أو المتفجرة ، وسائر مواد الأرض التى تشترك فى بناء سائر مكونات مارد الرماد الذرى يعادل نحو ٢٠ ألف طن فى حالة القنبلة الذرية العادية المنطلقة على السطح ، فإن متوسط الارتفاع فى درجة الحرارة يصل إلى ٣٠٠٠ درجة سنتيجراد ، وهى كافية لصهر جميع ما يصادفها من مواد الأرض وصخورها ومعادنها وتحويلها إلى أبخرة ، بل وقد يزيد على هذا القدر بكثير . أما فى القنابل الأيدروجينية فهذا الرقم بطبيعة الحال يدخل فى مرتبة الملايين بسبب تضاعف الطاقات الحرارية المنبعثة .

وبطريقة حسابية بسيطة يمكن الاستدلال على أن متوسط قطر الكرة النارية يمكن أن يصل فى نهاية تمدده إلى ٧٥٠ متراً ، أو ٣/٤ كيلومتراً ، وهذه نتيجة فى غاية الأهمية ، وقد سبق أن استخدمنا مثل هذا الرقم ، وهو لا يمكن قياسه عمليا ، كما

لا يسمح بإعلان قيمته فى التقارير الرسمية لأسباب فنية وغير فنية أو أسباب حربية ! إلا أن أوصاف مراسلى الصحف ومكاتبى الجرائد تكاد تتفق على أن هذا الرقم واقعى ويمثل الحقيقة إلى حد كبير . ومعنى ذلك أنه بصرف النظر عن الغبار الذرى وترسباته التى عالجناها ، تغطى القنبلة الذرية عند انفجارها مساحة تكاد تكون دائرية قطرها ثلاثة أرباع الكيلو متر ، ترتفع درجة الحرارة داخلها إلى قدر يعادل نصف درجة حرارة سطح الشمس ، فلا يبقى ولا يذر ! وسرعان ما تتسرب هذه الطاقة كلها إلى الجو حتى يتم التعادل الحرارى تقريباً ، وعندها نقول إن السحابة الذرية قد بردت وأخذت تتناثر بالرياح .

عوامل التبريد

يجىء التبريد أول ما يجىء عن طريق الإشعاع ، أو انطلاق الحرارة فى صورة طاقات أثيرية تماماً كما تنطلق الحرارة من الشمس إلى الأرض . ويبرد المارد الذرى كما يبرد هواء الفرن الساخن ، إلا أن هذا العامل يقل أثره كلما انخفضت درجة الحرارة ويتطلب بعض الوقت لإحداث التبريد اللازم .

ويأتى التبريد أيضاً عن طريق التمدد والانتشار للغازات ، فالمعروف أن الغاز عندما يقل ضغطه وينتشر تنخفض درجة حرارته من تلقاء نفسها ، ولهذا تسمى هذه الظاهرة باسم التبريد الذاتى كما قدمنا . وتلعب هذه الخاصية أهم أدوار التبريد فى الجو ، وكافة أنواع المطول لا تتم إلا إذا تدخل عامل التبريد الذاتى بطريقة من الطرق . ويتم كثير من التبريد أيضاً بسبب الخلط بين مكونات السحابة الذرية ، وإضافة الأهوية الباردة إليها باستمرار ، وهو عامل مهم جدا فى موضوعنا هذا ، ويمكن حساب قيمة التبريد بالمزج واختلاط هواء الجو العادى بالغازات الملتهبة والمتوهجة ، فإن كرة النار تنطلق بعنف

وتتمدد وتزداد طاقاتها الوضعية وكذلك طاقة الحركة ، وتحتك بالهواء ، ويعمل الاحتكاك بدوره على تقليل جميع الحركات النسبية ، والحد من عمل الحركة غير الانسيابية ، حتى تنعدم الحركة النسبية تماماً بين الهواء العادى والسحاب الذرى المنطلق . ولكى نقدر مقدار السرعة التى يتمدد بها المارد الذرى فى الاتجاه الرأسى نجد أن الأمر ليس مستحيلا ، فكما سبق يمكن أن نذلل كثيراً من الصعاب إذا افترضنا أن علو المارد يكتمل إلى ما يقرب من ١٥ كيلومترًا فى خمسة دقائق ، وعلى ذلك فإن متوسط السرعة ٣ كيلومترات فى الدقيقة ، وهذا تقدير للأمور فى جملتها أو ما نسميه المتوسط الحسابى ، إلا من الحقيقة والواقع أن السرعة عند الابتداء تكون أكثر من ذلك بكثير جدا ثم تقل تدريجياً بفعل الاحتكاك إلى أن تنعدم فى قمة العمود ، ويمكن أن نوفق لحساب السرعة عند كل ارتفاع بطرق اجتهادية سليمة كما هو موضح فى الجدول :

الارتفاع	السرعة الرأسية المحسوبة
قرب السطح	٥, كيلومترات فى الدقيقة
٥ كيلومترات	١,٨ »
١٠ كيلومترات	١,٠٢ »

وعندما تصل السحابة إلى ارتفاع نحو ١٥ كيلومتراً تكون سرعتها النسبية قد تلاشت كثيراً ، وبعدها تتحرك مع الهواء العادى بسرعته ، إلا أن هذا الانتقال يتطلب عادة مضى فترة تبدو فيها السحابة للراصدين كأنها عديمة الحركة ، ويلى ذلك كله قصة الترسب التى عرفناها .

وأن التولد المفاجئ لكمية من الحرارة تعادل ١٠^١٣ سعر دفعة واحدة فى حيز محدود قرب سطح الأرض هو بطبيعة الحال حدث من الأحداث التى لها قيمتها من الوجهة العلمية البحتة ، ثم من الوجهة العملية أو التطبيقية المحلية التى تدخل فى دراسات تيارات الحمل وطبيعتها وأثرها على دورة الرياح العامة على الأرض . وأن تولد مثل هذه الكمية فى جو غير مستقر ينتهى حتما بعاصفة رعد أو مطر شديد ويكون الهطول كله مشبعاً بأنواع الإشعاع الذرى ، كما يلعب التبريد الذاتى أهم دور فى هذه الحالة ، وتنطلق الحرارة الكامنة للبخر بكميات وفيرة ، وتتغير الأوضاع وتتبدل . وفى حالات القنابل الأيدروجينية ، أو القنابل الحرارية النووية ، تبلغ الطاقة المنطلقة عشرات المرات أضعاف هذه القيمة بل ومئاتها . وقد فجر العلماء الأمريكيون أخيراً « فى ٥ يوليو عام ١٩٥٧ » فى صحراء نيفادا قنبلة ذرية قدر حجمها بما يعادل ثلاثة أضعاف ونصف

ضعف كل من القنبلتين الذريتين اللتين هدمتا مدينتى هيروشيما وناجازاكى اليابانيتين فى أواخر الحرب العالمية الأخيرة . وقد اهتزت الأرض على إثر هذا الانفجار ، وانتشرت موجة من الحرارة الزائدة إلى مسافة ٢٠ كيلومتراً ، أعقبها ضغوط جوية وتيارات هوائية عنيفة دوت فى أرجاء الصحراء . ويقال فيما يقال إن لدى الروس قنابل فى مقدورها إذابة الجزر البريطانية برمتها فى ساعات !!!

مقارنة لطيفة

تبلغ مساحة سطح الأرض نحو ٥ × ١٠^١٨ سنتيمتراً مربعاً ، ولما كان متوسط ما يستفيده الجو فعلا من طاقة الإشعاع الشمسى غير المباشر عن طريق سطح الأرض كله يمكن أن نمثله أو نقدره بنحو ١ ,٠ سعر حرارى لكل سنتيمتر مربع فى الدقيقة الواحدة ، فإننا نستنتج أن ما يستفيده جو الأرض فعلاً من الطاقة هو نحو :

٧ × ١٠^٢٠ سعر حرارى فى اليوم الواحد

وتستهلك هذه الطاقة فى إنجاز كافة أنواع النشاط الجوى ، وهى تبلغ نحو ٢٠ مليون مرة قدر الطاقة التى يمكن أن تضيفها القنبلة الذرية العادية إلى الجو . وعلى ذلك يتضح لنا جليا أن التجارب الذرية ليس لهـــا قيمة تذكر من حيث كميات الحرارة التى تولدها فى الجو ، وأن القيم المطلقة لهذه الطاقات يمكن إهمالها بالنسبة لقيمة الطاقة التى تمد بها الطبيعة جو الأرض فى اليوم الواحد .

وقد قدر بالحساب « من كميات الهطول ونحوها » أن

إعصاراً واحداً من أعاصير المناطق الحارة يستنفذ من الطاقة ما يعادل القيمة التى تولدها ٣٠ ألف قنبلة ذرية عادية ، كما أن مساحة قدرها كيلومتراً مربعاً واحداً يغطى نصفها بالسحب الركامية النامية فوق محيطات المناطق الحارة يمكن أن تنزح أبخرة المياه إلى أعلى ، وبذلك تضيف إلى الجو حرارة كامنة تعادل فى الدقيقة الواحدة ما ينطلق من مفرقعات الديناميت التى وزنها ألف رطل ، ولا تنطلق هذه الحرارة الكامنة إلا بالتكاثف ، ولا يتم التكاثف إلا تحت ظروف خاصة منها وجود ما يسمى « نويات التكاثف » .

نويات التكاثف

هناك عامل أساسى يجب أن يتوفر فى الجو ليتم التكاثف ، أى تحول أبخرة المياه التى هى فى صورة غاز إلى نقط من الماء ، هذا العامل هو أن تنتشر فى الهواء جسيمات صغيرة أو ذرات خاصة تعرف باسم نويات التكاثف ، ذلك لأن الأبخرة العالقة فى الهواء لا يمكن لجزئياتها أن تتجمع وتتحد لتكون نقطاً من الماء لمجرد الصدفة ، فأصغر نقط الماء حجماً مثلا يلزمها تجمع نحو ١٠٠ جزىء من أبخرة المياه ، وليس من اليسير تجمع مثل هذا العدد إلا إذا تواجد ما يجذب هذه الجزئيات واحدة واحدة ثم يحملها على البقاء متماسكة فى صورة نقطة من الماء مهما كان حجمها صغيراً ، وهذا هو عمل نويات التكاثف فى الجو .

ولقد كان المعتقد إلى عهود قريبة أن أهم مصادر نويات التكاثف هذه وأعمها ذرات الغبار والرمال التى تثيرها الرياح وتعلق فى الجو ، ولكن أثبتت التجارب الحديثة خطأ هذا الرأى ، كما أظهرت أن فريقاً من هذه النويات عبارة عن أملاح أو حوامض متطايرة فى الهواء ، وعلى رأس هذا الفريق

أملاح البحار ومركبات الأوكسيجين والأزوت الناتجة من مرور أشعة الشمس فوق البنفسجية خلال جو الأرض ، أو من التفريغات الكهربائية فى عواصف الرعد وانقضاض الصواعق ، وكلورور الكلسيوم ، والحوامض الناتجة من عمليات الاحتراق المختلفة .

وهناك فريق آخر هام جدا من نويات التكاثف قوامه تلك الأيونات التى تنتج بتأين الهواء الجوى ، وعلى رأس هذا الفريق الأيونات ذات النشاط الإشعاعى ، التى يعتقد أنها تقدح الزناد وتهيئ الأمور لشحن السحب بالكهربائية ولنمو مكونات السحب عموماً فتسبب الهطول . وعلى رأس هذا الفريق أيضاً تلك الأيونات البطيئة الحركة فى الجو وداخل السحب .

وكثيراً ما يحدث أن تتكون السحب أو تتكاثر ، وتلائم الظروف الجوية تساقط المطر أو أى نوع من أنواع الهطول ، إلا أن قلة نويات التكاثف وشحنها تحول دون نمو مكونات السحب نموا كافياً يساعد على تساقطها أو هطولها ، ومن هنا نبتت فكرة الأمطار الصناعية ، وأهم ما فيها هو تغذية السحب فى مثل هذه الظروف بنويات التكاثف اللازمة بطرق صناعية ، وذلك لكى تنشط عليها عمليات ترسب الأبخرة وانطلاق الحرارة الكامنة للبخر ، ثم الاستفادة من انطلاق هذه الحرارة الكامنة

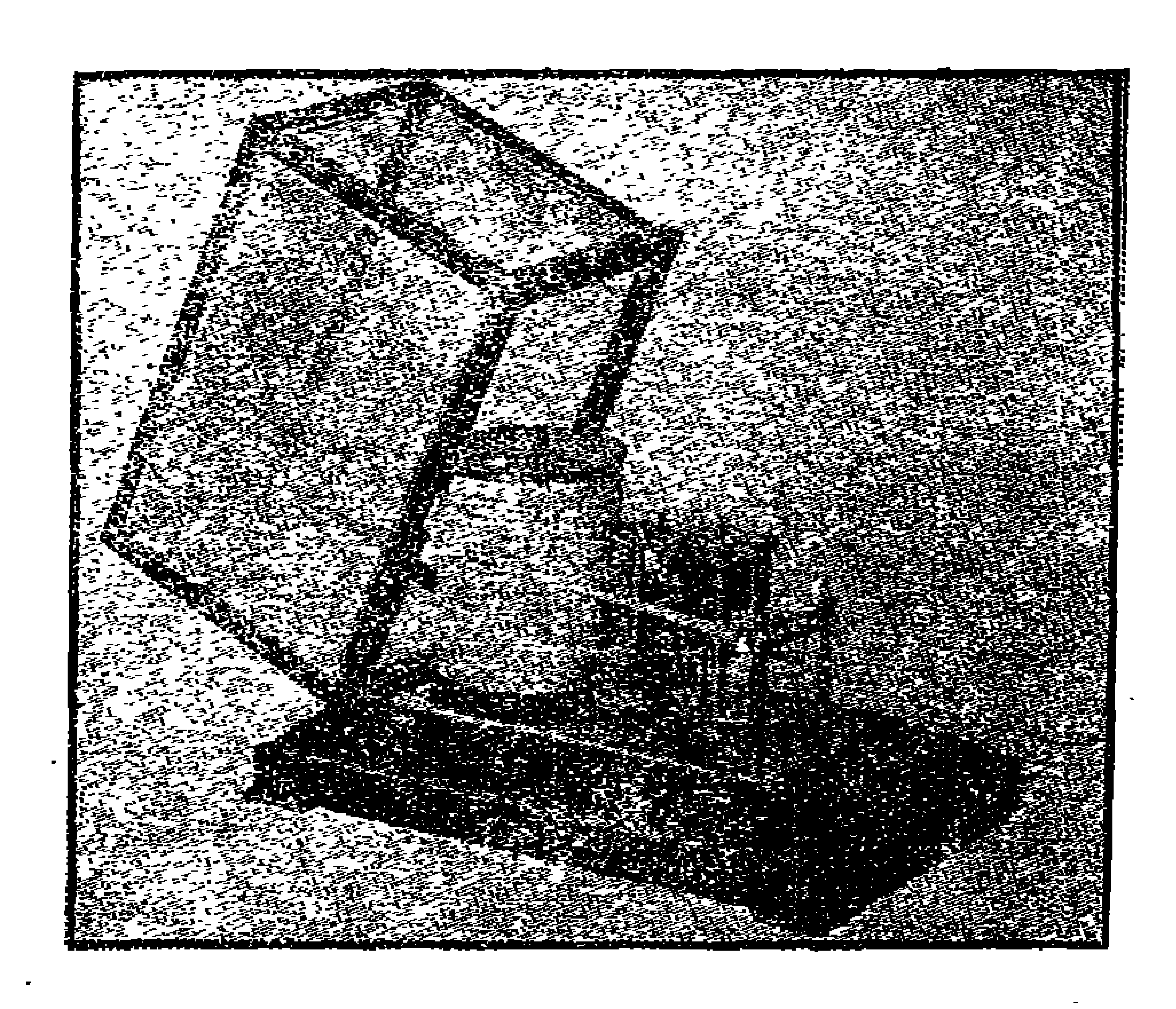
فى تنشيط تيارات الحمل ونمو السحب إلى أعالى الجو وعصرها فى نهاية الأمر لتمطر أو تعطى المزيد من المطر .

وبديهى أن العصر الذرى أضاف إلى جو الأرض فى طبقاته السفلى عدداً وفيراً من الأيونات المشعة وذرات الغبار الذرى التى قوامها خليط من عدة مواد ، وهو إذاً قد أضاف كميات لا حصر لها من نويات التكاثف ، وتهيأت بذلك فرص عظيمة لتغذية مساحات واسعة من السحب وهطول أمطار هى أقرب ما تكون للمطر الصناعى !

وإذا افترضنا أنه عقب كل تجربة ذرية تتولد فى الجو بعض حالات ممطرة يغذيها الغبار الذرى بما يلزم من نويات التكاثف ، وأن كمية المطر (الصناعى) هذه هى فى حدود المألوف ، أى من نحو ٥ إلى ٧ ملليمترات على عدة مساحات مجموعها ١٠٠ × ١٠٠ كيلو متر مربع ، فإن كمية الحرارة الكامنة التى يمكن انطلاقها بهذه العمليات فحسب تعادل نحو ٥ × $١٠^{١٦}$ سعر حرارى ، وهى كمية تفوق بكثير الطاقة التى تصحب انطلاق القنبلة الذرية ذاتها ! ويمكن أن يزداد التأثير غير المباشر هذا إذا صادف المطر حالات غير مستقرة من الجو ، وهو أمر محتمل الحدوث جدا .

الذبذبات الجوية الناجمة عن الانفجار الذرى

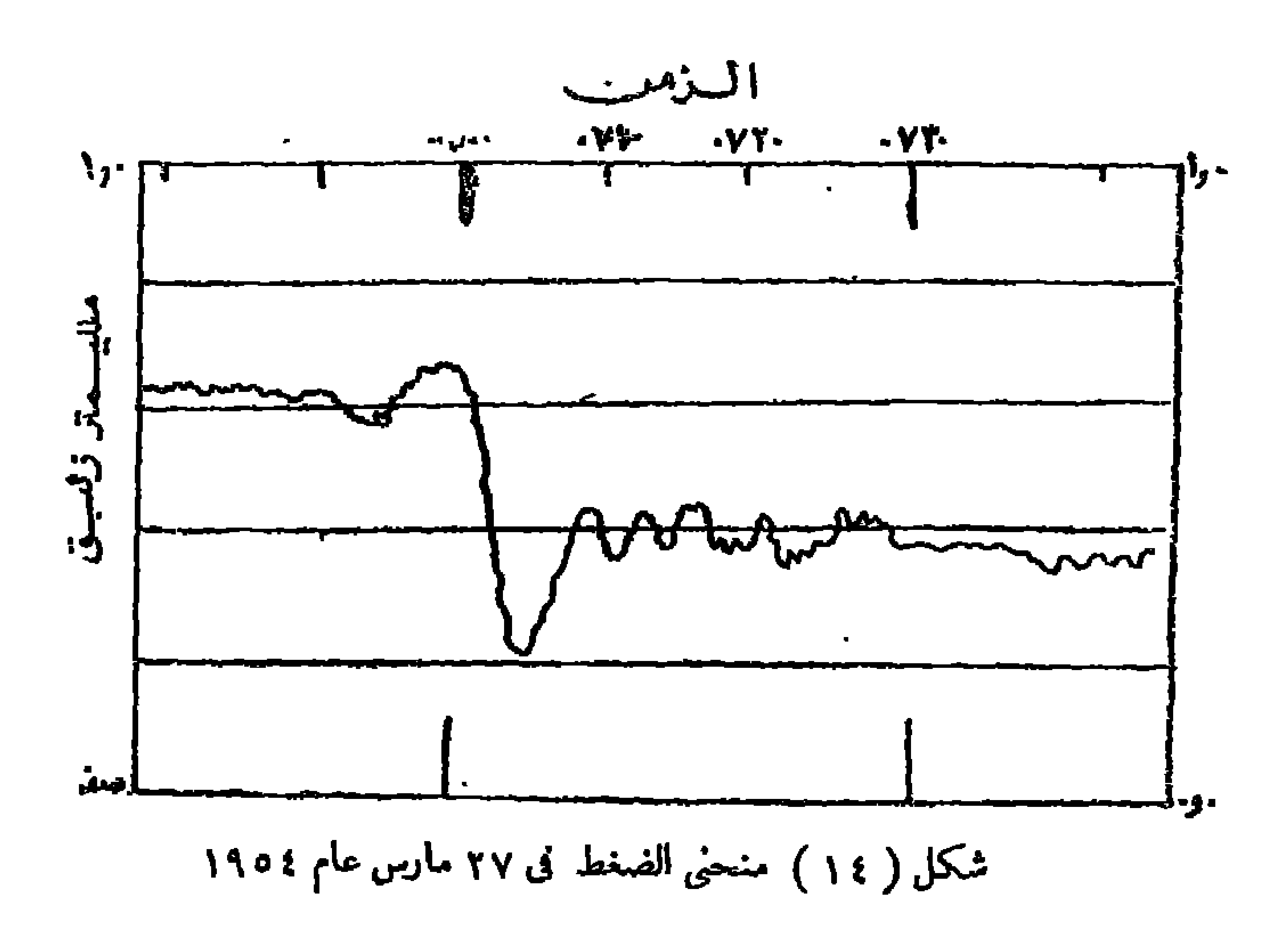
يرينا هذا الموضوع بالذات كيف أن الانفجارات الذرية لا يمكن أن يتم فى الخفاء ، كما أنه يكشف لنا وسيلة عملية من وسائل تحديد زمان ومكان أى تجربة ذرية تجرى على الأرض ، فالمعروف أنه يمكن تسجيل وتمييز الذبذبات الجوية التى تصحب الانفجار الذرى بواسطة نوع من أبسط الأجهزة الجوية ، وهى مسجلات الضغط ذات المـــدى الواسع (الميكروباروجراف) شكل (١٣) وهو يتركب من مجموعتين أو ثلاثة من علب معدنية رقيقة الجدران ومفرغة من الهواء تفريغاً جزئيا ، ولكل علبة وجهين مموجين منفصلين عن بعضهما من الداخل بياى ، وعلى ذلك فإن غلاف كل علبة يتقعر أو ينجذب بمقدار يتناسب مع الزيادة أو النقص فى الضغط الجوى الخارجى ، ويتضاعف هذا الأثر بازدياد عدد العلب المعدنية ، ثم تنقل محصلة الحركة كلها إلى ريشة مسجلة بواسطة عدة روافع تظهر فى شكل (١٣) ، وترسم الريشة خطاً على خريطة ملفوفة على أسطوانة تديرها ساعة فتتم دورتها فى أسبوع



شكل (١٣) مسجل الضغط المكبر
(الميكروبار وجراف)

عادة، وبذا تسجل جميع الذبذبات. وكلما زاد مدى تموج الموجة (أى كبرت سعتها) كلما زادت حساسية الجهاز وكلما صلح لتسجيل الانفجارات الذرية مهما بعدت عن مكان التسجيل . وفى العادة تسجل ذبذبات الضغط فى أكثر من ثلاثة مراكز فى آن واحد لإمكان تحديد المكان ، كما يلزم أن يصل مدى تكبير الذبذبة الواحدة إلى أكثر من ٤٠ ــ ٥٠ مرة .

ومنذ عدة سنوات استخدم اليابانيون مثل هذه الأجهزة لإجراء بحوث جوية بحتة ، وفى صباح يوم ٢٧ مارس عام ١٩٥٤ شاهدوا وجود ذبذبات عجيبة على الخرائط – شكل (١٤) –



شكل (١٤) منحنى الضغط فى ٢٧ مارس عام ١٩٥٤

تشابه إلى حد كبير تلك الذبذبات التى صحبت سقوط نيزك سيبيريا العظيم من السماء فى ٣٠ يونيو عام ١٩٠٨ ودك الأرض دكا . فساور علماء وأساتذة جامعة كيونو الشك وهم يحللون تسجيلات تلك الأجهزة ، وسرعان ما عزوها إلى انفجار القنبلة الأيدروجينية فى بكينى أتول .

ويمكن دائماً التفرقة بين ذبذبات الضغط التى تسببها تقلبات الجو العادية وذبذبات الضغط التى تحدث لسبب خارج نطاق هذه التقلبات ، فإن المنحنيات أو الموجات التى ترسمها ريشة الجهاز المسجل فى حالات الاضطرابات الجوية الطبيعية تنتشر بسرعة صغيرة نسبيا ، لا تتعدى فى العادة ٤٠ متراً فى الثانية ، أو نحو ١٥٠ كيلومتراً فى الساعة . وحتى الأمواج الجوية غير العادية التى تنتشر بسرعة كبيرة نسبيا ، مثل تلك التى كشفها ناميكاوا لا تزيد سرعة انتشارها فى الجو على ٦٠ متراً فى الثانية ، أو نحو ٢٢٠ كيلومتراً فى الساعة . أما اهتزازات الجو وأمواج الضغوط التى لا يكون مصدرها التقلبات الجوية العادية ، ولكن عوامل أخرى مثل انفجار بركان كراكاتوا أو سقوط نيزك سيبيريا العظيم ، أو الانفجارات الذرية ، كلها تنتشر بسرعة تقارب سرعة انتشار موجات الصوت فى الهواء ، وقد وصلت إلى ٣١٨,٨ متر فى الثانية فى حالة انفجار بركان كراكاتوا ، وإلى ٣١٨ متر فى الثانية فى حالة سقوط نيزك سيبيريا العظيم . وعلى ذلك فإن سرعة انتشار الموجات فى الجو تعطينا دائماً وسيلة ناجحة وطريقة علمية سليمة للحكم على طبيعة ونوع المصدر ، وهل هو من اضطرابات الجو العادية أم نتيجة انفجار ما ، كما أننا نستطيع فى نفس الوقت تحديد موضع الانفجار .

وسجلت أجهزة الميكروباروجراف التى ذكرناها أيضاً ذبذبات وتموجات من نفس النوع العجيب فى أول نوفمبر عام ١٩٥٢ ، وفى أول مارس عام ١٩٥٤ ، وفى ٢٦ أبريل عام ١٩٥٤ ، وفى ٥ مايو عام ١٩٥٤ . . . وكانت سرعة انتشار تلك الأمواج كلها تساوى تقريباً * سرعة انتشار الصوت فى الهواء ، وكانت جميعها تقبل من جزر مارشال أثر تفجير القنابل الذرية المختلفة بمعرفة الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك كان الحال مع القنابل الأيدروجينية الروسية التى فجرت فى أغسطس عام ١٩٥٣ . . .

والطريف فى هذا كله أن تسجيلات الضغط وذبذباته دلت على أن أمواج الهواء التى صحبت انفجار بركان كراكاتوا ، ذلك الانفجار الطبيعى الجبار ، أتمت عدة دورات أو لفات كاملة حول الأرض قبل أن تتلاشى نهائيا وينعدم أثرها ، وكانت الدورة الكاملة للموجة حول الأرض تستغرق نحو ٣٥ ساعة فقط ! ولكن أمواج الهواء التى صحبت القنابل

* بسبب تأثير عوامل جوية تغير من سرعة الصوت فى الهواء فلا تظل ثابتة أو بنفس القيمة دائما ، مثل تدخل سرعة الرياح واتجاهها والرطوبة والكثافة .

الأيدروجينية ، تلك الانفجارات الصناعية ، كانت فى كل مرة تتلاشى تقريباً بعد أن تتم دورة واحدة فقط حول الأرض، أو على الأقل لم تستطع تلك الأمواج ، التى هى من صنع البشر ، أن تكمل أكثر من دورة واحدة حول جو الأرض بشكل يمكن تسجيله !!

والطريف أيضاً أن نقرر للباحثين والمتطلعين إلى معرفة الحقيقة أن تفجير القنابل الأيدروجينية فى جميع أنواع التجارب والاختبارات التى تمت لم يصحبها هزات فى قشرة الأرض الصلبة ذات بال ، ولم تسجل أجهزة الزلازل هزات أرضية على بعد ، وهذا بطبيعة الحال بعكس انفجار البراكين ، وقد كانت الهزات الأرضية التى صحبت انفجار بركان كراكاتوا بالذات مخيفة ومزعجة .

« يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم »

حساب طاقة الانفجار بطريقة هويبل

إن جميع الدراسات والتفاصيل التى تهم أى دولة من الدول من وقت تفجير الأسلحة الذرية إلى انتهاء ترسب غبارها الذرى هى كلها مسائل من صميم اختصاص رجال الطبيعة الجوية ، وتتشعب هذه المسائل وتتفرع كما رأينا ، وتدخل تطبيقاتها فى أعمال الوقاية من الغارات الذرية . ونتائجها ، مثل انتشار الإشعاع والغبار الذرى ، كما تدخل فى كثير من الدراسات الطبية ، مثل انتشار الأوبئة والحشرات ، وكذلك تدخل فى دراسات المناخ والتأثير على طبيعة جو الأرض . وأول ما يهمنا فى هذا الشأن هو حساب أو تقدير الطاقة التى يضيفها الانفجار إلى الجو باستخدام طريقة سليمة ، فالوصف العلمى لأى ظاهرة لا يتم ولا يكتمل إلا إذا طعمته الأرقام ودعمته القياسات .

وقد سبق أن عمل هويبل طريقة لحساب مثل هذه الطاقة ، واستخدمها فى تقدير الطاقة التى صحبت انفجار بركان كراكاتوا

فى ٣٠ يونيو عام ١٩٠٨ حيث بلغت ٣,٢ × $١٠^{٢٠}$ أرج ، ويعطى الجدول قيم الطاقة المحسوبة بنفس الطريقة فى الحالات التى سبق ذكرها كما سجلتهـــا آلات الرصد فى مدينة شيونوميساكى باليابان ، ويمكن أن تقارن القيم المعطاة بتلك القيمة التى حسبها هويبل لانفجار بركان كراكاتوا الشهير :

التاريخ	سرعة انتشار الموج • (متر فى الثانية)	الاتجاه	هل أذيع فى الجرائد	الطاقة بالإرج	الطاقة بالسعر
١ نوفمبر ١٩٥٢	٢٩٨	من الجنوب الشرقى	نعم	٥×١٠^{٢٠}	$١,٢ \times ١٠^{١٣}$
١ مارس ١٩٥٤	٢٨٤	»	»	$١٣,٨ \times ١٠^{٢٠}$	$٣,٣ \times ١٠^{١٣}$
٢٧ مارس ١٩٥٤	٢٨٧	»	»	$٥,٦ \times ١٠^{٢٠}$	$١,٣ \times ١٠^{١٣}$
٢٦ أبريل ١٩٥٤	٢٨٧	»	لا	$٣,٥ \times ١٠^{٢٠}$	$٠,٨ \times ١٠^{١٣}$
٥ مايو ١٩٥٤	٣١٠	»	لا	$١٤,٢ \times ١٠^{٢٠}$	$٣,٤ \times ١٠^{١٣}$
٣٠ يونيو ١٩٥٨	٣١٨			$٣,٢ \times ١٠^{٢٠}$	$٠,٧ \times ١٠^{١٣}$

وقد لوحظ أن موجات الهواء التى صحبت الانفجارات الذرية ، أو سقوط نيزك سيبيريا العظيم ، أو انفجار بركان كراكتوا المخيف ، كلها كانت مدة ذبذبتها تقع بين دقيقة واحدة ودقيقتين ، وتعليل ذلك يدخل فى طبيعة الحركة فى الجو . ومهما يكن من شيء فقد ثبت أن الطاقة التى أثرت على الجو فعلا وسجلتها آلات الضغوط هى فى كل تجربة ذرية فى مستوى الطاقات الجبارة التى تسببها أشد غوائل الطبيعة عنفاً على الأرض ، والتى صحبها كثير من التدمير والتخريب ، ومكث الناس يتحدثون عنها وينقلون أخبارها سنين عديدة !! وفى حالات القنابل الحرارية العظيمة والأيدروجينية تضاف إلى الطاقات كميات أخرى عظيمة من الإشعاع ومما لا ينتقل فى صورة أمواج الهواء .

الغبار الذرى والجو

ظهرت فى السنين الأخيرة ، التى عظم خلالها التنافس فى إجراء التجارب الذرية ، بعض ظواهر الجو غير العادية ، وكثر الجدل من حولها ، وذهب فريق من العلماء المحافظين إلى أن هذه الظواهر الشاذة ، رغم تعددها وعدم انحصارها فى مكان معين ، وانتشارها على سائر أرجاء الأرض ، لا تخرج فى مجموعها عن الشواذ الجوية المعهودة . فلكل قاعدة أو نظام شواذ ، خصوصاً فى حالة جو الأرض برمته ، الذى يغطى مساحات واسعة ويمتد إلى ارتفاعات شاهقة ، تتعدد القواعد والنظم ويتعذر السير على وتيرة واحدة ، ورأى فريق آخر غير ذلك .

ومن النتائج التى سلم بها كثير من علماء الطبيعة الجوية أن الشواذ التى حدثت فى الجو قد خرجت عن حدود ما هو متوقع ، أو ما هو مألوف فى إحصائياتنا التى ترجع بنا إلى عشرات السنين . إن الإحصاء الرياضى والمتوسطات لعناصر

الجو فى كثير من الأقاليم ، لم تتغير قيمها فعلا ، إلا أن معالم بعضها ومدلولاتها الطبيعية قد تبدلت ، مما يدل على تدخل عوامل جديدة فى جو الأرض فى فجر العصر الذرى .

وإن الإخفاق فى ملاحظة أو تتبع بعض التغيرات الهامة فى طبيعة جو الأرض فى بعض البلدان ، ونحن لا نزال فى مستهل العصر الذرى ، لا يمكن أن يتخذ دليلا أو برهاناً يقطع به فريق من العلماء على عدم تدخل عوامل طبيعية جديدة بسبب الانفجارات الذرية وانتشار الغبار الذرى ، ولكن كل الذى يمكن أن نقوله فى هذا الصدد ، ونحن أقرب ما نكون للحقيقة والصواب ، أنه تنقصنا وسائل البحث الدقيق عن التأثيرات الطبيعية للانفجارات والإشعاعات والسحب الذرية فى الجو ، ويلوح أن من أهم العوامل المضللة فى مثل هذا الباب أن أغلب الطاقة التى تتولد قد لا يستفيد بها الجو مباشرة ، بل وتجرى التجارب فى أجواء تختار اختياراً دقيقاً بحيث إن كثيراً من الطاقة لا يمتصها الجو فى صورة نافعة أو يظهر أثرها مباشرة ، ممثلا فى هطول شديد أو عاصفة رعد تنطلق فى نفس الوقت .

ومهما يكن من شىء هناك احتمال كبير جدا أن تكون هذه الانفجارات الذرية وما يتبعها من آثار بمثابة العوامل التى

تقدح الزناد أو تفك العقال لانطلاق كميات وفيرة من الطاقة التى تدخرها الطبيعة فى الجو ، ولم يكن من سبيل لانطلاقها إلا بتفجير القنابل الذرية وانتشار الغبار الذرى . ولعل أقرب الأمثلة إلى أذهاننا فى هذا الشأن ازدياد معدلات انطلاق الحرارة الكامنة للبخر بازدياد عمليات التكاثف ، وأيضاً إضافة كميات وفيرة من الإشعاع الشمسى المباشر إلى طبقات الستراتوسفير بامتصاصها بواسطة الغبار الذرى المتزايد فيها . ومما لا شك فيه أن المشاهدات تدل على أن عدد التجارب الذرية التى أجريت حتى الآن كان كافياً لإحداث تغيرات ملحوظة على انسياب السحب وانتشارها وكميات الهطول ومواسمها على مساحات واسعة من الأرض .

وليس من شك أيضاً أن درجة التوصيل الكهربائى للهواء قد اعتراها التغيير والتبديل بانتشار الغبار الذرى فيه ، فالنشاط الإشعاعى لذرات الغبار لابد وأن يضاعف ظاهرة التأين ، كما أن الأيونات المشعة هى من أجود نويات التكاثف وخصوصاً فى درجات الحرارة المنخفضة .

وليس بعجيب أن نقرر أن معدل ورود الإشعاع الشمسى إلى سطح الأرض سيقل باستمرار إجراء التجارب الهيدروجينية ،

وسيتبع ذلك انتشار البرد * على الأرض! فى العصور الجيولوجية القديمة عندما كانت البراكين تثور بعنف أحياناً وتقذف بأتربتها ودخانها إلى طبقة الستراتوسفير ، كان يتبع ذلك نقص شديد فيما يصل إلى سطح الأرض من الإشعاع الشمسى المباشر ، مما أدى إلى الاعتقاد بأن ذلك كان سبب تكون العصور الجليدية فى بعض الحالات . وأن استمرار إضافة الغبار الذرى إلى طبقة الستراتوسفير سينتهى حتماً بتجمع كميات وفيرة منه فى تلك الطبقة وامتصاص أجزاء كبيرة من الإشعاع الشمسى المباشر فيها .

وقد سمعت من يقول إن كل ما نتحدث عنه من شواذ الجو فى هذا العصر ليس له من علة أو سبب سوى تقدم البشر فى وسائل الرصد واهتمام الناس بوصف ظواهر الجو وذكر تفاصيلها فى الجرائد والإذاعة والمجلات والكتب . . . وليس من جديد على الأرض ! وبديهى أن مثل هذا المذهب لا ينفى الحقيقة أو يغير الواقع ، فالرماد الذرى يوجد فعلاً فى الجو ، كما أنه سيأخذ فى التزايد بسبب المضى والإصرار على الاستمرار فى التجارب الذرية ، ولكننا لم نعرف بعد مقدار هذا التزايد،

---

* يصحب ذلك فترات مطيرة يزداد فيها الهطول ، ثم يقل ويبدأ الجفاف .

ولم نحدد مدى أخطاره على البشر بصفة قاطعة ، وربما تمضى سنوات عديدة قبل الوصول إلى حل نهائى لهذه المسألة . أما من حيث الجو وطبيعة الهواء ، فها هى بعض الأعاصير غير العادية تجتاح أنحاء المعمورة ، والفيضانات العالية تغرق الأراضى فى أماكن كثيرة ، وأمواج البرد والحر تتعاقب فى سلسلة غير منتظمة ، ومكاتب الرصد الجوى لا تألو جهداً فى إصدار التنبؤات والتحذيرات ولو اكتنفها الغموض فى بعض الحالات ! انظر مثلا إلى هذا التنبؤ الجوى الذى أذاعته مصلحة الأرصاد الجوية بالقاهرة عن حالة الطقس المنتظرة يوم ٥ يوليو عام ١٩٥٧ وتقول فيه « يسود الجو الصيفى العادى ، ودرجة الحرارة حول المعدل المألوف ، ويظهر السحاب المنخفض ، كما يحتمل أن تسقط أمطار خفيفة فى بعض مناطق الوجه البحرى والقاهرة والرياح شمالية تتحول إلى شمالية شرقية معتدلة » . . . وقد تساقط المطر فعلا . . وهى ظاهرة لا تتفق مع جو مصر الصيفى العادى ، لا من حيث استبعادها بالإحصاء وعدم الاحتمال فقط ، ولكن طبيعة الجو وتركيبه وتكوينه وطبيعة توزيع السحب وكتل الهواء فيه كل ذلك يتعارض مع إصدار مثل هذا التنبؤ عندما يسود الجو الصيفى العادى ! وهذا أقرب مثل نسوقه لإثبات وجود الحالات الغامضة ، وأن الشذوذ الجوى قد خرج فعلا

عن نطاق المألوف فى إحصائياتنا ، كما أن هناك بعض التحويرات فى طبيعيات الجو لا نعرفها ! وفيما يلى بعض الحالات التى تثبت هذا بكل جلاء ووضوح ، وقد تعمدت أن أتخيرها كلها من أقرب الظواهر إلى ذاكرتنا ، والتى تناولتها بالبحث فعلا .

أمثلة من الجو غير المألوف عام ١٩٥٧

(ا) فى الشرق الأوسط :

١ — من ٧ إلى ١٠ مايو : تعرضت جهات متفرقة من الشرق الأوسط لهطول أمطار غير عادية ولا مألوفة فى مثل هذا الوقت من السنة . ووصفت مصلحة الأرصاد الجوية هذه الظاهرة بقولها : « وأن سقوط هذه الأمطار فى هذا الوقت من السنة ظاهرة شاذة ، وإن كانت نادرة الحدوث » .

والذى حدث فعلا أن تعرض الشرق الأوسط عامة ومصر خاصة لاضطراب الحالة الجوية فجأة ، وهطلت الأمطار ، ودلت التحريات العلمية والأرقام الإحصائية أن هذه الظاهرة لم يحدث لها مثيل إلا ثلاث مرات خلال ٧٠ سنة مضت ! وفى القاهرة استيقظ الناس يوم ٩ مايو على جو لم يألفوه فى مثل ذلك الوقت من العام ، إذ كانت السماء تغطيها السحب الداكنة الثقال بينما ينهمر المطر بشدة اختلفت بمضى الوقت ، فامتلأت الشوارع والطرقات بالمياه . ودل تحليل مياه المطر على وجود النشاط الإشعاعى فيما جمع منه .

٢ ــ حدثت حالة أخرى من الجو الشاذ فى نفس الشهر ، بين ٢٠ مايو و ٢٣ مايو ، حين تعرضت جمهورية مصر خاصة لموجة من الجو المتقلب . وقد تميزت هذه الموجة بتساقط المطر على نطاق واسع ، فأصاب أنحاء متفرقة شملت السواحل والواحات والدلتا ومنطقة القنال ومصر الوسطى وامتدت جنوباً حتى أسوان .

وجاء فى بيان مصلحة الأرصاد عن هذه الحالة : « وحدث برق ورعد مصحوبين أحياناً بالبرد فى سيوه يوم ٢٠ مايو ، والفرافرة والداخله وحلوان يوم ٢١ مايو ، كما حدث فوق القاهرة ، وفى منطقة القنال عموماً يوم ٢٣ مايو . وسقطت كميات قليلة من المطر فى أغلب أنحاء الجمهورية خلال هذه الفترة بالرغم من الهطول المتقطع خلال ثلاثة أيام متتالية فى بعض هذه المناطق . وكانت أقصى كميات سجلت هى ٨ ملليمترات فى المنيا و٣ فى السويس و٢ فى سيدى برانى والضبعة يوم ٢١ . و ٤ ملليمترات فى مرسى مطروح و ٢ فى الضبعة و ٢ فى سيوه يوم ٢٢ ، أما درجات الحرارة فقد بلغت أقصاها ٣٨ درجة فى ألماظة و ٣٢ فى الإسكندرية يوم ٢١ . . . »

وخلال هذه الفترة أيضاً انقضت صاعقة فى دمياط فأصابت منزلا على شاطئ النيل وشقت أحد جدرانه ، مما يدل

على عظم الكهربائية الجوية، وكان هدير الرعد يشبه فى عنفه وشدته الانفجارات المتتالية ! أما دسوق فقد كساها الثلج وقطع اتصالها التليفونى بسائر البلاد ، وبدت المدينة ناصعة البياض من تراكم البرد !

٣ ـ سادت فترة من الجو الشاذ جدا فى شهر يونيو خلال الفترة الممتدة من ١٠ إلى ١٢ يونيو فى شمال مصر . وفى يوم ١٠ يونيو بالذات أمطرت السماء برداً كبيراً وصفته الجرائد بأنه ثلج أو حجارة من الثلج حطمت جدران بعض المنازل ! بينما كان وميض البرق ينير السماء بشدة من آن لآخر ، وقد أغرقت الأمطار والسيول العرمة بلدة دماط التابعة لمركز قطور بمديرية الغربية ، وارتفعت المياه نحو ½ متر أو أكثر فوق سطح الأرض خلال نصف ساعة * فقط !! مما حمل الأهالى على الفرار بماشيتهم من الحقول والمزارع والطرقات والاعتصام ببيوتهم ومساكنهم ، كما هرع البعض إلى المساجد يدعون الله تعالى ليرفع عنهم

* تسمى هذه الحالات (انفجارات السحب) ، إذ يخيل للراصد أن السحاب قد انفجر فعلا وأن المياه تتدفق منه تدفقاً لا هوادة فيه . وتفسير ذلك أن أصل هذا الماء أمطار تتراكم أسفل السحب بفعل تيارات الهواء الصاعدة بشدة فتمنع ماء المطر من النزول ، وعندما تضعف هذه التيارات الصاعدة أو تنعدم ينسكب الماء المتراكم فى السحب بشكل مخيف !

وعن ذويهم ذلك البلاء النازل من السماء .

أما مركز قطور فتساقط عليه برد فى حجم البرتقال ! ومثل هذا الحجم يدل على عظم عدم الاستقرار فى الجو مما لا يتوفر إلا فى المناطق الحارة الرطبة . وهطلت فى أعقاب هذا البرد أمطار غزيرة كسابقتها هى أشبه شىء بانفجارات السحب ، أدت إلى إغراق القرى والمحاصيل المجموعة فى الأجران وخاصة محصول القمح .

ويقول تقرير مصلحة الأرصاد الجوية بخصوص هذه الحالة : « المفهوم أن التوزيع السائد للضغط الجوى فى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط فى هذا الوقت من السنة يكون أقرب إلى التوزيع الصيفى العادى ، مما يستبعد معه حدوث عواصف رعدية وبرد مع رخات من المطر الغزير فى هذا الوقت من السنة . غير أنه يوجد عدم استقرار مع هواء بارد فى طبقات الجو العليا لوجود منخفض جوى فى تلك الطبقات قرب جزيرة قبرص . . .

٤ ــ سقط المطر مرة أخرى خلال المدة الممتدة من ٣ إلى ٥ يوليو فى جهات متفرقة من شمال الدلتا ، وكان المطر غزيراً خاصة جنوب مديرية البحيرة وفى إيتاى البارود والدلنجات

وجنوب دمنهور ، وسبب قطع المواصلات ، إذ أغرقت المياه أغلب الطرق الزراعية !!

هذا جانب من أعاجيب الجو فى بلادنا فى العام الماضى (١٩٥٧) ، فهل يمكن أن تتكرر الحوادث هكذا لمجرد الصدفة ؟ أم لابد من وجود بعض العوامل الطبيعية التى لها من السيطرة والهيمنة ما يسبب مثل هذه السلسلة من الظواهر الشاذة فى عزفنا ؟

(ب) فى العالم :

لم تكن الحالة الجوية خارج بلاد الشرق الأوسط أحسن حالا أو أكثر استقراراً ، فكانت الأعاصير العاتية تزيل الجزر وتمحى معالم المدن ، وانتحر كثيرون فى أوروبا وأمريكا من شدة أمواج الحر التى لم يعهدوها ، واكتسحت السيول والمياه الجارية أمكنة أخرى .

وقد وصف الإعصار الذى اكتسح شواطئ ولاية لويز يانا بأمريكا فى ٢٨ يونيو ١٩٥٧ بأن بيتاً واحداً من كل ٢٥ بيتاً نجا من الدمار ، وأنه لم يعد هناك ما يدل على المكان الذى كانت تقوم فيه الدور سوى ما بقى من الأساس أو أجزاء

المداخن ، وأن جثث ما نفق من الماشية والخيول ونحوها كانت مبعثرة فوق المستنقعات ، وأن عدداً كبيراً من السيارات ترك فى الطرق بعد أن فشل أصحابها فى محاولاتهم الفرار من وجه العاصفة . . .

وفى ١٧ مايو ١٩٥٧ اجتاحت الفيضانات العنيفة والأعاصير جنوب غرب الولايات المتحدة ، وحذرت مكاتب الأرصاد الناس منها فى ولايات تكساس ومسورى وأوكلاهوما وكنساس ، وذلك عقب ظهور نكباء من الرمل الأحمر الذى اجتاح بعض مدن تكساس . وقد فاضت الأنهار فيضاناً لم يسبق له مثيل ، وخاصة نهر سيارون ، واندفعت المياه إلى كثير من المدن وفر السكان بالقوارب !

وفى ٥ ، ٦ يوليو ١٩٥٧ غمرت أوروبا موجة من الحر الشديد غير العادى ، وأدى ذلك إلى وفاة الكثيرين ، ونقل آخرون إلى المستشفيات ، كما أصيب بعض الناس بالجنون ! . وعمت هذه الموجة أغلب بلاد أوروبا وإيطاليا حيث بلغت درجة الحرارة فى مدينة ترنتو ٣٤ درجة سنتيجراد وهو رقم قياسى !

واجتاحت موجة من الحر اللافح والفيضانات العرمة أجزاء متفرقة من الولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة بين ١٥ يونيو

و ١٨ يونيو ١٩٥٧ سببت كثيراً من المتاعب والحالات المفجعة من البؤس مما لم يعهده الناس . وقد امتد الحر إلى أقصى الشمال وعم كندا فسبب وفيات عديدة بشكل غير مألوف ، وخلال هذه الفترة تقريباً اجتاحت الأمطار وعواصف الرعد تركيا وإيطاليا وألمانيا وسببت ضحايا عديدة !

وليس ببعيد أن يكون قد صحب هذه التطورات الجوية تطورات مماثلة فى عالمى الحشرات والميكروبات ، وهى التى تتأثر إلى أقصى حد بتقلبات الجو وكتل الهواء والإشعاعات المختلفة ، وليس بعجيب أن نقلق إذاً من جراء المخاطر المستهدف لها الجيل الحاضر والتى قد تتزايد فى الأجيال المقبلة ، وأخطر من هذا كله أن تصبح الطاقة الذرية ملكاً لأياد غير واعية تسىء إلى الإنسانية وتراثها .

حقيقة الطاقة الذرية

بقى بعد هذا الذى قدمناه أن نعرف كيف تنبعث الطاقة الذرية ، فقد مررنا على ذلك مر الكرام ، والطاقة الذرية كغيرها من الطاقات ، صورة من صور الشغل المخزون أو المدخر بالطبيعة فى أصغر وحداتها المادية من الحجم وأكثرها من حيث العدد وهى الذرات ، وفى هذه الحالة يختزن الشغل بتماسك مركبات كل ذرة بمختلف القوى التى تربطها فى النواة وخارج النواة . فكل الكترون مثلا يحتفظ بقدر معين من الطاقة أثناء البقاء فى فلكه وهو يدور حول النواة . وإذا برد الجسم وفقد بعض طاقته قلت سرعة دوران الكترونات ذراته ، إما إذا سخن واكتسب بعض الطاقة حدث العكس ، وقد تنطلق بعض الألكترونات بسبب ازدياد سرعتها حرة طليقة . وأن عملية انتقال الألكترون من فلك إلى آخر فيه مستوى الطاقة أقل إنما تتضمن انطلاق بعض الطاقات فى صورة أمواج أثيرية . وفى العادة تستخدم وحدة يقال لها (الألكترون فولت) لقياس طاقة الإشعاع الذرى هذا ، ويعرفونها بأنها مقدار الشغل اللازم

لتحريك ألكترون واحد بين نقطتين فرق الجهد بينهما فولت كهربائي واحد ، وعلى ذلك يكون :

٦٠٠ ألف مليون ألكترون فولت = أرج

وعندما يهاجم نيوترون نواة ذرة اليورانيوم على النحو الذى سبق أن شرحناه ، ويحطم القوى الرابطة لها ، تنطلق طاقة تبلغ نحو ٢٠٠ مليون ألكترون فولت ، وذلك بالإضافة إلى ما ينطلق من نيوترونات . ويمكن أيضاً أن يقل وزن المادة بعد الانشطار عن وزن اليورانيوم ، أى يمكن أن ينعدم جزء من اليورانيوم ويتحول فى النهاية إلى حرارة ، وهذا عين ما يحدث . وليس هو بالعجيب فالمادة صورة من صور الإشعاع أو طاقة الإشعاع المخزونة !

وتحتوى الأوقية الواحدة من اليورانيوم (٢٣٥) على لبنات عددها نحو ٧٢ ألف مليون مليون مليون ذرة ، وعلى ذلك يمكن أن تنتج طاقة قدرها ٦٤٠ ألف كيلو وات ساعة ، أو كمية من طاقة الكهرباء ثمنها ٣٠ ألفاً من الجنيهات ! وهكذا يمكن أن نقدر أو نتخيل الكميات الهائلة من الطاقة التى تنبعث أكداساً فى ثوان من بدء الانفجار وتكون الكرة النارية المتوهجة ، وكيف أنها يمكن فى لحظات أن تصل درجة حرارتها إلى مئات

الألوف ، وذلك قبل أن تختلط بمواد الأرض التى يثيرها الانفجار . ولا تبقى الموجة الحرارية من حول الانفجار على شيء فى دائرة نصف قطرها نحو كيلومتر ، ويقل هذا التأثير بالبعد عن مركز الانفجار ، وقد تتحول الأجسام القريبة أو الداخلة فى نطاق تلك الدائرة إلى سراب . . . بل إلى إشعاعات تنطلق ، كلها أو بعضها، فى أرجاء الكون الفسيح بسرعة الضوء وكأنها لم تعرف عالم المادة من قبل !!

وبرغم هذه المساوئ العظيمة والأضرار الفادحة التى كشفنا عنها ، فإننا لا نتردد فى أن نعرض جانباً مما قد تزودنا به التجارب الذرية من الفوائد والمزايا ليقف القارئ على جلية الأمر ويحكم بنفسه ، مثل :

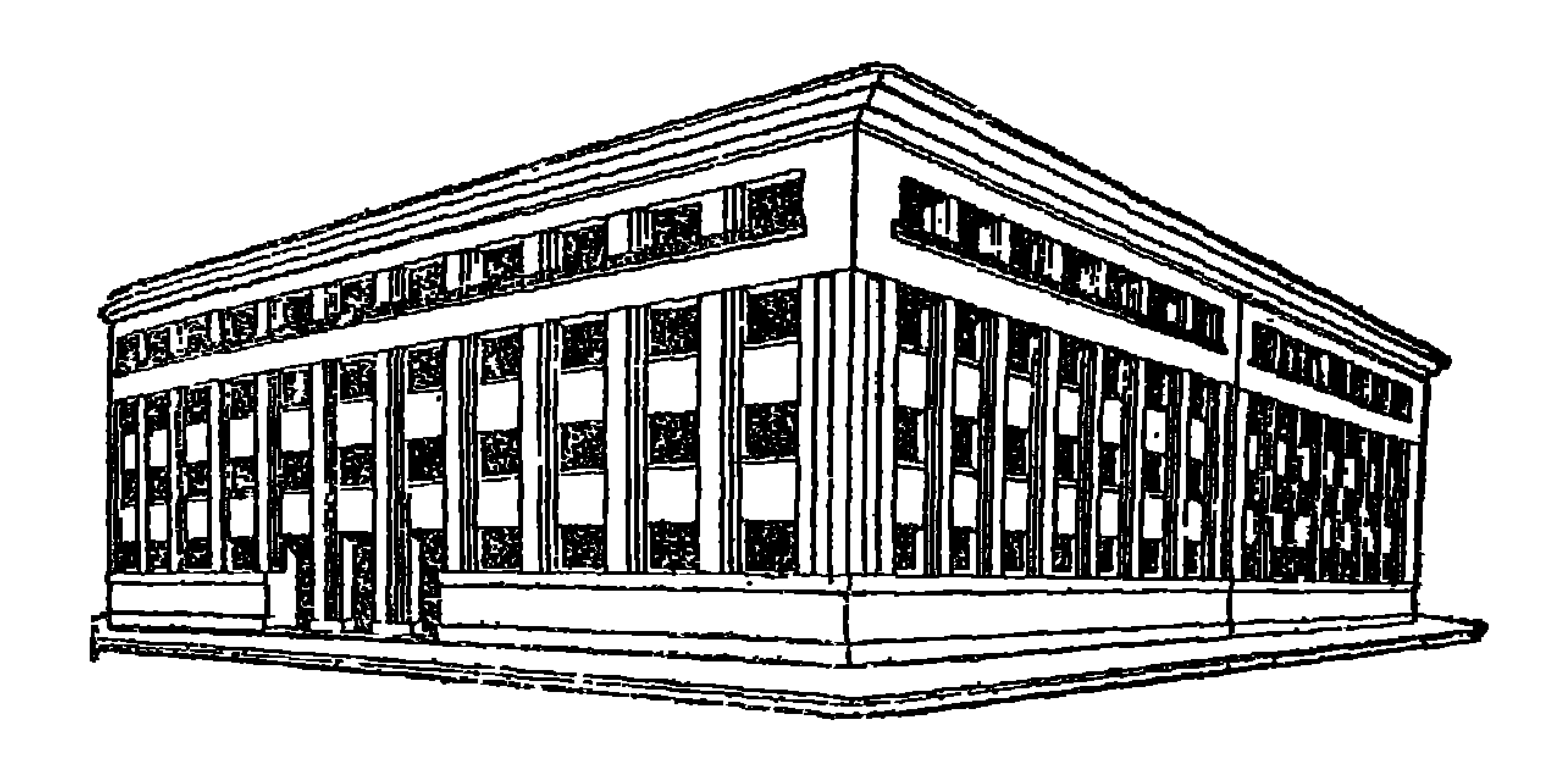
١ ــ قد تساعد التفجيرات النووية التى تجرى تحت الأرض بمسافات كافية على تحديد تركيب الأرض الداخلى ، وهذه فائدة علمية بحتة .

٢ ــ إمكان استخدام التفجيرات النووية فى إزالة بعض الجبال أو فى حفر البحيرات ونحوها مما قد يفيد البشر فى أمور انتقالهم ومعاشهم .

٣ ــ خزن الحرارة المتولدة من الانفجارات النووية داخل صخور القشرة الأرضية التى يتم فيها الانفجار ، ثم الاستفادة منها عن طريق إيصال المياه إليها لإنتاج البخار اللازم لتوليد الكهرباء ، وهذه ناحية اقتصادية لا بأس بها إذا أمكن توفيرها حقًا ، وخصوصاً إذا تحقق حلم تفجير القنابل الذرية النظيفة !

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجّه إلى الأفراد والجماعات . بل هو خير ما وجّه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن .
- السلسلة الشهرية الوحيدة التى تعمل منذ أكثر من خمس عشرة سنة على جعل الثقافة فى متناول الجميع .
- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة . فى كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء .



دار المعارف للطباعة والنشر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠ ــ ٥ شارع مسبيرو بالقاهرة

تليفون ٤٩٨٦٨ ــ س. ت ٥٢١٢١

تعمل على رفع مستوى الكتاب العربى

وتعنى بنشر الجيد النافع من الكتب

